روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

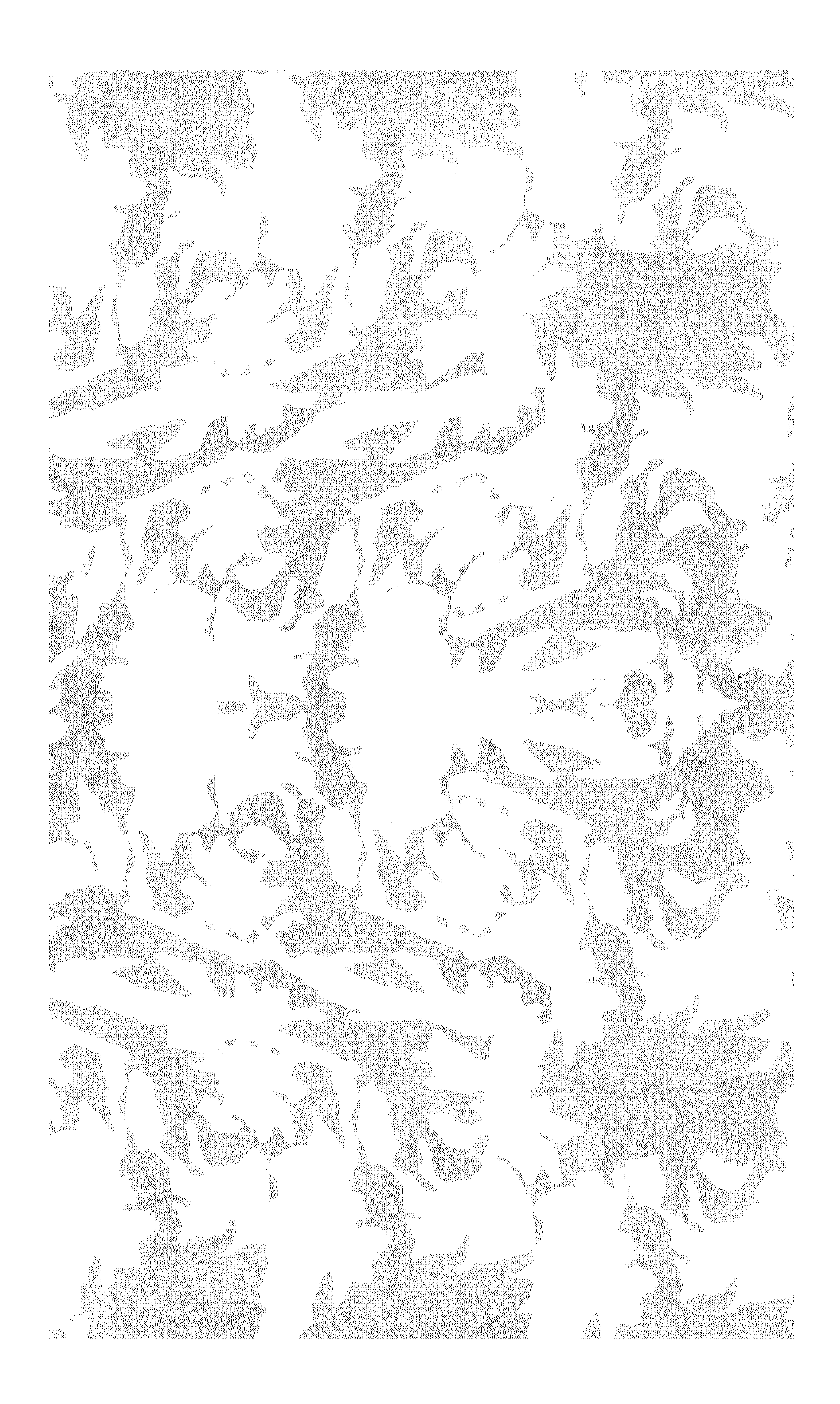
ڤيكتور هيجو

عمّال البحر



نقلها إلى العربية رمضان لاوند





فكتور هيغو

عُمّال البَحر

فكتور هيغو

عُمّال البحر

نقله إلى العربية

رمضان لاوند

لقد تمّت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة
لتصدر في هذه الطبعة الأنيقة، كطبعة تذكارية لذكرى
الأستاذ الكبير منير البعلبكي

سنة الطبع: 2007

إصدار

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

بيروت ـــ لبنان،

شارع مار إلياس - بناية متكو - ص2

ص. ب: 1085 بيروت - 2045 8402 لبنان

هاتف: 306666 - 701656 (1-00961)

فاكس: 701657 (1-00961)

الموقع على شبكة الإنترنت:

http://www.malayin.com

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب.: 4006 (سيدنا)

هاتف: 2303339-2-212+

فاكس: 2305726-2-212+

E-mail: markaz@wabadoo.net.ma

بيروت: شارع جاندارك - بناية المقدسي

ص.ب: 5158/ 113

هاتف: 352826 (1-00961)

فاكس: 343701 (1-00961)

القسم الأول

السيّد كلوبان

الكتاب الأول

ممَّ تتألف الشّمعة الرديئة

1

كلمة مكتوبة على صفحة بيضاء

كان عيد الميلاد 1802 رائعاً في غرناسي. لقد أمطرت السماء ثلجاً في ذلك اليوم. وفصل الشتاء حين يثلج في جزر المانش ويتحوّل جليداً هو ذكرى من الذكريات الباقية. فالجليد هناك حادث كبير.

كانت الطريق التي تمتد عبر شاطئ البحر، في صباح ذلك العيد، من سان - بيار - بور في الغال خالصة البياض. لقد كان الثلج ينهمر منذ منتصف الليل حتى الفجر.

وكاد الشارع أن يكون خالياً من المارّة تقريباً، بُعيد طلوع الشمس، حول الساعة التاسعة صباحاً، ولأن وقت توجّه الأنجليكان إلى كنسية سان سامبسون، وتوجّه الوِلْسايان إلى كنسية إلداد لم يحن بعد. وفي القطاع من الشارع الذي يفصل البرج الأول عن البرج الثاني، لم يكن غير ثلاثة من المارّة، طفل ورجل وامرأة، كانوا يسيرون متباعدين ولا يبدو أن أية رابطة تربط بينهم. أما الطفل فقد وقف ينظر بفضول إلى الثلج. وأما الرجل فقد كان يتبع المرأة على

بُعد مئة خطوة منها، ويسير مثلها في اتجاه سان - سامبسون.

كان الرجل، وهو في مرحلة الشباب، يبدو شيئاً أقرب إلى العامل أو البحّار. وكان يحمل ثيابه اليومية، دراعة من الجوخ الأسمر الغليظ وسروالاً ذا ساقين مغبَّرتين، وفي ذلك دلالة على أنه لم يكن يقصد أية كنيسة، رغم العيد. أما حذاءاه الغليظان المصنوعان من الجلد الخام، فقد كانا يتركان في الثلج أثراً يبدو أقرب إلى قفل سجن منه إلى قدم رجل.

وأما المرأة التي كانت تجتاز الطريق فقد كانت ذات زينة كنسية بالطبع. كانت تلبس رداء فضفاضاً عارياً من كمّيه، ومضرّباً بحرير خشن أسود يعلو ثوباً أنيقاً محكم التفصيل من البوبلين الإيرلندي. ولولا أنها كانت تلبس جورباً أحمر اللون لظنّ الرائي أنّها من بنات باريس. لقد كانت تتقدّم بحيوية حرة خفيفة، وبخطى لم تتّسم بعد بسمة خاصة من الحياة. وكان يبدو أنها فتاة عذراء. وكان لها هذا الظرف الهَروب لقوام يمثّل مرحلة المراهقة، التي هي آنقُ مراحل الانتقال، غسقان ممتزجان، بداية امرأة في نهاية طفل.

وفجأة التفتت الفتاة إلى الوراء، في حركة جعلت الرجل ينظر إليها، وذلك قريباً من مجموعة من السنديانات الخضراء قائمة عند زاوية حديقة ريفية في مكان يسمى «البيوت المنخفضة». ووقفت الفتاة، ثم بدت وكأنها تثبت فيه نظرها لبرهة من الزمن، ثم انحنت، وظنّ الرجل أنها كانت تكتب شيئاً ببنانها فوق صفحة الثلج. ثم نهضت، وتابعت سيرها ضاحكة في هذه المرة، واختفت إلى يسار الشارع، في الطريق المحاطة بسياج من الأشواك، التي تقود السائر إلى قصر «ليارْ». أما الرجل فإنه قد عرف فيها، حين التفتت إلى الوراء للمرة الثانية، داروشات، فتاة البلدة الجميلة.

والواقع أنه لم يشعر بأية حاجة إلى العجلة، ووجد نفسه بعد

قليل أمام مجموعة السنديانات الصغيرة عند زاوية الحديقة الريفية. وكان من المحتمل في هذه الدقيقة بالذات، أن يجتاز الطريق ويتابع سيره، لولا أن خنزيراً بحرياً قد قفز أمامه في ماء البحر أو أن أبا الحنّاء قد طار فجأة من دغل بالقرب منه، وعيناه مثبّتتان في واحد منهما. ولكن المصادفة قضت أن يكون جفناه منخفضين، ليسقط نظره بصورة آليّة، في المكان الذي كانت الفتاة قد وقفت عنده. كان هناك أثران لقدمين صغيرتين كتبت بالقرب منهما كلمة: جيليات.

وكان يدعى هو جيليات.

ووقف طويلاً بدون حراك، ينظر إلى هذا الاسم، وإلى أثر القدمين وإلى الثلج، ثم تابع سيره، غارقاً في تفكيره.

2

«لو بو دو لارو»

كان جيليات يسكن في خورنية(*) سان - سامبسون. ولم يكن فيها محبوباً. وكانت لذلك أسباب.

السبب الأول أن منزله كان «مسكوناً». وقد يحدث في بعض الأوقات، في حرسا أوغرناسي، في الريف، أو في المدينة، أن تلتقي وأنت تجتاز زاوية ما من الزوايا الخالية، وتسير في شارع غاص بالسكان، منزلاً وضعت عند مدخله عوارض ومتاريس، وألصقت بنافذته ألواح خشبية كريهة بمسامير في الطابق الأرضي منه، بينا نوافذ الطوابق العليا بين مغلقة ومفتوحة. فإذا كان لهذا المنزل فناء خارجي

(*) خورنية: أي رعية كنيسة في حي أو قرية يرعاها خوري.

فإن العشب ينبت فيه، ويكون سياجه في حالة انهيار وتصدّع، وحديقته مجموعة من القُرّاص، والأشواك، والشوكران السام. وفي وسع الناظر أن يراقب فيها الحشرات النادرة. أما المداخن فهي منبعجة، والسقف منهار، وفي خشب الفرن عفونة. وتُرى في الجدران أوراق منفصلة عنها بعد التصاق. وتثير ثخانة الأقمشة الممتلئة بالذباب إلى السّلْم العميق الذي يستمتع به العنكبوت. وقد يلاحظ في بعض الأوقات إناء مكسور فوق لوح من الخشب. هذا منزل «مسكون» تأتي إليه الجنّ في جنح الليل.

إن المنزل كالإنسان يستطيع أن يصبح جثّة هامدة، حين تقتله أسطورة من الأساطير. وهنا يبدو المنزل رهيباً.

ولسكان المانش، الأرخبيل الإنكليزي والأرض الفرنسية، مفاهيم دقيقة عن مكان الجنّ. إن للجنّ رُسُلاً في كل مكان من الأرض. والثابت أن بلغاغور هو سفير جهنم في فرنسا، وتجان هو سفيرها في إيطاليا، وباليال في تركيا، وتاموز في إسبانيا، ومارتينه في سويسرا، ومامون في بريطانيا. أما الشيطان فهو إمبراطور كأي إمبراطور آخر. قيصر الشيطان. منزله محكم الصنع، وداغون هو خباز كبير، وسوكّور بانوث هو زعيم الخصيان، وأشْمُودَهْ هو صاحب صندوق القمار، وكويال هو مدير المسرح، أما فردوله، فهو رئيس التشريفات، ونيباس هو مضحك القصر. ثم وِيّاروُس، العالم بأحداث الجنّ، وهو يسمى نيباس «المحرّف الساخر الكبير».

والصيادون النورمانديون في المانش، يتّخذون لأنفسهم الاحتياطات اللازمة عندما يكونون في البحر بسبب الخيالات والأوهام التي يصنعها الشيطان. لقد ظُن طويلاً، أن القدّيس ماكلو كان يسكن الصخرة المربعة الكبيرة أورتاخ، والقائمة في وسط البحر بين أورِينْيِي والكاسْكهْ، وكثير من البحّارة القدماء كانوا يؤكّدون رؤيتهم له في

الغالب من بعيد، جالساً يقرأ في كتاب. وكذلك المارّة من البحّارة فإنهم كانوا يركعون أمام الصخرة أورتاخ حتى اليوم الذي اختفت فيه الأسطورة لتحلّ محلّها الحقيقة. لقد اكتشف، أن الشيطان أوْكْمُوس هو الذي يسكن الصخرة أورتاخ لا قدّيس من القدّيسين. وإن له من خبثه ما جعله يبدو عبر قرونٍ كثيرة على صورة القدّيس ماكْلُوْ. على أن الكنيسة نفسها قد سقطت في هذه الأخطاء. لقد كان الشياطين: راغوهال، أوريبال، وتوبيال قدّيسين حتى عام 745 حيث استطاع البابا زخريا، أن يتشمّمهم ثم يطردهم بعيداً عن موكب القدّيسين.

ويقصّ شيخ المنطقة، أن الشعب الكاثوليكي للأرخبيل النورماندي قد كان، رغم أنفه، أشدّ اتصالاً بالشيطان من شعب الهوغونوت. أما السبب فنحن نجهله. والثابت، هو أن هذه الأقليّة قد كانت ضيّقة الصدر جداً بالشيطان. لقد كان يمنح عطفه إلى الكاثوليكيين، ويحاول الإكثار من زيارتهم، مما كان يبعث على الاعتقاد بأن الشيطان هو كاثوليكي أكثر منه بروتستانتي. وقد كان من اختلاطه، المزعج غير المحتمل، أنه كان يقوم بزيارات ليلية للأسرة الزوجية الكاثوليكية، بينما يكون الزوج غارقاً في نومه، والزوجة متردّدة بين اليقظة والنوم. من هنا كانت أخطاء، لقد كان بانْوِيّه يعتقد أن فولتير قد ولد على هذه الطريقة. وفي هذا الاعتقاد ما لا يستحيل تحقّقه. على أن هذه الظاهرة معروفة تماماً. وقد شاعت بصورة خاصة في سانت هِيْلْيَه حول أواخر القرن الماضي، ويحتمل أن يكون سبب ذلك هي جرائم الثورة. ومهما يكن الأمر، فإن انبعاث الشيطان المحتمل، أثناء الليل، وعند النوم، كان يضايق النساء الأرثوذكسيات مضايقة شديدة. فإنجاب ولد كفولتير لا يبعث على الارتياح أبداً. وقد استشارت إحداهنّ كاهنها، وهي بالغة القلق، في الوسيلة التي تبدّد بها هذا الوهم في الوقت المناسب. فأجاب الكاهن: «ضعي يدكِ على الجبين لكي تتأكدي مما إذا كنت متصلة بالشيطان أو بزوجك، فإذا

وجدتِ قروناً، فأنتِ واثقة. . .» فسألت المرأة: «مماذا يا سيّدي؟».

إن المنزل الذي يقطنه جيليات كان «مسكوناً» ثم لم يعد بعد ذلك. ولكنه مع هذا أدعى إلى الشبهة. . . فلا أحد يجهل أن الشيطان يعتبر المنزل في يد أمينة، حين يسكنه ساحر، ولذلك فإنه يتلطّف بعدم العودة إليه إلا أن يدعى لزيارته، شأن كل طبيب.

أما المنزل فقد كان يدعى «الوبو دي لارو». وهو قائم عند رأس صخرة يبتلّ طرفها بماء خليج هُوْمَه بارادي، الصغير. والمنزل وحيد عند الرأس وكأنه خارج الجزيرة تقريباً، مع ما يكفيه من الأرض لحديقة صغيرة. كان المدّ العالي يغمر أرض الحديقة في بعض الأوقات، وبين مرفأ سان - سامبسون وخليج هُومَه بَارادي الصغير ترتفع تلّة غليظة تعلوها كتلة من الأبراج واللبلاب تدعى قصر الفال أو الأرشانج، بحيث أن «الوبودولارو» لم يكن يرى من مرفأ سان سامبسون.

لم يكن ما هو أشدّ ندرة من ساحر غرناسي. فالسحرة يمارسون مهنتهم في بعض الخورنيات، والقرن التاسع عشر يقف مكتوف اليدين. إن لهم إجراءات إجرامية حقيقية. إنهم يَغْلُون الذهب. ويقطفون عشباً في منتصف الليل. وينظرون إلى ماشية الآخرين شزراً. إنهم يستشارون، فيكلفون من يأتيهم بـ«ماء المرضى» في القناني، ويُسمعون وهم يقولون بصوت منخفض: «يبدو الماء حزيناً جداً». وقد وجد أحدهم يوماً، في شهر آذار من عام 1856، في «ماء» أحد المرضى سبع شياطين. إنهم رهيبون. وقد سحر أحدهم حديثاً خبازاً، وفرنه أيضاً. وكان من خبث آخر أنه ختم مغلّفات «خالية» بعناية بالغة. وأن آخر قد أغرق في سحره حتى أنه حَوى في منزله فوق لوح خشبي ثلاث زجاجات ملصقة على كلٍّ منها ورقة كُتِبَ عليها حرف «ب». وهناك بعض السَّحَرة اللُطفاء الذين يأخذون أمراضك مقابل

جنيهين أو ثلاثة فقط. وهنا يتدحرجون على سريرهم وهم يرسلون صرخات شديدة. وتقول أنت، في الوقت الذي يتمزّقون فيه: «ها أنا قد شفيت. لم يعد بي شيء أبداً». وآخرون يشفونك من كل الأوجاع بِعَقْدِ منديلٍ حول جسدك. وهي وسيلة بالغة البساطة بحيث أننا ندهش من أن أحداً لم يلاحظ شيئاً. وفي القرن الأخير، كان القضاء الملكي لغرناسي يضعهم فوق كومة من الحطب ويحرقهم أحياء. أما اليوم فإنه يقضي بسجنهم ثمانية أسابيع، أربعة منها بالخبز والماء، وأربعة بالتناوب بينهما سراً.

لقد كانت آخر عملية إحراق في غرناسي عام 1747. وقد استعملت المدينة لذلك مفرق إحدى ساحاتها، أي مفرق بورداج، الذي شهد حريق أحد عشر ساحراً منذ عام 1565 حتى عام 1700 كان هؤلاء المجرمون يعترفون بجريمتهم بصورة عامة عن طريق التعذيب. وقد أدى مفرق بورداج خدمات أخرى للمجتمع وللدين. لقد أحرق فيه هراطقة، منهم أم تدعى بَروتِين ماسّي وبنتاها، وكانت إحدى الفتاتين حاملاً. وقد وضعت حملها فوق جمر المحرقة. وتقول الرواية: «إن بطنها قد انفجرت». خرج من هذه البطن طفل حي، ثم تدحرج الطفل خارج الأتون الملتهب، فالتقطه المدعو هوس. ولكن القاضي الكاثوليكي الصالح هَالْيَهْ غوْسّلان قذف بالطفل ثانية إلى النار.

3

من أجل امرأتك يوم ستتزوج

لنعد إلى جيليات.

يقال في البلاد إن امرأة تحمل طفلاً صغيراً، قد أتت في أواخر

الثورة لتسكن في غرناسي. وكان لهم اسم من الأسماء جعله التعبير الغرناسي، والخطّ الفلاّحي، جيليات. وكانت تعيش وحيدة مع هذا الطفل، الذي كان ابن أخيها، كما يقول البعض، وابنها كما يقول البعض الآخر، وحفيداً على ما يقول فريق ثالث. وكانت تملك قليلاً من المال، فاشترت جانباً من حقل في «السّرجَانْتا»، وقطعة أخرى في «روك كرسْبَال» قريباً من «الروكان». أما منزل «البودولارو» فقد كان «مسكوناً» آنذاك بعد أن خلا من سكّانه منذ ثلاثين عاماً. أما حديقته فلم تكن تنتج شيئاً. وبالإضافة إلى الصخب الليلي وألسنة اللهب، كان هذا المنزل يتميّز بشيء آخر مخيف، هو أنك لو تركت فوق المدفأة عند المساء لفيفة من الصوف، وإبراً، وصحناً مملوءاً بالشورباء، لتبين لك في صباح اليوم التالي أن الشورباء قد أُكلت، وأن الصحن خالٍ من إدامه، وأن زوجاً من قفّاز لا أصابع له قد غزل. كان هذا المنزل الخرب معروضاً للبيع مع شيطانه الذي يسكنه مقابل بضع ليرات استرلينية. وقد اشترته هذه المرأة، منجذبة بالطبع بالشيطان الذي يسكنه، أو بثمنه القليل.

وهي لم تكتفِ بشرائه، بل سكنت فيه أيضاً، هي والطفل الذي كان يرافقها، ومنذ تلك الفترة سكن وهدأ وانقطعت بدوات الشيطان فيه. نعم، إن أحداً لم يعد يسمع صراخات الفجر المبكّر. ولم تعد ترى ألسنة اللهيب، اللهمّ غير شعاعات الشمع الشحمي الذي كانت تشعله هذه المرأة الطيبة. إن شمعة الساحرة تعادل مشعل الشيطان. وقد وجد هذا التفسير عند الجمهور تجاوباً ورضا.

كانت هذه المرأة تستغل شجيرات في الأرض التي تملكها. وكانت لها بقرة طيبة ذات زبد أصفر. كانت تحصد زرعها ذا الرؤوس الضخمة وحبّات من البطاطس «غُولدن دروبس». ثم تبيع، ككل امرأة أخرى، «الجَزَر الأبيض بالبرميل، ورؤوس البصل بالمئة، والفول

بمكيال خاص». كانت لا تذهب إلى السوق، بل تبيع محصولها بواسطة جيلبرت فايو، في سان سامبسون. وقد أثبت سجل فايو أنه باع مرة لحسابها اثني عشر صاعاً[1] من البطاطس.

أما المنزل فقد أدخلت عليه إصلاحات متواضعة تسمح بالسكن فيه. وكان يتألف من طابق أرضي ومن هُرْيٍ[2] واحد. أما الطابق الأرضي فكان مؤلفاً من ثلاث غرف، اثنتان للنوم، وثالثة لتناول الطعام. وكانت المرأة تطهو طعامها في الوقت الذي تعلّم فيه طفلها القراءة. إنها لم تكن تذهب إلى الكنائس، مما جعلها في نظر الجميع فرنسية. فالامتناع عن زيارة أي مكان هو شيء كبير وخطير.

نعم، من المحتمل أن تكون هذه المرأة فرنسية. فالبراكين تقذف حجارة، والثورات تقذف رجالاً. هناك عائلات كثيرة قد قذف بها إلى مسافات بعيدة، وجماعات كثيرة قد تفرّقت وتمزّقت وتفتّتت، فهؤلاء في ألمانيا، وأولئك في بريطانيا، وآخرون في أميركا. لقد أدهشوا سكّان البلاد الأصليين. فمن أين أتى هؤلاء المجهولون؟ إن هذا «الفيزوف»[3] الذي يرسل دخانه هناك هو الذي نفثهم. وقد أطلقت أسماء خاصة على هذه الرّجُم، على أولئك الأفراد المبعدين والضائعين، وطريدي القدر البائسين، لقد سمّاهم الناس، مغتربين، ولاجئين، ومغامرين. وقد يكون هؤلاء المبعدون أناساً مسالمين أبرياء وغرباء عن الأحداث التي قذفت بهم إلى ديار الغربة، النسوة منهم على الأقل. وهم يحاولون أن تسيخ لهم جذور في الأرض كما يستطيعون. لذلك لم يكونوا يسيئون إلى أحد أبداً كما لا يعون حقيقة ما نزل بهم من السوء.

---

(1) الصاع: مكيال سعته 13 لتراً.

(2) الهري: ج: أهراء. وهو مستودع الحبوب.

(3) اسم لبركان مشهور.

وقد تكون المرأة التي أطلق عليها في غرناسي اسم جيليات، واحدة من هؤلاء.

وأصبحت المرأة عجوزاً، ونما الطفل وترعرع. وكانا يعيشان وحيدين، مبعدين. ذئبة وذُؤَيِّب يتلاحسان. هذه عبارة من العبارات التي كانت تطلقها عليهما البيئة التي كانت تحيط بهما آنذاك. وأصبح الطفل مراهقاً، والمراهق رجلاً. وبما أن القشور القديمة ساقطة يوماً وأبداً، فقد ماتت الأم، وتركت له حقل «السرجانتا» وأرض «لا روك-كرسبال»، ومنزل «البو دو لارو» ثم مئة من الجنيهات الذهبية في قدم جورب من الجوارب. أما المنزل فقد كان مؤثثاً بخزانتين من خشب السنديان، وبسريرين، وستة مقاعد، ومنضدة، مع ما يجب من الآنية. وكان عدد من الكتب فوق لوح من الخشب، وحقيبة لا تبدو خفية، في زاوية من الزوايا، وجب فتحها لتسجيل محتوياتها. وقد صنعت هذه الحقيبة من جلد أشقر، زيّنته مسامير من النحاس ونجوم من القصدير. وكانت تحتوي على جهاز امرأة جديد وقمصان وتنانير، بالإضافة إلى قطع من الحرير، بينها ورقة كتب عليها بخط المتوفاة: من أجل امرأتك يوم ستتزوج.

لقد كانت هذه الميتة، بالنسبة إلى الشاب نازلة شديدة. لقد كان متوحشاً، فأصبحت وحشته قاسية. وتكاملت صحراء العزلة والفراغ من حوله. فالحياة محتملة ما دمنا اثنتين. فإذا أصبحت وحيداً بدا لي أن متابعة الحياة شيء غير ممكن ولا محتمل. وهنا يحدث الاستسلام. وهو أول شكل من أشكال اليأس. ثم يفهم المرء بعد ذلك أن الواجب هو سلسلة من عمليات الاستسلام وقبول الواقع. إنه ينظر إلى الموت، ثم ينظر إلى الحياة، ثم يعلن موافقته.

أما وجيليات شاب حديث السن، فقد اندمل جرحه. وأما حزنه الذي امّحى شيئاً فشيئاً، فقد امتزج بالطبيعة من حوله، وبدا فيها نوعاً

من الجاذبية التي تشدّه إلى الأشياء بعيداً عن الرجال، ثمَ أحاط هذه الروح بالوحدة شيئاً فشيئاً.

4

غربة

قلنا: إن جيليات لم يكن محبوباً بين سكّان الخورنية. ولا شيء أكثر طبعيّة من مثل هذا النفور. فالأسباب الموجبة إليه كثيرة جداً. وأولها، كما شرحنا ذلك آنفاً، هو المنزل الذي كان يسكنه. ثم أصله الذي ينتمي إليه. ماذا كانت هذه المرأة؟ ولِمَ هذا الطفل؟ إن أهالي البلاد لا يحبّون الأغراب الذين تحيط بهم الأسرار الخفيّة. وكذلك ثيابه، التي كانت ثياب عامل، بينما كان في وسعه، رغم أنه لم يكن غنياً، أن يعيش دون أن يعمل شيئاً. ثم حديقته، التي كان ينجح في حرثها واستنبات حبّات البطاطا من أرضها رغم ضربات مياه البحر لها. ثم، الكتب الكبيرة الموضوعة فوق لوح الخشب، والتي كان يقرأها.

وهناك أسباب أخرى أيضاً.

فكيف يستطيع أن يعيش وحيداً؟؟ لقد كان «البو دو لارو» نوعاً من محجر صحي. كان جيليات يقدّر في الأربعين من عمره، ولذلك فقد كان من البساطة بمكان أن يندهش الجميع من عزلته، وأن يعتبروه مسؤولاً عن الوحدة التي كانوا يحيطونه بها.

إنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة أبداً. وكان يخرج في الليل غالباً. ويتحدث إلى السَّحَرة. لقد شوهد يوماً جالساً فوق العشب على هيئة المشدوه. لقد كان يسكن الحجارة الشيطانية المنتشرة في الريف هنا وهناك. والجميع يتناقلون واثقين أنهم قد رأوه يحيِّي الصخرة التي

تغني. وكان يشتري كل الطيور التي تحمل إليه ثم يطلق سراحها. لقد كان شريفاً بالنسبة إلى البورجوازيين في شارع سان - سامبسون، ولكنه كان يختار اتجاهاً آخر كي لا يمر في هذه الشوارع. وكان يصيد غالباً، ثم يعود دائماً يحمل سمكاً في جعبته. كان يعمل في الحديقة أيام الآحاد. ويملك قربة موسيقية اشتراها من بعض الجنود الأيقوسيين الذين عبروا غرناسي يوماً، ينفخ فيها بين الصخور، عند شاطئ البحر، أمام الليل الهابط. أما حركاته فقد كانت غريبة. فماذا يمكن أن تكون حال بلد مع مثل هذا الرجل؟

أما فيما يتعلق بالكتب، التي ورثها عن المرأة المتوفّاة، والتي كان يقرأ فيها، فقد كانت مصدر قلقٍ شديدٍ. إن عميد سان - سامبسون، جاكمان هارود المحترم، قد قرأ على جلود الكتب، أثناء دخوله إلى المنزل للإشراف على دفن الميتة، العناوين التالية: قاموس روزيا، كانديد، تأليف فولتير، إعلان للشعب عن صحته، تأليف تِيْسّو. وقد قال سيد فرنسي مغترب، ومقيم في غرناس: إن تِيْسّو هذا يجب أن يكون الرجل الذي حمل رأس أميرة لامبال.

أما المحترم فقد لاحظ على كتاب من هذه الكتب عنوان: «دُو رُوْبَار بارو» وهو عنوان يبعث حقاً على التهديد والغلظة.

ومع ذلك، فإن من المشكوك فيه أن يقرأ جيليات هذا الكتاب، وهو المكتوب باللغة اللاتينية، كما يدل إلى ذلك عنوانه.

والواقع أن الكتب التي لا يقرأها الإنسان، هي على التحديد مصدر لاتهامه. إن محاكم التفتيش في إسبانيا قد أصدرت حكمها في هذه القضية ونزعت عنها كلّ لبس أو غموض.

على أن هذا الكتاب لم يكن غير رسالة الدكتور تيلانجيوس عن «الرّوبْارب»، وهي الرسالة التي نشرت في ألمانيا عام 1679.

ولم يكن أحد من الناس واثقاً من أن جيليات لم يكن يقوم

بأعمال التصفية، وشؤون السحر. فقد كانت لديه قناني وأوعية مختلفة.

ويتساءلون عمّا وراء نزهاته المسائية بين الصخور الوعرة، والتي كانت تمتد في بعض المرّات حتى منتصف الليل. وفي مرّة من المرّات ساعد ساحرة تورتافال على إخراج عربتها من الوحل. وهي عجوز تدعى «مُوتُونْ جاهي».

وأجاب يوماً، أثناء إحصاء جرى في الجزيرة، عن سؤال يتعلق بمهنته قائلاً: صياد، حين يكون هناك سمك أصيده. - ضعوا أنفسكم مكان هؤلاء الناس، إن أحداً لا يحب مثل هذا الجواب أبداً.

إن الفقر والغنى يوضعان دائماً موضع المقارنة. وجيليات كان يملك منزلاً وحقولاً، وبمقارنته بمن لا يملكون شيئاً، لم يكن يعتبر فقيراً. وفي يوم من الأيّام، قالت له فتاة، تمتحنه، وقد تكون غايتها التقرّب منه، إذ إن هناك نساء يتزوّجن من الشيطان الغنيّ: متى ستتزوّج؟ فأجاب: سأتزوّج حين تتزوّج الصخرة التي تغني، رجلاً.

إن هذه الصخرة التي تغني، هي عبارة عن حجر مغروس ومنتصب في الوقت نفسه قريباً من السيّد «لومازوريا دو فري». وهذا الحجر موضوع مراقبة شديدة. فلا أحد يعرف ماذا يصنع هناك. والجميع يسمعون عنده نداء ديك خفيّ، كما أنه قد ثبت للجميع بأن الأطياف هي التي وضعت الحجر في المكان الذي تقيم فيه.

وفي وسط الليل، حين تُسمع أصداء الغناء، ويرى رجال طائرون في حمرة الضباب، واضطراب الهواء، يتأكّد أنهم هم أولئك الشياطين. إن امرأة تسكن في «الجراند - ميال» تعرفهم جيّداً. ففي مساء يوم، وبينما كانت هذه الشياطين مجتمعة عند أحد المفارق، صرخت المرأة في سائق عربة قد أضاع طريقه قائلة: اسألها عن

طريقك، إنها مخلوقات لطيفة حسنة، إنها مخلوقات متحضّرة تحسن التحدّث بذلّة وظرف إلى الناس.

لقد كان الملك العادل والعالم جاك الأول يسلق هذا النوع من النساء وهنّ أحياء، ثم يتذوّق بعد ذلك طعم ما سلقه، ويقرر في ضوء الطعم ما إذا كانت هذه المرأة ساحرة أم لا.

والمؤسف أن الملوك العصريين لم يعودوا يملكون مثل هذه المهارة، التي تكشف عن فائدة مثل هذا الأسلوب في العمل.

هكذا كان جيليات يعيش في غمرة رائحة من السحر. وفي أثناء عاصفة شديدة، وقد دقّت ساعة منتصف الليل، سمع جيليات يسأل، وهو في قارب وسط البحر قريباً من «السومايوز»:

- «هل من سبيل للمرور؟».

وينطلق صوت من أعلى الصخور صارخاً:

- «حتى هذا! أيّها الشجاع!».

فمع من كان يتكلّم، إن لم يكن هناك من يجيبه؟

وفي مساء عاصف آخر، اشتدّت فيه الظلمة، وقريباً جداً من «كاتيو روك» الذي هو صفان من الصخور، ينطلق إليه السَّحَرة والمعزى في كل يوم جمعة لممارسة الرقص، خيّل للبعض أنه اكتشف صوت جيليات ممتزجاً بالحادثة الرهيبة التالية:

كيف حال «فيزان بروفار»؟ (لقد كان فيزان هذا بناء سقط من فوق أحد السطوح).

- «إنه حيّ. معافى».

- «عجباً! لقد سقط من مكان أعلى من هذا العمود. وإنه لجميل جداً أن يبقى سليماً معافى».

- «لقد تمتّع الناس بجوٍّ جميل في غمرة مقذوفات البحر خلال الأسبوع الماضي».

- «أكثر من تمتّعهم به اليوم؟».

- «وإذن فلن يكون هناك سمك في السوق أبداً؟».

- «إن الريح تعصف شديدة قاسية».

- «إذن، فلن يعرفوا طعماً للراحة أبداً».

- «كيف حال كاترين؟».

- «إنها سعيدة جداً».

و«كاترين» هي بالطبع واحدة من الأطياف. وهكذا، كان يبدو للجميع، أن جيليات يمارس أعمال الليل الخفيّة والثابت أن أحداً لم يشكّ في ذلك على الأقل. وكان يُرى في بعض الأوقات، يصبّ الماء في الأرض، من قربة يحملها بين يديه. والماء الذي يصبّ في الأرض، يرسم شكل الشياطين.

وفي طريق «سان - سامبسون» توجد ثلاثة أحجار مصفوفة على شكل سلّم. تحمل في أعلاها صليباً، وهي اليوم خالية منه، هذا إذا لم تكن تحمل مشنقة. إن هذه الأحجار خبيثة جداً.

وقد أكّد أناس عقلاء، لا سبيل إلى الشكّ في صدقهم، أنهم شاهدوا جيليات يتحدّث إلى عُلجوم بالقرب من هذه الحجارة. وبما أن غرناسي خالية من العلاجيم، فقد وجب أن يكون هذا العلجوم آتياً من مكان قصيّ سباحة ليتحدّث إلى جيليات. أما المحادثة فقد كانت محادثة وديّة.

هذه الأحداث والوقائع ثابتة، والدليل على ذلك أن الأحجار الثلاثة ما تزال باقية حتى اليوم. وفي وسع من يشكّ في صحة هذه الرواية أن يذهب لرؤيتها. يضاف إلى ذلك، أن منزلاً، غير بعيدٍ

منها، يقرأ على يافطة مركوزة فوق زاوية منه: تاجر ماشية حيّة وميتة، حبال قديمة، حديد، وعظام، حاسم في الدفع وفي المعاملة.

إنّ من يشكّ في حضور هذه الحجارة، وفي وجود هذا البيت، يجب أن يكون ذا نيّة سيّئة. كل هذا كان يسيء إلى جيليات.

إن الجَّهَلة فقط هم الذين يجهلون أن أعظم خطر في بحار المانش، هو ملك «الأوكسكرينية». فلا شخصية بحرية أشدّ منه رهبة ومهابة. إنه قصير، باعتباره قزماً، وأصمّ باعتباره ملكاً. وهو يعرف أسماء جميع الذين ماتوا غرقاً في البحر والأمكنة التي غرقوا فيها. ورأسه غليظة من أدنى وضيّقة من أعلى، أما جسده فقصير غليظ، وفي جمجمته عُقَد كثيرة. وكان له ساقان قصيرتان، وذراعان طويلتان. قدمان زعنفتان له، ويداه براثن، ووجهه عريض أخضر، هذا هو الملك. لنتخيّل سمكة على صورة طيف لها وجه رجل. والتخلُّص منها يفرض علينا أن نعيدها أو نرقيها ونعزم عليها. وبانتظار ذلك تبدو مخيفة ورهيبة. إنه لا شيء أبعث على القلق من رؤيتها. وترى فوق أمواج البحر المتداخلة، ووراء أغشية الضباب الغليظ، قسمات وخطوط لكائنٍ حيٍّ، جبهة منخفضة، وأنف أفطس وأذنان مسطّحتان، وفم ضائع الحدود لا أسنان له فيه، وفرجة فم خضراء، وحاجبان كأنهما جسران غليظان، وعينان كبيرتان فرحتان. فهو أحمر اللون حين يكون البرق أزرق ضارباً إلى السواد، وهو باهت اللون، حين يكون البرق أرجوانياً. إن له لحية متسيّبة وقاسية تمتدّ على صورة مربّع، فوق غضروف على شكل «شال» نسائي كبير، وهو غضروف تزيّنه أربع عشرة محارة، سبع منها إلى الأمام وسبع إلى الوراء.

وملك «الأوكسكرينية» لا يُرى إلا في البحر العاصف الهائج. فهو مهرّج العاصفة الرهيب. سُرّته قبيحة شوهاء، وتغطّي خاصرتَيْه دُروع من الفلوس القشرية، كما لو أنها صَدرية محكمة. وهو ينتصب

واقفاً فوق الأمواج المتدحرجة التي تنبثق تحت ضغط الرِّياح الهابّة ثم تتلوى كما تتلوى النُجارة الخارجة من مِنْجَر النجّار. إنه يقف بعيداً عن الزبد. وإذا كانت في الأفق سفن معرضة لكارثة، فإنه يرقص. إن هذا هو لقاء خبيث. وفي الفترة التي كان فيها جيليات شغْل الناس الشاغل في سان – سامبسون، زعم آخر من قيِّضت لهم مشاهدة ملك «الأوكسكرينية» أن المحارات على «شاله» النسوي قد أصبحت ثلاث عشرة محارة فقط. ثلاث عشرة ومع ذلك فقد كان هذا الملك أشدّ خطراً من ذي قبل. ولكن، ما هو مصير المحارة الرابعة عشرة، هل أعطاها إلى أحدٍ من المخلوقات؟ وإلى مَنْ أعطاها؟ لا أحد يستطيع أن يعلم ذلك. ولكن الثابت، ان السيّد «لوبان مابيا» من «الغردان»، وهو ملاك كبير، كان مستعداً دائماً لأن يحلف يميناً مغلظة بأنه قد رأى يوماً بين يدي جيليات محارة فريدة الشكل والهيئة.

ولم يكن من النادر سماع مثل هذه المحادثة التالية بين فلاحين:

– «ألست أملك ثوراً جميلاً، يا جاري؟».

– «لقد نفختني، أيّها الجار العزيز... ».

– «ومع ذلك، فإن ما أقوله صحيح! ».

– «إنه أصلح لأن يكون شحماً للإنارة منه لحماً».

– «هذا عجب عُجاب! ».

– «هل أنت متأكد من أن جيليات لم ينظر إليه؟».

وكان جيليات يقف عند أطراف الحقول قريباً من الفلاحين أو عند أطراف الحدائق قريباً من العاملين فيها، وقد يقول لهم أقوالاً خفيّة وغريبة:

– «عندما تزهر زهرة الجرب، احصدوا شيلمكم الشتوي».

– «إذا أورق الدردار لن يتجمّد أبداً».

- «ميلان الشمس الصيفي الأعظم، هو شوك الجمال المزهر».

- «إذا لم تمطر في حزيران، اتخذ القمح لوناً أبيض. وعليكم أن تخافوا من اللون المبرقش».

- «إذا تدلّت عناقيد الكرز البريّ، احذروا القمر عند اكتماله».

- «إذا اتّخذ الوقت، في يوم القمر السادس، صورة الوقت في يوم القمر الرابع أو الخامس، فإنه سيتّخذ مثل هذه الصورة 9 مرّات على 12 في الحالة الأولى و11 مرة على 12 في الحالة الثانية، أثناء الشهر القمري كلّه».

- «لتكن أنظاركم موجّهة إلى الجيران الذين تقاضونهم أو يقاضونكم. احذروا من الخبائث. إن الخنزير الذي يُسقى حليباً ساخناً، يموت. والبقرة التي تفرك أسنانها بثمر البيلسان، لا تأكل بعد ذلك أبداً».

- «إذا ظهرت الضفدعة، ازرع البطيخ الأصفر».

- «أما إذا أزهر الشقّار الكبديّ، فازرع الشعير».

- «وإن أزهر الزيزفون احرث الحقول».

- «أما إذا أزهر شجر البوقيصا، فامدد أغطية السفن الواقية من المطر».

- «وإذا أزهر التبغ، فاغلق الغرف الزجاجية المصنوعة لاستنبات النباتات الحارة».

والشيء المخيف حقاً، أن العمل بنصائحه، مفيد ونافع جداً.

وقد لوحظ أن سمك «الماكيرو» قد اختفى حين جلس في ليلةٍ من ليالي حزيران ينفخ في قربته الموسيقية فوق مرتفع من رمال الشاطئ وقريباً من «دومي دو فونتانال».

وفي إحدى الأمسيات، والجَزْر في تمامه، أفرغت إحدى

العربات مقذوفات بحرية فوق الحصى المنتشر أمام منزله. ومن المحتمل أنه خاف أن يحوّل إلى العدالة، ولذلك جهِد كثيراً في رفع العربة وملئها بما أفرغته مرة أخرى.

وكان جيليات قد توجّه إلى سان بيار بور، ثم عاد من حيث أتى وهو يحمل مرهماً، دهن به جسد طفلة صغيرة من بنات الجيران كانت تحمل شيئاً خاصاً بين يديها، وقد انتزع هذا الشيء منها، مما يثبت أنه هو الذي أعطاها إياه.

والكلّ يعلم أن في تقديم هذا الشيء الخاص إلى الآخرين شيئاً من السِّحر.

وكان جيليات يمرّ فينظر إلى الآبار. وهو عمل خطر حين تكون النظرة خبيثة. يثبت ذلك أن ماء إحدى الآبار في «أركولون» قد أصبح فاسد الطعم مضرًّا. وقد قالت صاحبة البئر لجيليات: انظر إلى هذا الماء. وأبرزت له كوباً مملوءة منه. فاعترف جيليات قائلاً: هذا صحيح، إن الماء ثقيل غليظ. فقالت له المرأة الطيّبة: إذن فاشف لي إياه. فوجّه جيليات إليها الأسئلة التالية: هل لها زريبة؟ وهل لهذه الزريبة ميزاب؟ وهل أن ماء الميزاب يمرّ بالقرب من البئر؟ فأجابت المرأة الطيّبة بالإيجاب. ودخل جيليات إلى الزريبة وعمل في الميزاب، ثم حوّل مجراه، فاستعاد ماء البئر خفّته ونظافته. وفي هذه البلاد يفكر الناس كما يشاؤون. ويرون أنه من الصعب الاعتقاد بأن جيليات لم يتلاعب بأقدار هذا الماء.

وقد لوحظ مرّة أنه قد اختار لسكناه، يوم ذهب إلى جرسي، شارع «اللور». و«اللور» هم شياطين الليل.

وقد جرت العادة في القرى، أن تجمع للإنسان آثاره، ثم تقارب هذه الآثار بعضها من البعض الآخر، والمجموع يصنع لهذا الإنسان سمعته.

لقد حدث يوماً أن نزف أنف جيليات. فبدا ذلك شيئاً خطيراً. وأكّد ربّان إحدى السفن الصغيرة، وهو رجل كثير السفر، أن السَّحَرة عند قبائل «التانجوز» تنزف أنوفهم دماً. فإذا شوهد رجل ذو أنف دامٍ، أدرك من شاهده حقيقة شأنه.

وفي ضواحي «سان ميشال» شوهد جيليات متوقفاً في حقل من الحقول قائم على امتداد طريق «فيدكلان» الطويلة. ثم صفّر في الحقل فلم يلبث غراب بعد قليل أن أتى إليه، تبعه بعد ذلك طير العقعقْ. شهد على صدق هذه الواقعة، رجل معروف في قومه. وقد أصبح بعد ذلك أحد اثني عشر رجلاً مكلّفين بوضع كتاب جديد. أما في هاميل فقد كانت هناك نساء هرمات يزعمن وثوقهن من أنهنّ قد سمعن عند انبثاق الفجر، بلابل تنادي على جيليات.

أضف إلى هذا كله أنه لم يكن طيباً.

ففي يوم من الأيام، كان رجل فقير يضرب حماراً. والحمار ثابت لا يتقدّم. فضربه الرجل الفقير بحذائه على بطنه، وسقط الحمار. فبادر جيليات إلى إنهاض الحمار، ولكن الحمار كان قد مات فاستدار نحو الرجل الفقير وصفعه على وجهه.

وفي يوم آخرٍ، انتزع من يدي أحد الصبيان، عشًّا لطيور صغيرة حديثة الولادة لم يكن ريشها قد نبت بعد، ثم رجع بالعش إلى مكانه من الشجرة بالذات.

وقد لامه بعض المارة على فعلته، فاكتفى بالإشارة إلى أبوي الطيور الصغيرة وهما يصرخان في أعلى الشجرة ويرجعان إلى عشّهما. لقد كان له حساسية خاصة بالنسبة إلى الطيور. وهي علامة تكتشف بها عامة حقيقة السَّحَرة.

وكان الأطفال يجدون متعة خاصة في استخراج أعشاش طيور زُمّج الماء ونباتات الخُبّازة من بين صخور الشاطئ. ثم يرجعون وهم

يحملون معهم كميات من البيوض الزرقاء والصفراء والخضراء، يصنعون بها أشكالاً على صورة الورود فوق واجهات المداخن. وبما أن صخور الشاطئ دقيقة الأعالي، فقد يحدث أن ينزلق بعضهم، فيسقط ويموت. إن جيليات لم يكن يعرف شيئاً غير إبداع الشر. لقد كان يتسلّق، مُخاطِراً بحياته الخاصة، عبر منحدرات الصخور الوعرة، ثم يعلّق في أعاليها حزماً من الهشيم اليابس مع قبّعات قديمة وأنواع مختلفة من «الفزّاعات» لكي يمنع الطيور من وضع بيوضها هناك، وبالتالي لكي يمنع الأطفال من الذهاب إليها.

لهذا كله كان جيليات مكروهاً في المنطقة كلّها.

5

جوانب أخرى من جيليات تبعث على الشكوك

لم يكن رأي الناس في جيليات قد ظهر بصورة حاسمة.

لقد كان يظنّه البعض الذكَر السابع بين إخوته بصورة عامة، ويبالغ البعض الآخر فيذهب إلى الظنّ في أنه ابن امرأة استولدها الشيطان إياه.

وحين تلد المرأة سبعة أطفال ذكور على التتابع لرجل واحد، فالطفل السابع هو «ماركو». ولكن هذا لا يعني أن طفلة أنثى يجب أن تتخلل هذه السلسلة من الذكور.

وللطفل السابع زهرة زنبق طبيعية موشومة في جزء من جسده، مما يتيح له أن يشفي الداء الخنازيري كما يشفي ملوك فرنسا. وفي فرنسا قليل من هؤلاء الذكور منتشرين هنا وهناك، خاصة في منطقة «الأورليانه». فلكلّ قرية من «الغاتينه» ذكرُها السابع.

وقد يكفي لشفاء المرضى أن ينفخ الذكر السابع في جراحهم أو أن يُلْمِسَهم زهرته الزنبقية، وحظّ هذه المحاولة من النجاح كبير في ليلة الجمعة المقدّسة. لقد كان منذ عشر سنوات، ذكر سابع في «أوروم» من الغاتينه، يُطلق عليه اسم الذكر السابع الجميل، تستعين به منطقة «البُوس» كلها، وكان صانع براميل، واسمه فولون، كما كان يملك حصاناً وعربة. وقد اضطر الناس للحيلولة دون حدوث معجزاته إلى الاستعانة بقوى الدرك. لقد كانت زهرته الزنبقية موشومة تحت ثديه الأيسر.

وفي جرسي، وأوريني، وغرناسي عددٌ من هؤلاء الذكور. وفي ذلك ما يدلّ على ما لفرنسا من حقوق في دوقية نورمانديا. ولولا ذلك لما كان هناك أي معنى لزهرة الزنبق.

وفي جزائر المانش مرضى مصابون بالداء الخنازيري، مما يجعل وجود هذا النوع من الذكور ضرورياً جداً.

وقد خُيِّلَ لبعض الأشخاص ممن شاهدوا جيليات يوماً يستحمُّ في البحر أنهم قد رأوا زهرة الزنبق موشومة على جسده. وقد اكتفى بالضحك جواباً عن سؤالهم إيّاه. ذلك لأنه كان في بعض الأوقات يضحك شأن الآخرين من الرجال. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يراه أحد من الناس، يستحم. إنه لم يكن يستحمّ إلا في الأمكنة الخطرة والمنعزلة وفي الليل، وتحت ضوء القمر، وهو شيء يبعث على الشبهة، كما يتفق الجميع.

أما الذين كانوا يصرّون على اعتباره ابناً للشيطان، فقد كانوا بالطبع مخطئين. لقد كان عليهم أن يعرفوا بأنه لم يكن هناك أبناء للشيطان إلا في ألمانيا. ولكن الفال وسان سامبسون، كانا منذ خمسين عاماً، بَلَدَيْ جهالة.

فالظن في أن أحداً من غرناسي ولد للشيطان، مبالغة ظاهرة.

وجيليات الذي هو مصدر للقلق، هو أيضاً موطن للاستشارة والنصيحة. لقد كان الفلاحون يأتون إليه، في جزع، ليحدّثوه في أمراضهم. وفي مثل هذا الجزع ثقة وطمأنينة. فكلما كان الطبيب أبعث على الشبهة كان علاجه أبعث على الثقة والطمأنينة. وكان جيليات يملك أنواعاً من الأدوية تركتها له المرأة الميتة، وكان يقدم منها لمن يسأله ذلك، ثم يرفض أي ثمن لما يعطي من الدواء لقد كان يشفي ريح الشوكة بكمادات من العشب، وكان في شراب بعض آنيته وقواريره ما يقطع دابر الحمّى، وقد كان كيميائي سان سامبسون، وهو من سنسميه صيدلي فرنسا، يعتقد أنه من المحتمل أن يكون هذا الدواء هو عُصارة شجرة الكينا المغلية. وكان أقلّهم ثقةً به يوافقون مختارين على أن جيليات شيطان طيّب للمرضى، حين تكون القضية متعلّقة بأدويته العادية، ولكنه كان يرفض الاهتمام بكل ما يتعلّق به، باعتباره الذكر السابع. فإذا أقدم أحد المصابين بالداء الخنازيري على سؤاله أن يمكّنه من لمس زهرة الزنبق في جسده، كان جوابه الوحيد هو إغلاق باب منزله دونه.

والواقع أنه كان هناك استثناء أو استثناءان من هذا النفور العام الذي كان يواجه جيليات. أحدهما السيّد لاندوا، من كلو لانداس، وهو كاتب خورنية سان بيار بور، المكلّف بالتحرير وحافظ سجلّ الولادات، والزيجات، والميتات. إن السيّد لاندوا هذا كان يفاخر بأنه حفيد حافظ الخزائن في بريتان، بطرس لاندا الذي شنق عام 1485. وفي يوم من الأيّام، أبعد السيّد لاندوا قليلاً في عرض البحر أثناء استحمامه، فكاد يوشك على الغرق، ولكن جيليات أنقذه. ومنذ تلك الساعة، امتنع لاندوا عن أن يقول شراً في جيليات. وكان يقول للمندهشين من موقفه الجديد: لماذا تريدون أن أكره رجلاً قدّم إليّ خدمة جليلة؟ حتى أن السيّد لاندوا بالغ في التقرّب من جيليات، إذ كان في الحقيقة متحرّراً من الأوهام الفاسدة، فهو لم يكن يؤمن

بالسَّحَرة. أما فيما يتعلق به هو، فقد كان له مركب خاص. وكان يصيد في ساعات فراغه ليتسلّى، فلم يشاهد شيئاً غير عادي، أثناء ذلك، غير امرأة بيضاء، كانت تقفز في الماء، تحت ضوء القمر. ومع ذلك فإنه لم يكن واثقاً مما شاهده. كانت ساحرة تورتافال، موتون جاهي، قد أعطته كيساً صغيراً يربط تحت عقدة الرقبة يحميه من الأرواح والأشباح، فكان يسخر من هذا الكيس، دون أن يعلم ما يحويه، ومع ذلك فقد كان يحمله.

وقد حاول بعض الشبّان المغامرة في النهج على طريقة السيّد لاندوا، وجرّبوا أن يروا في جيليات بعض المظاهر الطيبة من عفّة وقناعة، وامتناع عن تناول شراب «الجنّ» والتبغ. ولكن القناعة أو الزهد لا تكون صفة طيّبة ما لم ترافقها صفات أخرى.

لقد كان الكره العام موجّهاً ضد جيليات.

ومهما يكن شأنه كذكَر سابع، فقد كان جيليات قادراً على تقديم الخدمات. وفي جمعة مقدّسة، عند منتصف الليل، جاء كلّ المصابين بالداء الخنازيري في الجزيرة، إلى منزله حاملين جراحهم التي تبعث على الشفقة، يسألونه أن يشفيهم. فرفض ذلك. ومن هنا تعرَّف الجميع على خبثه.

6

«الكِرش»

هكذا كان جيليات.

الفتيات كنّ يجدنه قبيحاً، وهو لم يكن كذلك.

كان في صفحة وجهه الجانبية شيء يذكّر ببربريٍّ قديم. أما أذنه

فقد كانت صغيرة، لطيفة، ذات شكل سمعي معجب. وكانت بين عينيه هذه التجعيدة الأفقية الفخور، لرجل جريء ومثابر. وكانت زاويتا فمه متدلِّيتين، مما يشير إلى المرارة. أما جبهته فكانت ذات انحناء نبيل، وأما حدقته الصريحة، فقد كانت تنظر جيداً، رغم الطَّرف الذي يولده للصيادين انعكاس النور عن الموج المتدحرج. وكانت ضحكته ظريفة بريئة. فلا عاج أنقى من أسنانه. ولكن الريح الساقعة وملازمة البحر قد جعلتاه شديد السُّمرة. وكان يبدو في الخامسة والأربعين من عمره مع أنه في الثلاثين فقط.

وقد أطلق القوم عليه لقب جيليات الماهر الخبيث.

تقول أسطورة من الهند: سأل براهما القوّة يوماً: من هو أقوى منك؟ فأجابت: المهارة. ويقول مثل صينيّ: ما الذي لا يستطيعه الأسد لو كان قرداً! وجيليات لم يكن أسداً ولا قرداً، ولكن الأشياء التي كان يصنعها تعمل على تدعيم المثل الصينيّ والأسطورة الهنديّة... لقد كان بمهارته المبدعة والقوية يرفع أثقال العمالقة، وهو ذو الجسد العادي والقوّة العاديّة أيضاً.

كان فيه شيء من خصائص الرياضيّ، فهو يستعين بكلتا يديه، كما كان سبّاحاً مجيداً.

إن الوحدة تصنع الماهرين والبُله، وكان جيليات يبدو بهذين المظهرين. ففي بعض الأوقات ترى له هذه «الهيئة المدهشة» التي تحدّثنا عنها سابقاً، فيظنّه الرائي حيواناً لا عقل له. وفي فترات أخرى، تكون له نظرة خفيّة عميقة يزول فيها غباء الراعي، لتبدو مكانه الشفافية التي تكشف عن طبيعة الساحر.

والخلاصة، أنه لم يكن غير رجل مسكين يعرف القراءة والكتابة. وعند الحدّ الذي يفصل بين الحالم والمفكّر. فالمفكّر يريد، والحالِم يتأثّر ويستقبل. والوحدة حين تلحق بالبسطاء، تمنحهم نوعاً

من أنواع التعقّد. فتجتاحهم دون معرفة منهم، مخاوف مقدّسة. إن الطفل الذي كان يجثم فيه ذهن جيليات، يتألف من عنصرين، متماثلين في الكمّ تقريباً، لكنهما مختلفان: ففي داخله، جهل وعاهة، وفي خارجه، السرّ، واللانهاية.

وبفضل تسلّقه الطويل للصخور، ورواحه وغدوّه الدائمَيْن، عبر الأرخبيل، ومخاطرته بالمرور ليلاً ونهاراً في الممرّات الصعبة، أصبح رجلاً من رجال البحر المدهشين.

لقد كان ربّاناً بفطرته. والربّان الحقيقي هو البحّار الذي يبحر في الأعماق أكثر منه على السطح. فكان جيليات يبدو في ريادته للأعماق البحرية، عبر صخور الأرخبيل النورماندي، وكأنّ تحت قبّة جمجمته خارطة لأعماق البحر. إنه يعرف كل شيء، ويواجه كل شيء أيضاً.

وقد ظهرت معرفته الفريدة بالبحر يوم جاءت إلى غرناسي سفينة بحرية خاصة. والقضية التي كانت تشغل الجميع: هي أن يكون بحّار واحد في سفينة ذات أشرعة أربعة، ثم قيادتها من سان سامبسون إلى جزيرة هارم الواقعة على بعد ميل واحد، والرجوع بها من هارم إلى سان سامبسون. وليس في قيادة سفينة ذات أشرعة أربعة ما يعنت صياداً أو يعجزه، ولكن هناك ما كان يضاعف من صعوبتها. أولاً: أن هذه السفينة نفسها، كانت من تلك المراكب المنتفخة البطن، على طراز روتردام، والتي كان يسمّيها بحارة القرن السابق: الكِرش الهولندية. ثانياً: العودة من هارم، وعلى السفينة حمولة ثقيلة من الحجارة. والجائزة على القيام بهذه المهمّة هي مركب صغير. وقد قدم هذا المركب مسبقاً إلى الفائز. وكان هذا المركب ذو الكرش المنتفخة يستخدم كقارب قيادة. وكان ربّانه خلال عشرين سنة مضت رجلاً من أقوى بحّارة المانش. وكان في مقدّمته صارٍ يزيد من قوّة

جذب الشراع لكنه لا يزعج حمل المركب أبداً. لقد كان مركباً صلباً، وثقيلاً، ولكنه متّسع، ثابت فوق الماء.

وتسابق الجميع إلى الفوز به. نعم، كانت قيادة السفينة عملاً شاقًّا، ولكن الجائزة جميلة. وقد تقدّم سبعة أو ثمانية من أقوى الصيّادين للقيام بهذه المهمة. وتعاقب كلٌّ بدوره على قيادة السفينة ولكن واحداً منهم لم يستطع الوصول إلى هارم. حتى أن الأخير منهم قال: هذا مستحيل. وهنا نزل جيليات إلى المركب واندفع في عرض البحر. وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصل إلى هارم. وبعد ثلاث ساعات عاد بالسفينة إلى سان سامبسون، في جوٍّ عاصف شديد. وقد أضاف إلى حمل الحجارة، في ترف المتحدي الواثق من نفسه، مدفع هارم البرونزي الصغير، الذي كان سكّان الجزيرة، يطلقون منه النار عند كل خامس من تشرين الثاني احتفالاً بموت «غي فوكس».

ولم يكد السيّد لاتياري يراه من بعيد حتى صرخ قائلاً: هاك بحّاراً جريئاً!

ومدّ يده إلى جيليات الذي فاز بالمركب.

والواقع أن هذه المغامرة لم تسئ إلى لقبه: الماهر الخبيث.

وقد أعلن بعض الأشخاص أنه ليس في هذه المحاولة ما يدهش، لأن جيليات قد أخفى في المركب غصناً من شجر «الأزادَرَخت» الوحشي. ولكن هذه الدعوى لم تجد ما يثبتها.

ومنذ ذلك اليوم لم يملك جيليات مركباً غير الكرش المنتفخة. فهو يذهب إلى الصيد على هذا المركب الثقيل ويرسيه في الفجوة المائية الصغيرة تحت جدار منزله.

وبفضل هذا المركب كان يصيد كثيراً من السمك، والجميع يؤكّدون أن غصن «الأزادَرَخت» موجودٌ دائماً في مركبه. إن أحداً من الناس لم يرَ هذا الغصن أبداً، ولكنهم كانوا مؤمنين بوجوده.

والسمك الذي كان يزيد عن حاجته، لم يكن يبيعه، بل يعطيه.

وكان الفقراء يأخذون سمكه، ومع ذلك فهم يحقدون عليه، بسبب غصن «الأزادَرَخت».

لقد كان صيّاداً، ولكنه تعلّم، بدافع غريزيٍّ ثلاث مِهَن، أو أربعاً: فهو نجّار، وحدّاد، وصانع عربات، وميكانيكيٌّ إلى حدٍّ ما. وبما أن مركبه ذا الكِرش المنتفخة لم تكن له غير مرساة واحدة، فقد صنع له واحدة أخرى جيّدة الصنع. أضف إلى ذلك أنه نزع مسامير التحشية حول المركب، بصبرٍ شديد، ووضع مكانها «تبشيمات» متينة، تحول دون تكوُّن ثقوب الصدأ فيها.

وبهذه الطريقة زاد من ميزات المركب في البحر وأخذ يقضي، بين وقتٍ وآخر، شهراً أو شهرين في جزيرة منعزلة صغيرة.

7

للمنزل المسكون ساكن ذو رؤيا

لقد كان جيليات رجل أحلام. ومن هنا كانت جرأته، ومن هنا أيضاً كان خفره. لقد كانت له أفكاره الخاصة.

والهلوسة تأتي فلاحاً بسيطاً كمارتان، كما تأتي ملكاً كهنري الرابع. إن المجهول قد يصنع لذهن الرجل مفاجآت. إن خرقاً سريعاً للظل يكشف فجأة عن المجهول ثم ينغلق بعد ذلك. وتستطيع هذه الرؤى في بعض الأوقات أن تجعل من الجمّال، قائداً عظيماً، ومن راعية المعزى جان دارك. إذن، الوحدة تكشف عن كم من الضياع السماوي الرفيع، قد ينتج عنها اضطراب خفي في الأفكار يجعل من العالم صاحب رؤيا ومن الشاعر نبيًّا. والغالب أن حالة الرؤيا هذه،

تثقل صاحبها وتجهده، وتدهشه. فيعصف به عاصف مقدّس. إن الرؤيا المقدّسة هي حمل الفقير «الهندي»، كما أن الغُدّة المنتفخة هي حمل الرجل الأبله الفاقد لأدراكه. فلوثر متحدثاً مع الشياطين، في هُرْي ويتامبرغ، وباسكال مُقَنّعاً جهنم بحاجز غرفة مكتبه، وأوْبِي الزنجي متكلّماً مع الإله بَوْسَم ذي الوجه الأبيض، كل هذا هو ظاهرة واحدة، اختلفت العقول وتباينت في حملها، تبعاً لقوّتها وأبعادها. إن لوثر وباسكال هما وسيقيان كبيرين، أما أوبي الزنجي فهو رجل أبله.

أما جيليات فلم يكن في مثل هذا العلوّ أو في مثل هذا الانحطاط. لقد كان مفكّراً لا أكثر من ذلك.

كان ينظر إلى الطبيعة بطريقةٍ غريبة نوعاً ما. لقد كان يحدث له في مرّات كثيرة، أن يجد في ماء البحر الصافي حيوانات ضخمة، ذات أشكال مختلفة، من نوع رئة البحر. والطيور في رأيه ليست سكّان الهواء، إنها حيوانات برمائية. إن جيليات لم يكن يؤمن بالهواء الخالي. لقد كان يقول: أما والبحر ممتلئ بسكّانه، فلمَ يكون الجوّ خالياً؟ لا بدّ أن هناك مخلوقات بلون الهواء تختفي في الضياء فلا نستطيع رؤيتها، فمن يستطيع أن يثبت عكس ذلك؟ لقد كان جيليات يتخيّل أنه لو قُدِّر لنا أن نجفِّفَ الأرض من الأجواء، ثم انطلقنا نصيد في الهواء، كما نصيد في ماء المستنقع، لوجدنا فيه مجموعات كثيرة من الكائنات المدهشة، ثم يضيف في أحلامه اليقظة قائلاً: وهكذا تتضح لنا أشياء كثيرة جداً. إن حلم اليقظة، الذي هو فكر في شكله السديمي، يتاخم حلم النائم، ويعنى به ويشغل بمحتواه، كما يعنى بحدوده وينشغل بها أيضاً. إن الهواء الذي تسكنه الشفوف الحية، هو بداية المجهول، أما فيما وراء ذلك، فتبرز فتحة الإمكان الواسعة. وهناك تبدو كائنات أخرى، ووقائع أخرى أيضاً. لا شيء فوق الإمكان الطبيعي، بل هو استمرار خفيّ للطبيعة اللانهائية. أما جيليات

فقد كان في هذا الفراغ الكادح، والذي هو وجوده الشخصي، الرقيب الغريب. لقد كان يراقب كل شيء حتى الحلم نفسه. والحلم في اتصال دائم مع الممكن، الذي نسمّيه «غير المحتمل» أيضاً. إن عالم الظلمة هو مجرد عالم. ولكن الليل، كليل، هو كون من الأكوان. إن الجهاز العضوي المادي البشري، والذي يعلوه عمود جويّ ارتفاعه خمسة عشر ميلاً، يكون متعباً عند هبوط الليل، فيسقط بعامل الأجهاد، وينام، فيستريح، والعينان اللحميتان تنغلقان، بينما تنفتح في هذه الرأس الناعسة، والتي هي أقلّ جموداً مما يظن، عيون أخرى، ويبرز المجهول.؟ إن الأشياء المظلمة للعالم المجهول تصبح محصورة للإنسان، وهو جوار يتم بتحقق اتصال مادي واقعي، أو هو جوار تحدته أبعاد الهوّة ذات التضخّم، الذي يحمل طبيعة الرؤيا، فيبدو لنا وكأن كائنات غامضة من الفضاء تأتي لتنظر إلينا نحن الأحياء الأرضيين، يشدّها فضول عجيب. إنها مخلوقات شبحية تصعد أو تنزل إلينا، في جوٍّ غسقي، وأمام تأمّلنا الطيفي، تتكوّن حياة غير حياتنا ثم تفنى. وهي مؤلفة منا نحن ومن شيء آخر. والنائم يشاهد هذه الحيوانات الغريبة، هذه الكائنات المدهشة، والزرقاء الضاربة إلى السواد، رهيبة عابسة، أو باسمة. هذا هو السرّ الذي نطلق عليه اسم الحلم، والذي هو في حقيقته عملية اقتراب من الحقيقة الخفيّة.

هكذا كان يفكّر جيليات.

8

الكرسي «جيلد هولم أور»

من العبث أن نبحث اليوم، في خليج هوما الصغير جداً، عن منزل جيليات، وحديقته، والفجوة التي كان يرسي فيها مركبه ذا

الكِرش المنتفخة. لقد اختفى المنزل وانهارت شبه الجزيرة، التي كانت تحمله تحت ضربات الهادمين للصخور. لقد أصبحت هذه الصخور رصيفاً وكنيسة وقصراً في العاصمة.

هذه الامتدادات الصخرية، بفجواتها، وتثنياتها، في البحر، هي سلاسل حقيقة من الجبال، يحسّ الناظر إليها بما يحسّ به عملاق وهو ينظر إلى «الكورديلار». واللغة المحلية هناك تطلق عليها اسم: «بنوك». إن لهذه «البنوك» صوراً مختلفة متباينة. فبعضها يشبه سلسلة الظهر الفقرية، وبعضها الآخر يشبه حسك السمك، وبعض آخر يشبه تمساحاً يشرب. وكانت في طرف من أطراف «بنك» «لو بو دو لارو» صخرة كبيرة يطلق عليها الصيادون في «هوما» اسم قرن الوحش. وكانت هذه الصخرة، تشبه قمّة الهيكل في جرسي، وإن كانت أقل منها ارتفاعاً وشموخاً. ومما كان يبعث على الفضول في هذه الصخرة، جانبها البحري، فهو أشبه بكرسي طبيعية نحتها الموج ومَلَّسها المطر المتساقط. وكانت هذه الكرسي كرسياً خائنة خادعة تجتذب المشاهد بجمال منظرها. وكان الجميع يتوقّفون أمامها «حبًّا في التنقيب» كما يقال في غرناسي. وكانت هذه الكرسي تبرز، فتصنع في قمّة الصخرة شيئاً على صورة مرقد الكلب، وتجعله سهل الارتقاء. فالبحر الذي نحته قد نحت فيما دونه سلسلة من الفجوات كأنها سلّم من الحجارة المبسوطة. كانت تلك الكرسي تجتذب من يراها، فيتسلّق الصخرة إليها، ثم يجلس فوقها، فيشعر براحةٍ فائقة شديدة، فمقعدها رخام غرانيتي صنعه زبد البحر، ومرفقاها نتوءان بارزان وكأنهما مصنوعان عن سابق إصرار وتصميم، أما المسند فهو الجدار الشاقولي العالي للصخرة. لا شيء أسهل من أن ينسى المرء ذاته فوق هذه الكرسي، إذ يكتشف البحر كله، ويرى السفن من بعيد رائحة أو غادية، فيتنفّس المشاهد إعجاباً، ويحسّ رقّة النسيم ونعومة الموج. ثم لا يلبث حتى يحسّ بانتشار فتور النشوة في جسده وروحه. إن إغلاق

العينين حين تمتلئان بالجمال الفائق يصبح متعة رائعة. وفجأة تعود اليقظة مرة أخرى، وتفوّت الفرصة. فقد ارتفع المدّ وتضخم شيئاً فشيئاً. وأحاط الماء بالصخرة من كل جوانبها.

وهكذا تكون النهاية.

إن البحر الصاعد هو حصار رهيب مخيف.

والمدّ يبتدئ بالارتفاع بطريقة غير ملحوظة، ثم لا يلبث أن يرتفع في حركةٍ عنيفة مفاجئة. فإذا بلغ الصخور، أخذه غضب شديد، فأرغى وأزبد. ولقد أغرق الكثير من السابحين الممتازين في مياه قرن المنزل «بو دو لارو».

كان سكان غرناسي يطلقون على هذه الفجوة المماثلة لمرقد الكلب، اسم كرسي «جيلد هولم أور» أو «كيدور مور»، ومعناها «من ينم يمت».

والواقع أن لنا مطلق الحرية في اختيار هذه الترجمة «من ينم يمت» أو الترجمة التي قدمت عام 1819، في كتاب «الأموريكان». وقالت إنها تعني: «موقف قطعان الطيور».

والمعروف أن في «أورينيي» كرسياً أخرى من هذا النوع، تسمّى «الكرسي ذات الكاهن»، وقد مهر الموج في صنعها وتصويرها، وبرزت فيها صخرة مناسبة لها، حتى ليقال إن البحر يتفضّل سعيداً بوضع مقعد تحت القدمين.

كانت الكرسي «جيلد هولم أور» جارة لِ «بو دو لارو». وكان جيليات يعرفها تماماً ويجلس فوقها. لقد كان يأتي إليها غالباً. فهل كان يفكّر متأمّلاً؟ لا. لقد سبق أن قلنا آنفاً: إنه كان يحلم. ولكنه لم يكن يسمح للمدّ بمفاجأته.

الكتاب الثاني

السيّد لاتياري

1

حياة مضطربة وضمير مطمئن هادئ

كان السيّد لاتياري، وجيه بلدة سان - سامبسون، بحّاراً رهيباً. لقد سافر طويلاً في البحر ومخر عبابه. ولقد تدرّج في مختلف المراتب من أدناها إلى أعلاها حتى أصبح ربّانا فرئيساً. أما في ذلك الوقت فقد أصبح صانع سفن. لم يكن رجل يماثله ويساويه في معرفة أسرار البحر. لقد كان جريئاً في عمليات الإنقاذ. وفي الأوقات العاصفة كان يسير عبر الشاطئ الرملي، ينظر إلى الأفق، باحثاً عما يحدث في الأبعاد، فإذا كان هناك من يتعرّض لخطر، لا يلبث حتى يقفز إلى قاربٍ من القوارب، منادياً على اثنين أو ثلاثة من الرجال الشجعان، أو مكتفياً بنفسه، فيرفع المرساة، ويمسك بالمجذاف، ويندفع إلى أعالي البحر لإنقاذه. يفعل ذلك مهما يكن الشيء الذي يراه، أهو سكّين محراث من أوريني، أو يخت أحد اللوردات، أو رجل إنجليزي، أو فرنسي، أو فقير أو غني، أو الشيطان نفسه، لا يفرّق بين أحدٍ منهم.

هكذا كان يُرى من بعيد، واقفاً فوق القارب، يجري الماء من كل أطرافه، ممتزجاً بالبروق، وبوجهٍ كأنه وجه أسد ذي لبدة من الزبد. وقد يقضي، نهاره كله وهو يواجه الخطر، في الموج، وتحت الثلج الهابط، وفي الريح، مقترباً من السفن الضائعة، منقذاً الرجال والأحمال، باحثاً عن المعارك مع العاصفة. فإذا جاء الليل راح إلى منزله وانطلق ينسج زوجاً من الجوارب.

لقد قضى خمسين سنة في هذا النوع من العيش، أي بين العاشرة والستين من عمره، عهد شبابه. وقد لاحظ يوماً وهو في عامه الستين أنه لم يعد قادرا عَلى رفع سندان السيّد فاركلان بيدٍ واحدة، وكان السندان يزن 300 رطل فقط، ثم أصبح فجأة بعد ذلك سجين داء الروماتيزم. وهكذا فرض عليه أن يفارق البحر.

والواقع أنه كان قد بلغ الروماتيزم وحصل على الثروة والراحة في الوقت نفسه. إن هاتين الثمرتين اللتين ينتجهما العمل مترافقتان طوعاً لا كرهاً. ففي الوقت الذي نصبح فيه أغنياء، يصيبنا الشلل.

ومن هنا يقال: لنستمتع الآن بحياتنا.

إن الناس في الجزر كجزيرة غرناسي، مؤلفون من رجال قضوا حياتهم كلها وهم يدورون حول الحقل، ومن رجال قضوا حياتهم وهم يدورون حول العالم. هذان نوعان من الحرّاث. هؤلاء يحرثون البحر وأولئك يحرثون الأرض. والسيّد لاتياري كان من الذين حرثوا البحر. ومع ذلك فقد كان يعرف الأرض. لقد مارس حياة عامل قوية. فكان نجّار سفن في «روشفور» ثم في «سَتْ» خلال فترة من الزمن. وهكذا قام بدوره حول فرنسا كرفيق في مهنة النجارة. وكان قد عمل أيضاً في أجهزة استخراج الملح من الملاّحات في «فرانش - كونتا». ومجمل القول إنه عمل في كل ميدان، وخرج منها جميعاً بالنزاهة وطهارة الذيل. أما في طبيعته العميقة فلم تكن غير طبيعة

البحّار. كانت المياه ملكاً له. وكان قد مخر عبر الأطلنطي والمحيط الهادئ، ولكنه ظل يفضل بحر المانش. كان يصرخ في حبٍّ عميق: هذا البحر هو البحر الشديد حقاً! لقد ولد فيه وأراد أن يموت فيه أيضاً. وبعد أن قام بالدوران حول العالم مرّة أو مرّتين، رجع إلى غرناسي، ثم لم يبارحها بعد ذلك أبداً. أما سفراته بعد ذلك، فلم تكن إلا إلى «الغراند فيل» و«سان مالو».

إن السيّد لاتياري كان غرناسياً، أي نورماندياً، وبعبارة أخرى، إنكليزياً، ثم بعبارة ثالثة، فرنسياً. كان في أعماقه هذا الوطن الرباعي، مغموساً، ومُغَرّقاً، في وطنه الأكبر، البحر المحيط. لقد كان يحتفظ عبر حياته كلها، وفي كل مكان بعاداته الخاصة كصيّاد نورماندي.

ولكن هذا لم يكن منعه من تصفّح كتيّب في مناسبة من المناسبات، أو الاستمتاع بقراءة كتاب من الكتب.

2

دائقة(*) كان يملكها

كان جيليات رجلاً متوحّشاً. وكان السيّد لاتياري رجلاً متوحشاً آخر:

وكانت لهذا الوحش أناقاته الخاصة.

وكان صعباً جداً بالنسبة لأيدي النساء:

لقد سمع قاضي سوفران يصرخ قائلاً، وهو ما يزال بعد فتى

(*) الدائق: متاع دائق: لا ثمن له، رخيص جداً ـ ما لا قيمة له.

صغيراً، بل طفلاً على التقريب، وقد كان بين مرتبة البحار والنوتي المتدرّج: «هاكم فتاة جميلة، ولكن كم هما شيطانيتان هاتان اليدان!» إن كلمة الأميرال في كل موضوع، هي التي توجه. إن الأمر الذي يوجه إلى مرؤوس هو أعظم شأناً من هاتف الغيب. واستغراب قاضي سهوفران قد جعل لاتياري دقيقاً، صعباً في موضوع الأيدي الصغيرة البيضاء. أما يده هو، فهي سوط كبير ذو لون كلون شجرة الكابلي Acajou، وهي ثقيلة ثقل الدبوس فيما يتعلق بالخفة، وكالكلابة فيما يتعلق برقّة الملامسة، أما إذا كانت مغلقة فهي تحطم القطعة من البلاط حين تسقط فوقها.

لم يكن قد تزوج أبداً. فهو لم يجد ما يريد. فقد كان السيّد لاتياري يطمع في يدين كيدي دوقة من النساء. ولا سبيل إلى إيجاد مثل هذه الأيدي عند الصيادات في بورباي.

وكانوا يروون مع ذلك أنه سبق له أن وجد ضالته في فتاة تحقق مثله الأعلى في بلدة «روشفور» من منطقة شارنتوان: لقد كانت فتاة جميلة ذات يدين جميلتين. وكانت تغتاب الآخرين، وتخدش. أما خوض معركة ضدها فلا يمكن أن يكون. لقد كانت أظافرها، التي تتحول إلى براثن عند الحاجة، خالية من كل نقص، عارية من كل خوف. إن هذه الأظافر اللطيفة قد سحرت لاتياري، ثم بعثت القلق في نفسه، وخوفاً من أن يفشل في السيطرة على حبيبته، قرر ألا يمرّ بغرامه هذا أمام السيّد محافظ المدينة.

وقيل إن فتاة في أورينيي، قد أعجبته، في مرة ثانية. وفكر في الزواج. وعندئذٍ قال له أحد سكّان البلدة: إنني أهنّئك، فستكون لك صانعة ماهرة لأقرص الخِثّي[1]. وبحث لاتياري عن معنى هذه التهنئة.

---

(1) الخثي: زبل البقر. ويُصنع على شكل أقراص تلصق على الحائط لتجف.

فقيل له: إن العادة قد جرت في أورينيي، أن يجفّف خِثْيُ البقر عن طريق لصقه إلى الجدران. والفتاة لا يتقدّم منها الخاطبون إلاّ إذا كانت ماهرة في صنع أقراص الخِثْي. إن هذه المهارة دفعت السيّد لاتياري إلى اللواذ بالهرب.

ومهما يكن الأمر، فقد كانت له، في موضوع الحب، فلسفة فلاحيّة ضخمة هي حكمة بحّار.

إن هؤلاء البحّارة الشداد من الأرخبيل النورماندي يتميّزون بذهن متوقّد مثقف. فكلهم تقريباً يعرفون القراءة ويقرأون. وفي أيام الآحاد يرى البحّارة الصبيان وهم في الثامنة من أعمارهم، جالسين فوق لفيف من الحبال الغليظة والكتاب بين أيديهم. والمعروف عن البحّارة النورمانديين دائماً، أنهم يميلون إلى التهكّم واستعمال النكتة اللاذعة، وأنهم، كما يقال اليوم، قد صنعوا أمثالهم السائرة. لقد قذف أحدهم وهو الربّان الجريء كاريبال، السيّد مونغمري، اللاجئ إلى جرسي بعد ضربة رمحه اليائسة مع هنري الثاني، بالمثل السائر: رأس مجنون قد حطّم رأساً فارغاً. وآخر، يدعى «توزو» وهو سيّد في سانت برالاد قد وضع هذه العبارة الفلسفية، المنسوبة خطأً إلى الأسقف كامو: «الباباوات يصبحون فراشات بعد الموت، أما الملوك فيصبحون أغربة الجحيم».

3

لغة البحر القديمة

كانت اللهجة البحرية التقليدية في جرسي وأورينيي منذ أربعين عاماً فقط، على أفواه البحّارة آنذاك. فيخيّل للسامع أنه في وسط بحرية القرن السابع عشر. وقد استطاع أحد علماء الآثار أن يأتي إلى

هناك ويدرس عاميّة لغة المناورة البحرية القديمة والمعركة التي كان يشرف عليها جان بار وهو يزأر خلالها في مكبّر للصوت يبعث الرهبة في قلب الأميرال هيد. إن ألفاظ آبائنا البحرية والتي جدّدت اليوم كلها تقريباً، كانت متداولة في غرناسي حتى عام 1820. لكن أية عبارة من العبارات البحرية القديمة لم تعد تستعمل اليوم أبداً. لقد أصبحت اليوم لغة ميتة.

4

قابليّتنا في التأثّر ممكنة فيما نحب

كانت يد السيّد لاتياري على قلبه، لقد كانت هذه اليد يدا عَريضة، وكان القلب قلباً كبيراً. أما ما كان يؤخذ عليه، فهو هذه الصفة المعجبة التي هي صفة الثقة. وكانت له طريقته الخاصة في التعهّد بالقيام بعملٍ من الأعمال. لقد كان يقول اتعهد بشرفي أمام الله. فإذا قال هذا، اندفع في تنفيذ ما تعهّد بالقيام به حتى النهاية. وكانت المرّات التي غدا فيها إلى الكنيسة بدافع التهذيب والكياسة قليلة جداً. أما في البحر، فقد كان متأثراً بالخرافة.

ومع ذلك، فإن العاطفة الشديدة لم تكن لتردّه عما كان يقصد إليه، وذلك بفضل ما كان يتميّز به من تجنّب المواقف المتناقضة. فالتناقض شيء لم يكن يسمح به أبداً، لا للبحر المحيط، ولا لأي بحر آخر. لقد كان على البحر المحيط في رأيه أن يتّخذ جانبه دائماً. أما السيّد لاتياري نفسه فلم يكن يستسلم أبداً. إن الموجة التي تثب ثائرة، هي أعجز من أن توقفه، تماماً كالجار الذي يتصدّى للخصومة. لقد كان يعني ما يقوله، وينفّذ ما يخطّطه. فلا ينحني أمام اعتراض، كما لا ينثني أمام العاصفة. كانت كلمة - لا - غير موجودة في رأيه،

ولم يكن يسمح بتوجيه أي اعتراض إليه. ومن هنا كان عناده في الحياة، وكانت جرأته في البحر المحيط.

كان يتُبِّل شورباء السمك التي يتناولها، ويستمتع بإعدادها كما يستمتع بأكلها، وهو الذي يعرف الكمية الضرورية من البهارات والملح والأعشاب الخاصة لهذه الشورباء.

إن رجلاً يثيره اللباس الرسمي ويعنّته، ويشبه جان بار، بشعره المتطاير في الهواء، كما يشبه جو كريس، في قبّعته المستديرة، ثم يبدو مرتبكاً في المدينة، غريباً ومخيفاً في البحر، ذا ظهر كظهر الحمّال، لا يشتم أبداً، ولا يغضب إلا في القليل النادر، ذا لهجة حلوة يسيرة لا تلبث أن تصبح رعداً مدوياً في مكبّر الصوت، فلاحاً قرأ دائرة المعارف، وغرناسياً شهد الثورة، تقياً في غير تطرّف، خلا من الإيمان بالسيّدة بلانش، كما خلا من الإيمان بالسيّدة العذراء، ذا أنف يكاد يكون أفطس، وفم كاملة أسنانه، وعبوس في وجهه كله، لهو السيّد لاتياري.

ولقد كانت للسيد لاتياري هوايتان: دوراند وداروشات.

الكتاب الثالث

دوراند وداروشات

1

دردشة ودخان

في وسع الجسد الإنساني ألا يكون غير مظهر خارجي. أما الحقيقة فهي الروح. وبتعبير آخر نقول: إن وجهنا هو قناع من الأقنعة. أما الرجل الحقيقي، فهو ذاك الذي يكون وراء الرجل. فإذا رأينا هذا الرجل القائم وراء الوهم الذي نسميه لحماً، وجدنا أمامنا أكثر من مفاجأة واحدة. ومن الخطأ العام، أن نجد الكائن الحقيقي، في الكائن الخارجي الملموس. والمثل على ذلك، أن فتاة معينة بالذات تبدو لنا عصفوراً، لو قيض لنا أن نراها في حقيقتها العميقة.

تصوّر أن في منزلك مثل هذه الفتاة - العصفور. فإذا فعلت فقد وجدت أمامك داروشات. ونحن لا نرى جناحي هذا العصفور. ولكننا نسمع زقزقته. فإذا كان نشيده دردشة فهو دون الرجل، أما إذا كان نشيده غناء فهو فوق الرجل. في هذا الغناء، السر الرائع، إن الفتاة العذراء هي في الحقيقة غلاف الملاك. فإذا بدت فيها المرأة، غادرها الملاك، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن يعود، وقد حمل بين يديه

روحاً صغيرة إلى الأم. إن الفتاة التي ستكون أماً في يوم من الأيام، هي في انتظار هذه النهاية السعيدة. فإذا رأينا صورة العصفور ظننا أنها أحبّ ما تكون حين لا تطير. إن الكائن اللطيف الذي يعايشنا لا يحسّ قلق الغربة أبداً، فهو ينتقل من غصن إلى غصن، أي من غرفة إلى غرفة، يدخل ويخرج، يقترب ويبتعد، يرجل شعره أو يلامس، رفيقاً، ريشه، ثم يحدث كل نوع من أنواع الوشوشات الرقيقة، ثم يهمس في الأذن أفانين من النأمات اللطيفة المعجبة. فإذا سأل، أجيب على سؤاله، وإذا سئل أقبل يجيب في زقزقة حلوة. وقد «يدردش» مع السائل. والدردشة تريح. إن في هذا الكائن شيئاً من السماء. فأنت عارف له مِنّتَه في أن يكون بمثل هذا الظلّ الخفيف، والانطلاقة الهَرُوب، وشفّافاً لا تكاد تلمسه بأصابعك، في الوقت نفسه الذي يتلطّف فيه، فلا يختفي أمام عينيك. الجميل، في دنيانا هذه، واجب الوجود. وقليلة هذه الوظائف التي تكون أكثر أهمية من وظيفة أن يكون الكائن جميلاً وظريفاً على هذه الأرض. فالغابة دون طير «الكوليبري» اللطيف لا تلبث أن تغرق في عدم اليأس. إن رشح الفرح، وإرسال شعاعات من السعادة، ورشحات من النور، وتغليف القدر بأغشية ذهبية - كل هذا يقدم إليك أجلّ الخدمات وأروعها أثراً. فالجمال يحسن إليّ باعتباره جمالاً فقط. إن إنسانة معينة، تتميز بقدر من الرقّة بحيث تكون سحراً حلالاً لكل ما حولها. وقد لا تعرف هي شيئاً من ذلك في نفسها في بعض الأوقات، وبذلك تكون أروع أثراً. فحضورها يبعث الضياء، واقترابها يبعث الدفء، فإذا مرّت بنا فنحن سعداء، وإذا توقفت أمامنا فنحن أسعد كثيراً. إنها قطعة من الفجر على صورة كائن بشري. وهي لا تصنع شيئاً غير أن تكون هنا، ففي كونها هنا ما يكفينا، إذ توزع النشوة على الجميع دون أن تكلّف نفسها شيئاً غير أن تتنفّس قريباً منهم. وأن تكون لها البسمة، التي تخفّض من أثقال السلسلة الضخمة التي يجرّها الأحياء مجتمعين، هو شيء لا

نستطيع أن نعبّر عنه، كيف لا إنه شيء إلهي!... هذه البسمة كانت داروشات تملكها. بل كانت هذه البسمة بالذات. وداروشات باسمة، كانت هي داروشات الحقيقية.

هذا دم فائق الإغراء لأنه دم جرسي وغرناسي. النساء فيهما، والفتيات بخاصة، يتميّزن بجمال خفر مزهر. هذا الجمال هو مزيج من البياض السكسوني والطراوة النورماندية. وجنات وردية، ونظرات زرقاء. ثم لا تنقص هذه النظرات غير صورة الكوكب. فالتربية الإنكليزية تطفئها. إن هذه العيون الصافية ستكون غلابة ساحقة في اليوم الذي تظهر فيها أعماق الروح الباريسية. ومن حسن الحظ، أن باريس لم تدخل بعد أعماق الإنكليزيات. إن داروشات لم تكن باريسية، ولكنها لم تكن في الوقت نفسه غرناسية. لقد ولدت في «سان بيار بور»، ورعاها السيّد لاتياري. وربّاها لتكون صغيرة ظريفة، وكانت كذلك في الحقيقة والواقع.

لداروشات نظرة متثاقلة، عدوانية دون أن تعرف ذلك. وقد لا تكون مدركة معنى كلمة حب. ولكنها كانت تحيل الجميع مختارة، عشّاقاً لها معجبين. دون أن تكون وراء هذا العشق نيّة سيئة مبيتة. واللاجئ الغريب الذي كان قد أقام في سان سامبسون كان يقول: إن هذه الصغيرة تصنع من الغزل ما هو أشبه بالدقيق الناعم. لقد كانت لداروشات أجمل يدين في العالم، وقدمان متناغمتان في جمالها مع اليدين، لقد كان السيّد لاتياري يقول: إن لها من الذبابة قوائمها الأربع. كانت لها شخصيتها كلها، الطيبة والحلاوة، أما عمها السيّد لاتياري فهو عائلتها وثروتها، عملها هو أن تترك نفسها تحيا، ومهارتها هي في إنشاء عدد من الأغنيات، وعلمها في جمالها، وذهنها في براءتها، وجهلها في قلبها. وكان لها كسل من وُلِدَ في مستقرات بعيدة، ممتزجاً، بالمزعجات الرقيقة، والمرح العابث، مع

انزلاق نحو سهوم خفيف. كانت جبهتها ساذجة، وجيدها مرن شديد الإغراء، وشعرها كستنائي، وبشرتها بيضاء يتخللها كَلَفٌ أثناء الصيف، وفمها كبير ونظيف، وفي هذا الفم البسمة الصريحة المحبّة والخطرة في الوقت نفسه. هذه هي داروشات.

وفي بعض المرّات، عند هبوط الليل، وبعد غياب الشمس وراء الأفق، كانت الفتاة ترى عند مدخل ميناء سان سامبسون الضيق، فوق تموّجات مياه البحر الرهيبة، كتلة ضائعة الشكل، بل إنه شبح مخيف يصفر ويبصق... كان شيئاً يبعث الروع في النفوس فيحشرج حشرجة البهيمة المتوحشة ويرسل دخاناً كدخان البراكين، إنه نوع من التنّين يسيل لعابه في الزبد ويجرّ وراءه سجفاً من الضباب، متّجهاً نحو المدينة في خفق مخيف من زعانفه، وله شدق يخرج اللهب من أعماقه. هذا هو دُورَانْدْ.

2

تاريخ الطوبوية الخالد

لقد كان حضور مركب بخاري في حياة المانش عام 1802 بدعة مثيرة مدهشة. لقد ذهل منه الشاطئ النورماندي كله لمدة طويلة من الزمن. أما اليوم فإن عشراً أو اثني عشر من هذه المراكب البخارية تروح وتجيء دون أن يكلّف أحد نفسه رفع ناظريه إليها، لكنها قد تشغل العارف بأسرارها لفترة من الزمن، وهو القادر على معرفة ما إذا كان هذا المركب يستعمل فحم ويلز أو يحرق فحم نيو كاسل عن طريق لون الدخان الذي يرسله إلى الخارج. فإذا مرّ المركب فهو شيء حسن. وإذا وصل، فأهلاً به وسهلاً. أما إذا رحل فرافقته السلامة.

لقد كان الناس في الربع الأول من القرن «التاسع عشر» أقل هدوءاً في موطن هذه المخترعات. والواقع أن هذه المراكب بدخانها، قد كانت مكروهة من قبل سكان جزر المانش في هذا الأرخبيل المتطهّر، حيث وجّه إلى ملكة بريطانيا لوم شديد بسبب انتهاكها لحرمة التوراة[1] حين وضعت وليدها بواسطة المخدّر. وقد سجّل المركب البخاري أوّل نجاح له بأن عُمّد باسم «مركب الشيطان». لقد كان يبدو لأولئك الصيادين الطيبين آنذاك - وهم الكاثوليكيون سابقاً، فالكالفينيون بعد ذلك، وأصحاب التقوى الهزيلة دائماً - وكأنه الجحيم يمخر فوق الماء. وقد عالج أحد الوعّاظ الموضوع التالي: هل من حقّنا أن نجمع بين الماء والنار في عمل واحد مع العلم أن الله قد فرّق بينهما[2]؟

لقد أعلنت أكاديمية العلوم بعد استشارتها في بداية هذا القرن من قبل نابوليون والتعرّف إلى رأيها في المركب البخاري قائلة: إنه فكرة جنونية، وخطأ كبير، بل هو شيء مستحيل أيضاً. والحقيقة أن لصيّادي سان سامبسون عذرهم حين يكونون في ميدان العلم، في مستوى الرياضيين الباريسيين، أما في ميدان الدين، فإن جزيرة صغيرة كغرناسي ليست مرغمة على أن تملك من المعرفة أكثر مما تملكه قارة كبيرة كأميركا. لقد حدث في عام 1807 أن المركب البخاري الأول، فولتن، الذي كان يقوده ليفنستون، بمحرّك من محرّكات «وات» مرسل إلى بريطانيا، وعليه فرنسيان فقط، أندريه ميشو، ورجل آخر، خلا بحّارة المركب. لقد حدث آنذاك أن الوعّاظ قد لعنوا في كل

(1) سفر التكوين: إصحاح 3 آية 16: إنك ستلدين في الألم.

(2) سفر التكوين: إصحاح 1، آية 4.

الكنائس، بالإجماع، هذه الآلة الجديدة، وذلك حين قام هذا المركب بسفرته الأولى في 17 آب بين نيويورك وألباني. لقد أعلن هؤلاء الوعّاظ أن الرقم 17، وهو تاريخ بداية السفرة، هو مجموع الهوائيات العشرة، والرؤوس السبعة لحيوان رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي. ففي أميركا كانوا يثيرون بمناسبة هذا المركب البخاري ذكرى حيوان الرؤيا، وفي أوروبا كانوا يثيرون ذكرى حيوان سفر التكوين. هنا كان يكمن الفرق فقط.

العلماء يشجبون فكرة المركب البخاري باعتباره شيئاً مستحيلاً، والرهبان يشجبونها أيضاً باعتبارها ظاهرة كفر ديني. لقد كان العلم يرفض ويشجب، وكان الدين يلعن. وكان فولتين في رأيهما شكلاً من أشكال «لوسيفر». لقد كانت وجهة النظر الدينية أمام المركب البخاري، كما يلي: الماء والنار متناقضان. والتناقض بينهما أمر إلهي. ولذلك فلا يجب أن نفرّق ما جمع الله، أو أن نجمع ما فرّقه. أما وجهة النظر الريفية فهي: هذا شيء يخيفني.

والجرأة في ذلك العصر على القيام بعملية تنقل المركب البخاري بين غرناسي وسان مالو، غدواً ورواحاً، كانت تحتاج إلى رجل كالسيّد لاتياري. لقد كان هو وحده قادراً على الاقتناع بهذه العملية. باعتباره مفكّراً حرًّا، وعلى تحقيقها كبّحار جريء. إن جانبه الفرنسي قد وعى الفكرة وأدركها، ثم نفّذها جانبه الإنكليزي.

فمتى كان ذلك؟ وفي أية مناسبة؟ لنجب عن هذين السؤالين فيما يلي:

3

رانتان

كان منذ أربعين سنة قبل الفترة التي جرت أحداثها وقصصناها على القارئ في ضاحية من ضواحي باريس، قريباً من جدار دورية العسس الليلي، بين «فُوْس أَوْ لُوْ» و«تُوْمُبْ إِيْسوَارْ» منزل مشبوه. كان هذا المنزل بناءً متداعياً خَرِباً، يسكنه لص برجوازي مع زوجته وطفله. وقد سبق لهذا اللص أن عمل كاتباً عند وكيل منطقة شاتيلا، ثم أصبح بعد ذلك لصًّا فقط. وكانت هذه العائلة تدعى باسم رانتان. في هذا البناء الحقير كان يُرى فوق خزانة منخفضة من خشب الأكاجو كوبان وعاءان من البورسلين، كتب على أحدهما: ذكرى صداقة، وعلى ثانيهما: منحة تقدير. وكان الطفل غارقاً في وسط الجريمة. فتعلّم القراءة بسبب انتماء والديه إلى طبقة نصف برجوازية. لقد كانت الأم، بلونها الباهت، وثيابها الرثّة تشرف على تربية طفلها فتعلّمه التهجية ثم تنقطع عنه لتساعد زوجها على إعداد كمين من الكمائن أو لتسلم نفسها إلى أحد المارّة.

واختفى الوالدان يوماً بعد القبض عليهما في الجرم المشهود ثم اختفى الطفل أيضاً.

وقد لقي لاتياري في بعض سفراته أحد المغامرين مثله، فأخرجه من أحد المآزق وأسدى إليه خدمة من الخدمات، فقيّده برباط العرفان، ثم حمله مختاراً، وتوجّه به إلى غرناسي، وهناك وجده ماهراً وذكيًّا في عمليات الإبحار على الساحل، فجعل منه شريكاً له في أعماله.

لقد كان هذا المغامر نفسه - رانتان - الصغير، بعد أن بلغ أشدّه.

كان رانتان، كلاتياري، ذا رقبة غليظة شديدة، وكتفين عريضتين قوّيتين صالحتين لحمل الأثقال الشديدة، وحوض كحوض هرقل الغرناسي. كان هو ولاتياري على شاكلة واحدة، ولكنه أطول منه جسماً. فإذا رآهما الرائي من الخلف لا يلبث أن يقول: إنهما أخوان. أما إذا رآهما من الأمام فهناك شيء آخر. إن كل ما كان مفتوحاً عند لاتياري هو مغلق عند رانتان. كان رانتان شديد الحذر، ماهراً في استعمال السلاح، والنفخ في الهارمونيكا، يصيب الشمعة بطلق ناري واحد على بعد عشرين خطوة، منها، ويتميّز بيد قوية رائعة، ويحفظ شعراً من الهبزياد، ويفسّر الأحلام. لقد كان يحفظ عن ظهر قلب ديوان الشاعر «ترانول»: «قبور سان - دنيس». وكان يزعم أنه قد قيّد سلطان كلكوتا الذي يسمّيه البرتغاليون: «زاموران». ولو اطّلعنا على دفتر مذكّراته وتصفّحنا صفحاته لوجدنا فيها عبارات من طراز العبارات التالية: «في ليون، وفي شقّ من شقوق جدار في أحد مخابئ القدّيس يوسف، يوجد مبرد مخبأ». لقد كان يتكلم بهدوء حكيم. ويزعم أنه حفيد فارس من سان - لوي. وكانت ثيابه التحتية معلمة بحروف متباينة. لم يكن أحد أشدّ منه تأثّراً بقضايا الشرف والكرامة... كان يقاتل ويقتل. لقد كان في نظرته شيء من أم ممثلة فنانة.

كان رانتان قوّة مغلّفة بالحيلة.

والواقع أن روعة يده في إحدى لكماتها هي التي فازت بقلب لاتياري وإعجابه وحبّه.

الجميع في غرناسي كانوا يجهلون مغامراته. لقد كانت هذه المغامرات ذات ألوان مبرقشة متنوعة. فلو كانت للأقدار خزانة تعلق فيها الثياب، لوجب أن يكون قدر رانتان مغطّى بثوب ذي ألوان كثيرة. لقد رأى العالم وصنع حياته كما يشاء. كانت مهنة متنوّعة كلّ

التنوّع: فهو طاهٍ في مدغشقر، ومربٍّ للطيور في سومطرا، وقائد جيش في هونولولو، وصحفي ديني في جزر غالاباغوس، وشاعر في أومْراووتِي، ومن الماسونيين في هايتي. لقد ألقى بصفته الأخيرة خطبة تأبينية إحياءً لذكرى غُوواف الكبير، احتفظت الصحف المحلية منها بهذه الفقرة: «الوداع إذن، أيها الروح الجميل! إنك ستلتقي دون ريب، حيث تطير الآن عبر قبّة السماوات اللازوردية، الأب الطيب لياندر كرامو لغوواف الصغير. قل له: إنك قد أتممت بناء كنيسة «أنْس- آ- فُو» بفضل جهود عشر سنوات رائعة! وداعاً، أيتها العبقرية العليا، أيها البناء الحر النموذجي!». إن قناعه كماسوني لم يكن يمنعه، كما نرى، من أن يحمل الأنف الكاثوليكي المزوّر. فالأوّل يصله بالتقدميين من الرجال، والثاني يصله برجال الدين. كان يعلن أنه من الجنس الأبيض، وكان يكره الزنوج، ومع ذلك فقد أظهر إعجابه بسولوك. في بوردو عام 1815 كان ذا لون نحاسي صدئ. وفي تلك الفترة كان دخان ميوله الملكية يخرج من جبهته على صورة ريشة كبيرة بيضاء. لقد أمضى حياته كلها وهو يقوم بعمليات انخساف، فيظهر ويختفي، ثم يظهر كرة أخرى. لقد كان وغداً. وكان يعرف اللغة التركية. كان عبداً في مدينة طرابلس، وقد تعلّم اللغة التركية في هذه المدينة تحت ضربات العصي، وكانت مهمته أن يتوجّه عند المساء إلى أبواب المساجد وأن يقرأ عندها أمام المؤمنين بصوت مرتفع آيات من القرآن.

كان جديراً بعمل كل شيء، وبأن يعمل أسوأ ما يمكن أن يعمل.

كان يقهقه ويعبس في الوقت نفسه. وكان يقول: إنني لا أحترم في الميدان السياسي إلا أولئك الذين يقاومون كل تأثير خارجي. وكان يقول ايضاً: أنا من أنصار العادات والتقاليد. وأيضاً: يجب أن

نضع الهرم فوق قاعدته مرة أخرى. وكان بتعبيرٍ أصحّ، مرحاً قريباً من القلوب. شكل فمه يكذّب معاني أقواله. ومنخراه أشبه بمنخري البهيمة. وكان حول موق عينه ملتقى تجعّدات كثيرة يجمع فيها كل نوع من أنواع الأفكار الغامضة. إن سرّ قسمات وجهه لا ينكشف إلا من هذه الزاوية. وقائمته التي هي كقائمة الأوزة أشبه ببرثن العُقَاب. أما جمجمته فكانت منخفضة في أعلاها عريضة عند فوديها.

وفي نهاية صحو جميل، في غرناسي، لم يعد أحد يعلم أين كان رانتان. لقد هرب شريك لاتياري، تاركاً صندوق الشركة وراءه فارغاً.

كانت في هذا الصندوق نقود لرانتان، ولكن فيه أيضاً خمسين ألف فرنك للاتياري.

لقد استطاع لاتياري عبر أربعين سنة من الصناعة والأمانة أن يربح مئة ألف فرنك في مهنته كبحّار وكبنّاء سفن، وقد حمل رانتان نصفها معه.

أما لاتياري، الذي نزلت به هذه الكارثة، فلم ينحنِ أبداً بل فكّر مباشرة في النهوض بنفسه. إن من الممكن تخريب ثروة أصحاب القلوب الطيّبة، لا تخريب شجاعتهم. وهنا كان الناس قد بدأوا بالتحدّث عن المركب البخاري. وقد خطر في بال لاتياري أن يجرّب محرّك فولتن الذي كان موضع شكّ ومناقشة. ولعب رصيده كله في هذه الخطّة. فوظّف كل ما بقي منه. وبعد ستة أشهر مضت رأى الناس سفينة ذات دخان تخرج من مرفأ سان سامبسون المندهش. لقد كانت هذه السفينة أول مركب بخاري يمخر عباب المانش.

إن هذا المركب الذي منحه حقد الجميع واحتقارهم له اسم: «لاغاليوت - آ- لاتياري» كان بداية الخدمة المنتظمة بين غرناسي وسان مالو.

4

تابع قصة الطوبوية

بدأت هذه العملية، أول الأمر، على أسوأ ما تكون البداية. وقد أرسل أصحاب القوارب التي كانت تصل بين الجزيرة الغرناسية والساحل الفرنسي، أصواتهم في احتجاجات صارخة. لقد فضحوا هذا العدوان على احتكارهم الخاص. وثارت بعض الكنائس ثورة بالغة: حتى أن أحد الآباء المحترمين - ألِيهُو- قد أطلق على المركب البخاري صفة «الفاسق». واعتبر المركب الشراعي مركباً سنياً «أورثوذكسياً». ورؤيت قرون الشيطان بوضوح بالغ فوق رؤوس الثيران التي كان يحملها المركب البخاري ثم ينزلها إلى الرصيف. وفي هذه الأثناء لوحظ أن هذه الثيران كانت تصل إلى الشاطئ وهي أقلّ شعوراً بالإرهاق والتعب الشديدين. ثم بيعت بأثمان مرتفعة، وكان لحمها أطيب طعماً ومذاقاً. ولوحظ أيضاً أن مخاطر البحر قد تدنّت بالنسبة للرجال أنفسهم. وأن الرواح والغدوّ قد أصبحا أقلّ كلفة وأشدّ أمناً وأقصر مدّة، وأن السمك الذي يصل بسرعة يكون أكثر غضاضة ونضارة، وأن في الوسع إرسال الفائض من السمك المصيد بكثرة في غرناسي، إلى الأسواق الفرنسية، وأن الزبد من بقر غرناسي المعجب يجتاز، في مركب الشيطان، المسافة القائمة بأسرع من القوارب الشراعية، ثم لا يفقد شيئاً من ميزاته، حتى أن - دينان- قد طلبت منه وأقبلت على شرائه وكذلك سان - بريو وران، كل ذلك بفضل «غاليوت - آ - لاتياري». فانتظمت فترات الاتصال، وأصبح الرواح والغدوّ سهلاً يسيراً، وتضاعفت عجلة الإنتاج، واتّسعت التجارة. كما لوحظ أن على كل قادرٍ أن يأخذ نصيبه من مركب الشيطان، هذا الذي كانت ينتهك حرمة التوراة ويغني الجزيرة أيضاً. وقد غامرت بعض

العقول الجريئة على الانتصار لهذه البدعة الجديدة إلى حدٍّ ما. فقد منح السيّد لاندوا، تقديره لهذا المركب.

وهكذا كان للسيد لاندوا الفضل في تكريس المركب البخاري. ثم التحق به آخرون. وانتصر الواقع بصورة غير محسوسة، والوقائع هي مدّ مرتفع، حتى أتى يوم أصبح فيه الجميع، باستثناء بعض الحكماء، معجبين بـ «غاليوت - آ- لاتياري».

أما اليوم فقد فتر هذا الإعجاب. إن هذا المركب البخاري الذي ظهر منذ أربعين عاماً يبعث في شفاه الصانعين العصريين بسمة خفيفة. لقد أصبحت هذه المعجزة شيئاً قبيحاً. فبين سفننا البخارية الكبيرة عابرة المحيط، وبين المركب ذي العجلات والنار الذي كان يقوده - دنيس بابان - عام 1707، لا توجد فترة أقصر من تلك التي نجدها بين مركب كبير ذي ثلاثة جسور، طوله مئتا قدم وعرضه خمسون قدماً، وله صارٍ لا يقل ارتفاعه عن 115 قدماً، يحمل ما زنته ثلاثة آلاف برميل وألفاً ومئة رجل، ومئة وعشرين مدفعاً، وعشرة آلاف قنبلة، ومئة وستين طرداً من طلقات الرش، متفيئاً في كل مرة، وهو في المعركة، ثلاثة آلاف وثلاثمئة رطل من الحديد، مرسلاً في القضاء حين يسير في البحر خمسة آلاف وستمئة متر مربع من قماش الأشرعة، وبين المركب الدانمركي البدائي في القرن الثاني، الذي وجد ممتلئاً بفؤوس الحجر: غارقاً في أوحال وسْتَر ساتْرُوْبْ البحرية. مئة عام فقط 1707- 1807 تفصل أول مركب لبابان عن أول مركب لفولتن. لقد كان «غاليوت- آ- لاتياري» دون ريب خطوة تقدّمية على هذين النتاجين البدائيين، ثم كان هو نفسه بدائياً أيضاً. ولكن هذا لم يكن يمنعه من أن يكون نتاجاً رائعاً يومذاك.

5

المركب الشيطان

لم يكن «غاليوت- آ- لاتياري» ذا صوار مصنوعة على ضوء وجهة النظر التقليدية. يضاف إلى ما سبق أن المركب ذا العجلات يكاد لا يحسّ بالأشرعة التي توضع له. لقد كان «الغاليوت» شديد القصر والاستدارة، والانكماش أيضاً، فله وجنة كبيرة، وحوض كبير.

أما محرّك الغاليوت فقد صنع في فرنسا في مصنع بَرسِيْ الحديدي. وكاد السيّد لاتياري، يتخيّل جانباً من هذا المحرّك، أما الميكانيكي الذي صنعه فقد مات، بحيث أن هذا المحرّك أصبح وحيداً.

وقد كلّف هذا المحرّك أربعين ألف فرنك.

ولاتياري هو الذي بنى الغاليوت في مكانٍ قريب من البرج الأوّل بين سان بيار وسان سامبسون. فاشترى الخشب من بريم. واستهلك مهارته في البناء البحري كلّها في صنع هذاالمركب.

وقد أنزل «الغاليوت» إلى البحر في 14 تموز دون أن يدري أحد ما إذا كان تاريخ الإنزال مقصوداً أم جاء مصادفة فقط. في هذا اليوم أثبت لاتياري نظره في البحر وهو فوق مركبه وصرخ أمامه قائلاً:

– لقد جاء دورك! إن الباريسيّين قد استولوا على الباستيل، وأما الآن فسنأخذك أنت!

وكان غاليوت - آ- لاتياري ينجز سفرة واحدة في كل أسبوع بين غرناسي وسان مالو. كان يغادر مرساه صباح الثلاثاء ثم يعود مساء الجمعة. وهي ليلة السوق التي تنعقد يوم السبت. وخشب الغاليوت هو أحسن الأخشاب التي صنعت بها قوارب البخّارة

المساحلين في الأرخبيل، أما حِمْلَه، فإن سفرة واحدة من سفراته تساوي، من حيث الريع والإنتاج، أربع سفرات لقاربٍ شراعي عادي. ولم تمرّ سنتان حتى قدم المركب البخاري «غاليوت» لصاحبه لاتياري ربحاً صافياً لا يقل عن 750 ليرة استرلينية في العام الواحد، أي ثمانية عشر ألفاً من الفرنكات.

6

أمجاد لاتياري

كانت أعمال «الغاليوت» في ازدهار مستمر. والسيّد لاتياري يشهد اقتراب المرحلة التي سيصبح فيها سيداً كبيراً. وفي غرناسي لا يسع الإنسان أن يصبح السيّد مرّة واحدة. إن بين الرجل العادي وبين لقب السيادة سلّماً متعددة الدرجات. وهو لا يبلغ قمّتها حيث السيادة إلاّ في الدرجة الخامسة.

هكذا أصبح لاتياري سيّداً خطيراً بفضل مغامرته، وبفضل البخار، وبفضل محرّكه، ثم بفضل مركب الشيطان. وقد اضطر لاتياري إلى الاستدانة ليبني «الغاليوت». فاستدان من بريم، واستدان من سان مالو، ولكنه كان في كل عام يخفّف من عجزه.

حتى أنه اشترى منزلاً جميلاً من الحجر بالتقسيط. وكان المنزل جديداً، تتصل واجهته الأمامية بسور المرفأ نفسه، كما يتميّز بصفين من النوافذ في الشمال، بحيث أصبحت لهذا المنزل واجهتان، إحداهما تطل على العاصفة وثانيتهما تطل على الزهور والورود.

هاتان الواجهتان كانتا تبدوان وكأنّهما مصنوعتان لساكنيهما، السيّد لاتياري والآنسة داروشات.

كان هذا المنزل ذا شهرة خاصة في سان سامبسون. لأن السيّد لاتياري أصبح في النهاية شخصية شعبية. وشعبيّته كانت تأتيه جزئياً من طيبته، وإخلاصه، وتفانيه في الخدمة والشجاعة، وتأتيه في الغالب الكثير من نجاحه، وأيضاً من أنه منح مرفأ سان سامبسون امتيازاً خاصاً بأن جعل منه مقرًّا لغدوات المركب البخاري وروحاته. وعندما ثبت للعاصمة، سان بيار، أن مركب الشيطان قد أصبح صفقة تجارية رابحة، طالبت به لمرفأها، لكن لاتياري قاوم هذا الطلب وثبت في اختياره جانب سان سامبسون. إن هذا البحّار الفقير قد استطاع أن يجتاز خمس درجات من ست من النظام المجتمعي الغرناسي، لقد كان يقترب من مرتبة السيّد الكبير، ومن يدري! فقد يتجاوز هذه المرتبة إلى ما وراءها؟ ومن يدري! فقد نقرأ يوماً في فصل «نبالة» من تقويم غرناسي، هذه العبارة المدهشة الرائعة: «لاتياري الفارس النبيل».

لكن السيّد لاتياري كان يحتقر، أو بتعبيرٍ آخر، كان يجهل الجهة التي تكون بها الأشياء غروراً وصلفاً. لقد كان يشعر أنه كائن نافع، ومن هنا كان فرحه.

ومهما يكن الأمر، فقد غامر في «يانصيب» البحر ففاز بالجائزة الأولى. هذه الجائزة، كانت هي دوراند الماخرة في مياه البحر.

7

العرّاب نفسه والقديسة الشفيعة نفسها

وبعد أن ابتدع السيّد لاتياري هذا المركب البخاري، عمّده باسم «دوراند».

والواقع أن دوراند وداروشات، هو اسم واحد، وداروشات هو

الاسم المصغّر. وهو واسع الاستعمال في فرنسا الغربية.

والقدّيسون في الأرياف يحملون في الغالب اسمهم الخاص مع أسمائهم المصغّرة والمكبّرة. فيظنّ السامع أن هذه الأسماء هي لمسميات كثيرة بينما هي في الحقيقة لشخص واحد. فليز، وليزا، وليز، وأليزا، وإيزابيل، ولزبات، ويتسي... هذه الكثرة من الأسماء متنوعات مختلفة لاسم واحد هو «أليزابت».

القدّيسة دوراند هي قدّيسة من منطقتي الأنْغُومْوَا والشّارانتْ. فهل هذا صحي؟ ومهما يكن الأمر، فإن لهذه القديسة كنائس خاصة. والمعروف أن السيّد لاتياري قد تعرّف إلى هذه القدّيسة، وهو بحّار شاب في روشفور، ومن المحتمل أن يكون هذا التعرّف قد حصل في شخص فتاة شارانتية جميلة، من الممكن أن تكون الفتاة ذات الأظافر الأنيقة، وقد بقي له من ذكراها ما دفعه إلى إطلاق هذا الاسم على شيئين كان يحبّهما: دوراند على مركبه «الغاليوت» وداروشات على فتاته. لقد كان والد الأوّل وعم الثانية.

كانت داروشات ابنة أخ له. أصبحت يتيمة الأبوين. وقد تبنّاها فأصبح لها الأب والأم.

فداروشات لم تكن ابنة أخيه فقط بل ابنته أيضاً. إنه هو الذي حملها فوق آنية العمادة، وهو الذي اختار لها عرّابتها، القدّيسة دوراند، وأطلق عليها حرف اسمها الأول: داروشات.

والحقيقة أن أيًا من الناس لم ينتبه إلى هذه التسمية يوم كانت داروشات طفلة صغيرة وكان عمها رجلاً فقيراً. أما الآن فقد بدت هذه التسمية وكأنها قد صدمت الأسماع والأفئدة. وقد سئل لاتياري فقيل له: ولِمَ هذا الاسم، داروشات؟ فأجاب: هذا الاسم هو كذلك. وحاول البعض العمل على تغييره، لكن لاتياري لم يُعر هذه المحاولة أيّ اهتمام. وفي يومٍ من الأيّام قالت سيّدة جميلة تنتسب

لارستقراطية سان سامبسون، وهي زوجة حدّاد غنيّ توقّف عن ممارسة مهنته أو «ستونيّة» كما يقال في غرناسي، للسيّد لاتياري: «سأطلق على فتاتك منذ اليوم اسم نانسي». فرفض. ثم قالت له في اليوم التالي: «لقد وجدت لفتاتك اسماً جميلاً هو، ماريان». فأردف السيّد لاتياري مجيباً: الواقع أنه اسم جميل، ولكنه مركّب من حيوانين كريهين: زوج وحمار. ثم تمسّك باسم داروشات.

وقد يخطئ من يستنتج مما سبق آنفاً، أن السيّد لاتياري لم يكن راغباً في تزويج فتاته. كان يريد تزويجها حقًّا، ولكن على طريقته. لقد كان يستهدف تزويجها من رجلٍ على صورته هو، يعمل كثيراً.

ولكي لا تفسد داروشات يديها الجميلتين، فقد هيّأ لها حياة سيّدةٍ رفيعة. وقد خصّص لها معلّماً للموسيقى، واشترى بياناً، ثم أردفه بمكتبة صغيرة، بالإضافة إلى القليل من الخيوط والأبر الموجودة في سلّة للعمل. إن الجمال والأناقة هما كل ما كان يطلبه منها. لقد رعاها وعني بها لتكون زهرة أكثر منها امرأة. وليس أسهل من إدراك هذه الظاهرة عند من اكتشف طبيعة البحّارة. إن هذه القسوة لا تفتش، إلا عن مثل هذه اللطافة الأنيقة.

8

اللحن «بوني داندي»

كانت داروشات تشغل من منزل عمّها الجميل أجمل غرفة من غرفه، يزيّنها سرير ذو ستائر، فيها مربعات خضراء وبيضاء، وتطلّ على الحديقة والهضبة العالية.

وكانت موسيقى داروشات و«بيانها» في غرفتها. فتوقع على «البيانو» وهي تنشد لحنها المفضّل، اللحن الأيقوسي الساهم «بوني

داندي»، فالمساء كله في هذا اللحن، والفجر كله كان في صوتها الساحر، تغني.

لقد كانت داروشات فرحة المنزل، فرحة المنزل، رائحة وغادية. كانت جميلة، بل أجمل من الجمال، وكانت تبعث في نفوس البحّارة القدماء، أصدقاء السيّد لاتياري ذكريات أميرة في أغنية يردّدها الجنود والبحّارة.

إنها لم تكن تنادي عمّها بغير «يا أبي».

لقد كان يسمح لها بممارسة بعض الأعمال في الحديقة، وفي تدبير المنزل. كانت تسقي أزهارها بنفسها، فتفيد من جو هذه الجزيرة غرناسي، الملائم لاستنبات الزهور. أما طهو الطعام فلم تكن مهارتها فيه أقلّ من مهارتها في استنبات الزهور الجميلة.

كان السيّد لاتياري يسمح لها بهذا كلّه شرط ألا تستعمل المعزق بيدها أو تنظف الأرض بالمشط الحديدي، ولا سيما أن تُسمّد الأرض بيديها اللطيفتين. لقد وضع تحت تصرّفها خادمتين تسمى إحداهما «جمال» وثانيتهما «حلوة» فكانتا تساعدانها في المنزل والحديقة، وكان في وسعهما أن تجعلا أيديهما حمراء قانية.

أما فيما يتعلّق بالسيّد لاتياري فقد كانت غرفته في المنزل، مكاناً صغيراً مطلاً على المرفأ، ومتّصلاً بالبهو الكبير المنخفض للطابق الأرضي، حيث باب الدخول، وحيث تلتقي أطراف سلالم المنزل.

أما «حلوة» و«جمال» فقد كانتا إنسانتين عاديّتين، يبدو فيهما الجانب الطيّب من الكلمة. فحلوة لم تكن فتاة خبيثة، وجمال لم تكن قبيحة أبداً. هذان الاسمان الخطران لم يكن لهما يوماً أي أثر سيئ. كان لحلوة عشيق وهي غير متزوجة. أما جمال الجميلة والمِغْناج، فقد كانت تنظر في الأفق دون توقّف متّسمة بقلق كقلق الهر. ومردّ ذلك إلى أنها وهي ذات صلة بعشيق، كزميلتها، حلوة، متزوّجة من أحد

البحّارة كما يقال، وكانت تخشى عودته إليها. على أن هذا أمر لا يعنينا أبداً. والواقع أن مهارات «حلوة» الممكنة كانت عارية من كل فائدة مع فتاة ذات خفر كداروشات. على أن غرام حلوة وجمال كان غراماً خفياً. فلا شيء منه يعود إلى السيّد لاتياري، كما لا ينعكس شيء منه على داروشات.

9

الرجل الذي اكتشف رانتان

كان السيّد لاتياري يقود المركب دوراند طوال المدّة التي مخر فيها البحر. ثم جاءت الساعة التي فرض فيها عليه أن يأتي بمن يحلّ محلّه. فاختار لهذه المهمّة السيّد كلوبان، من ثورثافال. وقد اشتهر السيّد كلوبان عبر الشاطئ كله بالحزم وطهارة الذيل.

والحقيقة أن السيّد كلوبان كان بحّاراً ذا كفاءة نادرة، وإن كان في مظهره أقرب إلى كاتب عدل منه إلى بحّار. وكان يتمتّع بالمهارة التي تتطلّبها روح المغامرة ذات التشكّل المستمر. فهو شديد التعقّل، حتى أن تعقّله في بعض الأوقات يبلغ حدّ الجرأة، وهي ميزة في حياة البحر كبيرة. لقد كان في نفسه خوف معتدل من المفاجآت المحتملة، تصنعه غريزة الإمكان. إنه من أولئك البحّارة الذين يواجهون الخطر في نسبة معروفة من قبلهم، والذين يعرفون كيف ينتزعون النجاح من كل مغامرة. لقد كان يملك من الثقة كل ما في وسع البحر أن يمنحه للإنسان. والسيّد كلوبان، بالإضافة إلى هذا كلّه بحّار مشهور، لقد كان من هذا النوع من الرجال الذين صلبت أعوادهم برياضات الموج، والذين يبقون في الماء، ما طلب منهم ذلك، والذين يعومون منطلقين من «هافر-دوربا» ثم يعودون إلى نقطة البداية بعد ساعتين اثنتين.

أما أعظم ما جعل السيّد كلوبان موضعاً لثقة السيّد لاتياري فهو ما سبق تحذيره له من رانتان. لقد قال للسيّد لاتياري: إن هذا الرجل سيسرقك في يومٍ من الأيّام. وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك صحّة هذا التحذير.

10

حكايات السفرات الطويلة

كان السيّد لاتياري يحمل دائماً ثياب العمل، كبحّار لا كربّان سفينة، وهو الذي يفقد طمأنينته في أيّ وضع آخر. وإصراره على حمل هذه الثياب كان يلوي أنف داروشات الدقيق إذ ليس هناك أروع من تكشيرات الجمال في حالة الغضب. كانت تضحك وتقول: يا أبي الطيب، بُواهْ! إن فيك رائحة القطران. ثم تربت على كتفه الغليظة.

لقد حمل هذا البطل البحريّ القديم من سفراته قصصاً مدهشة مثيرة. لقد شاهد في مدغشقر ريشات طيور، تكفي ثلاث منها لتغطية سقف منزل. ورأى في بلاد الهند جذوعاً لنبات الحمّاض لا يقلّ ارتفاعها عن تسعة أقدام. ثم رأى في هولندا الجديدة قطعاناً من الديوك الحبشيّة والأوز يحرسها كلب هو من فصيلة الطيور، ومقابر للأفيال، وقروداً من فصيلة الغوريلا، ارتفاع كل منها سبعة أقدام، في أفريقيا. أما في التشيلي، فقد شاهد قردة تحاول أن تستثير شفقة الصيّادين بعرض وليدها الصغير أمامهم. ورأى في كاليفورنيا جذع شجرة قد أفرغ داخله ثم سقط منقصفاً، وهو من الضخامة بحيث يستطيع الفارس أن يخطو فيه مئة وخمسين خطوة. أما في الصين فقد شاهد فريقاً من الناس يقطعون جسد القرصان شان تونغ كوارلاره كو، قطعاً صغيرة، بعد أن قتل شيخ قرية من القرى. وفي مدينة «ترن دو

مو» شاهد أسداً يخطف امرأة عجوزاً في سوق المدينة وفي رابعة النهار. وقد قاتل في الأورغواي قرية من النمل، وفي الباراغواي، شباكاً من الطيور الضخمة ذات الزغب الكثير، بلغ حجم كل منها حجم رأس طفل. أما عند نهر «أرينوس» وهو متفرّع من نهر «توكانتان»، وفي الغابات البكر الواقعة في الشمال من منطقة ديامنتينا، فقد شاهد شعب الخفافيش المخيف، وهو جماعات من الرجال يولدن بشعور بيضاء وعيون حمراء، ويسكنون في ظلمة الغابات، ثم ينامون النهار، ويستيقظون في الليل، ثم يصيدون في الظلمات. هذه القصص أشبه ما تكون بحكايات أسطورية بحيث أنها كانت تسلّي داروشات.

كانت «العبة» دوراند الرباط الذي يصل بين المركب والفتاة. واسم اللعبة في الجزائر النورماندية، يطلق على الرسم المحفور في مقدّم المركب، وهو يكون تمثالاً منحوتاً من الخشب.

والواقع أن «لعبة» دوراند كانت عزيزة على السيّد لاتياري. لقد أوصى النجّار بصنعها شبيهة بداروشات. لقد كانت تشبه ضربات فأس من الفؤوس. إنها قطعة من الحطب تبذل جهداً فائقاً لتكون فتاة جميلة. هذه الكتلة القليلة التشوّه كانت تثير الوهم في نفس السيّد لاتياري. لقد كان يجد فيها ما يجده المؤمن في موضوع تأمله فهو صادق الإيمان أمام هذا الرسم المحفور. وكان يرى فيه داروشات.

وكانت للسيّد لاتياري في كل أسبوع فرحتان، فرحة يوم الثلاثاء وفرحة أخرى يوم الجمعة. الفرحة الأولى حين يرى دوراند يغادر المرفأ والفرحة الثانية حين يراه راجعاً إليه.

وكان دوراند بعد رجوعه إلى المرفأ يربط حبله تحت نوافذ السيّد لاتياري في حلقة من الحديد، مثبّتة في أسفل جدار المنزل. وفي مثل هذه الليالي ينام لاتياري مرتاحاً في غرفته الصغيرة وهو يحسّ بداروشات نائمة من جهة، وبدوراند مربوطاً بأسفل جدار المنزل من جهة أخرى.

لقد كان المكان الذي يربط فيه المركب دوراند مجاوراً لحرس المرفأ. وكان أمام باب منزل لاتياري الخارجي رصيف صغير. هذا الرصيف ثم المنزل والحديقة وأكثر المساكن المحيطة بهما غير موجودة اليوم. إن استثمار الغرانيت في غرناسي قد عرّض هذه المنطقة كلها للبيع. وهي مشغولة الآن بورشات مُكسّري الحجارة.

11

نظرة إلى الأزواج العرضيين

كبرت داروشات ولم تتزوّج.

لقد جعلها السيّد لاتياري فتاة صعبة، حين أراد أن يصنع منها فتاة ذات يدين بيضاوين. ولا شكّ أن هذا النوع من التربية يرتدّ على صاحبه.

أما فيما يتعلّق به هو شخصياً، فقد كان أشدّ صعوبة أيضاً. وكان الزوج الذي يتخيّله لداروشات، أيضاً، وإلى حدٍّ ما، زوجاً لدوراند. كان يريد أن يزوّج فتاتيه بصفقة واحدة ويرغب في أن يجعل من زوج الفتاة ربّاناً لمركبه. وما هو الزوج؟ إنه الربّان في سفرة من السفرات. فلِمَ لا يكون هناك سيّد واحد للفتاة وللمركب! وتدبير شؤون المنزل يخضع للمدّ والجزر. والقادر على قيادة القارب قادر أيضاً على قيادة امرأة. إنهما هدفا كلٍّ من القمر والرياح. أما السيّد كلوبان الذي لم يكن يصغر السيّد لاتياري بأكثر من خمسة عشر عاماً فلا يستطيع أن يكون لدوراند غير سيّد وقتي، ولذلك فقد وجب الإتيان بربّان فتيّ. إن ربّان دوراند النهائي سيكون إلى حدٍّ ما، ختناً للسيّد لاتياري. فلِمَ لا يُمزج الختنان في ختن واحد؟ هذه الفكرة كانت تراوده بصورة مستمرة.

ومهما يكن الأمر، فقد كان العم وابنة الأخ متفقين على عدم العجلة. وقد تقدّم المرشّحون جماعات طالبين يدها حين علموا أنها هي الوارثة المحتملة، وكان السيّد لاتياري يحسّ ذلك ويشعر به. فكان يردّد مزمجراً: فتاة من الذهب، وزوج من النحاس، ثم يصرف المرشّحين.

ومما يلفت النظر، أنه لم يكن حريصاً على الأرستقراطية. من هذه الناحية كان السيّد لاتياري إنجليزياً غير عادي. ومن الصعوبة بمكان أن يصدق البعض أنه قد بلغ في عدم حرصه درجةً رفض فيها يد نبيل من جرسي، وسيّداً من سَرْك. حتى أن البعض لم يتردّد في توكيد هذا الخبر.

12

استثناء في أخلاق لاتياري

في شخصيّة السيّد لاتياري نقيصة كبيرة. لقد كان يكره الراهبان. وفي يوم من الأيّام بينما كان يقرأ في كتاب لفولتير، «الرهبان هم قطط» وضع الكتاب جانباً وسُمِع يردّد بصوت منخفض: أشعر أنني كلب.

ومن الواجب أن نذكر بأن الرهبان، قد قاوموه مقاومة شديدة واضطهدوه بلطف حين بنى «مركب الشيطان». وطبيعي أننا نتحدث هنا عن رجال الدين القدماء، وهم يختلفون اختلافاً تاماً عن رجال الدين العصريين، الذين يتميّزون، بميل متحرر نحو التقدّم. لقد نوهض السيّد لاتياري بمئة طريقة: إن كل ما يمكن إحداثه من الصعوبة والعراقيل عن طريق المواعظ قد استعمل لمناهضته. لقد كان يكره رجال الكنيسة وهم يكرهونه بسبب إقدامه على ما أقدم عليه.

والحقيقة أنه لم يكن في حاجة إلى كره الرهبان له ليكرههم. كان ضدّهم من خلال رأيه فيهم، بل كان ضدّهم بما هو أشدّ من ذلك، بالغريزة. كان يحسّ بوجود مخالبهم الخفية، ولذلك فهو يكشر عن أسنانه. ومن المسلّم به، أن كرهه هذا لم يكن له ما يبرّره دائماً، فهو يرسله على عواهنه. على أن السيّد لاتياري كان من سعة الصدر بحيث أنه لم يستطع أن يكون حقوداً. لقد كان يدفع من يحقد عليهم بأكثر مما يهاجمهم. كان يتجنّب رجال الكنيسة. كانوا يسيئون إليه، وكان يكتفي بالامتناع عن إرادة الخير لهم.

لقد كان في غرناسي، وهي الجزيرة الصغيرة، متّسع لدينَيْن. فهي تحتوي على الدين الكاثوليكي والدين البروتستانتي. يضاف إلى ذلك، أنها لا تضع هذين الدينَيْن، في كنيسة واحدة. فلكل طقس هيكله وكنيسته.

هناك أبرشية سنية وأبرشية زنديقة وفي وسع كلّ امرئ أن يختار. أما اختيار السيّد لاتياري فهو لا هذه ولا تلك.

هذا البحّار، هذا العامل، هذا الفيلسوف، الذي يبدو في مظهره شديد البساطة، لم يكن كذلك في أعماق نفسه. لقد كانت له تناقضاته ومواقفه العنيدة.

كان يسمح لنفسه بإطلاق نكات ساخرة غير ملائمة. وكانت له كلماته الخاصة به. إنها غريبة، ولكنها ذات معنى. فالتوجّه للاعتراف في رأيه هو «ترجيل للضمير».

وكرهه للبابوية لم يكن يقرّبه من البروتستانتية. إنه لم يكن محبوباً من الرعاة البروتستانت أكثر منه من الخوارنة الكاثوليك. وكانت لادينيّته تنفجر دون حدٍّ معيّن أمام أشدّ العقائد خطورة ورصانة. وقد سمع يوماً وهو يقول بهدوء لأحد المؤمنين، أثناء خروجه من الكنيسة: إن موعظة اليوم تصوّر الله مُرعباً، أفلا ترى، أن لي رأياً غريباً في هذا الموضوع، فأنا أتخيّل أن الله طيّب جداً.

هذه الخميرة من الإلحاد قد أتته من سكناه في فرنسا.

وهو وإن كان يتجنّب رجال الدين، إلا أنه لم يكن يغلق بابه دونهم. لقد كان يستقبل في المناسبات الرسمية، وفي الأوقات المطلوبة زيارات رعائية. يزوره الراعي اللوثري، أو الكاهن البابوي. وقد يحدث له، في فترات متباعدة، أن يرافق داروشات إلى الأبرشية البروتستانتية. وقد قيل: إن داروشات نفسها لم تكن تتردّد عليها إلاّ في أعياد السنة الكبيرة الأربعة.

والخلاصة أن هذه التسويات، التي كانت تكلّفه كثيراً، كانت تثيره أيضاً، وبدلاً من أن تعطفه على رجال الكنسية، كانت تزيد وعورته الداخلية.

كان كل رجل من رجال الدين يسوؤه. ولم يكن يميّز ما بين الطقوس من الفروق غير القليلة. كما أنه لم يكن عادلاً فيعترف بما حدث من التقدّم الكبير في القول بعدم الإيمان بالحضور الحقيقي. كان يخلط بين محترمِ دكتور وبين محترمِ أب. فإذا رأى راعياً مع زوجته، ألوى عنهما بنَظره. لقد كان يصرخُ قائلاً: إن ثوباً لا يتزوّج ثوباً أبداً. وكانت الكهانة تبعث في نفسه ما يبعثه الإحساس بالجنس. فالكاهن في رأيه ليس رجلاً وليس امرأة، إنه لا شيء. لقد كان يقول لداروشات: «تزوّجي بمن تشائين شرط ألا يكون زوجك ذا ثوب ديني».

13

عدم الاكتراث هو جزء من الجمال

السيّد لاتياري يتذكّر دائماً الكلمة التي تقال، بينما كانت داروشات تنساها. هنا يجثم الفرق بين العمّ وابنة الأخ.

إن داروشات، التي ربّيت بالأسلوب الذي رأيناه، قد تعوّدت أن تحمل القليل من المسؤولية. فهناك من الخطر الكامن، شيء كثير، في التربية الخالية من الجدّ.

كانت داروشات تعتقد أن كل شيء حسن، ما دامت مسرورة سعيدة. وكانت تشعر أن عمّها فرح بفرحها. وكانت لها تقريباً آراء السيّد لاتياري. وكانت تكتفي من تديّنها بالذهاب إلى الأبرشية أربع مرّات في كل عام. أما من الحياة فتجهل كل شيء. وكانت تملك كل ما تحتاج إليه لتصاب يوماً بجنون الحب. وبانتظار هذا الحب كانت سعيدة مرحة.

إنها تغني، حين يحلو لها الغناء، وتتحدث هذراً حين يحلو لها هذا الحديث، وتعيش لمستقبلها، ثم ترسل كلمتها وتمشي، وتحدث حَدثاً وتهرب. لقد كانت جميلة رقيقة. أضف إلى هذا كله، الحرية الإنكليزية. فالأطفال في إنكلترا يذهبون وحدهم، والفتيات هنّ سيّدات أنفسهنّ، وزمام المراهقة ملقى على كاهل صاحبه. هذه هي العادات.

كانت داروشات تستيقظ في كل صباح وهي غير مكترثة بأعمالها بالأمس. وقد تربكها لو سألتها عما صنعته في الأسبوع الفائت. ولكن هذا لم يكن يمنعها، من الإحساس: في ساعات من الاضطراب، بقلقٍ خفيٍّ، ومن الشعور بمرور غيمة داكنة من الحياة في سماء تفتّحها وفرحها. إن لهذه الآفاق اللازوردية مثل هذه الغيوم. ولكن هذه الغيوم لا تلبث أن تنقشع بسرعة بالغة، فتخرج منها داروشات بقهقهة مرحة، وهي لا تدري لِمَ كانت حزينة ولِمَ كانت سعيدة فرحة. الماضي غير موجود في نظرها، إنها تعيش في غمرة حاضرها فقط. هذا ما يعنيه الكثير من السعادة. فالذكرى عند داروشات تضمحل وتختفي كما يذوب الثلج.

الكتاب الرابع

القربة الموسيقية

1

الحمرة الأولى لفجر أو لحريق

لم يسبق لجيليات أن بادل داروشات الحديث أبداً. لقد كان يعرفها لأنه كان يراها من بعيد.

وفي الفترة التي التقت فيها داروشات جيليات في طريق سان بيار بور وفاجأته بكتابة اسمه على الثلج، كانت في الربيع السادس عشر من عمرها. وكان السيّد لاتياري في الليلة السابقة بالذات قد قال لها: لا تعودي بعد اليوم إلى صبوات الطفولة. فأنت فتاة كبيرة كما ترين.

هذا الاسم «جيليات» الذي كتبته الفتاة، قد سقط إلى أعماق مجهولة.

فما هنّ النساء في رأي جيليات؟ إنه هو نفسه ما كان يجيب عن ذلك. وإذا التقى إحداهنّ فإنه يخيفها كما يخاف منها أيضاً. لم يكن يتحدث إلى أية من النساء إلا في الطرف الأخير من الحديث. وهو لم يكن يوماً أبداً «عشيقاً» لواحدة. لقد كان يتجنّبهنّ جميعاً حتى العجائز

منهنّ. وكان قد رأى في حياته امرأة باريسية، أثناء مرورها بغرناسي.
ورؤية امرأة باريسية في غرناسي حدث عجيب في مثل ذلك العصر البعيد.

وفي صباح عيد الميلاد ذاك الذي التقى فيه داروشات والذي كتبت فيه اسمه على الثلج، رجع إلى منزله دون أن يدرك سبباً لخروجه منه. وامتنع عليه النوم بعد أن هبط الليل. لقد فكر في ألف شيء، - في أنه يحسن صنعاً لو زرع فجلاً أسود في حديقته، وأن المعرض كان جيداً ناجحاً، وأنه لم يشهد مرور مركب سَرْكْ، وتساءل عما عسى أن يكون قد أصاب هذا المركب؟- وأنه قد رأى نوعاً من الزهور يندر ظهوره في ذلك الموسم. إنه لم يكن يعرف أبداً حقيقة علاقته بالمرأة المتوفّاة. وقد قال في نفسه، إنها يجب أن تكون أمًّا له، ثم أخذ يفكر فيها بحنان مضاعف. كما فكّر في جهاز المرأة الموجود في الحقيبة الجلدية. وفكّر أيضاً أن المحترم جاكمان هيرود قد يصبح يوماً كاهن سان بيار بو الأوّل، وأن مركز رعوية سان سامبسون سيصبح خالياً ممن يشغله. وفكّر أن اليوم التالي لعيد الميلاد سيكون اليوم القمري السابع والعشرين، وبالتالي أن المدّ البحري سيكون أقصاه في الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة والعشرين، وأن المدّ الوسطي في السابعة والربع، وأن الجزر الكامل سيكون في التاسعة والدقيقة الثالثة والثلاثين. وأخذ يتذكّر أدقّ تفصيلات الثوب الذي كان يلبسه الجندي الأيقوسي الذي باعه القربة الموسيقية.

ونام في اليوم التالي، ولكنه حلم ليله كله بالجندي الأيقوسي. ثم حلم أيضاً بالراعي العجوز جاكمان هيرود. وبعد أن استيقظ أخذ يفكّر في داروشات، فاستشاط ضدها غيظاً وغضباً، وأسف في أنه لم يعد طفلاً صغيراً، لأنه لو كان كذلك لقذف زجاج نوافذها بالحجارة.

ثم فكّر في أنه لو كان صغيراً لكانت له أم ترعاه، وانطلق

يجهش باكياً.

ورسم في نفسه خطة قضاء ثلاثة أشهر في شُوْزَى أو في مَنْكْيَا، ومع ذلك فإنه لم ينفّذ ما رسمه لنفسه.

ثم لم يعد بعد ذلك أبداً إلى طريق سان بيار بور من الفال.

وكان يتخيّل أن اسمه، جيليات، قد بقي محفوراً على الأرض وأن المارّة كلهم ينظرون إليه.

2

الدخول إلى المجهول خطوة خطوة...

ولكنه على العكس من ذلك يرى في كل يوم منزل لاتياري. وهو لم يكن يقصد ذلك بالطبع، لكن طريقه اليومية تقوده إليه. لقد كان يجد نفسه متّجهاً في الطريق التي تسير على امتداد جدار حديقة داروشات.

وفي صباحٍ، وبينما كان يسير في هذه الطريق بالذات، سمع امرأة من السوق، عائدةً من منزل داروشات، تقول لأخرى: إن الآنسة لاتياري تحبّ نوعاً من الملفوف، طعمه طعم الهليون.

فلم يلبث أن أفرد في حديقته ركناً لزراعة هذا الملفوف ذي الطعم الهليوني.

وكان جدار حديقة داروشات شديد الانخفاض، وفي وسع كل إنسان أن يمرّ عبره. إن فكرة اجتياز الجدار تبدو له مخيفة رهيبة. ولكنه لم يكن ممنوعاً من الاستماع إلى أصوات الأشخاص الذين كانوا يتحدّثون في الغرف أو في الحديقة، شأنه شأن كل الناس، أثناء مروره بالقرب من المنزل. إنه لم يكن يقصد الاستماع ولكنه كان

يسمع. وفي يوم من الأيّام بلغت أذنيه أصداء مشادّة بين الخادمين: حلوة وجمال. لقد كانت ضجّة في المنزل. وقد بقيت هذه المشادّة في أذنه وكأنها لحن موسيقي.

وفي مرة أخرى، سمع صوتاً لا كالأصوات الأخرى، وبدا له أن هذا الصوت هو صوت داروشات، فولّى هارباً.

ثم أخذت جرأته تتزايد متدرّجة. فوجد الشجاعة على الوقوف، وقد حدث يوماً أن داروشات، التي تستحيل رؤيتها من الخارج رغم أن نافذتي غرفتها مفتوحتان، كانت تجلس إلى بيانها وتغني. لقد كانت تنشد أغنيتها المحببة «بُوني داندي» فاصفرّ لونه، ولكنه أمسك بأنفاسه وجرؤ على الاستماع إلى هذه الأغنية.

وجاء الربيع. وأتت جيليات رؤيا جميلة، وانفتحت أمامه أبواب السماء. فرأى فيها داروشات ترشق زهور الخس بالماء.

وهنا لم يلبث حتى جاوز حدّ الوقوف. لقد راقب عاداتها، ولاحظ مواعيدها، وأخذ ينتظرها.

كان يحاول جهده ألا يظهر أمام عينيها.

وفي الوقت الذي كانت تمتلئ فيه البطاح بالفراشات والأزهار، تعوّد شيئاً فشيئاً على الوقوف ساعات طويلة، مختبئاً وراء هذا الجدار، ليرى داروشات رائحة غادية في الحديقة.

كان في الغالب، يسمع من مخبئه، داروشات تتحدث مع السيّد لاتياري. أما العبارات المتبادلة فتصل إليه واضحة جليّة.

واكتشف أذواق داروشات فيما يتعلّق بالروائح الطيبة من خلال الأزهار التي كانت تنحني لقطفها وشمّها. لقد كانت تفضّل رائحة زهر اللبلاب، ثم القرنفل، ثم زهر العسل، فالياسمين. أما الورد فيحلّ في الدرجة الخامسة. أما الزنبق فتنظر إليه ولا تشمّه.

وكان شعر جيليات يَقِف لمجرد تفكيره في توجيه الكلام إلى داروشات. وقد لاحظت، في نوع من الغموض، متسوّلة متجوّلة عجوز كانت تسوقها مهنتها من وقت لآخر إلى اجتياز الطريق المتجهة على امتداد سياج منزل لاتياري، مجيء جيليات المستمر إلى جوار هذا الجدار، وتبتله الغريب في هذا المكان القفر. فهل كانت تربط حضور هذا الرجل أمام الجدار بحب محتمل مع امرأة وراءه؟ هل كانت تلاحظ هذا الخيط المبهم الغامض؟ وهل كانت قد بقيت، في رثاثتها المتسوّلة، محتفظة بما يكفي من فتاتها لتتذكر شيئاً من سنواتها الجميلة، وهل كانت تدرك في غمرة شتائها وليلها معنى الفجر؟ نحن نجهل ذلك. ويبدو في مرّة من المرّات أنها قد وجهت إلى جيليات، وهي تمرّ بالقرب منه أثناء جولتها العادية، كل ما كانت قادرة على توجيهه من الابتسام ثم أردفت بين لثّتيها في صوت منخفض قائلة:

- إنه شيء يبعث الدفء والحرارة.

وسمع جيليات هذه الكلمات، فنزلت عليه شديدة عنيفة، وأخذ يدمدم مع علامة استفهام داخلي:

- إنه شيء يبعث الدفء والحرارة؟

3

اللحن بوني داندي يجد صدى في الهضبة

وراء سياج حديقة داروشات قضى جيليات فصل الصيف كله. كان يجلس فوق حجر بين العشب. كل شيء حوله ممتلئ بزقزقة الطيور وأناشيدها. وكان يمسك جبهته بيديه ويتساءل قائلاً: ولكن... لم كتبت اسمي على الثلج؟ وكان جيليات قد سمع أمه تقول: إن النساء قد يغرمن بالرجال، وإن هذا الغرام قد يحدث في بعض

الأوقات. فيجيب نفسه: لقد فهمت، إن داروشات مغرمة بي. كان يحس حزناً عميقاً في نفسه. وكان يقول: ولكنها هي أيضاً تفكر بي من جانبها، هذا شيء حسن. وكان يفكر أيضاً في أن داروشات غنية وأنه هو شخصياً فقير. ثم يرى أن المركب البخاري هو اختراع ممقوت كريه.

وفي إحدى الأمسيات، كانت داروشات تدخل غرفتها لتنام. فاقتربت من النافذة لتغلقها. والليل شديد السواد. وفجأة أصخت بسمعها. لقد كان في غمرة هذا السواد لحن موسيقي. إن واحداً من الناس يحتمل أن يكون عند سفح الهضبة، أو عند أقدام أبراج قصر الفال، أو قد يكون أبعد قليلاً، يوقع لحناً موسيقيًا على إحدى الآلات. وقد عرفت داروشات في هذه الموسيقى لحنها المفضل - بُوْنِي داندي- ترسله قربة موسيقية. ولكنها لم تفهم شيئاً من ذلك.

ومنذ ذلك الوقت، تجدد هذا اللحن بين فترة وأخرى، في الساعة عينها، ولا سيما في الليالي المظلمة.

أما داروشات فلم تكن تحب ذلك كثيراً.

4

ومرت أربع سنوات.

واقتربت داروشات من ربيعها الواحد بعد العشرين وهي ما تزال غير متزوّجة. لقد كتب أحدهم في مكان ما: - الفكرة المركزة في حقيقتها مثقب. إنها تغوص دورة واحدة في كل عام. فإذا أريد انتزاعها في العام الأول انتزعت معها شعورنا، أما في العام الثاني فتمزق معها جلودنا. وأما في العام الثالث فتكسر معها عظامنا، فإذا جاء العام الرابع انتزع معها مخّنا كله.

وكان جيليات في عامه الرابع هذا.

لم يكن بعد، قد وجّه كلمة واحدة إلى داروشات. لقد كان يفكّر فيها فقط.

وحدث يوماً أنه رأى داروشات، وقد قادته المصادفة إلى سان سامبسون، وهي تتحدث مع السيّد لاتياري أمام باب منزلهما المطلّ على المرفأ فغامر جيليات بالاقتراب قليلاً منهما. وقد اعتقد واثقاً أنها كانت تبتسم في البرهة التي مرّ بها. وليس في ذلك ما يستحيل حدوثه.

وكانت داروشات تسمع دائماً لحن القربة الموسيقية من وقتٍ لآخر. هذه القربة الموسيقية كان يسمعها السيّد لاتياري أيضاً. وقد انتهى به الأمر إلى ملاحظة الإلحاح المستمر في توقيع هذا اللحن الموسيقي تحت نوافذ داروشات. والموسيقى رقيقة. ورقّتها ظرف يزيد من بشاعة الجريمة. إن العشق الليلي لم يكن مما يسرّ السيّد لاتياري. لقد كان يريد تزويج داروشات في اليوم المعين، حين تريد هي، ويريد هو أيضاً، وببساطة تامّة، دون موسيقى ودون غرام ملتهب. وراح يراقب صاحب هذا اللحن، بعد أن عيل صبره، فخيّل إليه أنه قد تبيّن شبح جيليات في الظلمة الدامسة.

وهنا غرس أظافره في شعر لحيته، علامة غضبه، وراح يردّد في همهمة واضحة: ما شأن هذا الحيوان في ختله وخداعه؟ إنه يحب داروشات. هذا شيء واضح جليّ. إنه يضيّع وقته. إن على من يريد داروشات أن يتوجّه إليّ، لا أن ينفخ في الناي.

وقد تحقق بعد ذلك حدث منتظر منذ زمن بعيد. لقد أعلن أن المحترم جاكمان هيرود قد سُمّي وكيلاً لأسقف وينتشستر، عميد الجزيرة، وراعي سان بيار بور، وأنه سيغادر سان سامبسون إلى سان بيار مباشرة بعد وصول خلفه إليها.

ولم يكن في وسع هذا الخلف أن يتأخر في وصوله. لقد كان هذا الكاهن ذا نسب نورماندي، إنه السيّد «جو إِبِينَازْرْ كُوْدْرَاي» وكان يقال: إنّه شاب وفقير، لكن شبابه قد داخله كثير من التعقيد، كما أن فقره متصل بكثير من الأمل. إن الموت في اللغة الخاصة المخترعة في عالم الوراثة يدعى أملاً. لقد كان ابن الأخ لعميد سان آزاف العجوز الثري، ووارثه. فإذا مات هذا العميد أصبح غنيًّا. وكانت للسيد إيبينازر كوداري قرابات ممتازة، حتى ليكاد يتصف بصفة الشريف.

5

النجاح العادل موضوع كراه دائم

فيما يلي الوضع الحقيقي للسيّد لاتياري في ذلك الوقت. لقد وفى المركب دوراند بكل ما تعهّد به. فدفع السيّد لاتياري ديونه كلها، وأصلح ما فسد من أمره وسدّد ديون بريم، وواجه كل احتمالات سان مالو. ثم أصبح مالكاً لرأسمال منتج كبير هو دوراند. وبلغ دخل السفينة السنوي الصافي ألف ليرة استرلينية بالإضافة إلى أنه كان في تصاعدٍ مستمر. لقد كان دوراند، بتعبير أدقّ، ثروته كلها. وثروة البلد أيضاً.

وكانت قد مرّت عشرة أعوام على سرقة رانتان.

كما كان لحالة اليسار التي صنعها المركب دوراند جانب ضعف، ذلك أن هذا المركب لم يكن يوحي بالثقة، لقد كان الناس يعتقدون أنه وليد المصادفة. ولذلك اعتبر وضع السيّد لاتياري استثناء من القاعدة ووجدوا فيما عمله جنوناً سعيداً وناجحاً. لقد فشل رجل آخر حاول تقليده في جزيرة وايت من منطقة «كوز» وأفقرت هذه

التجربة كل المساهمين في بناء مركبه. أما السيّد لاتياري فكان يقول: لقد كان صنع المحرّك فاسداً. ويهزّ الناس رؤوسهم غير مصدّقين. إن حقد الناس على كل جديد هو العامل الذي يعرقل سيره، وإن أقل عثرة من العثرات تعرّضه للفضيحة. لقد كانت رؤوس الأموال تصرّ على استعمال الشراع وتجنّب المراجل البخارية. ودوراند في غرناسي كان شيئاً واقعاً، ولكن البخار لم يكن مبدأ يؤخذ به. هذا هو إصرار السلبية الملح أمام التقدمية الناجحة. كان يقال عن لاتياري: هذا حسن، ولكنه لن يعاود فعلته أبداً. إن مثله، كان أبعد من أن يشجّع الآخرين. لقد كان يخيفهم. إن أحداً من الناس لم يجرؤ على المغامرة في بناء «دوراند» آخر.

6

الحظ الذي أصاب هؤلاء الغرقى بالتقائهم لسفينة ذات قلع(*) واحد

يحدث تعادل الليل والنهار في بحر المانش باكراً. وبحر المانش بحر ضيق يزعج الرياح ويثيرها. فلا يكاد شهر شباط أن يدخل حتى تبدأ رياح الغروب بالهبوب، وتهتزّ الأمواج من كل جانب. أما السفر فيصبح مصدر قلق شديد، ورجال الساحل ينظرون قلع الإشارة، فلا يشغلهم غير السفن التي يمكن أن تتعرض للكارثة. ويبدو البحر وكأنه كمين دائم. إن تغيراً خفياً يعلن حرباً خفية أيضاً، ويضطرب الأفق بسبب ضربات شديدة توجّهها زفرات ثائرة، فالريح

(*) قلع: شراع سفينة.

شديدة مخيفة. والظلال تصفر وتنبح. أما في أعماق الضباب فإن صفحة العاصفة السوداء تنفخ وجنتيها.

الريح خطر شديد، ولكن الضباب خطر آخر.

والمسافرون في البحر يخافون الضباب في كل زمن.

والحقيقة أن ضباب الفترة التي يتعادل فيها الليل والنهار، في كل المناطق المحيطة ولا سيما في بحر المانش هو ضباب خطر. وهو يرسل موجة مفاجئة من الليل فوق البحر. ومن مخاطر هذا الضباب، حتى حين لا يكون غليظاً جداً، أنه يحول دون التعرّف إلى تبدّل الأعماق عن طريق تغيّر لون الماء، فتنتج عن ذلك تخبئة مخيفة لمواطن الصخور والمناطق ذات القعر القريب. فنحن قد نقترب من الصخرة دون أن نجد ما يحذّرنا منها. والغالب أن الضباب لا يمنح السفينة الماخرة ملجأ لها غير أن تتعطل أو تلقي مرساتها. فهناك من كوارث الضباب في البحر ما يعادل كوارث الرياح.

ومع ذلك فإن سفينة البريد «كاشمير» ذات القلع (الشراع)الواحد قد وصلت سالمة من إنجلترا بعد عاصفة عنيفة تلت يوماً من أيام هذا الضباب. ودخلت السفينة إلى سان بيار بور عند إشراقة أول شعاعة للشمس خارجة من البحر، في الوقت الذي كان فيه قصر «كورنا» يقذف طلقة من مدفعه نحو الشمس الساطعة. كانت السماء قد صفت، والجميع ينتظرون السفينة «كاشمير» باعتبارها تحمل راعي سان سامبسون الجديد. وبعد وصولها بقليل، سرت في المدينة شائعة تقول: إن زورقاً من الزوارق الملحقة بالبواخر قد اقترب منها في الليل في عرض البحر وهو يحمل بحارة سفينة غارقة.

7

الحظّ الذي أصاب هذا الهائم المتشرّد بأن وقع عليه نظر هذا الصيّاد

في تلك الليلة، ذهب جيليات يصيد في ماء البحر، بعد أن هدأت الريح ووهنت، ودون أن يبتعد كثيراً عن الشاطئ.

وبينما كان راجعاً مع المدّ المرتفع، نحو الساعة الثانية بعد الظهر، وتحت شمس جميلة، مارًّا أمام «قرن الحيوان» ليبلغ مرساه في «البو دو لارو» بدا أنه يرى فيما تعكسه كرسي «جيلد هولم أور» ظلاً ليس ظل الصخرة. فاقترب بقاربه من هذه الجهة، وتبيّن له أن رجلاً كان يجلس على كرسي «جيلد هولم أور». كان البحر شديد الارتفاع، والصخرة محاطة بالموج من كل جانب، والعودة منها غير ممكنة. فأشار جيليات إلى الرجل بحركات كبيرة. ولكن الرجل بقي جامداً لا يتحرك. واقترب جيليات. فوجد الرجل غارقاً في نومه.

كان هذا الرجل يلبس ثياباً سوداء. وفكّر جيليات في نفسه أن مظهره هو مظهر كاهن. فازداد منه اقتراباً وإذا به أمام وجه مراهق.

كان هذا الوجه غريباً عنه.

وكان من حسن الحظ أن المدّ قد ارتفع بالقارب بحيث استطاع جيليات بعد وقوفه فوقه أن يبلغ بكفّيه قدمي الرجل. وانتصب فوق طرف القارب ورفع يديه. ولو أنه سقط في تلك البرهة لكان من المشكوك فيه أن يظهر ثانية فوق الماء.

ثم جذب قدم الرجل النائم.

- «ها، ماذا تصنع هنا؟».

قال الرجل: «إنني أنظر».

ثم استيقظ تماماً وأردف يقول:

«لقد وصلت إلى هذا البلد، ومررت من هنا وأنا أتنزّه، وقضيت الليل في البحر، فوجدت المشهد جميلاً، وكنت تعباً فنمت».

قال جيليات: «كنت ستغرق حتماً بعد عشر دقائق فقط».

- «باه!».

- «اقفز إلى القارب».

وأمسك جيليات المركب بقدمه، ثم تعلّق بالصخرة بيد ومدّ اليد الثانية إلى الرجل ذي الثوب الأسود الذي قفز خفيفاً إلى القارب. لقد كان شاباً جميلاً جداً.

وبعد دقيقتين وصل جيليات بقاربه إلى «البو دو لارو».

كان الفتى يلبس قبّعة مستديرة وعقدة رقبة بيضاء. أما معطفه الطويل الأسود (ريدانجوت) فهو مزرّر حتى عقدة رقبته. وكان شعره أشقر على هيئة تاج، أما وجهه فرقيق فيه أنوثة، ونظراته صافية كالبلور، وله هيئة مهيبة.

في هذه الأثناء كان قاربه قد لمس اليابسة. فأمرّ جيليات حبله في حلقة المرسى، ثم التفت نحو الفتى، ورأى يده الشديدة البياض تقدّم إليه قطعة ذهبية.

فأبعد جيليات اليد الممدودة بلطف.

وران صمت بينهما. ثم قطعه الفتى قائلاً:

- «لقد أنقذت حياتي».

فأجاب جيليات: «ربما كان ذلك».

وخرجا من القارب.

وعاد الفتى يقول:

- «أنا مدين لك بحياتي أيها السيّد».

- «وما معنى ذلك؟».

وسأله الفتى: «هل أنت من هذه الخورنية؟».

فأجابه جيليات: «لا، أنا من خورنية السماء».

فحيّاه الفتى وتركه.

ثم توقف بعد خطواتٍ قليلة، وفتّش في جيبه، وأخرج كتاباً ثم رجع إلى جيليات فقال وهو يقدّمه إليه.

- «اسمح لي أن أقدّم هذا إليك».

فأخذ جيليات الكتاب، ووجد أنه كتاب التوراة.

بعد قليل كان جيليات ينظر إلى الفتى وهو يغيب وراء زاوية الطريق المتّجهة نحو سان سامبسون وهو متكئ على حاجزه.

ثم خفض رأسه قليلاً قليلاً، ونسي العابر الجديد، ولم يعد يعرف ما إذا كانت «جيلد- هولم- أور» موجودة أم لا، واختفى كل شيء في نظره في غمرات حلمه اليقِظ. لقد كانت لجيليات هوّة، هي داروشات.

وأخرجه من هذه الظلال صوتٌ يناديه:

- «ها، جيليات».

- « ما الذي حدث أيها السيّد لاندوا؟».

والواقع أن السيّد لاندوا كان مارًا على بعد مئة خطوة من «البو دو لارو» في مركبته التي يشدّها حصانه الصغير. لقد توقّف قليلاً لينادي جيليات، ولكنه كان يبدو مشغول البال شديد العجلة.

- «هناك جديد يا جيليات، وهو في منزل لاتياري».

- «وما ذاك؟».

- «أنا بعيد جداً لأقصّ عليك القصّة».

وسرت القشعريرة في جسد جيليات.

- «هل تتزوّج الآنسة داروشات؟».

- «لا. ولكن اذهب إلى منزل لاتياري. فستعرف ما يجري هناك».

الكتاب الخامس

المسدس

1

محادثات الحانة جان

كان السيّد كلوبان الرجل الذي ينتظر حدثاً.

فهو صغير أصفر اللون مع قوّة كقوّة ثور. وكان البحر قد عجز عن أن يلفح وجهه. أما لحمه فيبدو وكأنه صنع من الشمع. وكانت ذاكرته ذاكرة خاصة لا تضطرب ولا تتزلزل. وكان السيّد كلوبان قليل الكلام في حزم ظاهر وكان صبوراً وبارداً. وقد سبق أن قلنا: إنّه من أمهر البحّارة. أما شهرته في دينه وطهارة ذيله فلا تدانيها شهرة أبداً. كانت تربطه رابطة صداقة شديدة بالسيّد رابوشا. الصرّاف في سان مالو شارع سان فنسان إلى جانب صانع الأسلحة وبائعها. وكان السيّد رابوشا يقول: «إنني مستعد لتسليم دكّاني إلى كلوبان لحراستها». وكان السيّد كلوبان قد فقد امرأته. إنها ماتت وهي تحيط بها هالة فضيلة لا تنتهك أبداً. يقولون إن السيّد كلوبان قد دخل يوماً إلى حانة في «سان سرفان» وقال لصاحبها: «لقد أفطرت هنا منذ ثلاث سنوات وأخطأت أنت في جمع الحساب».

ثم دفع لصاحب الحانة خمسة وستين سنتيماً.

كان يقود المركب دوراند من غرناسي إلى سان مالو في كل ثلاثاء. فَيَصِل إلى سان مالو مساء اليوم نفسه، ثم يبقى فيها يومين لتحميل المركب، ويعود إلى غرناسي صباح الجمعة.

وكان في مرفأ سان مالو في هاتيك الأيام فندق صغير يدعى «حانة جان».

والسيّد كلوبان كان يبيت في حانة جان. لأن مكتب دوراند الفرنسي قائم فيها.

أما حرّاس الشواطئ ورجال الجمارك فقد كانوا يأتون إلى هذه الحانة يتناولون طعامهم وشرابهم فيها على منضدة خاصة بهم. كما كان أصحاب سفن يأتون إليها أيضاً، ولكنهم يأكلون على منضدة أخرى.

أما السيّد كلوبان فيجلس تارة إلى هذه المنضدة وتارة إلى تلك، ولكنه كان يفضّل منضدة رجال الجمارك. والمنضدتان تستقبلانه بحفاوة بالغة.

ومنضدة أصحاب السفن مرؤوسة من قِبَل ربّان عجوز، في تاريخه سفرات طويلة، هو السيّد «جَرْتْرَى غابورو». والسيّد جَرْتْرَىْ لم يكن رجلاً بل ميزاناً لتقلّبات الأجواء. إن طول معاناته لحياة البحر قد منحته عصمة مدهشة في التّنبّؤ بالأحوال الجويّة. لقد كان يعين دائماً حالة الجو لليوم التالي. فهو يتفحّص الريح، ويجسّ نبض المدّ، ويقول للغيم: أرِني لسانك. نقصد بذلك خفق البرق في السماء. إنه طبيب الموج، والنسيم، والهواء العاصف. والبحر المحيط هو مريضه الخاص، لقد قام بدورة حول العالم كما يقوم الطبيب بدورة في غرف عيادته، ممتحناً كل جوّ من الأجواء في حالتي الصحة والمرض، وكان على معرفة تامّة بأحوال الفصول

المَرَضِيّة. وقد كان يُسمع معدداً وقائع كما يلي: لقد نزل ميزان التقلّبات الجويّة في مرّة من المرّات، ثلاثة خطوط تحت العاصفة، عام 1796. وكان بحّاراً لأنه يحب حياة البحر. وكان يكره إنكلترا بقدر ما كان يكن من الصداقة للبحر.

ومن النادر جداً أن يكون موضوع المحادثة هو نفسه حول منضدة أصحاب السفن ومنضدة الجمركيين. على أن هذه الواقعة النادرة قد حدثت على التحديد في الأيام الأولى لشهر شباط حيث قادتنا الوقائع التي نقصّها عليكم. ذلك أن الربّان زُوَالا، راجعاً من التشيلي، قد لفت الأنظار في المنضدتين. كان الحديث حول منضدة أصحاب السفن يتناول سفينته، وكان حول منضدة الجمركيين يتناول هيئته الخارجية وسلوكه الظاهري.

لقد كان الربّان زُوَالا، مواطناً تشيليًا فاشترك مستقلاً في حروب الاستقلال، فهو تارة مع بوليفار، وتارة أخرى مع موريللو تبعاً لمصلحته الخاصة. لقد كان واحداً من هذا الحزب الكبير الذي يمكن أن نسمّيه حزب الانتفاع والكسب. وكان يمضي في فرنسا بين فترة وأخرى صفقات تجارية، كما كان يتيح الفرصة مختاراً لمن شاء من الناس أن يهرب على ظهر سفينته، سواء أكانوا من المفلسين الاحتياليين أو من السياسيين الملاحقين، حين يدفعون بدل السفر. وكانت طريقته في التهريب بالغة البساطة: الهارب ينتظر عند نقطة خالية من الساحل، فإذا جاء وقت إقلاع سفينة زُوَالا، انفصل عنها قارب صغير وتوجّه إلى حيث ينتظر الهارب ليوصله إلى هدفه.

لقد كانت هاتيك الأيام عصر الهرب والتهريب. فكل محاولة للإصلاح كانت تعتبر محاولة رجعية، وعلى ذلك فالثورات تحدث هجرات كثيرة، والمحاولات الإصلاحية تحدث سياسيين مُلاحَقين. وفي أثناء السنوات السبع أو الثماني الأولى بعد رجوع البوربونيين إلى

الحكم، كانت الفوضى المخيفة في كل شيء، في المال، والصناعة، والتجارة تحسّ باضطراب الأرض من تحت أقدامها، وكانت الإفلاسات التجارية تتعاقب باستمرار شديد. وأما في السياسة فقد شاع المثل القائل: «انج بنفسك فقد هلك كثير غيرك». ولقد عقدت المحاكم الاستثنائية في كل مكان. وكان همّ الجميع هو التفتيش عن ملجأ أمين يلجأون إليه. فإذا ورط أحدهم في قضية من القضايا ضاع أثره، أما إذا وجّه إليه اتهام فقد نفذ فيه حكم الإعدام. كان الهاربون يذهبون إلى تكساس، إلى الجبال الصخرية، وإلى بيرو والمكسيك. إن الهرب من الوطن هو مصدر السلامة. ولكن الهرب شيء عسير، فليس هنالك شيء أقلّ منه بساطة: هذه الكلمة تحتوي على مَهَاوٍ كثيرة. كل شيء يبدو عقبة معرقلة أمام من يحاول الهرب. والهرب يعني التخفّي. إن رجالاً كثيرين، ومنهم رجال لامعون، قد توسّلوا أساليب المجرمين. لنتصوّر البراءة وهي مرغمة على التصنّع والتمويه، والفضيلة التي تضطر إلى تلفيق صوتها وتغييره، والمجد وهو مرغم على الاختفاء وراء قناع خارجي! فهذا المسافر ذو الهيئة المشبوهة شخص مشهور يحاول الحصول على جواز مزوّر. كما أن التصرفات الباعثة على الشبهة، لرجلٍ هارب لا تستطيع أن تثبت لنا بأن الهارب أمامنا هو بطل من الأبطال.

ومن وراء محاولات الفرار التي يقوم بها الفضلاء من الناس كان هناك لصوص وصعاليك يهربون أيضاً في ظروف أقل خضوعاً للمراقبة والشبهة. فقد يحدث أن لصاً، مرغماً على الهرب، لا يحسن الاستفادة من فوضى الفرار. فينخرط بين الرجال الملاحقين، ويبدو في الغالب، وبفضل المران الطويل، أكرم مظهراً من الرجل الكريم نفسه. فليس أدعى إلى التعثّر من أن يكون الرجل الفاضل ملاحقاً من قِبَل العدالة. إنه لا يعرف شيئاً من عالم اللاشرعية، فهو يرتكب الخطأ تلو الخطأ.

هذا شيء غريب نلاحظه. إن في وسعنا القول تقريباً، بأن الهرب يسوق المرء إلى كل غاية وهدف، ولا سيما بالنسبة إلى الأراذل من الناس. إن كمية الحضارة التي يحملها معه من باريس أو لندن رجل وغد حقير هي بمثابة البائنة التي توصي به، وتجعل منه رائداً في البلدان البدائية أو البربرية. إنه لا يتعذّر مع مثل هذه المغامرة أن ينتقل بها صاحبها من ملاحقة القانون له هنا ليصل هناك إلى مرتبة الكهنوت. لقد كان في عمليات الاختفاء هذه نوع من اصطناع الخوارق والمعجزات، فأكثر من فرارٍ واحد قد أنتج نتائج خيالية لا تحدث إلا في الحلم. إن هرباً من هذا النوع يقود دائماً إلى المجهول وإلى عالم وهمي.

فهذا واحد من المفلسين الاحتياليين خرج من أوروبا ثم ظهر بعد عشرين سنة وزيراً كبيراً في منغوليا أو ملكاً في تسمانيا.

إن المساعدة على الهرب قد كانت صناعة قائمة. ونظراً لتكاثر حوادث الهرب، فقد أصبحت هذه الصناعة صناعة مربحة.

2

كلوبان يرى أحدهم...

كان زُوَالا يأتي في بعض المرّات إلى حانة جان لتناول طعامه. وكان السيّد كلوبان يعرفه من وجهه.

على أن السيّد كلوبان لم يكن ذا صلف وتكبّر، فلا يزدري فكرة أن يكون عارفاً بقطّاع الطريق من وجوههم. وقد يتجاوز هذه المعرفة فيعقد معهم صلة مباشرة، واقعية، يصافحهم في وسط الشارع ويحيّيهم. لقد كان يستعمل اللغة الإنكليزية مع قاطع الطريق ويتحدّث

بالإسبانية مع المهرّب. وله في ذلك حِكَم معروفة. لقد كان يقول: في وسعنا أن نخرج بالطيب من معرفة الخبيث. إنني أتذوّق في الرجل الحقير ما يتذوّقه الطبيب في السمّ إلخ... وكان الجميع يؤيّدون الربّان كلوبان في آرائه، هذه. ومن هو الذي كان يجرؤ على الانتقاص من قدره أو الطعن فيه؟ إن كل ما كان يصنعه هو في مصلحة المهنة. وهل في وسع البَلّور أن يتّسخ؟ كانت هذه الثقة هي المكافأة العادلة لفضيلة بعيدة العهد، فمهما صنع كلوبان كان الناس يرون فيه خبثاً في اتجاه الفضيلة. لقد أصبحت العصمة بالنسبة إليه شيئاً مكتسباً له. وكانت عفّته تخرج مع كل اتصال متميّز بالبراعة والمهارة. هذا جانب من جوانب شخصية الرجل الفاضل، بل هو من أهمّ صفاته. لقد كان السيّد كلوبان من أولئك الرجال الذين إذا وقعت عليهم الأنظار وهم في غمرة محادثة صميمية مع لصّ أو قاطع طريق، قوبلوا بتفهّم عميق واحترام متزايد.

كانت السفينة «تاموليباس» قد أكملت حمولتها. وبدأت تتهيّأ لمغادرة المرفأ.

وفي مساء ثلاثاء وصل المركب «دوراند» إلى سان مالو والسماء ما تزال مضيئة. وقد شاهد السيّد كلوبان على الشاطئ الرملي، وفي مكان شديد الانفراد، رجلين يتبادلان الحديث، فوجّه منظاره البحري إليهما وعرف منهما الربّان زُوَالا. ويبدو أنه قد عرف الآخر أيضاً.

كان هذا الآخر طويل القامة وقد وخطه قليل من الشيب. وكان يعتمر بقبعة عالية. ومن المحتمل أن يكون من طائفة «الكويكر».

عندما وصل إلى الحانة «جان» عرف السيّد كلوبان أن السفينة «تاموليباس» تستعدّ للإقلاع خلال عشرة أيام.

وعُرِف بعد ذلك أنه قد بلغه معلومات أخرى بشأنها.

وعند هبوط الليل دخل إلى مخزن صانع الأسلحة في سان فنسان وقال له:

- «هل تدري ما هو المسدس؟».

- «فأجاب صانع الأسلحة نعم. إنه أميركي».

- «إنه طَبَنْجَة تبدأ الحديث وتعيده».

- «هذا صحيح، يا سيّد كلوبان. إنه ماسورة دوّارة».

- «أريد مسدساً ذا ست مواسير».

- «ليس عندي مثل هذا المسدس».

- «كيف ذلك، وأنت صانع أسلحة؟».

- «إنني لم أحصل بعد على هذه السلعة».

- «يا للشيطان! ».

- «عندي طَبَنْجات جيّدة جداً».

- «أريد مسدساً».

- «أعتقد أن في سان مالو مسدساً واحداً مستعملاً فقط».

- «مسدس للبيع؟».

- «نعم».

- «أين هو؟».

- «أعتقد أنني أعرف المكان. سأستعلم عنه».

- «متى تستطيع أن تحمل الجواب إليّ؟».

- «في سفرتك القادمة».

قال كلوبان:

- «لا تقل إن هذا المسدس لي أنا.. ».

3

كلوبان يحمل متاعاً ولكنه لا يعود به أبداً

قام السيّد كلوبان بتحميل مركبه «دوراند» ونقل إليه عدداً من الثيران وبعض المسافرين، ثم غادر سان – مالو، على عادته متّجهاً إلى غرناسي صباح الجمعة.

ولم يكد «دوراند» يبلغ عرض البحر في يوم الجمعة هذا، حيث يسمح للربّان بالتغيّب عن مركز القيادة لفترات قليلة من الزمن، حتى دخل كلوبان إلى غرفته الخاصة وأغلق بابها على نفسه، وأخذ كيساً على صورة حقيبة كان يملكه، ووضع ثياباً في قسم مطاطي منه، ثم بسكويتاً، وبعض الأطعمة المحفوظة، وبضعة أوزان من الكاكاو، وكرونومتر، ومنظاراً بحريًّا في الآخر، ثم أقفل الكيس. بعد أن أدخل في فتحاته حلقة يرفع بها عند الحاجة. ونزل إلى قاع المركب، فدخل إلى فجوة الحبال، ثم رؤي وقد صعد ثانية يتأبّط حبلاً ذا عُقَد مسلّحة بكُلاّب معدني يصلح «للقلفطة» في البحر وللصوص في اليابسة. إن مهمة هذا النوع في الحبال هي لتسهيل عمليات التسلّق.

وعندما وصل كلوبان إلى غرناسي: توجّه إلى تورتافال وقضى فيها ستاً وثلاثين ساعة وحمل إليها الكيس والحبل ذا العُقَد، ثم لم يرجع بهما بعد ذلك. في ذلك الزمن، كان المهرّبون من إسبانيا يأتون حتى غرناسي. فيحملون معهم إليها «السيجار» من هافانا وخمرة من «كساراس»، يسمّيها الإنكليز «شري».

في هاتيك الأزمان كانت عمليات التهريب ناشطة في بحر المانش. والسفن المهرّبة تكثر بصورة خاصة عند شاطئ غرناسي الغربي. والأشخاص العارفون بتاريخ التهريب والمهرّبين، يورّدون كثيراً من المعلومات حتى أنهم يعدّدون أسماء كثيرة من هذه السفن.

ومما لا شكّ فيه، أنه لم يكن يمرّ أسبوع واحد حتى تأتي سفينة أو سفينتان منها، إما إلى جون القدّيسين أو إلى «بْلانْ مونْ». وهناك كهف بحريّ في «سَرْك» يدعى حتى اليوم باسم «الدكاكين»، لأن الناس كانوا يأتون إلى هذا الكهف لشراء ما يحمله المهرّبون من السلع.

والتهريب في كثير من المراكز الإنكليزية والفرنسية على اليابسة، ذو صلة سريّة طيبة مع التجارة ذات الامتياز. لقد كانت مداخلة له عند أكثر من ماليّ كبير، عبر باب خلفي، هذا صحيح، كما أن المهربّات كانت تذوب بصورة خفية في الحركة التجارية العامة في الأجهزة الشريانية للصناعة. فهذا تاجر في واجهة مخزنه الأمامية ولكنه مهرّب كبير في الواجهة الخلفية، من هنا كان تاريخ كثير من الثروات. هذا ما كان يقوله «سيغان» عن «بورغان». وما كان يقوله بورغان عن سيغان.

كان التهريب سبب كثير من المشاركات الجرمية والمقنعة بالضرورة. وكانت هذه الأسرار في حاجة إلى ظلٍّ كثيف لا يخترق. كان المهرّب يعرف أشياء كثيرة، وكان عليه أن يخفيها، فالثقة الثابتة الممتنعة هي قانونه الخاص. وخير صفات المهرّب هي صفة الإخلاص. فلا تهريب دون سريّة تامة. إن هناك سرّ التهريب كما أن هناك سرّ الاعتراف.

كان هذا السرّ محفوظاً دون هوادة، فالمهرّب يقسم على الصمت. وكان يبرّ بقسمه. فليس خيراً من المهرّب المزوِّر موضعاً للثقة. والمعروف أن أحد القضاة قد قبض على أحد المهرِّبين، ثم حوّله إلى التحقيق ليرغمه على تسمية الرجل الخفيّ الذي يقرضه المال. فرفض المهرّب تسمية هذا المقرض. وقد عرف بعد ذلك أن المقرض هو القاضي نفسه. هذان الشريكان: القاضي والمهرّب، لقد وجب على أحدهما أن يأمر بالتعذيب، خضوعاً منه للقانون على مرأى

من الجميع، ووجب على الثاني أن يقاوم برًّا منه بِقَسَمِه.

أما أشهر مهرّبين عُرِفا في ذلك الحين وكانا يهبطان في بلان مون فهما بلاسكو وبلاسكيتو. إن هاتين التسميتين تعبّران عن قرابة إسبانية وكاثوليكية تقضي بوجود سيّد واحد في الجنّة، وهي قرابة لا تقلّ أهمية عن أن يكون لأصحاب هذه التسمية في الأرض أب واحد.

4

بلان مون

تعتبر بلان مون، القريبة من تورتافال، إحدى زوايا غرناسي الثلاث. فهنا عند أقصى الرأس نتوء مرتفع من العشب الأخضر يشرف على البحر.

هذه القمّة هي قمّة خالية.

وقد بلغ خلوها حدّ أنه فيها منزل واحد يقال: إنه منزل مسكون.

ويقوم هذا المنزل وسط العشب الأخضر، مبنيًّا بحجر الغرانيت وذا طابق واحد. لم يكن فيه شيء من معالم «الخربة» فهو منزل صالح للسكن. جدرانه غليظة وسقفه قويّ متين. الجدران لا ينقصها حجر واحد والسقف لا تنقصه قرميدة واحدة. وكان يستدبر البحر. وواجهته المطلّة على البحر ليست غير جدار مرتفع. فإذا تفحّصنا هذا الجدار جيّداً وجدنا فيه نافذة مسدودة بأحجار الجدار نفسه. وفي حائطي الجَمْلون من هذا المنزل تبدو ثلاث كوى، واحدة إلى الشرق، واثنتان إلى الغرب. والثلاث مغلقة بأحجار الجدران نفسها. أما واجهة البيت المطلّة على اليابسة فهي وحدها ذات باب خارجي وذات نوافذ. على

أن الباب مسدود أيضاً بحجارة الجدار وكذلك شأن النافذتين في الطابق الأرضي. أما في الطابق الأول، وهنا ما يلفت النظر حين الاقتراب من المنزل، فتوجد نافذتان مفتوحتان. والواقع أن النافذتين المسدودتين هما أقلّ قسوة وتجهّماً من النافذتين المفتوحتين نفسيهما. إن انفتاحهما يجعلهما مظلمتين حتى في رابعة النهار. فلا زجاج لهما بل ولا هياكل للزجاج. إنهما تنفتحان على ظلال الداخل، حتى ليقال إنهما ثقبان خاليان لعينين مقتلعتين. لا شيء في هذا المنزل. ومن الممكن أن تشاهد الفوضى الداخلية عبر الفتحات المشدوهة والمندلقة في الفراغ. الجدران والسقوف عارية من التصفيح والتلبيس، والأخشاب في داخل المنزل مفقودة، والأحجار عارية، حتى ليخيّل للمرء أنه يرى أمامه ضريحاً ذا نافذة تتيح للأطياف أن تطل منها على الخارج وأن تنظر إليه. والأمطار الهاطلة بغزارة شديدة تحُتّ أسس المنزل في جانبه البحري، حيث نقش فوق بابه المسدود هذه الأحرف: ا - ل- م- ب- ب- ي- ل- ج، كما نقش فوقه التاريخ: 1780.

ويدخل القمر الحزين إلى داخل المنزل عند هبوط الليل.

البحر كله حوله. إن موقعه رائع جداً ولكنه رهيب ومخيف. إن جمال هذا الموقع يبدو سرًّا من الأسرار. فلمَ لا تسكن في هذا المنزل أية عائلة بشرية؟ وتلحق أسئلة اليقظة الحالمة أسئلة العقل المنطقية. هذا الحقل صالح للحرث، فلم هو متروك دون عناية؟ ولم هرب الإنسان منه؟ وماذا يجري هناك؟ ولأيّ نوع من المارّة يكون هذا المنزل ملجأ ومستراحاً؟ هل اقترفت جريمة في هذا المنزل؟ يبدو لنا أن المنزل الذي يترك للظلام في الليل الهابط، لا يلبث أن يطالب بالنجدة. فهل يبقى صامتاً؟ أم تخرج منه أصوات ما؟ إن سرّ الساعات السوداء هو في نجوة من كل المزعجات. ويتساءل الناس عما يؤول

إليه أمر هذا المنزل بين غسق المساء وفجر الصباح. فهل للحياة فوق البشرية في تناثرها الكبير على هذه القمة الصحراوية عقدة، تتوثق عندها فترغمها على النزول وعلى أن تكون مرئية من الناس؟ هل يأتي الهباء إلى هنا ويدور دورته العنيفة العاصفة؟ وهل يتكاثف اللامادي حتى يتخذ لنفسه صورة معينة؟ هذه كلها أسرار. إن الرعب المقدس جاثم في هذه الحجارة. والظلال الموجودة في هذه الغرف المحرمة هي شيء أكثر من الظلال، إنها شيء من المجهول. هناك لا تلبث الشمس أن تغيب، حتى تعود مراكب الصيّادين أدراجها، وتصمت الطيور، وينطلق المعاز المقيم خلف صخرة من الصخور وراء عنزاته، وتنفتح الأحجار لتفسح الطريق يسيرة لتسلّلات الحشرات الزاحفة المطمئنة، أما الكواكب فتبدأ بالنظر إلى الفضاء وإلى الأرض، والريح الشمالية تهبّ وتنفتح، والظلمة تكثف وتكثف حتى تبلغ أقصى كثافاتها، وهاتان النافذتان هناك منفتحتين مندلقتين على الفضاء. هذا العالم كله ينفتح للأحلام، وبهذه المشاهد البادية، والحشرات المختلفة، ووجوه الأشباح الغامضة، والأقنعة في ألسنة اللهب، والغمرة من الأرواح والظلال، تنطلق العقيدة الشعبية، في عمقها وبلاهتها، تفسر صميميات هذا المنزل المظلمة مع الليل.

هذا منزل «مسكون». والكلمة هذه هي الجواب عن كل شيء. إن للعقول السريعة التصديق تفسيراتها الخاصة، وللأذهان الموضوعية تفسيراتها أيضاً. هذه العقول والأذهان تقول: ليس ما هو أبسط من هذا المنزل. إنه مركز مراقبة قديم، منذ حروب الثورة والأمبراطورية والتهريب. لقد بُني هناك لهذه الغاية. ثم ترك هذا المركز بعد نهاية الحرب. ولم يهدم بعد ذلك لأنه قد ينتفع به فيما بعد.

أما الجهلة والسريعو التصديق فإنهم يصرون على موقفهم. إنهم ينكرون أولاً أن يكون المنزل قد بني في عهد حروب الثورة. إن

تاريخه 1780 هو تاريخ ما قبل الثورة. وينكرون ثانية أنه قد بني ليكون مركزاً للمراقبة. ففي الأحرف المنقوشة التي هي الأحرف الأولى لاسمَيْ عائلتين ما يدلّ على أن المنزل قد بني ليكون مبيتاً لأسرة شابّة. وإذن فقد سبق للمنزل أن كان مسكوناً من قِبَل أصحابه. فلماذا لم يعد مسكوناً اليوم؟

إن سريعي التصديق مخطئون دون ريب، ولكن الثابت أيضاً أن العقول الموضوعية غير مصيبة. وبقيت المعضلة قائمة معلّقة.

والثابت أيضاً أن المنزل قد بدا مفيداً ونافعاً أكثر منه مضرًّا لمصلحة المهرّبين.

إن تضخّم الرعب ينزع عن الوقائع مقاييسها الحقيقية. ومما لا شك فيه أن أحداثاً ليلية كثيرة، والتي من بين بعضها قد نسجت قصة سكن الأشباح في هذه الخربة، يمكن أن تفسر بوجود بعضهم في ظروف غامضة، وبتوقف قصير لرجال لا يلبثون أن يعودوا ثانية إلى البحر. كما تفسر تارة بالحاجة إلى الحيطة، وتارة أخرى بجرأة بعض الصناعيين المشبوهين الذين يختبئون ليفعلوا شرًّا أو يراوحون في الظهور والاختفاء لبعث الرعب في النفوس.

في مثل ذلك العصر البعيد كانت العمليات الجريئة شيئاً ممكناً. ولم يكن للشرطة آنذاك شأن، ولا سيما في البلدات الصغيرة، مثل شأنها اليوم.

ومهما يكن الأمر، فإنه إذا كانت لهذا المنزل مغامراته، فهو أمر يعنيه، فلا أحد يذهب إليه لينظر في شأنه، باستثناء مصادفات وظروف خاصة. فليس من أحد يرغب في المخاطرة بالتقاء مواقف جهنّمية.

وهكذا، بفضل الرعب الذي يحمي هذا المنزل، كان من السهولة بمكان، الدخول إلى المنزل ليلاً، بواسطة سلّم صالحة لاجتياز الأسيجة قد يقع عليها المرء عند أقرب حديقة من الحدائق

المجاورة. والقليل من المؤونة محمولاً إليه، يتيح للمرء أن ينتظر فيه آمناً، إمكانية السفر خفية عن طريق البحر. وقد روت التقاليد أن أحد الهاربين السياسيين في قول بعضهم، والتجّار في قول البعض الآخر، قد سكن فترة من الزمن، منذ أربعين عاماً، ومن ثم نجح في السفر بحراً على مركب صيد كان متّجهاً إلى إنجلترا. أما من إنجلترا فإن السفر إلى أميركا يصبح أمراً سهلاً يسيراً.

والتقاليد نفسها تؤكد أن مؤناً كثيرة قد حملت إلى هذه الخربة وبقيت فيها دون أن تُمس، ذلك لأن لوسيفر، كالمهرّبين، ذو مصلحة في عودة من وضع هذه المؤونة هناك.

ومن القمّة التي يقوم فوقها هذا المنزل، ترى في الجهة الجنوبية الغربية صخرة هانوا.

هذه الصخرة مشهورة معروفة. لقد قامت بكل عمل فاسد شرير يمكن لصخرة أن تقوم به. لقد كانت أخطر مجرمي البحر وسفّاكيه فهي تنتظر السفن في الليل في كمون الخائن. فضخمت مقابر تورتافال والروكان.

وقد رفعت على هذه الصخرة منارة عام 1862.

أما اليوم فإن صخرة هانوا تنير الطريق أمام السفن التي كانت تضللها من قبل، لقد أصبح للكمين مشعل في يده.

إن الهانوا تشيع الطمأنينة، في هذا الفضاء الليلي الذي كانت تبعث الرعب فيه. إنها شيء كقاطع الطريق الذي يصبح دركيًّا.

هناك ثلاث من الهانوا: هانوا الكبيرة وهانوا الصغيرة وهانوا الخبازية اللون و«اللون الأحمر» موجود اليوم فوق هانوا الصغيرة.

واجتياز المضيق القائم بين الهانوا وبلان مون سباحة هو شيء مزعج، ولكنه غير متعذّر. ويذكرون هناك أن اجتياز هذا المضيق كان عملاً من أعمال الجرأة في حياة السيّد كلوبان. إنه السبّاح الذي يعرف

أعماق البحر حيث يقوم فيها موقفان يستطيع أن يستردّ فوقهما بعض أنفاسه، أحدهما هو «روك- روند» وثانيهما، وبعيداً عنه في انحرافٍ قليل، هو «روك- روج».

5

المنقّبون عن أعشاش الطيور

في مثل هذا اليوم، السبت، الذي قضى فيه السيّد كلوبان سحابته في تورتافال، يجب أن نورد حادثاً فريداً.

ففي الليل بين مساء السبت وصباح الأحد، تسلّق وعر بلان مون ثلاثة أطفال صغار من فئة المنقّبين عن أعشاش الطيور. فحيث تكون الصخور الوعرة وفجوات الصخور فوق البحر، يكثر المنقّبون عن الطيور. وقد سبق أن تحدثنا عنهم. كما نذكر أن جيليات قد اهتمّ بهم بسبب الطيور وبسبب الأطفال أيضاً.

كان الليل شديد الظلمة. والساعة تدقّ الثالثة صباحاً في جرس تورتافال، فلمَ كان هؤلاء الأطفال يعودون في مثل تلك الساعة المتأخّرة؟ لا شيء أسهل من الجواب عن هذا السؤال. لقد كانوا يطاردون أعشاش الخبازى في «البوادوفال». لقد كانت مظاهر الحب عند الطيور قد بدأت باكراً في هذا الموسم بسبب لطف جوّه. وقد غفل هؤلاء الأطفال عن الوقت بانهماكهم في مراقبة غدوات ذكور الطير وإناثها، وروحاتها حول مخابئها. ثم أحاط بهم المدّ البحري فلم يستطيعوا العودة في الوقت المناسب إلى حيث مركبهم الصغير. ففرض عليهم أن ينتظروا فوق رأس من الرؤوس الصخرية حتى يرجع المدّ وينخفض البحر. من هنا كانت عودتهم الليلية. وكان الأطفال على عجلة من أمرهم، وفي قلقٍ وخوفٍ كانوا يتقدّمون بتمهّل يحتوي

على رغبة خفيّة في عدم الوصول إلى البيت.

لكن طفلاً واحداً منهم لم يكن يخاف شيئاً. لقد كان طفلاً يتيماً. كان هذا الصبي فرنسيًّا دون أب أو أم، وكان مسروراً في تلك الدقيقة بيتمه. أما وأن أحداً لن يهتمّ به، فهو لن يضرب أبداً. أما الاثنان الآخران فقد كانا غرناسيين، ومن خورنية تورتافال بالذات.

ويلغ المنقّبون عن أعشاش العصافير أعلى هضبة حيث يقوم المنزل المسكون بعد أن تسلّقوا مجموعة الصخور.

وهنا بدأوا بالخوف، والخوف هنا واجب على كلّ من يمرّ ولا سيّما كل طفل، في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا المكان.

وقد رغبوا في الهرب بأسرع ما يسعهم الهرب، كما رغبوا في التوقّف قليلاً للنظر والتأمّل.

وتوقّفوا...

وأخذوا ينظرون إلى المنزل.

لقد كانت في وسط الهضبة الخالية، كتلة مظلمة، ونتوء بارز منسجم قبيح. إنها كتلة مرتفعة مربّعة ذات زوايا مستقيمة الأضلاع، إنها شيء شبيه بمذبح هائل للظلمات.

وكان الخاطر الأوّل في أذهان الأطفال هو خاطر الرغبة في الهرب، أما الخاطر الثاني، فهو خاطر الرغبة في الاقتراب. فلم يكن قد سبق لهم أن رأوا هذا المنزل في مثل تلك الساعة. إن فضول الشعور بالخوف قائم في نفوسهم. وقد كان يرافقهم طفل فرنسي، دفعهم حضوره معهم إلى البقاء قريبين منه.

نحن نعرف أن الفرنسيين لا يؤمنون بشيء أبداً.

على أن الكثرة في مواجهة الخطر تبعث على الطمأنينة، واشتراك الثلاثة في الشعور بالخوف يبعث الجرأة في النفس.

أليس كلاً منهم، صياد، وطفل؟ ويمدّ رأسه في داخل هذا وذاك من الثقوب؟ فلم لا يمدّه نحو ثقب آخر؟ إن من يكون في الصيد لا بدّ أن يخضع لعمليات تدريب مستمر، ومن توجّه لاكتشاف المجهول وجد نفسه في حالة تشابك واندماج لا خلاص له منهما أبداً. والتدرّب الطويل على النظر قليلاً إلى عشّ العصافير، يثير رغبة متأصّلة في النظر قليلاً إلى عشّ الأطياف. أهو بحث وتنقيب في جهنّم؟ ولم لا؟

والمرء في تنقّله من طريدة إلى طريدة يبلغ الشيطان. فإذا تجاوزتم أيها الأطفال مرحلة التنقيب عن الطيور، رحتم تتحسّسون كل أنواع المخاوف التي يصفها أقرباؤكم لكم. فليس أبعث على الانزلاق من أن يكون المرء فوق مدرج الحكايات الزرقاء. وأن يعرف المرء منها، ما تعرفه النساء الطيّبات، شيء يغري ويجتذب.

هذا الخليط من الأفكار، الذي كان ولم يزل في حالة إبهام وإحساس غريزي في مخيخ الأطفال المنقّبين عن أعشاش العصافير، قد أنتج عندهم جرأة بالغة. ثم ساروا نحو المنزل.

على أن الطفل الصغير الذي كان نقطة ارتكاز بالنسبة لهم في جرأتهم التي تميّزوا بها آنذاك قد كان طفلاً جديراً بالثقة. لقد كان صبيًّا ذا إرادة وتصميم، يتدرّب في صناعة القلفطة، ومن أولئك الأطفال الرجال. إنه ينام في ورشة العمل فوق قشٍّ ممدود في حظيرة من الحظائر، يكسب عيشه بيمينه. وهو ذو صوتٍ جهوري، يتسلّق الجدران والأشجار، مختاراً، دون أن تكون له فكرة خاصة مسبقة بالنسبة للتفاحات التي كان يمرّ بالقرب منها. وقد سبق له أن عمل في ترميم السفن الحربية وقلفطتها. كان يتيماً سعيداً. وُلِدَ في فرنسا، في مكان لم يكن أحد يعرفه. وفي هذين العاملين ما يفسّر جرأته. وكان شديد الشقرة، شديد الخبث، شديد الطيبة أيضاً، سبق أن تحدث مع

الباريسيين. فإذا جاءته الرغبة في ترك عمله لم يتردد في أن يمنح نفسه فرصة للراحة، وأن ينطلق باحثاً عن أعشاش الطيور. هكذا كان الفرنسي الصغير.

كان في عزلة هذا المكان شيء مأتمي، فيه يشعر الإنسان بروح مهدد رهيب. لقد كان مشهداً وحشيًا مخيفاً. وكانت هذه الهضبة، الصامتة والعارية تضيع هاربة، في الهوّة، وعلى مسافة قصيرة جداً، منحدرَها المنحني المتسلسل. أما البحر في السفح فقد كان صامتاً. وكانت الريح قد سكنت، وأغصان العشب الدقيقة قد جمدت لا تتحرك أبداً.

وكان الأطفال المنقّبون عن أعشاش الطيور يتقدّمون بخطوات بطيئة، والطفل الفرنسي أمامهم، وهم ينظرون إلى المنزل.

وقد أضاف أحدهم، بعد ذلك، وهو يقصّ الحادث، أو ما بقي منه في ذهنه تقريباً، «إن المنزل لم يكن يقول شيئاً».

كانوا يقتربون وهم يمسكون أنفاسهم كما يقترب الإنسان من أحد الوحوش. وكانوا قد تسلّقوا حاجزاً قائماً خلف المنزل يتصل في جانبه البحري ببرزخ صغير من الصخور لا يسهل اجتيازه. لقد بلغوا مكاناً قريباً من «الخربة»، ولكنهم لم يكونوا يرون غير الواجهة الجنوبية، المسدودة سدًا تامًا، ثم لم يجرأوا على الاتجاه نحو اليسار، حيث يصبحون أمام الواجهة الأخرى وحيث توجد النافذتان. وهو شيء رهيب مخيف.

وفي هذه الأثناء تشجّعوا، وقال لهم الصبي المقلفط بصوتٍ منخفض جدًا: لندر نحو اليسار، إن هذه الجهة هي الخربة الجميلة. يجب أن نرى النافذتين السوداوين.

وتوجّهوا نحو اليسار وبلغوا الجانب الآخر من المنزل.

لقد كانت النافذتان مضاءتين.

وهرب الأطفال.

وعندما ابتعدوا عن المنزل التفت الفرنسي الصغير ثم قال:

- «انظروا... لم يعد هناك ضوء».

والواقع أنه لم يعد هناك نور في النافذتين.

وكانت هيئة الخربة مرتسمة في زرقة السماء الغامضة المسودة.

أما الخوف فلم يذهب عنهم، ولكن الفضول قد رجع إليهم. واقترب الأطفال المنقّبون عن أعشاش الطيور مرة ثانية.

وفجأة ظهر النور مرة أخرى في كلتا النافذتين.

فلاذ طفلا تورتافال مرة أخرى بالهرب. أما الشيطان الفرنسي الصغير فإنه لم يتقدّم، ولكنه لم يتراجع. لقد بقي جامداً في مواجهة المنزل، وهو ينظر إليه.

وانطفأ الضياء، ثم التمع كرّة ثانية. لا شيء أبعث من هذا على الرعب والرهبة. لقد كان انعكاس الضياء يرسل ذيولاً من النار فوق العشب الذي رطّبه بخار الليل. وفي فترة معينة، رسم الضياء على جدار الخربة الداخلي أشباحاً كبيرة سوداء كانت تتحرك، وظلال رؤوس ضخمة. وعندما شاهد الطفلان المنقّبان الآخران، الصبي المقلفط ثابتاً في مكانه رجعا إلى الوراء خطوة خطوة، أحدهما وراء الآخر، يرتجفان من الرعب مع فضولٍ شديد. وقال لهما الصبي المقلفط بصوتٍ منخفض جداً: «في المنزل أشباح. لقد رأيت أنف أحدها». فتجمّع طفلا تورتافال الصغيران وراء الفرنسي، وأخذا ينظران هما أيضاً، وقد وقفا على أطراف أقدامهما من وراء كتفيه، مختبئين من خلفه، متخذين إياه بمثابة ترس... لقد وضعاه أمام الشيء الرهيب، مطمئنين إلى إحساسهما به قائماً بينهما وبين الأشباح.

كانت الخربة من جانبها، تبدو وكأنها تنظر إليهم. كانت لها،

في تلك الظلمة الصامتة، حدقتان حمراوان. لقد كانتا النافذتين. وكان الضياء يبدو ثم ينخسف، ثم يبدو كرّة أخرى، وينخسف مرة ثانية.

ومن المحتمل أن يكون هذا التناوب الرهيب هو نفسه غدو جهنم ورواحها فهي تنفتح ثم تنغلق. إن لكوّة هذا النعش آثار مصباح أصم.

وفجأة بدا سواد كثيف له شكل إنساني انتصب عبر إحدى النافذتين كما لو أنه كان آتياً من الخارج، ثم غاص في داخل المنزل. لقد ظهر أن شخصاً ما قد دخل إلى المنزل منذ قليل.

والدخول عبر النوافذ هو عادة الأشباح الليلية.

واشتدّ الضياء فترة من الزمن، ثم انطفأ ولم يظهر بعد ذلك أبداً. وعاد السواد إلى المنزل. وهنا أخذ الضجيج ينبثق منه. وهو أشبه ما يكون بالأصوات. والواقع أن ما حدث هو ما يحدث دائماً هناك. إن المرء لا يسمع حين يرى، ثم يتناهى إليه الصوت حين لا يرى شيئاً.

ولليل في البحر صمت خاص. إن صمت الظلال هنا هو أكثر عمقاً منه في أي مكان آخر. فإذا لم تكن في هذا المدى المتحرك رياح أو تموّجات، حيث لا تسمع في العادة خفقات أجنحة النسور يُسمع في مثل هذه الحالة حفيف طيران الذباب نفسه.

لقد كان هذا السلام النعشي يخرج صورة بارزة حزينة للضجيج الذي كان ينطلق من الخربة.

قال الفرنسي الصغير: «تعالوا لنرى ما هناك».

وخطا خطوة نحو المنزل.

أما الاثنان الآخران فقد أصابهما من الجزع ما دفعهما إلى اللحاق به. إنهما لم يعودا يجرؤان على الهرب وحدهما.

وبينما كانوا يجتازون كومة ضخمة من الحطب، كانت لسبب مجهول تبعث الطمأنينة في نفوسهم في تلك العزلة، طار عصفور من فصيلة الصدَّى من دغل قائم أمامهم. فأحدث ذلك حفيفاً بين الأغصان. ذلك أن لهذا النوع من العصافير طيراناً يبعث على الشكوك، وهو يطير في انحناء مقلق. ومرّ العصفور عرضاً أمام الأطفال، وهو يثبت فيهم استدارة ناظريه المضيئين في ظلمة الليل.

فشاع اضطراب خفيف في الطفلين القائمين وراء الفرنسي الصغير. وعلّق الصغير قائلاً:

- «أيها الدوري اللطيف، لقد وصلت متأخراً. ولم يعد من سبيل للتراجع. فأنا أريد أن أرى ما هناك».

وتقدم الصغير.

ولم تكن أصداء تكسّر أغصان الرَّتَم(*) تحت حذائيه الضخمين المسمرين تحول دون سماع الضجيج في الخربة، هذا الضجيج الذي كان يرتفع وينخفض في توقيع هادئ مترافق مع محادثة ثنائية.

ثم أضاف بعد برهة قائلاً:

- «على أن الحيوانات فقط هي التي تؤمن بوجود الأشباح الليليّة».

وهكذا تحالفت القحة في الخطر مع الأطفال ودفعتهم إلى الأمام. ومضى طفلا تورتافال يسيران خلف الصبي المقلفط.

وكان المنزل المسكون يبدو لهم وكأنه يتضخّم دون هوادة. وكان في هذا الوهم البصري شيء من الحقيقة. لقد كان المنزل يتضخّم لأنهم كانوا يقتربون منه.

(*) الرّتم: نوع من نبات الزينة، وهو نبات برّي معمّر.

وفي هذه الأثناء كانت أصوات المنزل تتخذ شكلاً يتزايد وضوحه. وأنصت الأطفال يستمعون. وللأذن أصواتها المتضخّمة أيضاً. هذا الضجيج كان شيئاً غير الهمهمة، بل شيئاً أكثر من الوشوشة، دون الضجة العالية. وبين فترة وأخرى كانت تنبعث لفظة أو لفظتان واضحتين. وهذه الألفاظ التي يستحيل فهمها، كانت تبعث صدى غريباً في النفس. وتوقف الأطفال يستمعون، ثم عاودوا سيرهم يتقدّمون.

وهمس الصبي المقلفط قائلاً: «هذه محادثة الأشباح، ولكنني لا أؤمن بوجود الأشباح أبداً».

أما صغيرا تورتافال فقد كانا راغبين في الاختفاء وراء كومة الحطب ولكنهما كانا قد ابتعدا عنها، وصديقهما المقلفط يتابع سيره نحو الخربة. لقد كانا يرتجفان هلعاً من البقاء معه ثم لا يجرؤان على تركه.

إنهما يتبعانه خطوة خطوة، في بلبلة شديدة. والتفت الصبي المقلفط نحوهما وقال:

- «أنتما تعرفان أن هذا غير صحيح. فلا أشباح هناك».

وأصبح المنزل مرتفعاً أكثر فأكثر. وبدت الأصوات أوضح فأوضح. وراحوا يقتربون.

وباقترابهم، كانوا يشعرون أن في المنزل شيئاً كالضياء المخنوق. لقد كان لهباً شديد الغموض، لكأنه أثر من آثار مصباح أصمّ أشرنا إليه منذ قليل، وتكثر مثيلاته في إضاءة حفلات السبت السحرية.

ثم توقفوا تماماً حين أصبحوا على مقربة من المنزل. وقد أطلق أحد صغيري تورتافال هذه الملاحظة.

- « هذه ليست أشباحاً، إنها سيّدات بيضاء».

وسأل الآخر:

- «ما الذي يبدو معلّقاً في النافذة؟».

- «إن له هيئة حبل».

- «هذه أفعى».

قال الفرنسي في لهجة ذي السلطان: هذا حبل مشنوق. إنهم يستخدمونه. ولكني لا أؤمن بذلك أيضاً.

وبقفزاتٍ ثلاث أكثر منها خطوات، أصبح الصغير عند سفح جدار الخربة. فكانت في هذه الجرأة حمّى من الحماسة والقلق.

وقلّده الاثنان الآخران فأتيا يلتصقان قريباً منه، وهما يرتعدان، أحدهما إلى يمينه وثانيهما إلى يساره. وأثبتوا آذانهم على الجدار. هذا والحديث في المنزل لا ينقطع.

وفيما يلي أقوال الأشباح فيه:

- «وهكذا... هل هذا مفهوم؟».

- «مفهوم».

- «هل اتفقنا؟».

- «سينتظر رجل هنا، وسيكون في وسعه الإبحار إلى إنجلترا مع بلاسكيتو».

- «بأن يدفع البدل».

- «بأن يدفع البدل».

- «وسيحمل بلاسكيتو الرجل في قاربه».

- «ودون أن يعرف البلد الذي ينتسب إليه؟».

- «هذا شيء لا يعنينا».

- «ودون سؤاله عن اسمه؟».

- «نحن لا نسأل عن الاسم، بل نزن كيس النقود».
- «حسن جداً. سينتظر الرجل في هذا المنزل».
- «إنه يجب أن يكون لديه ما يأكله».
- «سيكون له ذلك».
- «أين؟».
- «في هذا الكيس الذي أحمله».
- «حسن جداً».
- «هل أستطيع أن أترك هذا الكيس هنا؟».
- «ليس المهرّبون لصوصاً».
- «وأنتم متى تذهبون؟».
- «غداً صباحاً. فإذا كان رجلك على أهبة، ففي إمكانه أن يذهب معنا».
- «إنه ليس على أهبة».
- «هذا أمر يخصّه».
- «كم من الأيّام سينتظر في هذا المنزل؟».
- «يومين أو ثلاثة أو أربعة. أقل أو أكثر».
- «هل هو واثق من رجوع بلاسكيتو إليه؟».
- «كل الوثوق».
- «هنا؟ في بلان مون؟».
- «في بلان مون».
- «في أي أسبوع؟».
- «الأسبوع القادم».
- «وفي أي يوم؟».

- «الجمعة أو السبت أو الأحد».

- «ألا يمكن أن يتخلّف؟».

- «إنه أخي وزميلي».

- «هل يأتي في كل الظروف؟».

- «في كل الظروف. إنه لا يخاف. فأنا بلاسكو. وهو بلاسكيتو».

- «وعلى ذلك فلا يمكن أن يتخلف عن المجيء إلى غرناسي؟».

- «أنا آتي في شهر. وهو يأتي في شهر آخر».

- «فهمت».

- «فابتداء من السبت القادم، ولثمانية أيام من هذا اليوم، لن تمر خمسة أيام دون أن يصل بلاسكيتو».

- «ومن أين سيأتي؟».

- «من بلباو».

- «وإلى أين سيذهب؟».

- «إلى بورتلاند».

- «هذا حسن».

- «أو إلى ثورباي».

- «هذا أحسن».

- «يستطيع رجلك أن يطمئن بالاً».

- «ألن يخون بلاسكيتو؟».

- «الجبناء هم الخونة. أما نحن فشجعان. إن البحر هو كنيسة الشتاء. والخيانة هي كنيسة جهنم».

- «ألا يسمع أحد ما نقوله؟».

- «الاستماع والنظر إلينا مستحيلان. فالخوف هنا هو الذي يصنع الصحراء».

- «أعرف ذلك».

- «ومن هو الذي يجرؤ على الاستماع إلينا؟».

- «هذا صحيح».

- «على أن المستمع إلينا لا يدرك شيئاً مما نقول. فنحن نستعمل لغة وحشية خاصة بنا لا يعرفها أحد من الناس. أما وأنت تعرفها، فأنت إذن واحد منا».

- «لقد أتيت لأتخذ معكم الترتيبات اللازمة».

- «هذا حسن».

- «أما الآن فسأذهب».

- «ليكن».

- «قل لي ما إذا كان المسافر راغباً في أن يقوده بلاسكيتو إلى غير بورتلاند أو تورباي؟».

- «وهل سيفعل بلاسكيتو ما يريده الرجل؟».

- «نعم».

- «وهل يستغرق الذهاب إلى تورباي وقتاً طويلاً؟».

- «هذا يتعلّق بالرياح».

- «ثماني ساعات؟».

- «أقل أو أكثر».

- «وهل سيطيع بلاسكيتو من سيسافر معه؟».

- «هذا إذا أطاع البحر بلاسكيتو».

- «سيحصل بلاسكيتو على أجر حسن».

- «الذهب هو الذهب. والرياح هي الرياح».

- «هذا صحيح».

- «يصنع الرجل مع الذهب ما يستطيع صنعه. ويصنع الله مع الرياح ما يستطيع صنعه».

- «إن الرجل الذي اعتمد الذهاب مع بلاسكيتو سيكون هنا يوم الجمعة».

- «ومتى يصل بلاسكيتو؟».

- «في الليل. يصل ليلاً. ويغادر ليلاً. إن لنا زوجة تسمى البحر، وأختاً تسمى الليل. والزوجة قد تخون في بعض الأوقات ولكن الأخت لا تخون أبداً».

- «لقد اتفقنا على كل شيء. الوداع أيها الرجال».

- «مساء الخير. هل تتناول جرعة من الخمر؟».

- «شكراً».

- «هذا خير من الشراب».

- «أنا واثق من تعهّدك».

- «إن اسمي هو: نقطة - الشرف».

- «وداعاً».

- «أنت رجل شريف وأنا فارس نبيل».

لقد كان واضحاً أن الشياطين فقط هي التي تتكلم على هذه الصورة.

ثم لم يستمع الأطفال إلى شيء بعد ذلك. وتولّوا هاربين في هذه المرة جادّين غير متردّدين، أما الفرنسي الصغير ، وقد اقتنع

أخيراً، فقد كان أسرع في الهرب من رفيقيه.

وفي يوم الثلاثاء الذي عقب هذا السبت عاد السيّد كلوبان إلى سان مالو، وهو يقود المركب «دوراند».

وكانت السفينة تاموليياس راسية عند الرصيف.

وسأل السيّد كلوبان صاحب حانة جان بين نفَسين من أنفاس غليونه قائلاً:

- «متى تبحر هذه التاموليياس؟».

فأجابه صاحب الحانة: بعد غدٍ الخميس.

وفي ذلك المساء، تناول كلوبان عشاءه على منضدة حرّاس الشواطئ ثم خرج بعد العشاء على غير عادته وقد نتج عن هذا الخروج أنه لم يستطع الإشراف على ملعب المركب دوراند، وكاد يضيع تقريباً فرصة تحميل مركبه. لقد لوحظ ذلك من قبل رجل دقيق.

وظهر أنه قد تحدث مع صديقه الصرّاف.

ثم عاد بعد أن دقّت «نوغاث» ساعة إطفاء الأنوار، والجرس البرازيلي يدقّ عند الساعة العاشرة. وإذن فقد كانت عودته عند منتصف الليل.

6

الجاكروساد

منذ أربعين عاماً كان في سان مالو زقاق ضيّق صغير يدعى زقاق «كوتانشاز». هذا الزقاق لم يعد اليوم موجوداً، بعد أن أزيلت معالمه في غمرة مشاريع تجميل البلدة.

لقد كان هذا الزقاق عبارة عن صفين من المنازل الخشبية،

المتكئة أحدها على الآخر. وبين هذين الصفين مكان كافٍ لمرور جدول يسميه الناس شارعاً. والمارّة يسيرون فيه وقد باعدوا بين أقدامهم عند طرفي الماء، وتعرّضت رؤوسهم ومرافقهم للاصطدام بالمنازل القائمة إلى اليمين أو إلى اليسار. والواقع أن لهذه الثكنات، التي يعود تاريخ بنائها إلى القرون الوسطى النورنامدية، صفحات جانبية ذات أشكال بشرية تقريباً. فليس كبير فرق بين الخربة والساحرة. إن طوابقها المنبعجة، وميلان أعاليها عن سمت قواعدها وأفاريزها التي تبدو على صور مثلثات وأدغالها من القضبان الحديدية - كل هذه شبيهة بالشفاه والذقون والأنوف والحواجب. أما الكوّة فهي العين العوراء. وأما الوجنة فهي الجدار المتغضن، القوبيّ. إنها تتلاصق في أعاليها كما لو أنها تبيّت سوءاً أو تنظم مؤامرة. إن كل ألفاظ الحضارة القديمة، من قاطع الرقاب، وقاطع وجه السكير، إلى قاطع الأشداق كلها ذات صلة وثيقة بهذا الطراز من هندسة البناء.

وكان أحد منازل زقاق كوتانشاز، وهو أكبرها، وأسوأها سمعة يدعى «الجاكروساد».

لقد كان الجاكروساد منزل من لا يبيتون في منزل لهم. ففي كل المدن، ولا سيما في مرافئ البحر، وفيما دون مستوى الشعب، راسب من الرواسب. إنهم أناس لا يعترفون بشيء، حتى أن العدالة نفسها في الغالب الكثير تعجز عن أن تنتزع منهم واحداً من هذه الاعترافات، إنهم قرصان مغامرات، ولصوص بحار، وعيّارون، وكيمائيون من فصيلة اللصوص يرون الحياة كلها في مِذْوبٍ أو بوتقة. إن في هذا المنزل كل صور الرثاثة وكل أساليب حلّها. وفيه ثمرات الخيانة وألوان من حياة المفلسين الاحتياليين، ومن الضمائر التي وضعت قائمة بجرائمها، من الصغار الذين أجهضت بهم الحياة في وسط السلّم أو جنح بهم الهوى إلى انتهاك حرمة القانون، (ذلك لأن

كبار المجرمين يحتفظون بمراكزهم في الأعالي فلا يسقطون أبداً)، بالإضافة إلى عمّال الشر وعاملاته، إلى الغرباء والغريبات، وأصحاب الضمائر القلقة التي تمزّقت، والمرافق التي ثقبت، والأوغاد الذين بلغوا مرتبة الفقر المدقع، والخبثاء الذين لم يكافأوا، والمغلوبين في معركة المبارزة المجتمعية، والجائعين الذين كانوا مفترسين في البداية، وصغار المتعيّشين بالجريمة، والمتسوّلين، الأوغاد. هذا هو ملاك المنزل. إن الذكاء البشري هنا هو ذكاء حيواني. إنه كومة من نفايات الأرواح والنفوس. هذه النفايات التي تتجمع في زاوية من الزوايا، حيث تمرّ بين وقتٍ وآخر مكنسة تجرفها تسمّى غارة الشرطة. لقد كان الجاكروساد في سان مالو هو هذه الزاوية. فليس ما نجده في هذه المعالم ما هو من فصيلة كبار المجرمين، وقطّاع الطرق، أو هو من فصيلة المنتجات الكبيرة للجهل والفقر المدقع الشديد. فإذا وجد فيها من يمثّل جريمة القتل فإنما هو سكّير قاسٍ متوحّش، أما السرقة فيه فلا تتجاوز مرحلة النشل. إنه بعبارة أخرى بصقة من بصقات المجتمع لا قيء من قيئه. اللص الصغير فيه، نعم، أما اللص قاطع الطريق، فلا - مع ذلك فلا يسع المرء أن يطمئن إليه. إن في مثل دركات هؤلاء البوهيميين ما يكاد يتصل بأقصى طرف من المجرمين. لقد حدث يوماً أن رجال الشرطة ألقوا القبض على «لاسينار» يوم أغاروا في هجمة مفاجئة على حي الأبّي رسيا وهو في باريس كما هو الجاكروساد في سان مالو.

هذه المنازل تستقبل الجميع. فالسقوط ذو مدى يتساوى فيه كل الساقطين. وفي بعض الأوقات تسقط هناك العفّة التي تعرّت من الشرف والفضيلة. فللفضيلة وطهارة الذيل، كما نرى، مغامراتهما الخاصة. والواجب ألاّ نبالغ في تقدير بناء اللوفر مرة واحدة أو في تحقير السجون. إن التقدير العام هو كالشجب الشامل، كل منهما راغب في التعرّي والانكشاف.

والجاكروسّاد في الحقيقة أقرب إلى فناء منه إلى منزل، أو إلى بئر منه إلى فناء. إنه لم يكن له طابق مطلّ على الشارع. ولم تكن واجهته غير جدار مرتفع يثقبه باب منخفض. فإذا رفع الساقط، ودفع الباب وجد الداخل نفسه في فناء.

في وسط هذا الفناء ثقب مستدير تحيط به حاشية من الحجارة مرصوفة في مستوى الأرض. لقد كان هذا الثقب بئراً. وقد غطيت حجارة الحاشية التي تحيط بحلقة البئر ببلاطات منبعجة متكسّرة.

والفناء ذو الشكل المربع مبني في أضلاعه الثلاثة فقط، أما في الضلع المطلّ على الشارع فلم يكن شيء أبداً. وكان البناء تجاه الباب وإلى يمين الداخل ويساره.

فإذا دخل أحدهم إلى هناك، على مسؤوليته، وبعد هبوط الليل سمع شيئاً كأنه أصداء الأنفاس المختلطة، ورأى ما يلي:

الفناء، البئر، أما حول الفناء، وتجاه الباب، فيرى حظيرة تكاد تكون على صورة حدوة الحصان في ميلان قليل إلى صورة شكل مربع، ردهة عفنة، مكشوفة تماماً، لها سقف من الجسور الخشبية، تحملها أعمدة من الحجارة المركومة وقد تباعدت هذه الأعمدة على مسافات غير منتظمة، وتبدو البئر في الوسط تماماً، وقد مدّت من حولها فُروش من القش، لكأنها سبحة دائرية، وبدت فوقها نعال للقدم اليمنى، وبطانات جزمات منخرقة، أو إبهام خارج عبر ثقب في الحذاء، وكعوب عارية، وقدما رجل، أو امرأة أو طفل. هذه الأقدام تكون كلها مستغرقة في نومٍ عميق.

أما فيما وراء هذه الأقدام، فإن العين تكتشف أجساماً، وأشكالاً، ورؤوساً متعبة، وخطوطاً متمدّدة جامدة، ورثاثات لكلا الجنسين. إنه تجاورٌ في كومة من النفايات، واضطجاع رهيب لأجساد بشرية. أما بدل المبيت أسبوعيًا في هذا المنزل فقد كان درهمين،

وكانت الأقدام تلامس طرف البئر، وتستقبل المطر في الليالي العاصفة، والثلج في الليالي الباردة المثلجة.

فما هي هذه الكائنات؟ إنهم المجهولون. لقد كانوا يأتون إلى هذا المنزل في المساء ثم يغادرونه في الصباح. وقد يتسلّل بعضهم ليلة واحدة دون أن يدفع شيئاً. وأكثرهم لا يكونون قد أكلوا شيئاً طوال نهارهم. فيهم كل الرذائل، والحقارات، ومواطن الأوبئة، وكل ألوان الآلام والأحزان. أما أحلام هذه الأرواح فقد كان بينها حسن جوار. إنه لقاء مأتمي حزين تتحرك فيه وتتداخل، عبر أبخرة كريهة وسخة، حالات من الإرهاق واليأس والانهيار تعقب سير نهار بأكمله على الطوى بعيداً عن كل فكرة جميلة طيبة. لقد كان هذا النتن البشري يتخمّر في تلك الآنية. وقد كان يقذف بهؤلاء إلى هنا من قبل القدر أو السفر أو سفينة وصلت في ليلة سابقة، أو خروج من السجن، أو حظّ من الحظوظ، أو الليل. كان القدر، في كل يوم، يفرغ قفّته هناك. فيه يدخل من يريد، وينام من يسعه النوم، ويتكلم من يجرؤ على الكلام. وكان الجميع يحاولون أن ينسوا أنفسهم في النوم، لأنهم لا يستطيعون أن يضيعوا أنفسهم في الظلام. إنه ينتزع من أشداق الموت ما يمكن انتزعه. وسكّانه يغلقون العيون في هذا الخليط من الحشرجة الذي يتجدّد في كل مساء.

وفراش القش لم يكن ميسوراً لكل من يريده. إن أكثر من عري واحد كان يتمدّد فوق البلاط، فهم ينامون في حالة إرهاق شديد، ثم يستيقظون كذلك. أما البئر فقد كانت تغوص في الأرض ثلاثين قدماً، وهي دائماً مفتوحة الفوهة، لا حاجز لها ولا غطاء. فيها يسقط ماء المطر، وإليها تتسرّب الأوساخ وعندها تنتهي سيول الفناء. وإلى جانبها سطل يستعمل لمتح الماء منها. فمن أصابه العطش شرب من مائها ومن نزل من الضجر أغرق نفسه فيها.

كانت سيدة هذا المسكن امرأة شابة على قسط من الجمال، تلبس طاقية ذات شرائط، وتغسل وجهها في بعض الأوقات بماء البئر، ولها ساق من خشب.

ويخلو الفناء منذ الفجر، ويغادره نزلاؤه.

وكان في الفناء ديك ودجاجات تزجي نهارها كله بنقر النفايات. كما كان في عرض الفناء جسر خشبي أفقي تحمله ركائز خشبية، فيبدو على صورة مشنقة ليست شديدة الغربة عن أبناء البلد. وكان يرى في الغالب، وبعد الليالي الممطرة، ثوب مبتل من الحرير معلّقاً على هذا الجسر الأفقي ليجفّ، وهو ثوب المرأة ذات الساق الخشبية.

وكان فوق الحظيرة طابق يحيط بالفناء كله شأنه شأن الحظيرة، وفوق الطابق مستودع للحبوب. وتحمل الصاعد إلى الأعلى سلم من الخشب العفن تثقب سقف الحظيرة.

وقد خصص هذا الطابق للنزلاء الدائمين بينما خصص الفناء لنزلاء الليلة الواحدة أو الأسبوع الواحد.

النوافذ في هذا المنزل خالية من الزجاج، ومداخل الغرف عارية من الأبواب، أما المداخن فلا مواقد فيها أبداً. إن أحداً لم يكن يعرف كيف يدار هذا البيت. وكانت الريح تحرّكه. ويصعد الصاعد كيف استطاع صعوداً فوق درجات منزلقة للسلم العتيقة. كل شيء كان مكشوفاً فيه. فالشتاء يدخل إلى هذه الخربة كما يغوص الماء في قطعة من الإسفنج. وكانت كثرة شباك العنكبوت ضمانة ضد الخوف من انهيار سريع. والمنزل خال من الأثاث. اللهم غير «مَذْيَن» من الخشب أو ثلاثة من القش في الزوايا، قد بقرت بطونها، وبدا فيها من الرماد فوق ما يبدو من أعواد القش. وهنا وهناك قربة من الفخار أو آنية من الأواني، تستعمل لأغراض مختلفة. والرائحة فيه حلوة وبشعة جداً.

وللمنزل مَطَلّ على الفناء عبر نوافذه التي يبدو المنظر منها وكأنه حمّل حمولة من أشخاص موحلين. أما الأشياء، خلا الرجال الذين كانوا يتعفّنون ويصدؤون، فقد كانت أشياء مستعصية على الوصف. كانت الفضلات فيه تتآخى، وكانت هذه الفضلات تتساقط من الجدران، وقد تتساقط أيضاً من الناس. فالأثواب الرثّة لا تحصد غير الخرائب.

والجاكروساد بالإضافة إلى نزلائه المقيمين في الفناء، يشتمل على نزلاء، فحّام، ولاقط خرق، وصانع ذهب. أما الفحّام ولاقط الخرق فقد كانا يشغلان فراشين من فرش القش في الطابق الأول، وأما صانع الذهب، الكيميائي، فقد كان يسكن في المستودع. والجميع يجهلون أين تبيت المرأة. وكان صانع الذهب على معرفة قليلة بالشعر. فقد كان يسكن في السقف، وتحت القرميد، غرفة، فيها فتحة ضيّقة ومدخنة من الحجر، لكأنها كهف يدفع الرياح إلى الزئير. ولم يكنِ للفتحة إطار وهيكل، فسمّر فوقها قطعة من غصن مورق مصدرها من سفينة. هذه القطعة الخشبية كانت تمنع الكثير من الضياء والقليل من البرد. أما الفحّام فقد كان يقدم كيساً من الفحم بين وقت وآخر. وأما لاقط الخرق فيقدم قدراً معيناً من الحبوب للدجاجات في كل أسبوع، لكن صانع الذهب لا يدفع شيئاً. وبالانتظار كان يحرق المنزل. لقد انتزع القليل مما فيه من الأخشاب، وفي كل مناسبة يخرج من الجدار أو من السقف «لاطة» خشبية يسخن بها طنجرته التي يصنع فيها ذهبه. ويرى فوق فرّاش لاقط الخرق عمودان من الأرقام المكتوبة بالطباشير، سجلها لاقط الخرق أسبوعاً بعد أسبوع. أحدهما تتابع فيه رقم (3) وثانيهما رقم (5) تبعاً لثمن القدر المعين من الحبوب التي يقدمها إلى الدجاجات. أما طنجرة الكيميائي فهي إناء مكسور منحه درجة طنجرة، يضع فيه مزيجاً من المعادن والأخلاط المختلفة. لقد كان تحويل المعدن يستغرق انتباهه كله. وكان في

بعض الأوقات يتحدث إلى العراة عن عمله فيقابلونه بالضحك الساخر. وكان يقول: هؤلاء الناس مملؤون بأفكار سيّئة مسبقة. لقد كان عازماً بإصرار على ألا يموت قبل أن يقذف بحجر الفلاسفة إلى واجهات العلم. هكذا كان الجاكروساد.

وكان الخادم في المنزل طفلاً، وقد يكون قزماً، في الثانية عشرة من عمره أو في الستين، ذا غدّة بارزة في عنقه، يحمل بيده مكنسة. النزلاء يدخلون من باب الفناء، والجمهور يدخل من الدكّان.

فماذا كان شأن الدكّان؟

إن الجدار المرتفع الذي يمثّل واجهة المنزل على الشارع، كان مثقوباً إلى يمين مدخل الفناء، وثقبه فتحة هي في الوقت نفسه باب ونافذة، مع مصراع وإطار، وهو المصراع الوحيد الذي يبدو بقفله وأكَره في المنزل كله، كما أنه الإطار الوحيد الذي يبدو بزجاجه. ووراء هذه الواجهة المطلّة على الشارع، تقوم غرفة صغيرة، هي في الحقيقة مقصورة منتزعة من الحظيرة- الردهة. وكانت تقرأ على باب الشارع العبارة التالية: هنا نملك ما يبعث على الفضول.

هذه الدكّان كانت تتصل بالفناء حيث تقوم البئر عبر باب خلفي. وكان فيها منضدة ومقعد مرتفع. أما المرأة ذات الساق الخشبي فهي السيّدة المشرفة على شؤون الدكّان وسِلَعِها التجاريّة.

7

مشترون ليليون وبائع ظلامي

كان كلوبان غائباً عن الحانة جان مساء يوم الثلاثاء كله، وكذلك كان شأنه يوم الأربعاء.

في هذا المساء كان رجلان يسيران في زقاق كوتانشاز، ثم توقفا أمام الجاكروساد. ونقر أحدهما على الزجاج. ففتح باب الدكّان. ثم دخلا فابتسمت لهما المرأة ذات الساق الخشبية ابتسامة تحتفظ بها في العادة لأبناء الطبقة البورجوازية. كان على المنضدة شمعدان.

وقد قال أحدهما، الناقر على الزجاج، «صباح الخير أيتها المرأة. لقد أتيت من أجل الغرض».

وابتسمت المرأة ذات الساق الخشبية كرّة أخرى ثم خرجت من الباب الخلفي الذي يطلّ على الفناء ذي البئر. وبعد بُرهة قصيرة فتح الباب الخلفي مرّة ثانية، وظهر رجل في الفتحة التي أحدثها الباب. كان هذا الرجل يحمل قبعة ذات حافة أمامية وقميصاً، وشيئاً ناتئاً تحت هذا القميص. وقد كانت قشّات قليلة عالقة في طيّاتها بالإضافة إلى أن للرجل نظرات من لا يزال النوم عالقاً في جفنيه.

وتقدم هذا الرجل، وتبادل الجميع النظرات. أما الرجل ذو القميص فقد كانت له هيئة الحذر الخائف والذكي. ثم قال:

– «هل أنت صانع الأسلحة؟».

– «نعم. هل أنت الباريسي؟».

– «المدعو الجلد الأحمر. نعم. . . ».

– «أرني ما تحمله».

– «هاك هو».

وأخرج الرجل من تحت قميصه شيئاً شديد الندرة في أوروبا في هاتيك الأيام. لقد أخرج المسدس.

وكان هذا المسدس جديداً ولامعاً، فتفحّصه البورجوازيان، ثم أخذ «صانع الأسلحة» يقلّب المسدس بين يديه. ومن ثم مرّره إلى

الآخر، وكان هذا يبدو أكثر غربة عن المدينة ويقف مستدبراً اتجاه النور.

وأردف صانع الأسلحة قائلاً:

- «كم ثمنه؟».

فأجاب صاحب القميص:

- «لقد وصلت به حديثاً من أميركا. إنه مسدس دوار».

- «كم الثمن؟».

- «باف. طلقة أولى. باف. طلقة ثانية. باف... ثم تتعاقب الطلقات! هذا شيء يقوم بالمهمة».

- «كم الثمن؟».

- «ست قطع ذهبية من فئة (لويس)».

- «هل تقبل خمس قطع من هذه الفئة؟».

- «مستحيل. قطعة ذهبية مقابل كل طلقة. هذا هو الثمن. إن المواسير من حديد إسباني».

- «لقد لاحظت ذلك. ويبدو لي أنك عارف بأسرار المهنة».

- «أنا مشارك في كل المهن يا سيّدي».

- «وإذن سندفع لك خمس قطع من فئة (لويس) ».

- «كلا بل ست. واحدة لكل ثقب».

- «حسن. سأدفع لك ست قطع من فئة (نابوليون) ».

- «بل أريد ست قطع من فئة (لويس) ».

- «وإذن فأنت غير بونابارتي؟ إنك تفضّل قطعة (لويس) على قطعة (نابوليون) ».

قال الرجل: «نابوليون هو خير وأحسن، ولكن لويس ذو ثمن أعلى وأرفع».

- «ستة (نابوليون)».

- «ستة (لويس)، فالفرق بالنسبة إليّ هو 24 فرنكاً».

- «هل هو جيّد؟».

- «ممتاز».

- «أدفع القطع الست من فئة (لويس) ».

وبعد خمس دقائق، وبينما كان الباريسي المدعو «جلد أحمر» يدسّ في فجوة خفّية تحت إبط قميصه، القطع الذهبية الست التي قبضها منذ قليل، خرج صانع الأسلحة والشاري الذي وضع المسدس في جيب سرواله، من زقاق كوتانشاز.

8

وفي اليوم التالي، حدثت مأساة رهيبة.

في تمام الساعة الرابعة مساء كان رجل ملتفّ بمعطف عريض، واقفاً فوق هضبة صخرية، ومن المحتمل أن يكون تحت معطفه سلاح وهو شيء يسهل التعرّف إليه في بعض طيّات المعطف المستقيمة أو المنكسرة على صورة زاوية... وقد كانت القمّة التي يقف فوقها هذا الرجل فسحة من الأرض على شيء من الاتساع، تناثرت فيها مكعبات كبيرة من الصخر شبيهة ببلاطات مختلفة المقاييس تاركة بين بعضها والبعض الآخر ممرات ضيقة. إن هذه الفسحة من الأرض، والتي كانت تبرز فيها أعشاب قصيرة كثيفة، كانت تنتهي في جانبها البحري بفضاء حرٍّ طليق يتصل بوعر عمودي. وكان هذا الوعر يرتفع عن سطح البحر بما لا يقلّ عن ستين قدماً، فيبدو وكأنه قد قُدّ من أعلى إلى أسفل. ومع ذلك فإن زاويته اليسرى كانت تتخرب فتبرز فيها واحدة من السلالم الطبيعية التي تختصّ بها في العادة أجراف بحرية

من الصخور الغرانيتية، والتي لا تصلح درجاتها للسير العادي بل تفرض في بعض الأوقات القيام بخطوات عملاقة أو بقفزاتٍ بهلوانية. إن هذه الصخور المتدحرجة كانت تنزل عمودياً حتى البحر ثم تغوص فيه. لقد كانت تقريباً كاسرة رقاب. وفي هذه الأثناء، وأمام الحاجة الملحّة، كان في وسع من يريد الإبحار أن يذهب إلى جدار هذا الجرف ويستقلّ مركباً بحريًّا من عنده.

النسيم يهبّ. والرجل يلتفّ بمعطفه، صامداً في وقفته، ويده اليسرى ممسكة بمرفقه الأيمن، يطرف إحدى عينيه ويثبت الأخرى في الفضاء البعيد عبر منظار مكبّر.

أما ما كان يراقبه هذا الرجل، فهو سفينة في عرض البحر كانت تعمل شيئاً فريداً في الواقع.

إن هذه السفينة التي مضت ساعة تقريباً على مغادرتها لمرفأ سان مالو قد توقّفت خلف «البانكوتيا». لقد كانت سفينة ذات صوارٍ ثلاثة. ولم تكن قد أنزلت مرساتها، ولعل ذلك بسبب غاطسها الرقيق، فاكتفت بالوقوف موقف السفينة المعطّلة.

أما الرجل الذي يبدو من ثيابه أنه من حرّاس الشواطئ، فقد كان يراقب حركات السفينة كلها ويحتفظ في ذهنه بكل ما يراه.

لم يحاول حارس الشاطئ، وهو المستغرق بكليته في عمله، متعقّباً عرض البحر بيقظة وحذر شديدين، أن يتبين ما في الصخرة القائمة إلى جانبه وتحت قدميه. لقد كان يدير ظهره إلى هذا النوع من الصخور الوعرة التي كانت تصل هضبة الجرف الصخري بماء البحر. ولم يلاحظ أن شيئاً كان يتحرك فيها. لقد كان بين هذه الصخور، شخص من الأشخاص، رجل مختبئ هناك، قبل وصول حارس الشواطئ تبعاً للظواهر الخارجية. وبين وقتٍ وآخر، كان يخرج رأس من تحت الصخرة. إن هذا الرأس الذي تغطيه قبعة أميركية عريضة،

هو رأس الرجل، «الكويكر» الذي كان يتكلم منذ عشرة أيام مع الربّان زُوَالا بين أحجار الجرن الصغيرة.

وفجأة بدا أن انتباه حارس الشواطئ قد تضاعف. فمسح زجاج منظاره سريعاً بطرف كمّه ثم وجّهه بحيوية ظاهرة إلى السفينة ذات الصواري الثلاثة.

لقد انفصلت عنها نقطة سوداء.

هذه النقطة، الشبيهة بنملة على البحر، هي مركب صغير.

وقد بدا هذا المركب وكأنه يبغي بلوغ اليابسة، يقوده بعض البحّارة ويجذّفون بقوّة وحرارة. والمركب الصغير ينحرف قليلاً قليلاً متّجهاً نحو الجرف الصخري.

ويلغت رقابة حارس الشواطئ أعلى درجات التركيز. فلم تكن تفلت من رقابته، أية حركة من حركات المركب الصغير. وكان قد اقترب أكثر فأكثر من أقصى طرف الجرف الصخري.

في هذه الفترة، انتصب رجل طويل القامة «الكويكر» خلف حارس الشواطئ في أعلى السلّم الصخري. والحارس لا يراه.

وتوقف هذا الرجل قليلاً، بذراعيه الممدودتين وقبضتيه المشدودتين، وبعين صيّادٍ يصوّب ناره نحو هدفه، ونظر إلى ظهر حارس الشواطئ.

كانت تفصله عن الحارس أربع خطوات فقط، فوضع قدماً إلى الأمام ثم توقف، ثم مدّ قدماً أخرى، وتوقّف أيضاً. إنه لم يكن يفعل شيئاً غير المشي، وما بقي من جسده جامد كالتمثال، وقدمه تتكئ على العشب دون أية ضجة. ومدّ قدماً ثالثة ثم توقّف... لقد كاد يلمس حارس الشواطئ الذي ما زال جامداً بمنظاره المقرّب. ورجع الرجل بطيئاً بيديه المشدودتين إلى ترقوتيه، ثم نزل عضداه فجأة وبشدّة بالغة، مع قبضتيه كما لو أنهما منطلقتان بعد احتباس شديد، وضربتا

كتفي حارس الشواطئ. فكانت الصدمة رهيبة مخيفة، لم تتح لحارس الشواطئ فرصة إرسال صرخة واحدة. فسقط يتقدّمه رأسه في البحر من أعلى الجرف الصخري. وقد رؤيت نعلاه برهة قصيرة كما يُرى البرق الخاطف. كان حجراً في الماء المظلم الذي انداحت دائرتان أو ثلاث في سطحه.

ولم يبقَ غير المنظار المقرّب الذي أفلت من يدي حارس الشواطئ فسقط إلى الأرض فوق العشب الأخضر.

وانحنى «الكويكر» فوق حافة الوعر، وأخذ ينظر إلى الدوائر تمحي في الموج، ثم انتظر بضع دقائق؟ وانتصب مرّة أخرى وهو ينشد بين أسنانه:

« لقد مات السيّد الشرطي وهو يفقد حياته».

ثم انحنى مرّة أخرى. فلم يبد أمامه غير شيء غليظ أسمر قد تشكّل على سطح الماء وأخذ يتّسع فوق تموّجات البحر، في المكان الذي غاص فيه حارس الشواطئ. لذلك كان من المحتمل أن حارس الشواطئ قد كسر جمجمته فوق صخرة تحت الماء. وصعد دمه فأحدث تلك البقعة في الزبد. وعاد «الكويكر» وهو يتأمّل في هذه البقعة الحمراء يغني:

«لقد كان حيًّا قبل موته بربع ساعة».

ثم لم يكمل غناءه.

لقد سمع خلفه صوتاً رقيقاً يقول له:

- «هذا أنت يا رانتان؟ صباح الخير. لقد قتلت رجلاً منذ قليل».

فالتفت إلى الوراء، ورأى على بُعد خمس عشرة خطوة منه، عند طرف فجوة بين الصخور، رجلاً قصيراً يحمل في يده مسدساً.

فأجاب:

- «هو كما ترى. صباح الخير يا سيّد كلوبان».

وسرت رعشة في الرجل القصير:

- «وهل عرفتني؟».

فأردف رانتان: «لقد عرفتني أنت كما ترى».

وفي هذه الأثناء كانت تسمع أصداء مجاذيف في البحر. إنه المركب الصغير الذي يقترب والذي كان يراقبه حارس الشواطئ.

قال السيّد كلوبان بصوتٍ خفيض وكأنه يحدث نفسه:

- «لقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة».

فسأله رانتان: «هل من خدمة أقدّمها لك؟».

- «لا أسألك شيئاً كثيراً. هذه عشر سنوات لم أرك خلالها أبداً. يبدو أنك قد قمت بصفقاتٍ مربحة. فكيف حالك؟».

قال رانتان: «حسن جداً. وأنت».

فأجاب السيّد كلوبان: «حسن جداً».

وتقدم رانتان خطوة واحدة نحو السيّد كلوبان.

فسمع صوت جاف. لقد كان السيّد كلوبان يشدّ زناد مسدسه.

- «نحن على مسافة خمس عشرة خطوة يا رانتان. وهي مسافة جيدة. فابقَ حيث أنت».

فأردف رانتان قائلاً: «آه، وماذا تريد مني؟».

- «لقد أتيت لأتحدّث معك».

وجمد رانتان في مكانه. ثم عاد كلوبان يقول:

- «لقد قتلت منذ قليل أحد حرّاس الشواطئ».

فرفع رانتان طرف قبّعته وأجاب:

- «لقد شرّفتني بذكر ذلك من قبل».

- «لقد قلت سابقاً وبعبارة أقل تحديداً: رجلاً، أما الآن فإنني أقول: حارس شواطئ. لقد كان هذا الحارس يحمل رقم 619. وهو ربّ عائلة. إنه يترك وراءه زوجة وخمسة أطفال».

قال رانتان: «يجب أن يكون ما تقوله صحيحاً».

وحدث بعد ذلك توقّف غير ملحوظ.

فأردف كلوبان: «هؤلاء الحرّاس هم رجال النخبة، فكلّهم تقريباً من البحّارة القدماء».

قال رانتان: «لقد لاحظت أن الرجل يترك وراءه بصورة عامة زوجة وخمسة أطفال».

وتابع السيّد كلوبان قائلاً:

- «احزر كم كلّفني هذا المسدس؟».

فأجابه رانتان: «إنه قطعة جميلة».

- «بكم تقدّر ثمنه؟».

- «أقدّره كثيراً».

- «لقد كلّفني 144 فرنكاً».

- «يبدو أنك اشتريته من دكّان الأسلحة في زقاق كوتانشاز».

فأردف كلوبان:

- «إنه لم يصرخ. فالسقوط يقطع الصوت».

- «أيها السيّد كلوبان، سيهبّ النسيم في هذه الليلة».

- «أنا وحدي مطّلع على هذا السرّ».

فسأله رانتان: «هل ما تزال تبيت في حانة جان؟».

- «نعم. والمبيت فيها شيء حسن».

- «أذكر أنني أكلت فيها كرنْباً لذيذ الطعم».

- «يجب أن تكون قوياً يا رانتان. فلك كتفان شديدتان! وأنا لا أبغي أن أستقبل ضربة من يدك. كنت حين أتيت إلى الدنيا من الضعف بحيث أن أحداً لم يكن يعرف ما إذا كنت قادراً على البقاء حيًّا».

- «ومع ذلك فقد نجحت. هذا شيء مفرح».

- «إنني أحتفظ بعاداتي. أنا أبيت دائماً في هذه الحانة القديمة (جان)».

- «هل تعرف يا سيّد كلوبان، لماذا عرفتك؟ ذلك لأنك عرفتني. لقد قلت في نفسي: إنه لا يعرفني غير كلوبان».

وتابع السيّد كلوبان:

- «وهاك هو الموقف. إلى يميننا، عند (سان اينوغا) وعلى بعد ثلاثمئة خطوة منا، يوجد حارس من حراس الشواطئ رقمه 618 وهو حيٌّ يُرزق، وإلى يسارنا، عند (سان لونا) مركز جمركي، به يصبح عدد الرجال المسلّحين ممن يمكن أن يكونوا هنا خلال خمس دقائق سبعة رجال. وستكون الصخرة محاطة من كل جانب كما سيكون المدخل مُراقَباً، ثم يصبح الهرب بعد ذلك شيئاً بالغ الاستحالة. عند أقدام الجرف الصخري يوجد جثّة رجل ميت».

وهنا وجّه رانتان طرف عينه نحو المسدس:

- «إنها كما تقول يا رانتان، قطعة جميلة. وقد لا تكون فيه غير رصاصات بيضاء. ولكن ماذا يهمّ؟ إن طلقاً ناريًا واحداً كافٍ لاجتذاب قوّة مسلّحة إلى هذا المكان. وعندي ستّ طلقات».

وهنا كان وقع المجاذيف المتناوب قد أصبح أكثر وضوحاً فالمركب لم يعد بعيداً.

الرجل الطويل ينظر إلى الرجل الصغير نظرة غريبة. والسيّد كلوبان يتكلم بصوت يزداد هدوءاً واطمئناناً.

- «إن رجال المركب الذي سيصل قريباً، سيمدّون إليّ يد العون للقبض عليك يا رانتان. وها أنت تدفع للربّان زُوَالا عشرة آلاف فرنك مقابل حملك في سفينة. وأخبرك، بين معترضتين، إنك كنت قادراً على عقد صفقة خير من هذه الصفقة مع المهرّبين في بلان مون، ولكنهم لن يسيروا بك إلى أبعد من إنجلترا، على أنك من ناحية أخرى، لا تستطيع أن تخاطر بالمرور في غرناسي حيث يتمتّع الجميع هناك بشرف معرفتك. أعود إلى الوضع القائم. إنه سيُقبَض عليك إن أطلقت النار من هذا المسدس. وقد اتفقت مع زوالا على أن تدفع له عشرة آلاف فرنك: خمسة آلاف منها مقدماً والباقي عند الوصول. وفي حالة القبض عليك يحتفظ زوالا بالمقدم من المبلغ ويغادر الشاطئ. إنك يا عزيزي رانتان قد أحسنت التنكّر. فهذه القبعة، وهذا الثوب الغريب، وهذه اللفيفة على ساقك قد غيّرتك تغييراً تامًا. ولكنك نسيت نظّارتيك. وقد أحسنت صنعاً بإطالة لحيتك.

وهنا ابتسم رانتان ابتسامة أشبه ما تكون بالتكشيرة. وتابع كلوبان قائلاً:

- «يا سيّد رانتان. إنك تحمل سروالاً أميركياً ذا بطانة مضاعفة في نقرة الأبط. وفي إحدى البطانتين ساعتك. فاحتفظ بها».

- «شكراً يا سيّد كلوبان».

- «وفي البطانة الأخرى علبة صغيرة من الحديد تنفتح وتنغلق بنابض فيها. إنها علبة تبغ قديمة يحملها البحّارة في العادة. أخرجها من بطانتك ثم ألق بها إليّ».

- «ولكن هذه سرقة! ».

- «أنت حرّ في الاستنجاد بالحرس».

وأثبت كلوبان نظره في رانتان:

- «خذ أيها السيّد كلوبان. . ».

وهنا مدّ كلوبان ذراعه وبدا طرف ماسورة المسدس.

- «من تظنني يا رانتان؟ أنا رجل شريف! ».

ثم أضاف بعد صمت:

- «يجب أن آخذ كل ما معك. اسمع يا رانتان. منذ عشر سنوات غادرت غرناسي وأنت تحمل معك من صندوق إحدى الشركات خمسين ألف فرنك تخصّك وقد نسيت أن تترك فيه خمسين ألفاً أخرى كانت ملكاً لسواك. هذه الخمسون ألفاً التي سرقتها من شريكك الشريف الطيب السيّد لاتياري، قد أصبحت اليوم بعد إضافة الفوائد المشروعة إليها واحداً وثمانين ألفاً وستمئة وستة وستين فرنكاً وستة وستين سنتيماً. وقد دخلت أمس مكتب أحد الصرّافين السيّد رابوشا في شارع سان فنسان. فعددت له ستة وسبعين ألفاً من الفرنكات فدفع إليك مقابلها ثلاث أوراق نقدية كل منها من فئة ألف ليرة استرلينية يضاف إليه رصيد الصرافة. وقد وضعت هذه الأوراق في علبة التبغ الحديدية، ثم وضعت العلبة الحديدية في بطانة الجهة اليمنى. هذه الآلاف الثلاثة من الليرات الاسترلينية تساوي خمسة وسبعين ألفاً من الفرنكات. وسأكتفي بها باسم السيّد لاتياري. أنا ذاهب غداً إلى غرناسي، وعازم على تسليم هذا المبلغ إليه. واعلم يا رانتان أن السفينة ذات الصواري الثلاثة، والواقفة في عرض البحر هي التاموليباس. وقد وضعت فيها الليلة الماضية حقائبك مخلوطة بحقائب البحّارة. إنك تريد مغادرة فرنسا، ولك ما يبرّر هذا السفر. وأنت مسافر إلى أراكيبا. والقارب الصغير يقترب لأخذك إلى السفينة. وأنت تنتظره هنا وقد وصل فعلاً. واعلم أن سفرك أو بقاءك مرتبط برغبتي في تحقيق أحدهما. لتكفّ عن الكلام. وتلقي إليّ بعلبة التبغ الحديدية.

وهنا فتح رانتان بطانته، وأخرج منها علبة صغيرة، ألقاها إلى كلوبان.

وانحنى كلوبان دون أن يخفض رأسه والتقط علبة التبغ بيده اليسرى، مصوّباً نحو رانتان عينيه الاثنتين ومواسير المسدس الست. ثم صرخ قائلاً:

- «أدِر ظهرك يا صديقي».

ووضع السيّد كلوبان المسدس تحت إبطه. وضغط على نابض العلبة فانفتحت.

فوجد فيها أربع أوراق نقدية ثلاث منها من فئة ألف ليرة استرلينية وواحدة منها من فئة عشر ليرات استرلينية.

فطوى الأوراق الثلاث الأولى وأعادها إلى العلبة التي أغلقها بعد ذلك ودسّها في جيبه.

ثم رفع حصوة من الأرض غلّفها بالورقة الرابعة وقال:

- «قلت لك: إنني سأكتفي بثلاثة آلاف ليرة استرلينية، وها أنا أعيد إليك الباقي».

أما رانتان فقد رمى بالورقة النقدية إلى البحر بضربة من قدمه.

قال كلوبان:

- «افعل ما يحلو لك. إنك يجب أن تكون غنيًّا. فأنا مطمئن».

وتوقّفت ضجة المجاذيف، التي كانت تقترب بصورة مطّردة أثناء المحادثة الثنائية. وقد دلّ ذلك إلى أن القارب الصغير قد أصبح عند قدم الجرف الصخري.

- «لقد وصلت عربتك يا رانتان. وفي وسعك مغادرة المكان».

فتوجّه رانتان نحو السلّم الصخري وغاص فيه.

واقترب كلوبان باحتياطٍ شديد من طرف الجرف، وأتلع رأسه ونظر إليه نازلاً.

كان القارب الصغير قد توقّف عند درجة السلّم الصخرية الأخيرة، في المكان نفسه الذي سقط فيه حارس الشواطئ.

وردد كلوبان بين أسنانه وهو ينظر إلى رانتان يتدحرج:

- «هذا رقم جيد 619! لقد كان يظن نفسه وحيداً. ورانتان يظن أنهما اثنان فقط. وأنا وحدي كنت أعتقد أننا ثلاثة».

ثم رأى عند قدميه فوق العشب الأخضر، المنظار المقرّب الذي تركه حارس الشواطئ يسقط. فالتقطه.

وتردّد صوت المجاذيف مرّة أخرى. لقد قفز رانتان إلى المركب، الذي اتجه نحو البحر. ولم يكد يستقرّ فيه، وتنطلق الضربات الأولى لمقذاف المركب الصغير، ويبدأ الجرف الصخري بالابتعاد عنه، حتى انتصب واقفاً، وأصبح وجهه رهيباً، ومدّ يده إلى أدنى مهدّداً وصرخ قائلاً:

- «آه! إن الشيطان نفسه وغد لئيم! ».

وبعد دقائق قليلة، كان كلوبان يسمع هذه العبارات الواضحة ينطلق بها صوت عالٍ في ضجّة البحر، وهو واقف في أعلى الجرف الصخري موجّهاً المنظار المقرب نحو القارب الصغير:

- «أيها السيّد كلوبان، أنت رجل شريف، وستكون سعيداً جداً حين أكتب إلى السيّد لاتياري لأبلغه تفاصيل ما حدث، إن بحّاراً من غرناسي وهو من نوتية السفينة تاموليباس، يُدعى آهيا توستافان، سيعود إلى سان مالو في السَّفْرة القادمة التي يقوم بها زُوَالا، وسيشهد أنني قد سلّمتك مبلغ ثلاثة آلاف ليرة استرلينية لحساب السيّد لاتياري».

لقد كان هذا الصوت صوت رانتان.

والواقع أن كلوبان كان رجل التنظيم في كل أمر. إنه لم يقلع عن النظر إلى المركب الصغير برهة واحدة. لقد شاهد المركب يتضاءل في أمواج البحر، يختفي تارة، ويظهر أخرى، ثم يقترب من السفينة المعطّلة.

وبعد نصف ساعة لم تعد التامولبياس غير قرن أسود يتضاءل في الأفق تحت سماء الغسق الباهتة.

9

معلومات مفيدة للأشخاص الذين ينتظرون أو يخافون رسائل ما وراء البحار

وفي هذا المساء أيضاً رجع السيّد كلوبان في وقتٍ متأخر.

ومن أسباب تأخره، أنه قد توجّه قبل رجوعه إلى باب دينان حيث كانت توجد حانات متعددة. فاشترى من إحداها، زجاجة من الخمر وضعها في جيب مريلته العريضة كما لو أنه يريد إخفاءها. ثم قام بدورة تفتيشية على المركب «دوراند» الذي كان يجب أن يغادر الشاطئ في صباح اليوم التالي، ليتأكّد من أن كل شيء في مكانه.

وعندما عاد السيّد كلوبان إلى حانة جان، لم يكن في غرفتها السفلى غير الربّان العجوز ذي السفرات الطويلة، السيّد جرترا غابورو، والذي كان يشرب ويدخّن غليونه.

وقد حيّا السيّد جرترا غابورو السيّد كلوبان بين نَفَس من غليونه ونهلة من شرابه.

- «وداعاً أيها الربّان كلوبان».

- «مساء الخير أيها الربّان جرترا».

- «لقد ذهبت التامولبياس».

- «آه، لم أنتبه إلى ذلك».

وبصق الربّان جرترا غابورو وقال:

- «لقد انسلّ زُوالا».

- «ومتى كان ذلك؟».

- «هذا المساء».

- «إلى أين يقصد؟».

- «إلى أريكيبّا».

قال كلوبان: «لم أكن أعرف ذلك».

وأضاف قائلاً:

- «أنا ذاهب لأنام».

وأشعل شمعدانه، ومشى نحو الباب ثم رجع:

- «هل ذهبت إلى أريكيبّا أيها الربّان جرترا؟».

- «نعم منذ سنوات».

- «وأين ترسو السفينة هناك؟».

- «هنا وهناك. ولكن التامولبياس لن ترسي في هذا المرفأ أبداً».

- «كلا. إنها تتجه مباشرة نحو التشيلي».

- «وفي هذه الحالة لن تستطيع أن توصل أنباءها في الطريق إلى أية جهة».

- «عذراً أيها الربّان. أولاً: إن في وسعها أن تبلغ السفن

المتجهة نحو أوروبا ما تشاء من الرسائل. ثانياً: إن لها صندوق بريدها البحري».

- «وماذا تعني بصندوق بريدها البحري؟».

- «ألا تعرف هذا الصندوق يا سيّد كلوبان؟».

- «لا».

- «عندما نجتاز مضيق ماجلان».

- «حسناً، وما معنى ذلك؟».

- «ثم نجتاز رأس موغوث. وأخيراً رأس آنّا، نجد أمامنا فجأة، وعلى رأس صخرة تعلو مئة قدم عن سطح البحر، عصاً كبيرة. إنها ركيزة في أعلاها برميل. هذا البرميل هو صندوق البريد. وقد وجب أن يكتب الإنكليز عليه عبارة: مكتب بريد، مع العلم أن هذا المركز لا يخصّ الرجل النبيل، ملك إنجلترا. هكذا تتحقّق خدمة البريد. كل سفينة تمرّ من هناك ترسل إلى البرميل قارباً صغيراً يضع فيه رسائلها. فالسفينة الآتية من الأطلنتيك ترسل فيه رسائلها إلى أوروبا والسفينة الآتية من الباسيفيك ترسل فيه رسائلها إلى أميركا. والضابط المكلّف بقيادة المركب يضع في البرميل الرسائل التي يحملها ويأخذ منه الرسائل التي يجدها فيه. وتتولّى السفينة بعد ذلك مهمّة إيصال هذه الرسائل إلى أصحابها».

فتمتم كلوبان حالماً:

- «هذا شيء غريب جداً».

ورجع الربّان جرترا غابورو إلى شرابه.

- «هل ستغادرنا غداً؟».

- «لا شك أيها الربّان جرترا، إنه يومي المعتاد. فيجب أن أغادركم غداً صباحاً».

- «لو كنت مكانك لما سافرت، إن جلد الكلاب مبتلّ الشعر. وطيور البحر تأتي منذ ليلتين تدور حول مصباح المنارة. وهذه علامة سيئة. والوقت الآن هو وقت أقصى الرطوبة. وسيكون غداً ضباب شديد. فأنا لا أنصحك بالسفر. إنني أخاف الضباب أكثر مما أخاف العاصفة. فالضباب مراءٍ ذو وجهين».

الكتاب السادس

قائد الدفّة السكران والربّان الصاحي المعتدل

1

صخرتا دوفر

على بعد خمسة أميال تقريباً في عرض البحر، وفي الجنوب من غرناسي، تجاه رأس مون بلان، توجد مجموعة من الصخور تسمى صخور دوفر.

هذه التسمية، دوفْر، دوفَر، تُطلق على كثيرٍ من الصخور والأجراف. والواقع أن «صخرة دوفر» موجودة قريباً من شواطئ الشمال، ولكننا لا نستطيع أن نخلطها مع هذه المجموعة.

إن أقرب رأس فرنسي من صخرة دوفر هو رأس براهان. والصخرة دوفر هي أبعد قليلاً عن شاطئ فرنسا من أول جزيرة من جزر الأرخبيل النورماندي. أما المسافة القائمة بين هذه الصخور وبين جرسي فهي تساوي تقريباً أربعة من الأميال.

في بحار الحضارة هذه، لا تكون أكثر الصخور وحشية، خالية من سكّانها إلا في النادر القليل. فنحن نلتقي مهرّبين في هاغو، وسلتيين في براها، كم نجد المهتمين بتربية المحار في كانكال،

وصيادين للأرانب في جزيرة قيصر، ولاقطي السراطين في «براك هو». ولكننا في صخور دوفر، لا نجد أحداً أبداً.

أما طيور البحر هناك فهي في ملجئها الطبيعي...

والواقع أن صخرة دوفر في هذا البحر الخطر المخيف، لا مثيل لها في الرهبة غير صخرة «باتر نوستر» بين غرناسي وسرك.

العاصفة، والماء، والضباب، واللامحدود، واللامسكون، لا شيء يمر بصخور دوفر إلا أن يكون تائهاً. والصخور الغرانيتية فيها ذات مظهر وحشي قبيح، وفي كل مكان منها أجراف وصخور وعرة. وجفوة الهوّة الشديدة.

البحر هناك مرتفع. والماء عميق الغور. ولذلك تسرع إليها الحيوانات التي تحتاج إلى بُعْدِ الإنسان عنها. إنها مجموعة من السراديب المتشابكة والغارقة في الماء. والأجناس الحيوانية الرهيبة منبثّة في كل مكان. والكل فيها يفترس بعضه بعضاً. السراطين تأكل الأسماك، ثم تُؤكل هي بدورها. وهناك أشكال رهيبة مخيفة قد صُنعت لكي لا تُرى بالعين البشرية، تتيه حية في هذه الظلمة الدامسة. إن في هذه الشفافية الرهيبة، قسمات غامضة، من الأشداق والقرون، والمجاسّ، والزعانف والأجنحة الصغيرة، والفكوك الفاغرة، والفلوس والحراشف، والبراثن، واللواقط... كلها تطفو فيها، وترجف، وتتضخّم، وتتحلّل، وتمّحي. إنها أجسام مخيفة ترود هذا المكان سابحة، وتصنع فيه ما عليها أن تصنع. إنها منحلة أفاعي ذات رؤوس سبعة.

الرهيب هو هناك، شيء مثالي.

إن النظر إلى داخل البحر، هو النظر إلى خيال المجهول. إنه النظر إليه من جانبه المخيف. الهوّة فيه شبيهة بالليل. وهناك نوم، نوم ظاهري على الأقل، لضمير عملية الخلق. وهناك تتمّ في أمنٍ تام،

الجرائم غير المسؤولة. وهناك في سلام بشع رهيب، تبدو خطوط الحياة العامة، التي تكاد تكون أشباحاً، وكأنها منهمكة بمشاغل الظلام ومهمّاته.

منذ أربعين سنة، كانت صخرتان على صورة غريبة تشيران من بعيدٍ إلى صخرة دوفر للمسافرين في البحر المحيط. لقد كانتا رأسين عموديين، حادّين ومنحنيين، يتلامسان عند القمّة تقريباً. فيُخيّل الناظر أنه يرى أمامه نابَيْ فيل غارق في الماء. والفرق الوحيد أنهما هنا نابان عاليان كأنهما برجان. هذان البرجان الطبيعيان لمدينة الوحوش المظلمة لم يكونا يتركان بينهما غير مضيق صغير تمرّ منه أمواج الماء. إن هذا الممر المتعرّج الذي يشتمل في امتداده على كثيرٍ من المرافق، أشبه ما يكون بشارع بين جدارين. لقد كانت تدعى هاتان الصخرتان التوأمان باسم «صخرتي دوفر».

كانت هناك دوفر الكبيرة ودوفر الصغيرة، إحداهما تعلو 60 قدماً، والثانية تعلو 40 قدماً. أما رواح الموج وغدوه فقد استطاع أن يترك في قاعدة هذين البرجين آثاراً كأسنان المنشار، وعاصفة البحر التي عصفت في 26 تشرين الأوّل عام 1859 قد هدمت إحداهما. والباقية منهما وهي الصغيرة قد أصبحت ناقصة بالية.

أما أغرب مجموعة صخور دوفر فتسمّى صخرة الإنسان. هذه الصخرة ما تزال موجودة حتى اليوم. وفي القرن الماضي وجد بعض الصيادين الضائعين عند هذه المجموعة، وفوق قمّة هذه الصخرة جثّة ميتة. وقد كانت قرب الجثة أصداف فارغة. لقد غرق مركب أحدهم أمام هذه الصخرة، فلجأ إليها، وقضى فترة من الزمن يغتذي فيها من الأصداف التي وجدها. ومن هنا اسم «الإنسان» الذي أُطلق عليها.

إن عزلة الماء هي عزلة محزنة. فهي الصخب والصمت. وما يحدث فيها لا علاقة له أبداً بالجنس البشري. إنه ذو علاقة

بالمجهول. هذه هي عزلة صخرة دوفر. ومن حولها، على مدى النظر، عذاب الأمواج العظيم.

2

كونياك غير منتظر

في صباح الجمعة، وفي اليوم التالي لتاريخ إقلاع التاموليباس، أقلع المركب دوراند باتجاه غرناسي.

لقد ترك سان مالو عند الساعة التاسعة.

كان الجو صافياً، لا ضباب فيه، وقد بدا الربّان جرترا غابورو إنساناً خَرِفاً فيما تنبّأ به.

ومشاغل السيّد كلوبان كادت تقريباً تحرمه من تحميل مركبه. فلم يكن قد حمل في مركبه غير بضعة طرود من باريس مرسلة إلى دكاكين «فانسي» في سان بيار بور، وثلاثة صناديق لمستشفى غرناسي، وآخر من الصابون الأصفر، ثم آخر من الشمعدانات، وثالث من النعال الفرنسية. وكان يحمل معه من حمولته السابقة صندوقاً من السكّر وثلاثة صناديق من الشاي رفض الجمرك الفرنسي السماح لها بالدخول. والسيّد كلوبان لم يحمل بالإضافة إلى ذلك غير القليل من الماشية، بضعة ثيران. وقد أهمل ربط هذه الثيران في قاع المركب.

أما المسافرون فكانوا ستة أنفار: أحدهم غرناسي واثنان من تجّار الماشية وسائح، أو باريسي نصف بورجوزاي كما كان يقال في ذاك العصر، ومن المحتمل أن يكون سائح تجارة، ثم أميركي يسافر لتوزيع نسخ من التوراة.

وكان في دوراند سبعة ملاّحين، خلا كلوبان الربّان، قائد دفّة،

وبحّار، وفحّام، وبحّار نجّار، وطاهٍ، ثم مناور عند الحاجة، وواقدان، ونوتي متمرّن. وكان أحد الواقدين ميكانيكيًا في الوقت نفسه. هذا الواقد الميكانيكي، هو زنجيّ هولنديّ شجاع جداً وذكي جداً، هرب من مصانع السكّر في سورينام، وكان يُدعى «إمْبرانكَام». إن الزنجي إمْبرانكَام يعرف الآلة ويُعنى بها عناية تدعو إلى الإعجاب. وفي الأوقات الأولى، لم يشارك مشاركة قليلة، وهو يبدو شديد السواد أمام موقده، في إعطاء دوراند هيئة شيطانية.

أما قائد الدفّة فقد كان يُدعى «تَانْفرُووِيْ». وُلِد في جرسي. وهو ينتسب إلى طبقة مجتمعية نبيلة.

كان هذا صحيحاً بالحرف الواحد. فجزر المانش هي، كإنجلترا، بلد التسلل الطبقي. هذه الطبقات ما تزال موجودة فيها حتى اليوم. ولهذه الطبقات آراؤها الخاصة وحججها التي تدافع بها عن نفسها. إن آراء هذه الطبقات هي نفسها لا تتغيّر، إنها في الهند كما هي في ألمانيا. النبالة تكتسب مكانتها بالسيف ثم تفقدها بالعمل. وهي تحتفظ بنفسها في البطالة والفراغ. الحياة بنُبْلٍ هي ألا تفعل شيئاً، وأيّ إنسان لا يعمل، يكون موضعاً للتشريف. المهنة تُسقط أصحابها. أما في فرنسا فلم يكن غير استثناءٍ واحد هو صانعي الزجاج. إن إفراغ الزجاجات هو إلى حدٍّ ما مجد النبلاء والأشراف، أما صنع الزجاجات فلم يكن فيه ما يشين هذا الشرف أبداً. ومن أراد في أرخبيل المانش، وفي إنكلترا أن يبقى نبيلاً يجب أن يبقى غنيًا. منذ ثلاثين عاماً، كان في أورينيي رجل ينتسب إلى عائلة جورج النبيلة، وكان في وسعه أن يحصل على حقوق سيادة عائلة جورج المصادرة من قِبَل فيليب أوغوست، ومع ذلك فقد كان يلمّ مقذوفات البحر وهو عاري القدمين. وهناك آخر من عائلة كارتارا في سرك قد أصبح سائق عربة. كما أن هناك آنسة من عائلة فولى، كانت خادماً

عند كاتب هذه السطور. وهذا ما حصل لقائد دفّة المركب دوراند، والمدعو تَانْفرُوْوِيْ الذي كان يتّصف بصفة النبيل القديمة.

وقد أصرّ السيّد كلوبان على الاحتفاظ به وتحمّل مسؤوليته لدى السيّد لاتياري.

وقائد الدفّة تانفروويّ لم يكن يترك المركب أبداً. كان ينام فيه.

وفي ليلة السفر، وحينما جاء السيّد كلوبان في ساعة متأخرة من المساء، يزور المركب، كان تانفروويّ نائماً في أرجوحته.

واستيقظ تانفروويّ في أثناء الليل. لقد كانت هذه عادته الليلية. إن لكلّ مدمن على السكر، لا يكون سيّد نفسه، مخبأه الخاص. وكان لتانفروويّ هذا المخبأ. وهو يعتقد أن الجميع يجهلون مكان هذا المخبأ إلا هو. والقليل من الروم أو الجنّ الذي يهرّبه تانفروويّ بعيداً عن رقابة كلوبان، كان يحتفظ به في مخبئه ويزوره تقريباً في كلّ ليلة. وفي تلك الليلة وجد تانفروويّ في مخبئه زجاجة من الخمر غير منتظرة. فكان فرحه بها كبيراً، وكانت دهشته أكبر. فمن أيّ سماء سقطت إليه هذه الزجاجة؟ ولكنه شربها مباشرة. ثم قذف بالزجاجة إلى البحر. وعندما وقف في اليوم التالي أمام الدفّة كان يشعر بقليلٍ من الدوار. ومع ذلك فقد كان يوجّه المركب كالعادة تقريباً.

أما كلوبان فقد رجع إلى الحانة جان ونام فيها كما نعلم.

كان كلوبان يحمل دائماً تحت قميصه حزاماً جلديًّا للسفر حيث يحتفظ فيه بعشرين جنيهاً ثم لا يترك هذا الحزام إلا عند الليل. وقد نقش اسمه في داخل هذا الحزام، كتبه بيده على الجلد الخام، وبحبرٍ يُستعمل في الطباعة الحجرية، يتعذّر مَحْوه.

وبعد أن نهض من نومه، وقبل أن يغادر الحانة، وضع في هذا

الحزام العلبة الحديدية التي تحتوي على الأوراق النقدية الثلاث من فئة ألف ليرة استرلينية، ثم شدّه كالعادة حول جسده.

3

كان إقلاع المركب نشيطاً مرحاً. والمسافرون، لم يكادوا يضعون حقائبهم ومشاجب معاطفهم على المقاعد وتحتها، حتى راحوا يستعرضون المراكب استعراضاً لا يتخلّف أحد من المسافرين عنه، والذي يبدو إجباريًّا ما دام أن العادة قد جرت عليه. وكان اثنان من المسافرين السائح والباريسي، لم يسبق لهما أن رأيا مركباً بخاريًّا، فأعجبا بزبد العجلات عند أول دوراتها ثم أعجبا بعد ذلك بالدخان.

وابتعد المركب، وأخذت سان مالو ترقّ وتصغر من بعيد، ثم غابت في الأفق.

كان مشهد البحر هو الهدوء الواسع. وكانت الأثلام التي يحدثها المركب خلفه تصنع خطاً من الزبد يمتدّ تقريباً دون انكسار على مدى النظر.

والبحر الذي تعقده الرياح، هو مُرَكَّبٌ من القوى. والسفينة هي مُرَكّبٌ من الآلات. القوى هي آلات لانهائية، أما الآلات فهي قوى نهائية محدودة. وبين هذين الجهازين تنطلق المعركة التي تدعى سفراً في البحر.

الإرادة في الآلة هي وزن معاكس للانهاية. واللانهاية نفسها تشتمل على آلة. العناصر تعرف ما تصنع وما تستهدفه وتقصد إليه. ليس من قوّة عمياء. إن على الرجل أن يراقب القوى، وأن يحاول اكتشاف خطّة سيرها.

وبانتظار ظهور هذا القانون، تتابع المعركة، ويكون السفر البحري بالبخار في هذه المعركة، نوعاً من الانتصار المستمرّ الذي يسجّله الذكاء البشري في كل ساعة من النهار وفي كل أقطار البحر. إن في السفر البحري البخاري شيئاً معجباً هو أنه ينظّم السفينة، فهي تقلّل من الخضوع للرياح وتزيد من الخضوع للإنسان.

والمركب دوراند لم يسبق له أن عمل ببراعة كما عمل في ذلك اليوم. لقد كان رائعاً حقًّا.

الساعة الحادية عشرة قد اقتربت والجوّ محتفظ دائماً بجماله ووضوحه. وفي هذه الأثناء كان البحر يتنظّف من السفن شيئاً فشيئاً، وكأن كلاًّ كان يفكر حالماً بالرجوع إلى المرفأ.

ولا يسعنا القول إلا أن المركب دوراند كان يتّخذ طريقه العادية للعودة. كما لم يكن شيء يشغل بحّارة المركب، فقد كانت ثقتهم بالربّان مطلقة، وقد يحدث أحياناً انحراف عن الطريق بخطأ يرتكبه قائد الدفّة. وكان دوراند في الحقيقة يبدو متجهاً نحو جرسي أكثر منه نحو غرناسي. وبعد الحادية عشرة بقليل أصلح الربّان اتجاه المركب فأصبح في هذه المرّة على طريق غرناسي تماماً. ولم يضع غير قليلٍ من الوقت. والحقيقة أن للوقت الضائع القَليل في الأيام القصيرة سيّئاته. لقد كانت السماء الصاحية الجميلة هي سماء شباط.

أما ترانفووي، فلم يعد ذا قدم ثابتة وذراع حازمة، في الحالة التي كان عليها. ونتج عن ذلك أن أخطاءه قد تعدّدت، وأن سير المركب قد أصبح بطيئاً.

الرياح تكاد تهدأ تماماً.

والمسافر الغرناسي، الذي يحمل بيده منظاراً مقرّباً، كان يوجّهه بين وقتٍ وآخر نحو كُتَبَةٍ من السحاب الرمادي تسوقها الرياح بطيئة في أقصى الأفق إلى الغرب.

كل شيء هادئ بل ضاحك تقريباً على ظهر دوراند. وفي وسع المرء أن يتعرّف إلى حالة البحر في سفرة من السفرات من خلال حرارة الأحاديث المتبادلة. إذ من المستحيل، مثلاً، أن يتناول المسافرون أطراف حديث، كالحديث التالي، إلا فوق بحر هادئ:

- «سيّدي، انظر إلى هذه الذبابة الجميلة ذات اللونين الأخضر والأحمر».

- «لقد ضاعت في البحر. إنها تستريح فوق المركب».

- «الواقع أنها خفيفة جداً. والرياح تحملها».

- «سيّدي، لقد وزنت أوقية من الذباب ثم أحصيت أفرادها فكانت ستة آلاف ومئتين وثماني وستين ذبابة».

واقترب الغرناسي صاحب المنظار المقرب من تاجري الماشية، اللذين كان حديثهما حول هذا النوع من الموضوعات.

- «سيّدي، أرجو أن تصدّقني بأن في الجنوب مباراة بين الحمير».

- «تقول: الحمير؟».

- «نعم بين الحمير. والقبيحة منها هي الجميلة».

- «وإذن فهي كإناث البغال، القبيحة منها هي الجيدة».

- «هذا صحيح. إن الفرس البواتيفينية، ذات بطن كبيرة وفخذين غليظتين».

- «إن أحسن أنثى من إناث البغال، هي البرميل ذو العواميد الأربعة».

- «ليس جمال الحيوانات كجمال الرجال».

- «ولا سيما جمال النساء».

- «هذا صحيح».

- «أعود إلى ثيراني. لقد رأيت هذه الثيران تباع في سوق تُوَارْ».

- «إنني أعرف سوق تُوَارْ. فهناك فريق الباهو، وتجّار القمح في ماركان، ولا أدري ما إذا كنت قد سمعت شيئاً عن مجيئهم إلى هذه السوق».

أما السائح والباريسي فقد كانا يتحدّثان مع الأميركي صاحب التوراة. والمحادثة هناك كانت أيضاً هادئة جميلة.

قال السائح:

- «سيّدي، إن محمول سفن العالم المتمدّن هو كما يلي: فرنسا: 716 ألف برميل، ألمانيا: مليون واحد، الولايات المتحدة: خمسة ملايين، إنجلترا: خمسة ملايين وخمسمئة ألف. فإذا أضيف إليها محمول الأعلام الأخرى كان المجموع: اثني عشر مليوناً وتسعمئة وأربعة آلاف برميل موزّعة على مئة وخمسة وأربعين ألف سفينة منتشرة في بحار الأرض».

فقاطعه الأميركي قائلاً:

- «سيّدي، إن الولايات المتحدة هي التي تملك خمسة ملايين وخمسمئة ألف».

قال السائح:

- «أنا موافق على ما تقول. فأنت أميركي، لكن هل صحيح أنكم في أميركا تميلون إلى إطلاق الكُنَى، بحيث أنكم تطلقونها على كل المشهورين من رجالكم، وأنكم كنتم تسمّون الصرّاف الميسوري المشهور توماس بنتون، السبيكة العجوز؟».

- «ونحن نسمي زكريا تيلر أيضاً، زاك العجوز».

- «هذه عادة بيزنطية».

- «هذه عادتنا نحن. فنحن نسمّي فَان بُوْرَنْ، الساحر الصغير، وسيوارد الذي اصطنع قطع النقد المصرفية الصغيرة، بيللي- الصغير، ودوغلاس، شيخ إيلينوا الديموقراطي، الذي يبلغ طوله أربع أقدام، ويتمتّع ببيان ساحر، العملاق الصغير. وفي وسعك أن تنطلق من تكساس إلى مان، فلن تجد من يستعمل هذا الاسم: كَاسّ، يقال: ميشيغانتيا الكبير، ولا هذا الاسم: كلاي، يقال: صبيّ المطحنة. كلاي هو ابن طحّان».

قال الباريسيّ:

- «إنني أفضّل استعمال كلاَيْ أو كَاسّ، فهذا أقصر».

- «بذلك تخرج على العادة المستعملة. فنحن نسمي كوْرْوِنْ، الذي هو سكرتير الخزينة، صبيّ العربة. أما دانيال وَبْسْتَرَ فهو دان- الأسود. أما فيما يتعلّق بونفيلد- سكوت فنحن نسمّيه «سريعاً- صحناً من الحساء»، ذلك لأنّ أوّل فكرة جاءته بعد أن ألحق الهزيمة بالبريطانيين في شِيْبّواىْ هي الجلوس إلى منضدة الطعام».

كانت كُبّة السحاب التي رُؤيت من بعيد قد تضخّمت. لقد أصبحت تشغل من الأفق قطاعاً امتداده على التقريب خمس عشرة درجة. فيخيّل للناظر أنها غيمة تنسحب فوق الماء لعدم وجود الرياح. لقد انقطع النسيم تقريباً. وأصبح البحر مستوياً مبسوطاً. واصفرّ لون الشمس، وإن لم يكن الوقت ظهراً. لقد كانت الشمس تنير ولكنها لا تبعث دفئاً.

قال السائح:

- «أعتقد أن الجوّ سيتغيّر».

قال الباريسيّ:

- «وقد تمطرنا السماء».

فأردف الأميركيّ:

- «أو ينتشر الضباب».

وتابع السائح يقول:

- «سيّدي، في مولفاتا من إيطاليا، يسقط الأقل من المطر، وفي تُوْلْمازُوْ يسقط أكثره».

وقد جرت العادة في الأرخبيل، أن يُقرع الجرس ظهراً لتناول طعام الغداء. ليأكل من يشاء. لقد كان بضعة مسافرين يحملون معهم حقيبة طعامهم، فأخذوا يأكلون في مرحٍ ظاهر على السفينة. أما كلوبان فلم يأكل أبداً.

ولم تنقطع الأحاديث أثناء تناول الطعام.

كان الغرناسي قد اقترب من الأميركي، وهو الذي يتميّز بحاسّة شمٍّ خاصة بالنسبة للتوراة. قال له الأميركي:

- «هل تعرف هذا البحر؟».

- «دون ريب، فأنا منه وفيه».

ثم قال الأميركي لتاجر الماشية:

- «سكّان الجزر هم أقرب إلى حياة البحر من سكّان الشواطئ».

- «هذا صحيح، فنحن سكّان الشاطئ، لا نملك غير نصف حمّام».

وطرف التاجر بعينه بعد هذا الجواب.

فوجّه السائح سؤالاً:

- «هل علينا أن نجتاز هذه المجموعة من الصخور؟».

- «أبداً. لقد تركناها وراءنا في الجنوب- جنوب- شرق. إنها وراءنا».

وهنا انحصر الحديث بين الغرناسي والتاجر.

- «يبدو لي، يا سيّدي المواطن في سان مالو، أن هناك ثلاث صخور لم تحصها».

- «أنا أحصي كل شيء».

- «وأرى أنك تعرف كل الأحجار».

- «لو لم نعرف الأحجار لما كنا من سان مالو».

- «إن الاستماع إلى حجج الفرنسيين شيء يبعث على السرور».

وحيّاه تاجر الماشية بدوره وقال:

- «السوفاج هي ثلاث صخور».

- «والمُوَانْ صخرتان».

- «والكنار واحدة».

وسأل الغرناسي:

- «أرى، أنكم، مثلنا، أنتم أبناء سان مالو، مغرمون بالسفر في هذه البحار».

فأجابه التاجر:

- «نعم، مع فرقٍ واحد هو أننا نقول: لقد تعوّدنا، أما أنتم فتقولون: لقد عشقنا».

- «أنتم بحّارة ممتازون».

- «أنا تاجر ثيران».

- «ومن كان كذلك من سان مالو قبلاً؟».

- «سوركوف».

وهنا تدخّل الباريسي التاجر.

- «وكذلك دوغار تروتان؟ لقد أخذه الإنكليز. وكان محبوباً

وشجاعاً. واستطاع أن يبعث الإعجاب في نفس امرأة إنكليزية. فهي التي حطّمت قيوده».

وفي هذه الفترة انطلق صوت يصرخ هادراً:

- «إنك سكران».

4

أين تظهر صفات الربّان كلوبان

وتلفّت الجميع.

كان الربّان هو الذي يصرخ منادياً قائد الدفّة.

إن صرخة غضب تنطلق في الوقت المناسب تحرّر صاحبها من المسؤولية، وقد تنقلها إلى آخر.

وردّد الربّان بين أسنانه، وهو واقف فوق جسر القيادة، مثبّتاً نظره في قائد الدفّة:

- «سكّير!».

أما تانفرووي الفاضل فقد خفض رأسه.

الضباب ينمو ويتضخّم. لقد أصبح يشغل من الفضاء نصف الأفق تقريباً. هذا الضباب كان يتّسع ويعرض امتداده بطريقة غير محسوسة. والرياح تدفعه دون ضجة أو عجلة. فيسيطر على البحر المحيط شيئاً فشيئاً. إنه أشبه بجرفٍ صخريٍّ واسع متحرّك غامض. وكانت نقطة الدخول هذه على بُعد نصف ميل تقريباً. فلو تغيّرت وجهة الرياح لكان تجنّب الضباب أمراً ممكناً، وقد كان من الواجب أن تتغيّر هذه الوجهة حالاً.

أمر كلوبان بزيادة السرعة والانحراف نحو الشرق.

وهكذا يسير إلى جنب الضباب بعضاً من الوقت، ولكن الضباب يتقدّم دائماً. والمركب مع ذلك ما يزال في وضح الشمس.

كان الوقت يضيع بهذه المناورات التي يصعُب نجاحها. وليل شباط يأتي سريعاً.

قال الغرناسي لتاجر الماشية وهو يتأمّل الضباب:

- «هذا ضباب جريء».

فلاحظ أحد التاجرين قائلاً:

- «إنّها بقعة وسخة حقيقية على البحر».

واقترب الغرناسي من كلوبان قائلاً:

- «أيها الربّان كلوبان إنني خائف من أن يكتسحنا الضباب».

فأجاب كلوبان:

- «لقد كنت راغباً في البقاء في سان مالو ولكنني نصحت بالسفر».

وأردف الغرناسي قائلاً:

- «لقد أصبت بالسفر حقاً. فمن يضمن ألاّ تكون في الغد عاصفة؟

وبعد دقائق قليلة دخل المركب دوراند في غمرة الضباب.

ثم غاص المركب كلّه فيه. ولم تعد الشمس غير قمر كبير. وأخذ الجميع يرجفون من البرد. فلبس المسافرون معاطفهم، وحمل البحّارة أغطيتهم الخارجية. لقد كان البحر الرائق الذي لا ثنية فيه، يحمل تهديد السكون البارد. ويبدو أن شيئاً ما في أحشاء هذا الهدوء الفائق. كل شيء كان باهتاً. المدخنة السوداء والدخان الأسود يقاومان هذه الزرقة المائلة إلى السواد والتي تحيط بالمركب من كل جهاته.

ومنذئذٍ لم يعد للانحراف نحو الشرق أي هدفٍ معيّن. فعاد الربّان إلى وجهته نحو غرناسي وضاعف من قوّة البخار.

وسمع الغرناسي المسافر، وهو يدور حول غرفة النار، صوت الزنجي أمبراكام يردّد أمام رفيقه الواقد قائلاً:

– «كنّا نسير عند هذا الصباح، وفي رائعة الشمس ببطء شديد، أما الآن فإننا نسير مسرعين وسط الضباب».

فعاد الغرناسي إلى السيّد كلوبان.

– «أيها الربّان كلوبان، لا ضرورة للعجلة، فلا تضاعف قوّة البخار».

– «ماذا تريد يا سيّدي؟ يجب أن نربح الوقت الضائع بسبب الخطأ الذي ارتكبه هذا السكّير، قائد الدفّة».

– «هذا صحيح، أيها الربّان كلوبان».

وأضاف كلوبان:

– «إنني أستعجل العودة. إن أمامنا الآن ما يكفي من الضباب، وسيكون أمامنا بعد قليلٍ الكثير من الليل».

وبين مسافة وأخرى، كانت تمرّ موجات كبيرة من الضباب يخيّل للرائي أنها أمواج مندوفة، فتهبط ثقيلة وتغطّي نور الشمس. ثم تبدو الشمس مرّة أخرى أكثر بهاتة وكأنها مريضة مدنفة. وكان القليل مما يرى من الشمس أشبه ما يكون بنفحات وسخة من الهواء، وببقعة زيتٍ لزينةٍ قديمةٍ من زينات أحد المسارح.

ومرّ المركب دوراند بالقرب من سفينة صغيرة ألقت مرساتها في البحر من قبيل الحذر والتعقّل. لقد كانت السفينة شيلتيل من غرناسي. وقد لاحظ صاحب هذه السفينة سرعة المركب دوراند. وبدا له أن المركب شديد الانحراف نحو الغرب. إن هذه السفينة المنطلقة بأقصى

سرعتها عبر الضباب قد أثارت دهشته.

وعند الساعة الثانية تقريباً، بلغت كثافة الضباب حدًّا دفع الريّان كلوبان إلى ترك مركز قيادته والاقتراب من قائد الدفّة. كانت الشمس قد غابت، والضباب في كل مكان. أما على المركب دوراند فيوجد نوع من الظلمة البيضاء. كان يمخر عبر لون باهتٍ منتشر. فلا يرى البحر ولا السماء.

أما الرياح فقد سكنت تماماً. وصمت المسافرون.

على أن الباريسي. . . كان يردّد بين أسنانه، أغنية بيرانجيه:

«في يومٍ من الأيّام والإله يستيقظ».

«وضع رأسه في النافذة».

«ومن الممكن أن يكون كوكبهم قد هلك».

وقال أحد التاجرين:

- «وإذن فهناك يحدث في اليابسة ما يحدث في البحر».

- «صحيح إن أمامنا الآن هنا ضباباً قبيحاً».

- «ومن يستطيع أن يصنع المصائب؟».

فصرخ الباريسي:

- «ولكن، لمَ هذا، مصائب! وبأية مناسبة، هذه المصائب! وما الفائدة من المصائب! إنها كحريق الأوديون. هاك عائلات تفترش القشّ. هل هذا عدل؟ اعلم يا سيّدي، إنني غير مسرور وإن كنت لا أعرف ما هو دينك».

قال التاجر:

- «ولا أنا كذلك».

فأردف الباريسي:

- «إن كل ما يحدث هنا في هذه الدنيا يحدث إثر شيء ينهار ويتهدّم. إنني أرى أن الله غير موجود».

وهنا أخذ التاجر يحكّ أعلى رأسه كمن يحاول أن يفهم ما يسمع، وتابع الباريسي قائلاً:

- «الله غائب. وعلينا أن نستصدر مرسوماً يرغمه على الحضور. إنه في منزله الريفي لا يشغله شيء من أمرنا شيء أبداً. الثابت، يا سيّدي العزيز، إن الله لم يعد موجوداً في الحكومة، وإنه يقضي أيّام راحته مستجمًّا، وإن وكيله، أحد ملائكته المقيمين، أو أحد البُلْه بجناحين كجناحَيْ عصفور الدّوري، هو الذي يشرف على مقدرات العالم».

ووضع الربّان يده على كتف الباريسي، وقد اقترب من المتحدّثين ثم قال:

- «اسكت! يا سيّدي، وانتبه لأقوالك. فنحن في البحر».

وامتنع الجميع عن الكلام.

لم تكن السماء تمطر، ومع ذلك فقد شعر الجميع بالبلل. والإنسان لا يدرك حقيقة ما يجري لكنه يشعر الانزعاج. وكان يبدو أن الجميع قد دخلوا مرحلة الحزن. واصطنع الضباب الصمت في البحر المحيط، لقد نوّم الموج وخنق الرياح. في هذا الصمت، كان لحشرجة المركب دوراند شيء يبعث على القلق والشفقة.

ولم يعد أحد يرى سفناً في البحر. فإذا كان، في مكانٍ بعيد، بعض سفن خارج منطقة الضباب، سواء أكان ذلك من جهة غرناسي، أو من جهة سان مالو، فالمركب دوراند الغارق في الضباب، بالنسبة إليها، غير مرئيّ، ودخانه الطويل، والمتصل بالعدم، يترك أمامها أثراً كأثر كوكب أسود في سماء بيضاء.

وفجأة صرخ كلوبان:

- «لقد قمت بخطوة باطلة. إنك ستسبّب لنا تلفاً. وتستحقّ أن توضع في الحديد. اذهب، أيها السكّير!».

وتولّى الدفّة بنفسه. وتتابع السير في خطوات سريعة.

وعندما اقتربت الساعة الثالثة بدأ الجزء الأدنى من الضباب يرتفع، وعاد الجميع إلى رؤية البحر.

قال الغرناسي:

- «أنا لا أحب هذا أبداً».

والواقع أن الضباب لا يرتفع إلا بالشمس أو بالرياح. فإذا كانت هي الشمس فهو حسن، أما إذا كانت الرياح، فهو أقلّ حسناً. كان الوقت متأخّراً لتكون الشمس هي الرافعة. ففي الساعة الثالثة من شهر شباط، تضعف الشمس وتخفّ حرارتها. ويقظة الرياح في مثل هذا الوقت الحَرِج من النهار، شيء غير مرغوب فيه. إنها في الغالب إرهاص بنشوب العاصفة.

على أن الإحساس بالنسيم على فرض وجوده شيء لا يكاد يتحقّق. أما كلوبان، فقد كان يجترّ بين أسنانه عبارات تبلغ آذان المسافرين، وعينه على صندوق البوصلة، والدفّة بين يديه، من مثل:

- «لا سبيل لإضاعة الوقت. لقد أخّرنا هذا السكّير».

على أن وجهه كان خالياً من كل تعبير واضح.

وكان الجو أقلّ هدوءاً تحت الضباب. لقد كان يرى بعض الموج. وأنوار باردة تطفو فوق الماء. إن هذه الصور من اللهب على الموج تشغل البحّارة. إنها تدلّ على فجوات محدثة في أعلى الضباب من قبل الريح العليا. الضباب يرتفع ثم يهبط أشدّ كثافة من قبل. وفي بعض الأوقات كانت الكثافة تامّة كاملة. فقد وقعت السفينة في كمين ضبابي حقيقي. وبين فترة وأخرى كانت هذه الدائرة الرهيبة تنفتح

كطرفي الكماشة، فتكشف قليلاً من الأفق ثم تنغلق.

والغرناسي المتسلّح بمنظاره المقرب، يقف كالنجم عند مقدم المركب.

وحدثت فجوة مضيئة، ثم امّحت.

فتلفّت الغرناسي فزعاً.

- «أيها الربّان كلوبان».

- «ماذا حدث. أرانا نتجه مباشرة نحو صخور هانوا».

- «أنت مخطئ».

فألحّ الغرناسي:

- «أنا واثق مما أقول».

- «مستحيل. هذا هو عرض البحر. مستحيل».

وتابع كلوبان سيره في الاتجاه الذي أشار إليه المسافر.

فرجع الغرناسي إلى منظاره المقرّب.

وبعد قليل انطلق راكضاً إلى الوراء.

- «أيها الربّان! ».

- «حسناً؟».

- «انحرف بمقدم السفينة».

- «لماذا؟».

- «أنا واثق من أنني رأيت الصخرة العليا. وهي قريبة جداً إنها هانوا الكبيرة».

- «من الممكن أنك رأيت ضباباً أشدّ كثافةً».

- «إنها هانوا الكبيرة. انحرف بالمقدمة، بحقّ السماء».

فحرّك كلوبان مقبض الدفّة.

5

كلوبان يبلغ حدّ الروعة في إثارة الإعجاب

وسُمعت أصداء قضقضة. إن لتمزّق جانب من سفينة فوق صخور غارقة في وسط البحر صوتاً هو أشدّ الأصوات المحزنة التي يمكن أن يحلم بها المرء.

وتوقّف المركب دوراند فجأة عن الحركة.

وقد تدحرج كثير من المسافرين فوق جسر المركب بسبب هذه الصدمة. وانفجرت صرخة طويلة على المركب.

- «لقد انتهت حياتنا».

ولكن صوت كلوبان الجاف والحازم سيطر على هذه الصرخة:

- «لم ينتهِ أحد منكم! سكوت! ».

كانت الفترة رهيبة حقاً.

وقد أشبهت الصدمة عملية انتحار. ولو أحدثت قصداً لما كانت أشدّ رهبة منها في ذلك الوقت. أما المركب دوراند فقد توجّه كما لو أنه كان يهاجم الصخرة. ونفذ رأس الصخرة داخل السفينة وكأنه المسمار. ومقدم السفينة المنفتح، يشرب ماء البحر شرباً يرافقه فوران رهيب.

وغاص مقدم دوراند. لكأنه حصانٌ غرس الثور قرنه في أحشائه.

لقد مات المركب.

واستيقظ تانغرووي من سكره، فإن أحداً لا يسكر في كارثة غرق، ونزل إلى داخل السفينة ثم صعد وقال:

- «سيّدي الربّان، إن الماء يملأ قعر المركب».

المسافرون يتراكضون على ظهر المركب، في وَلَهٍ شديد، يلوون أذرعتهم من الجزع، ويطلّون على البحر من طرف السفينة، أو ينظرون إلى الآلة ثم يقومون بكل الحركات الفاشلة التي يحدثها رعب شديد. أما السائح فقد أصيب بالإغماء.

وأشار كلوبان بيده، فصمت الجميع. ثم سأل أمبرانكام:

- «كم من الوقت تستطيع الآلة أن تعمل؟».

- «خمساً أو ست دقائق».

ثم سأل المسافر الغرناسي:

- «لقد كنت شخصيًّا أمام الدفّة. وقد لاحظت أنت الصخرة. فعلى أية واحدة من صخور هانوا نحن موجودون؟».

- «على الصخور الخبازية يا سيّدي. لقد عرفتها منذ قليل عبر الفجوة المضيئة».

- «إذا كنا على الصخرة الخبازية فقد وجب أن تكون الهانوا الكبيرة إلى يسار المركب، والهانوا الصغيرة إلى يمينه. فنحن إذن على بعد ميلٍ من اليابسة».

هذا والملاّحون والمسافرون يستمعون إليه، وهم يرتعشون من القلق والانتباه الشديد، وعيونهم مثبتة في شخص الربّان.

وبدأت الثيران الموجودة في قاع المركب تخور بعد أن غمرتها المياه المتدفّقة إلى الداخل.

فأمر كلوبان بإنزال قارب النجاة إلى البحر.

فقفز أمبرانكام وتانغرووي نحو القارب وفكا أربطته. أما الملاحون الباقون فقد كانوا ينظرون والخوف يعقد ألسنتهم.

وصرخ كلوبان:

- «إلى العمل جميعاً».

وفي هذه المرّة، أطاعه الجميع. وأصبح قارب النجاة فوق الماء.

وفي الوقت نفسه، توقّفت عجلات دوراند، وانقطع الدخان، وغرق موقد المركب في الماء.

أما المسافرون، الذين كانوا ينزلقون على امتداد السلّم، أو يتعلّقون بحبال السفينة المتحرّكة، فقد كانوا يلقون بأنفسهم في قارب النجاة. ورفع أمبرانكام السائح الذي أصيب بالإغماء، ثم حمله إلى قارب النجاة، ورجع مرّة أخرى إلى المركب.

وتوجّه الملاّحون إلى القارب بعد المسافرين. فتدحرج الملاّح الصبي تحت الأقدام، وسارت الأقدام فوقه.

فقطع أمبرانكام المرور. وقال:

- «لن يمرّ أحد قبل الصبي».

وباعد بين البحّارة بذراعيه، ثم أمسك بالصبي، وقدمه إلى المسافر الغرناسي الذي تلقّاه وهو واقف فوق القارب.

وبنجاة الصبي، تنحّى أمبرانكام جانباً وقال للآخرين:

- «مروا أيها السادة».

في هذه الأثناء كان كلوبان قد توجّه إلى غرفته الخاصة وجمع أوراق المركب وآلاته في صرّة واحدة. ثم أخرج البوصلة من صندوقها. وسلّم الأوراق والآلة إلى أمبرانكام، أما البوصلة فأعطاها لتانغرووي، وقال لهما:

- «انزلا إلى القارب».

وارتفعت من القارب صرخة تقول:

- «وأنت أيها الربّان؟».

- «أنا باقٍ هنا».

والواقع أن الذين يشرفون على الغرق لا يملكون غير القليل من الوقت للتفكير وأقلّ منه للتأثّر بعاطفة الرحمة. وفي هذه الأثناء كان أولئك الذين نزلوا إلى القارب وأصبحوا، نسبيًّا، أشدّ شعوراً بالطمأنينة، قد اجتاحهم انفعال ظاهر لم يكن طبعاً من أجل أنفسهم. وانطلقت الأصوات كلها مصرّة في الوقت نفسه:

- «تعال معنا أيها الربّان».

- «إنني باقٍ أيها السادة».

وتدخّل الباريسي قائلاً:

- «القارب ممتلئ شديد الامتلاء، هذا صحيح، وإضافة رجل إلى ركّابه قد يثقل عليه. ولكننا ثلاثة عشر رجلاً، هذا طالع شؤم بالنسبة إلى القارب، وقد يكون من الخير أن يحمل المركب رجلاً من أن يحمل رقماً. فتعال أيها الربّان».

وأضاف تانغرووي:

- «لقد حدث كل شيء بسببي، لا بسببك. فليس من العدل بقاؤك».

قال كلوبان:

- «إنني باقٍ. وستمزّق العاصفة المركب في هذه الليلة. فلن أتركه أبداً. وإذا غرق المركب مات قائده. وسيقول الناس: لقد قمت بواجبي حتى النهاية. إنني أغفر لك يا تانغرووي».

ثم صرخ وهو يشبك ذراعيه:

- «انتبهوا للأوامر- واذهبوا».

واهتزّ قارب النجاة. وكان أمبرانكام قد أمسك الدفّة. وارتفعت كل الأيدي التي لم تكن تجذف نحو الربّان. وصرخت كل الأفواه:

«يعيش الربّان كلوبان!».

قال الأميركي:

- «هاكم رجلاً رائعاً عظيماً».

فأجاب الغرناسي:

- «سيّدي، هذا هو أشرف رجل في البحر كلّه».

وكان تانغرووي يبكي.

وتمتم بصوتٍ خفيض يقول:

- «لو كانت لي الشجاعة الكافية لبقيت إلى جانبه».

وغاص القارب في الضباب وغاب عن البصر.

ثم لم يعد غير الفراغ.

أما أصداء ضربات المجاذيف فأخذت تتضاءل وتختفي.

وبقي كلوبان وحيداً.

6

لقد أضاءت هوّة من داخلها

وعندما وجد هذا الرجل نفسه على هذه الصخرة، تحت هذا الغيم، وفي وسط هذه المياه، بعيداً عن كلّ اتّصالٍ حيٍّ، وعن كل ضجة بشرية، متروكاً بمثابة الميت، وحيداً بين البحر الذي يرتفع، والليل الذي يهبط، اجتاحه فرح عميق.

لقد نجح.

وكان تركه في هذه البقعة من البحر بمثابة تحريره وإطلاق سراحه. إنه على صخور الهانوا، وعلى بعد ميلٍ واحد من اليابسة،

وفي جيبه 75 ألف فرنك. ولم يسبق أن توفّر لغرق مثل الذي توفّر لهذا الغرق من التنظيم والإحكام. لم يفشل أي جزء من أجزاء الخطّة، والحقيقة أن كل ما حدث كان منتظراً منذ البداية. لقد كانت في رأس كلوبان منذ شبابه الأول، فكرة واحدة لا تتغيّر، هي أن يجعل من الفضيلة لعبته التي يقامر بها في عجلة الحياة، أن يبدو رجلاً شريفاً وينطلق من هذه النقطة، ثم ينتظر عروسه الجميلة، مترقّباً الوقت المناسب، مشتركاً في صفقة واحدة فقط، ثم يترك وراءه المغفّلين والبُلَهاء.

لقد عاش حياته كلها من أجل هذه الدقيقة.

كل شيء في شخصه قد عبّر عن هذه الكلمة: وأخيراً!

إن صفاء رهيباً قد أضاء باهتاً على هذه الجبهة المظلمة. أما عينه الكامدة والتي يخيّل للناظر بأن في داخلها حجاباً حاجزاً فقد أصبحت عميقة ورهيبة. انعكس عليها الاحتراق الداخلي لهذه الروح. إن لأعماق الإنسان الداخلية قوّتها الكهربائية، كما هو شأن الطبيعة الخارجية. والفكرة فيها كوكب ساطع، وفي فترة النجاح، تنفتح مجموعة التأمّلات التي تهيّأت له، وتنبثق منها شرارة. إن احتواء الإنسان في أعماقه، على دفينة الشر، وإحساسه بوجود الفريسة فيها، هما مصدر سعادة لها إشعاعها الخاص. والفكرة الخبيثة المنتصرة تبعث الضياء في الوجه. وإن بعض الترتيبات الناجحة، والأهداف المحقّقة، والمتع المتوحّشة، تظهر في عيون الرجال وتخفي قسمات مضيئة محزنة. إن هذه عاصفة فرحة، وفجر مهدّد. إنها تخرج من الوعي، ثم تصبح ظلاً وضباباً.

وتضيء في حدقة العين.

إن الوغد المكبوت في كلوبان قد انفجر.

وإذن فقد أصبح حرًّا! وأصبح غنيًّا!

وكانت أمام كلوبان فترة كافية من الوقت. كان المدّ يرتفع، وبالتالي يمسك المركب دوراند، وسينتهي حتماً برفعه. أما المركب فقد كان شديد الالتصاق بالصخرة، فلا خطر من الغرق، يضاف إلى ذلك، أن من الواجب منح قارب النجاة وقتاً كافياً للابتعاد، أو للغرق، وهذا ما كان يرجوه ويتمنّاه في نفسه.

وشبك ذراعيه واقفاً على دوراند الغارق، وهو يستمتع بهذه الوحدة في الظلمات الدامسة.

لقد أثقل النفاق على هذا الرجل ثلاثين عاماً. لقد كان هو الشرّ المتلفّع بالفضيلة والشرف. وكان يكره هذه الفضيلة كره الرجل الفاشل في زواجه. لقد كانت له دائماً أغراض مبيتة مجرمة، منذ أيفع وصار رجلاً تقنّع بقناع خارجي جامد. إنه كان وحشاً في داخل نفسه، فهو يعيش في جلد رجل طيب وبقلب لصٍّ خطير. لقد كان القرصان الرقيق، وسجين الشرف. وكان مغلقاً عليه في هذه العلبة الموميائية، التي هي البراءة، يعلو ظهره جناحا ملاك، وهما سلاح لنذل حقير. وقد وجب عليه أن يحتفظ بحقيقة نفسه. وأن يبقى لائق المظهر، فيثور في الأعماق، ويحيل تكشيرات أسنانه إلى ابتسامة حلوة. الفضيلة عنده هي الشيء الذي يخيفه. وقد قضى حياته وفي نفسه توق شديد إلى عضّ اليد الممدودة إليه.

أن تصنع الخفر من هذا السواد الكالح الذي تطحنه في دماغك، وأن تتوق إلى افتراس من يحترمك، وأن تكون رقيقاً بالغ اللطف، وأن تمسك نفسك، وتكبت مشاعرك، وأن تكون في حذر دائم، تراقب نفسك دون انقطاع، وتمنح جريمتك الكامنة قسمات حلوة طيبة، وأن تصنع لنفسك كمالاً من خبثك، وأن تدغدغ الخنجر، وتضع في السم سكراً، وتسهر على كل حركة من حركاتك، وتتنبّه إلى وقع صوتك وجرسه، وألا تكون لك نظرتك الخاصة، لا شيء في

الدنيا أشدّ صعوبة من هذا ولا أشدّ إيلاماً منه. وفي المحتال الخبيث نوع من «الأنا» الذي لا يخضع للمقاييس. فللدودة انزلاق الأفعى، وانتصابها نفسه. وليس الخائن غير طاغية متضايق لا يسعه أن ينفذ إرادته إلا أن يمارس الدور الثاني. إنه صَغَارٌ، جدير بالكبائر. فالمنافق عملاق، قزم.

كان كلوبان يتخيّل مخلصاً أنه إنسان مُضطَهد. فبأيّ حقٍّ لم يولد غنيًّا؟ إنه لم يكن يسأل أباه وأمه أكثر من ريع قدره مئة ألف ليرة. فلمَ لم يحصل عليها؟ ليس هذا خطأه. لماذا كانوا يرغمونه على العمل، ولا يُمنح كل متع الحياة؟ ولماذا قضي عليه أن يحتمل هذا العذاب الشديد في أن يخادع الآخرين، ويزحف على بطنه، وأن يسرّهم، ويعمل على رعاية حبّ الناس واحترامهم له، وأن تكون له على وجهه، ليلاً ونهاراً، قسمات غير قسماته الحقيقية؟ فالإخفاء هو عنف يحتمله ويخضع له. وأخيراً دقّت الساعة. وانتقم كلوبان.

وممن كان انتقامه؟ من الناس كلهم ومن الأشياء كلها أيضاً.

إن لاتياري لم يقدّم له غير الخير، وفي هذا مبرر للمزيد من الحقد، لقد انتقم من لاتياري. كما انتقم من كل أولئك الذين كان يكبت نفسه أمامهم. كان يثأر لنفسه. وكل رجل ظنّ فيه الخير هو عدوّ له. لقد كان أسير هذا الرجل.

وهكذا أصبح كلوبان حرًّا. لقد حقّق خروجه، فأصبح بعيداً عن الناس. إن ما كانوا يتصوّرونه موتاً له هو حياته الحقيقية، فهو يبدأ هذه الحياة. إن كلوبان الحقيقي قد عَرّى شخصيته المزوّرة.

أما فيما يتعلّق بالآلة، فقليلاً ما كانت هذه الكلمة تشغله. لقد بدا أمام الجميع رجلاً متديّناً، حسن جداً، وماذا بعد ذلك؟

وعندما أصبح كلوبان وحيداً، انفتح كهفه. فأحسّ بالمتع فترة من الزمن، لقد أنعش روحه بالهواء العليل.

وراح يستنشق جريمته ملء صدره.

إنه لم يحدث شيء مثل هذا في ضمير بشري.

وانفجار المنافق لا يقارن بانفتاح أية فوهة بركانية.

لقد كان سروره عظيماً لعدم وجود شخص أمامه، على أنه لم يكن يغضبه أن يكون واحد من الناس بالقرب منه. فقد يجد متعة كبيرة في أن يكون مخيفاً أمام أحد الشهود.

وكان يكون سعيداً بأن يقول في وجه الجنس البشري: إنك أبله؟ إن غياب الرجل يؤكّد انتصاره، ولكنه يقلّل من شأنه.

وإرغام الناس على تفحّصك، هو ظاهرة قوّة. فالسجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقّة، واقفاً فوق مرتفع خشبي عند مفرق طريق، وحلقة الحديد في رقبته هو طاغية كل الأنظار التي يرغمها على التوجّه إليه. إن في هذا المرتفع شيئاً شبيهاً بقاعدة التمثال.

وأن يكون المرء معروضاً، لا يعني غير أن يكون موضوعاً للتأمّل الممتع. إن للحكم الفاسد بالبداهة مسرّات الوتد الذي يربط به المجرم. فنيرون وهو يحرق روما، ولويس الرابع عشر وهو يمسك بالأثينا بتهمة الخيانة، والوصي جورج وهو يقتل نابوليون ببطء، ونيقولا وهو يذبح بولونيا على مرأى من الحضارة، هذه كلها يجب أن تبعث نوعاً من اللذة العميقة التي كان يحلم بها كلوبان.

إن ضخامة الاحتقار تبعث في نفس المحتقَر أثر العظمة.

وانفضاح المرء في هذه الحالة هو فشل ذريع، أما أن يفضح نفسه فهو انتصار رائع.

لقد كان في كلوبان كل هذا الظل من الأفكار الغامضة. فهو يراها قليلاً، ولكنه يستمتع بها كثيراً.

ويقي كلوبان كذلك حالماً عبر فترة من الزمن. سيظنّ الناس أنه قد مات، وهو الغنيّ. وسيظنّ الناس أنه قد غرق وهو الناجي. أية لعبة جميلة لعبها مع الغباء العام!

وكان رانتان في هذا الغباء العام. لقد كان كلوبان يفكّر في رانتان بازدراء لا حدّ له. ازدراء النمس للنمر.

إن هذا الهرب الذي فشل فيه رانتان، قد نجح فيه كلوبان. لقد تولّى رانتان خجلاً، واختفى كلوبان منتصراً. لقد وضع نفسه مكان رانتان في سرير عمله الشرير، وكلوبان هو الذي فاز بالثروة.

أما فيما يتعلق بالمستقبل فلم تكن أمامه خطة واضحة. فهو يحمل في علبته الحديدية المغلقة والموضوعة في حزامه أوراقه النقدية الثلاث، هذه الضمانة كافية له. إنه سيغيّر اسمه. وهناك بلدان تساوي فيها ستون ألف فرنكاً، مبلغ ستمئة ألف فرنك. ولن يكون من سوء الرأي أن يذهب إلى زاوية من هذه الزوايا فيعيش فيها شريفاً بالمال الذي انتزعه من هذا السارق رانتان. أما المضاربة المالية، وممارسة التجارة الكبيرة، وتنمية رأس المال، ثم بلوغ مرتبة أصحاب الملايين بصورة جدية، فهذا كله لن يكون شرًّا أبداً.

على أن الانتظار لا يضيره أبداً. لقد كان عنده من الوقت ما يكفيه للتفكير في هذا الأمر. لقد مرّت المرحلة الصعبة. إن تجريد رانتان، وإغراق دوراند هما الصفقتان الكبيرتان. وقد تحقّقتا تماماً. أما الباقي فسهل يسير. فلن تكون في ذلك صعوبة محتملة. ولا يمكن أن يعترضه شيء، سيبلغ الشاطئ سباحة، وفي ظُلمة الليل يحاذي بلان مون، ثم يتسلّق الجرف، ويتّجه مباشرة نحو المنزل المسكون، فيدخل إليه دون أي جهد بحبله ذي العُقَد الذي أخفاه مقدماً في فجوة صخرة، وسيجد في المنزل المسكون حقيبته التي تحتوي على ثياب جافة وطعام، وهناك يستطيع أن ينتظر، وقد قام بالتحريات اللازمة،

وتأكّد أنه لن تمرّ ثمانية أيام دون أن يأتي مهرّبون من إسبانيا إلى بلان مون، ومن المحتمل أنِ يكون بلاسكيتو هو المنتظر، فيسافر معهم مقابل بضع جنهيات، وهو لن يسافر إلى ثوربا، كما قال سابقاً لبلاسكو بل إلى بازاج أو إلى بلباو، بقصد التضليل. ومن هناك يتوجّه إلى فيراكوز أو أورليانز الجديدة. لقد جاء الوقت الذي يجب أن يلقي فيه بنفسه إلى البحر، فقارب النجاة بات بعيداً، وساعة سباحة ليست شيئاً بالنسبة لكلوبان. إن ميلاً واحداً كان يفصله عن الشاطئ، وهو الواقف فوق صخور هانوا.

وفي هذه الفترة من أحلام كلوبان اليقظة، حدث تمزّق في الضباب. وظهرت صخرة دوفر الرهيبة.

7

وتدخُّل ما لم يكن منتظراً

ونظر كلوبان نظرات شاردة.

لقد كانت أمامه الصخرة المنعزلة الرهيبة حقًّا.

ومن المستحيل أن يخطئ المرء في التعرّف إلى هذا الخيال الشائه. لقد انتصبت صخرتا دوفر التوأمان أمامه بصورة بشعة، تاركتين بينهما امتداداً هو أشبه بالكمين. ويكاد المرء يرى في هذا المشهد مشهد قاطع الرقاب في البحر المحيط.

كانتا قريبتين جداً. لقد أخفاهما الضباب وكأنه شريكهما.

لقد أخطأ الطريق في غمرة الضباب. فنزل به ما نزل بمن قبله، رغم انتباهه الشديد، لبحّارين كبيرين، غونزاليز الذي اكتشف الرأس الأبيض، وفيرنانداز الذي اكتشف الرأس الأخضر. لقد أضاعه الضباب.

وعلى بعد 200 باع، تبدو كتلة مكعّبة من الغرانيت. أما الزوايا المستقيمة لهذه الجدران القاسية ذات الزاوية القائمة فهي توحي بوجود ساحة منبسطة في القمّة.

إنها صخرة «الرجل».

كانت صخرة «الرجل» أكثر ارتفاعاً من صخرتي دوفر. ويشرف أعلاها المنبسط على رأسهما المضاعف الذي لا يمكن الوصول إليه. والمرء لا يسعه أن يحلم بما هو أبعث على الحزن.

هذا المجموع كلّه كان راكداً لا حركة فيه. فلا تكاد تهبّ أنفاس الرياح أو تتغضّن أمواج البحر. وفي وسع الناظر إليه أن يرى حياة الأعماق الواسعة والغارقة تحت سطح الماء الأخرس.

وقد سبق لكلوبان أن رأى في الغالب صخرة دوفر من بعيد. واقتنع تماماً أنه بالقرب منها. إنه لا يستطيع أن يشكّ في ذلك.

وهكذا حدث تغيّر مفاجئ وقبيح. وبدت صخور دوفر بدلاً من صخور هانوا. وبدلاً من بعد ميل واحد، أصبح البعد خمسة أميال. وخمسة أميال في البحر هي المستحيل. إن صخرة دوفر بالنسبة للغريق الوحيد، تعني الحضور، المرئي والملموس، لأنفاس الحياة الأخيرة. فالوصول إلى اليابسة ممنوع وغير محتمل.

وارتعد كلوبان. لقد وضع نفسه في شدق الظلام. لا ملجأ له غير صخرة «الرجل». وقد كان من المحتمل أن تنفجر أثناء الليل عاصفة قوية، وأن ينقلب قارب النجاة المثقل بركّابه. بحيث لا يعرف من في اليابسة خبر الكارثة أبداً. كما قد لا يعرف أحد أن كلوبان قد ترك عند صخرة دوفر. وهكذا لم يبقَ أمامه غير الموت برداً وجوعاً. والأموال التي يحملها لن تقدّم إليه لقمة خبز واحدة. إن كل ما خطّطه ونظّمه قد انتهى إلى هذا الكمين. لقد كان هو المهندس البنّاء المجتهد لكارثة حياته. لا أمل أمامه.

في هذه الأثناء ارتفعت الرياح. وارتفع معها الضباب، الذي زلزلته هذه الرياح، وفرّقته، وأحدثت فيه ثقوباً... لقد ذهب إلى الأفق في فوضى وبقطع كبيرة ضائعة الأشكال. ثم ظهر البحر كله.

أما الثيران، التي كانت تجتاحها المياه في قعر السفينة، وترتفع شيئاً فشيئاً، فقد تابعت خوارها.

واقترب الليل، وقد تكون العاصفة مقتربة أيضاً.

أما المركب، دوراند، الذي عوّمه ماء البحر الصاعد شيئاً فشيئاً، فقد أخذ يهتزّ من اليمين إلى اليسار، ثم من اليسار إلى اليمين، وأخذ يدور حول الصخرة كما لو أنه يدور حول مدارٍ منتظم.

وفي وسع المرء أن يحسّ مسبقاً باقتراب الفترة التي تنتزعه فيها موجة من النماء ثم تدحرجه في وسط العباب.

وكانت الظلمة أقلّ منها حين وقعت كارثة الغرق. فالرؤية أحسن وأوضح وإن كان الوقت أكثر تأخّراً. لقد حمل الضباب معه قسماً من الظلام وهو يبتعد. أما الغرب فكان خالياً من الغيوم. وسماء الشفق بيضاء. لقد كان لهبه الواسع يضيء البحر.

وانحنى المركب، دوراند، بحيث غاصت مقدّمته وارتفعت مؤخّرته فصعد كلويان إلى المؤخّرة التي كانت خارج الماء تقريباً. وأثبت نظره في الأفق.

إن الشيء الذي يتميّز به المنافق أنه شديد التمسّك بالأمل. فالمنافق هو الذي ينتظر. وليس النفاق غير أملٍ رهيب، وقد صُبغت أعماق هذا الكذب بهذه الفضيلة، التي أصبحت رذيلة.

هذا شيء غريب نقوله، إن في النفاق ثقة كبيرة. والمنافق يعهد بنفسه إلى شيء من اللامبالاة القائمة في المجهول، المجهول الذي يأذن بالشرّ.

هذا وكلوبان ينظر إلى المدى أمامه.

والواقع أن شراعاً من الأشرعة قد انبثق من بعيد.

واتضحت أشكال المركب الشراعي باقترابه. إنه ذو صارٍ واحد. لقد كان مركباً غير كبير.

إنه سيقترب من صخرة دوفر قبل مرور نصف ساعة.

وقال كلوبان في نفسه: لقد نجوت.

وهكذا عادت الثقة بالنجاح مرة أخرى وبصورة مسعورة إلى هذا الذهن المظلم.

إنه شيء غريب أن يؤمن الأوغاد بسهولة نجاحهم.

لم يبقَ أمامه غير شيء واحد.

إن المركب، دوراند، الذي بَعَجَتْهُ الصخور، يخلط خياله بخيال هذه الصخور، فلا يكون غير نتوء جديد فيها، ثم لا يتميّزه من هو بعيد عنه فيضيع، كما لا يكفي خياله، في القليل الباقي من النهار ليلفت نظر السفينة التي توشك على المرور.

ولكن هيئة بشرية يرتسم سوادها من البياض الشفقي، واقفة فوق مرتفع الصخرة «الرجل»، ومرسلة إشارات الاستغاثة، ستظهر دون ريب. فيُرسل قارب خاص يلتقط به الرجل الغريق.

كانت الصخرة «الرجل» على بعد مئتي باع فقط. والسباحة إليها سهلة ممكنة، وتسلّقها أمر يسير.

وهكذا لم يعد في وسعه أن يضيع دقيقة واحدة.

إن مقدم السفينة غائص في الصخرة، وقد كان على كلوبان أن يقذف بنفسه في الماء من أعلى المؤخّرة ومن المكان الذي يقف فيه.

وبدأ يسبر غور الماء، فاكتشف أنه عميق في هذه الجهة. وخلع ثيابه تاركاً إياها على ظهر المركب. ففي وسعه أن يجد ثياباً في المركب الذي يقترب منه.

ولم يحتفظ إلا بحزامه.

وبعد أن أصبح عارياً، شدّ رباط الحزام ووثقه، وتلمس العلبة الحديدية، ثم تفحّص بنظره الاتجاه الذي يجب أن يتبعه عبر الصخور والأمواج ليبلغ الصخرة «الرجل»، وقفز ورأسه في المقدمة، وغاص في الماء.

وبما أنه قفز من مكانٍ عال فقد غاص عميقاً في البحر.

وانطلق بعيداً في الماء حتى بلغ قعر البحر، ولمسه، ومرّ قرب الصخور الغارقة منذ الزمن. ثم انتفض ليعود ثانية إلى السطح.

وفي هذه البرهة، أحسّ شيئاً يمسكه من قدمه.

الكتاب السابع

طيش في توجيه أسئلة إلى كتاب

1

لؤلؤة في قاع الهوّة

بعد دقائق من خطابه القصير مع السيّد لاندوا، كان جيليات في سان سامبسون.

لقد كان جيليات قلقاً حتى الاضطراب الشديد. فماذا حدث؟

لقد كانت في سان سامبسون شائعة منحلةٍ جَزعة. الناس كلهم على أبواب منازلهم. والنساء يتعجّبن. وكان هناك أناس يبدون وكأنهم يقصّون شيئاً على السامعين الذين يتحلّقون حولهم. كانت تسمع هذه الكلمة: «يا للشقاء!» وكانت وجوه كثيرة تبتسم.

لم يسأل جيليات أحداً منهم. إذ لم يكن من طبيعته أن يوجّه أسئلة إلى الآخرين. على أنه كان من التأثّر والانفعال بحيث لا يستطيع أن يتكلّم مع أناس غير مبالين. وكان يحذر من القصص، هو يحب أن يعرف كل شيء مرّة واحدة، فتوجّه توًّا إلى منزل لاتياري.

وكان قلقه من الشدّة بحيث أنه لم يجزع من الدخول إلى هذا المنزل.

على أن باب الغرفة المنخفضة كان مفتوحا عَلى مصراعيه، وقد تجمّع على عتبته عدد كبير من الرجال والنساء. الجميع كانوا يدخلون. وقد دخل فعلاً.

وهناك وجد السيّد لاندوا الذي قال له بصوتٍ منخفض:

- «لقد غرق (دوراند)».

كان في الغرفة جمهور كبير. والجميع يتكلّمون في صوت منخفض، متجمّعين قرب الباب يجتاحهم نوع من الخوف، وقد تركوا داخل الغرفة خالياً حيث كان يرى فيه السيّد لاتياري واقفاً، إلى جانب داروشات الجالسة ودموعها على خدّيها.

كان مستنداً إلى حاجز الغرفة الداخلي. وطاقيته البحرية نازلة حتى حاجبيه. كما تتدلّى إلى خدّه فتيلة من شعره الشائب. لم يكن يقول شيئاً. ذراعاه ثابتتان. وفمه يبدو وكأن أنفاسه قد انقطعت. إن له هيئة شيء موضوع على الجدار.

وكان الناظر إليه يشعر وكأن الحياة قد انهارت في أعماقه. أما وأن «دوراند» قد اختفى نهائيًا، فإن لاتياري لم يعد يملك أيّ مبرر للبقاء. لقد توجّ هذا الرجل أعماله بإنتاج عظيم، وتوجّ تفانيه في العمل بنجاح كبير. لقد نسف النجاح، ومات الإنتاج الرائع. وما الفائدة من أن يعيش بضع سنوات أخرى؟ لا شيء يمكن أن يعمل بعد لك. في مثل هذا العمر لا يمكن للإنسان أن يبدأ من جديد. فيا للرجل الطيب المسكين!

أما داروشات الباكية، فهي تمسك بيديها إحدى قبضتي السيّد لاتياري. في اليدين المضمومتين يوجد شيء من الأمل، أما في القبضة المتشنّجة فلا شيء أبداً.

وكان السيّد لاتياري قد ترك لها ذراعه تفعل بها ما تشاء. لقد

كان سلبيًّا. فلم يبقَ له غير بقيّة من الحياة كالتي تبقى للمرء بعد انفجار صاعقة.

أما المتجمّعون من الناس فقد كانوا يتهامسون، ويتناقلون الأنباء التي يعرفون. وهاكم هي الأنباء.

لقد غرق المركب دوراند مساء أمس عند صخور دوفر بسبب الضباب، وكان ذلك قبل غروب الشمس بساعة واحدة تقريباً. وقد نجا جميع من في المركب بأنفسهم في قارب النجاة، باستثناء الربّان الذي رفض أن يترك سفينته. ثم انفجرت عاصفة آتية من الجنوب الغربي عقب الضباب، وكادت تغرق الناجين بأنفسهم مرّة أخرى، وقذفت بهم في عرض البحر إلى ما وراء غرناسي. وفي أثناء الليل مرّت بهم السفينة كشمير في مصادفة طيبة، فالتقطتهم وتوجّهت بهم إلى سان بيار بور. والخطأ كله هو خطأ قائد الدفّة تانغرووي الذي وضع في السجن. وكان كلوبان نبيلاً معه.

أما الربابنة الذين كانوا كثراً بين المتجمّعين فقد كانوا يذكرون كلمة، صخرة دوفر، وبطريقة خاصة، كأن أحدهم يقول: حانة خبيثة.

وقد لوحظت على المنضدة بوصلة وحزمة من السجلات والدفاتر، إنها بوصلة دوراند وأوراق المركب التي سلّمها كلوبان إلى أمبرانكام وتانغرووي في الوقت الذي كان يغادر فيه قارب النجاة، إنها بادرة تفانٍ رائعة من رجل ينقذ أوراقاً في وقت يستسلم فيه للموت، هذه جزئية صغيرة ممتلئة بالعظمة، إنها نكران نبيل للذات.

كان الجميع مجمعين على إكبار كلوبان، ومجمعين أيضاً على تصديق كل ما يقوله بعد إنقاذه. وقد وصل المركب مع شيُلتيل بعد كشمير بساعاتٍ قليلة، وهو يحمل معه آخر الأنباء. كان ربّان شيلتيل بين المجتمعين.

لقد قصّ هذا الربّان على السيّد لاتياري حقيقة ما جرى حين

دخل جيليات. وكانت قصّته تقريراً حقيقيًّا صحيحاً. لقد قال: إنه سمع عند صباح اليوم التالي، وبعد نهاية العاصفة، وهدوء الرياح، أصداء خوار في وسط البحر. وقد أدهشته الأصداء الريفية بانطلاقها في وسط الماء، فتوجّه نحوها. وإذا به يجد دوراند في صخور دوفر. وكان الهدوء كافياً بحيث سمح له بالاقتراب منه. ونادى على الحطام. فلم يجبه غير خوار الثيران، التي كانت تغرق في قاع السفينة. وكان ربان شيلتيل واثقاً من أن أحداً من الناس لم يكن موجوداً على ظهر المركب. والحطام من الثبات بحيث أن كلوبان كان قادراً على قضاء الليل كله فيها مهما تكن قوّة العاصفة التي انفجرت أثناء الليل. وكلوبان لم يكن الرجل الذي يستسلم بسهولة. أما وهو غير موجود فإن معنى ذلك أنه قد نجا بنفسه. ومن البديهي أن مركباً من المراكب قد التقطه في طريقه إلى غرانفيل أو سان مالو. ويجب أن نذكر بأن قارب دوراند قد كان ممتلئاً بركّابه وهو يغادر المركب الغارق، وأنه قد يغرق لو أُثقِل بإنسانٍ آخر. هذا الاحتمال هو الذي فرض على كلوبان أن يبقى فوق حطام دوراند، ولكنه لم يكن يقوم بواجبه كاملاً، فيما يعتقد الجميع، ثم تمرّ به سفينة فتنقذه، حتى أقدم على الانتقال إليها دون صعوبة مذكورة. فالمرء يكون بطلاً ولكنه لا يكون غبيًّا غرًّا. والانتحار هنا شيء غير معقول، بالمقدار الذي كان فيه كلوبان بعيداً عن كل لوم. كل ذلك كان معقولاً، وصاحب شيلتيل محقّ بصورة بيّنة واضحة، والجميع ينتظرون ظهور كلوبان بين فترة وأخرى. ويستعدّون لاستقباله استقبالهم لمنتصرٍ كبير.

حقيقتان ثابتتان خرجتا من قصّة الربّان: نجاة كلوبان وضياع دوراند.

أما فيما يتعلق بدوراند، فالانتصار لها واجب حتم، لقد كانت كارثتها مستعصية على المعالجة. وقد شاهد صاحب شيلتيل مرحلة

غرقها الأخيرة. إن الصخرة الحادة التي تسمّرت دوراند قد قاومت أثناء الليل كله، وتحمّلت صدمة العاصفة كما لو أنها كانت تريد الاحتفاظ بالحطام، وفي الصباح، بينما كانت السفينة شيلتيل تستعدّ للابتعاد عن دوراند بعد أن ثبت لها خلوّ الحطام من إنسان تنقذه، برزت دفعة من تلك الدفعات التي هي الضربات الأخيرة لثورة العواصف. هذه الدفعة الجديدة من الموج رفعت المركب دوراند بعنفٍ شديد، وانتزعته من الصخرة، ثم قذفت به بسرعة سهم مراش، واستقامته، بين صخرتي دوفر. وكان الربّان يقول: لقد سمعنا قضقضة شيطانية رهيبة. وهكذا تسمّرت دوراند مرّة أخرى بصورة أقوى منها فوق الصخرة الأولى. ومن المنتظر أن تبقى هناك معلّقة بصورة تبعث على الأسى، عرضة لكل ريح ولكل موج.

يقول بحّارة شيلتيل: إن ثلاثة أرباع دوراند قد تحطّم. وكان من الواجب أن تغوص في الماء لو لم تمسكها الصخرة. أما ربّان شيلتيل فقد تفحّص الحطام عن طريق منظاره المقرّب. فقدّم تفصيلاً بحريًّا دقيقاً للكارثة.

ومع ذلك فقد أعلن أن الآلة المحركة لم تكد تتأثّر بعملية التحطيم، هذه، وهو شيء يثبت جودتها ويلفت النظر.

وبما أن نجاة كلوبان أصبحت مضمونة ثابتة، وأن هيكل دوراند قد ترك باعتباره حطاماً، فقد كانت قضية الآلة هي الموضوع التي تناولته أحاديث المتجمّعين. لقد كانوا يهتمّون بها كما لو أنها إنسان من الناس. وكانوا معجبين بسلوكها الطيّب.

وهكذا أصبحت الآلة هي الشاغل الوحيد. فأثارت الآراء معها وضدّها. وكان لها أعداء وأصدقاء وقد بدا أن أكثر من واحد من الربابنة ممن يملكون مركباً شراعيًّا قديماً، ويأملون في الفوز بزبائن دوراند، لم يغضبوا لرؤيتهم صخرة دوفر وقد نفّذت حكم القضاء

العادل في هذا الاختراع الجديد. وعلت الهمسات فأصبحت صخباً شديداً. فدار النقاش في ضجّة عالية تقريباً. ومع ذلك فقد بقي لغطاً متحفظاً بسريته، وقد ينخفض الصوت بين فترة وفترة، تحت الضغط الذي يحدثه صوت لاتياري التابوتي.

وقد نتج من المحادثات الجارية النتيجة التالية:

الآلة هي الشيء الأساسي. وصنع المركب مرة أخرى أمر ممكن، أما صنع الآلة كرّة أخرى فهذا مستحيل. هذه الآلة وحيدة من نوعها. فليس هناك مال لصنعها، والعامل الذي قد يصنعها أشدّ ندرة من المال نفسه. والجميع يذكرون أن العامل الذي صنعها قد مات. وقد كلّفت صاحبها أربعين ألف فرنك. فلا أحد بعد اليوم يجازف بمثل هذا المبلغ لبناء مثل هذه الآلة، يضاف إلى ذلك أنها قد حوكمت، فتبيّن أن السفن البخارية تغرق كما تغرق السفن الأخرى. إن حادث دوراند هذا قد أغرق نجاحها السابق. ومع ذلك فقد كان من المحزن حقًّا أن يفكر المرء في أن هذه الآلة الجيّدة ستتحوّل إلى أجزاء محطّمة قبل خمسة أو ستة أيام. وما دامت هذه الآلة موجودة فلا غرق هناك. إن ضياع الآلة فقط هو الخسارة التي لا تعوّض. إن إنقاذ الآلة هو إصلاح للخراب.

وإنقاذ السفينة، شيء يسهل قوله. ولكن من يتولّى عملية الإنقاذ هذه؟ هل هذا ممكن؟ القول والتنفيذ أمران اثنان، والبرهان على ذلك أن من السهل جداً أن يصوغ المرء حلماً له، أما تنفيذه فهو ذو صعوبة فائقة. ولئن كان هناك حلم غير عملي ولا ممكن، فهو هذا الحلم بالذات. ومن المستحيل توجيه سفينة مع بحّارتها إلى هذه الصخور للعمل على إنقاذ الآلة. ولذلك فلا يجب التفكير فيها أبداً. يضاف إلى ذلك أن الفجوة من المرتفع العالي الذي لجأ إليه الغريق الأسطوري والذي مات جوعاً، لا تكاد تتسع لأكثر من رجلٍ واحد.

وإذن، فيجب أن يذهب رجل واحد إلى صخور دوفر لإنقاذ هذه الآلة، وأن يكون وحيداً في هذا البحر، وحيداً في هذه الصحراء، وحيداً على بُعد خمسة أميال من الشاطئ، وحيداً في هذا الخوف الرهيب، وحيداً خلال أسابيع كاملة، وحيداً أمام المنتظر وغير المنتظر، دون مؤونة في قلق العري، ودون نجدة في أحداث الكارثة، ودون أي معلم بشري غير ذاك الذي يتمثل في الغريق القديم الذي لفظ أنفاسه في غمرة البؤس، ودون رفيق غير هذا الميت. وأنّى له أن يفعل غير ذلك لإنقاذ هذه الآلة؟ ومن الواجب أن يكون حداداً بالإضافة إلى كونه بحّاراً. غارقاً في جملة من التحديات! وسيكون الرجل الذي يقوم بهذه المحاولة شيئاً أكثر من البطل. إنه سيكون مجنوناً. إن في بعض المحاولات الفائقة، حيث يصبح ما فوق البشري شيئاً ضرورياً، ما يكون معه الجنون فوق الشجاعة. والواقع أن التفاني في سبيل إنقاذ حديد هو شيء فريد غير عادي. لا، لن يذهب إنسان إلى صخور دوفر. لقد وجب الاستغناء عن الآلة كما استُغني عن الباقي. والمنقذ الذي يحتاجون إليه لن يظهر أبداً. فأين نجد مثل هذا الرجل؟

هذا هو جوهر كل المحادثات التي جرت بين المجتمعين في صوت منخفض، وإن عُبّر عنه بعبارات مغايرة.

إن صاحب شيلتيل، الذي كان ربّاناً قديماً، قد لخّص فكرة الجميع بالعبارة التالية التي أطلقها بصوتٍ مرتفع:

- «كلا! لقد انتهى كل شيء. إن الرجل الذي سيذهب إلى هناك ويعود بالآلة غير موجود أبداً».

وأضاف أمبرانكام:

- «أما وأنني لا أذهب إلى ذاك المكان، فمعنى ذلك أن أحداً من الناس لا يسعه أن يذهب إليه».

وهزّ صاحب السفينة شيلتيل يده اليسرى بحركة مفاجئة تعبّر عن الاقتناع بالمستحيل، ثم أردف يقول:

- «هذا إذا كان موجوداً».

وأدارت داروشات رأسها قائلة:

- «وسأتزوّجه».

وران صمت عميق.

فخرج رجل أصفر اللون من المجتمعين وقال:

- «أتتزوّجينه يا آنسة داروشات؟».

وهنا ارتفعت كل الأنظار. وانتصب السيّد لاتياري. وقد لمع تحت حاجبيه نور غريب.

وأخذ طاقيته البحرية بقبضة يده وقذف بها أرضاً، ثم نظر أمامه باحتفال شديد دون أن يرى أحداً من الحاضرين وقال:

- «نعم، ستتزوّجه داروشات. إنني أتعهّد بذلك أمام الله».

2

كثير من الدهشة على الشاطئ الغربي

كان يجب أن تكون الليلة التي ستعقب ذاك النهار، ليلة مقمرة. وفي هذه الأثناء، لم يكن أي صياد على أهبة الخروج. والسبب بسيط جداً. هو صياح الديك عند الظهيرة.

عندما يصيح الديك في ساعةٍ غير عادية، يمتنع الصيد تماماً.

ومع ذلك، فقد فوجئ صياد عائد من أومتول، عند هبوط الليل بمفاجأة غريبة مدهشة. لقد شاهد علامة حظر بحرية ثالثة قائمة

بالإضافة إلى كل من علامة سان سامبسون التي هي على هيئة رجل، وعلامة بلات فوجار التي هي على شكل قمع مقلوب. فماذا كانت هذه العلامة؟ لقد كانت تتحرّك، إنها صارٍ من صواري المراكب الشراعية. لكن دهشة الصياد لم تقلّ أبداً. والواقع أنه لم يكن في الأفق صيد محتمل. كان أحدهم يخرج بينما كان الجميع عائدين. فمن هو؟ ولماذا كان يخرج في تلك الساعة؟

وبعد عشر دقائق، اقترب الصاري. فلم يستطع التعرّف إلى القارب. لقد سمع صدى التجذيف. ولم يكن من ضجّة غير ضجة مجذافين. وإذن فقد كان في القارب رجل واجد. الريح شمالية، ومن البدهي أن هذا الرجل يسبح ليسير بعد ذلك بقوّة الرياح فيما وراء الرأس «فونتانال». ومن المحتمل أن يرفع شراعه هناك. وإذن فهو يستهدف مجاوزة الأنكراس وقمّة كرافال. فماذا يعني ذلك كله؟

ومرّ الصاري، وعاد الصياد.

في تلك الليلة، وعلى شاطئ غرناسي الغربي، أطلق عدد من المراقبين، الموزّعين في نقاط مختلفة عن غير قصد منهم، ملاحظات عدة. واتفق الجميع على أن الإبحار في يومٍ يعقب العاصفة، هو إبحار غير مأمون النتائج.

وفي تمام التاسعة والنصف ليلاً، توقّف نوتي بقاربه وهو يحمل معه شبكة ليتأمّل بين كولومبال وسوفلاراس، شيئاً يجب أن يكون مركباً بحريًّا. وكان هذا المركب البحري يعرّض نفسه للخطر في مكان تنبعث فيه هبّات ريح مفاجئة خطرة.

وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً، كانت جماعة من المهرّبين، ولعلها الجماعة التي كانت ينتظرها كلوبان، تراقب كل ما حولها، وقد وقف أفرادها فوق قمّة هضبة في منطقة «مّوا».

وقد أدهشتهم رؤية شراع يتجه إلى ما وراء شبح رأس بلاغون

الأسود. وكانت السماء مضيئة بضوء القمر. وقد راقب هؤلاء المهرّبون هذا القارب الشراعي، خوفاً من أن يكون فيه أحد حرّاس الشواطئ متّجهاً إلى ما وراء صخرة هانوا الكبيرة ليكمن لهم. وقد طمأنهم أن القارب قد تابع طريقه إلى ما وراء هذه الصخرة، وغاص في غمرة ضباب الأفق الداكن.

وقال المهرّبون في أنفسهم: «يا للشيطان! إلى أين يذهب هذا القارب؟».

وفي المساء نفسه بعد غروب الشمس بقليل، سمع أحدهم يقرع باب خربة «البو دو لارو». لقد كان فتى ذا لباس بني مع جوربين أصفرين مما يدل على أنه كان من كهّان الخورنية. وكان «البو دو لارو» مغلقة نوافذه وبابه. وفي هذه الأثناء نادت صيّادة هرمة على الفتى، وهي تردّد في جوار المنزل وبيدها مصباح، وقد تبادلت مع الفتى العبارات التالية:

- «ماذا تريد أيها الفتى؟».

- «صاحب البيت».

- «إنه ليس هنا».

- «أين هو؟».

- «لست أدري».

- «هل سيكون هنا غداً؟».

- «لست أدري».

- «هل غادر المكان؟».

- «لست أدري».

- «ذلك، أيتها المرأة، إن راعي الخورنية الجديد المحترم إيبانازر كودراي يرغب في زيارته».

- «لست أدري».

- «لقد أرسلني المحترم أسأل عما إذا كان رجل «البو دو لارو» سيكون غداً في منزله».

- «لست أدري».

3

لا تحاول أن تغري التوراة

في الأربع والعشرين ساعة التالية، لم يعرف السيّد لاتياري، النوم أو الطعام أو الشراب، لقد قبّل داروشات في جبهتها، وأرسل يتسقّط أخبار كلوبان الذي لم يعد يعرف أحد عنه شيئاً، ثم وقّع تصريحاً امتنع فيه عن تقديم أية شكوى، وأخرج تانغرووي من سجنه.

وقضى نهار غد وهو متكئ نصف اتكاءة على مكتب دوراند، فلا هو واقف ولا هو جالس، ويجيب بلطف وهدوء حين يوجّه الحديث إليه. بقي أن نقول: إنه بعد أن أشبع فضول الناس، خلا منزل السيّد لاتياري منهم. والواقع أن في عملية التعبير عن الإشفاق كثير من الرغبة في المراقبة. الباب قد أغلق، وقد ترك لاتياري مع داروشات. والبرق الذي لمع في عيني لاتياري قد انطفأ، وعادت إليه النظرة الرهيبة لبداية الكارثة.

أما داروشات القلقة، فقد وضعت إلى جانبها، نزولاً عند نصيحة خادميها: جمال وحلوة، زوجاً من الجوارب كانت منهمكة في غزله حين جاءها نبأ الكارثة.

وابتسم بمرارة ثم قال:

- «وإذن فهم يعتقدون أنني حيوان أبله».

وأضاف بعد ربع ساعة من الصمت:

- «هذا الهوس شيء حسن حين نكون سعداء».

وكانت داروشات قد أخفت زوج الجوارب، وانتهزت الفرصة لإخفاء البوصلة وأوراق المركب أيضاً، التي كان السيّد لاتياري يُكثر من النظر إليها.

ودخل رجلان، يرتديان لباسين أسودين، أحدهما هرم، وثانيهما شاب، بعد ظهر اليوم نفسه، قليلاً قبل ساعة تناول الشاي.

أما الشاب فقد سبق لنا أن رأيناه خلال هذه القصة.

وكانت لهذين الرجلين هيئة وقور، لكن وقارهما متباين، أما الهرم فله ما يسمى بالوقار الرسمي، وأما الشاب فله ما يسمى بوقار الطبيعة. الثوب يمنح أحدهما وقاره، والفكر يمنح الآخر هذا الوقار.

لقد كانا رجلين من رجال الكنيسة، كما يدلّ ثوبهما إلى ذلك.

ومما يلفت نظر المراقب، عند الوهلة الأولى، هو أن وقار الفتى الذي كان عميقاً في نظرته، والذي كان ينبثق هذا الوقار من تفكيره، لم يكن ينعكس على شخصه. فالوقار يستقبل العاطفة الشديدة ويثيرها بتصفيته لها. ولكن هذا الشاب، كان جميلاً قبل كل شيء آخر. في الخامسة والعشرين من عمره على الأقل باعتباره كاهناً، ولكنه يبدو في ربيعه الثامن عشر. لقد كانت تبرز فيه ظاهرة انسجام، وظاهرة تعاكس، تبدو روحه معهما وكأنها صنعت للعاطفة الشديدة، ويبدو جسده وكأنه صنع للحب. كان أشقر اللون، ورديًا، غضّ الإهاب، رقيقاً جداً، ومرناً جداً في ثوبه الرصين، مع وجنتي فتاة شابة، ويدين لطيفتين، وكانت رشاقته طبيعيّة. كل شيء فيه كان ظرفاً، وأناقة، بل لذّة مثيرة تقريباً. جمال نظرته يصحح التطرف في حلاوته. أما ابتسامته المخلصة، والتي تكشف عن أسنان طفل، فقد كانت ابتسامة متديّنة متأملة. لقد كانت فيه رقّة غلام في خدمة ملك، وكان

فيه جلال أسقف. أما جبهته فهي مرتفعة حسنة الصنع، ذات خفر ظاهر، تحت شعره الأشقر الكثيف لمعان ذهبي، ما بدا معه فتًى غنجاً. وبين حاجبيه تجعيدة لطيفة ذات انحناء مضاعف تبعث على شكل غامض خاطرة عصفور الفكر المجنح، بجناحيه المنتشرين وسط هذه الجبهة.

ويحسّ المرء، حين يراه، أنه أمام واحد من هذه الكائنات اللطيفة البريئة والصافية، والتي تتقدّم باطراد في اتجاه معاكس للبشرية المبتذلة، فيجعل منها الوهم صاحبة حكمة، وتجعل منها التجربة صاحبة حماسة.

إن شبابه الشفاف يكشف عن نضجه الداخلي. فإذا قورن برجل الدين الشائب الذي كان يرافقه، بدا عند النظرة الأولى ابناً له، وعند النظرة الثانية أباً له.

أما الهرم فلم يكن غير الدكتور جاكمان هيرود. والدكتور جاكمان هيرود ينتسب إلى الأرستقراطية الكنسية، التي تكاد تكون بابوية دون بابا. لقد كان طويل القامة، مستقيم الخلق، ضيق النظرة، رفيع المنزلة. لا يكاد شعاعه البصري الداخلي ينطلق إلى الخارج. النص الحرفي هو محتواه الذهني. والخلاصة، أنه إنسان متغطرس. وشخصيته تملأ كثيراً من الفراغ. وكانت هيئته أقرب إلى هيئة السيّد منها إلى هيئة الأب المحترم. لقد قصّ معطفه الأرستقراطي على صورة ثوب الكهانة. مكانه الحقيقي يجب أن يكون في روما. وكان يبدو وكأنه قد خُلق خصيصاً ليزين مقام البابا، ولكي يمشي في موكب بابوي. لكن ولادته الإنجليزية، وتربيته اللاهوتية التي تتصل بالعهد القديم بأكثر من اتصالها بالعهد الجديد، قد أفقدتاه هذا المصير العظيم. وكانت كل مظاهر جلاله تتلخص في أنه راعي سان بيار بور، وعميد جزيرة غرناسي، ونائب لأسقف وينتشستر، ولا شك، أن هذه الصلاحيات هي من مظاهر المجد.

ولكن هذا المجد لم يكن يمنع السيّد جاكمان هيرود من أن يكون، بصورة عامة، رجلاً طيّباً.

لقد كان مركزه رفيعاً في نظر العارفين باعتباره لاهوتيًا، وكان مرجعاً في بلاط «آرش» سوربون إنجلترا.

كانت في وجهه سمة العالم، ولعينيه نظرة رصينة شديدة المبالغة، وله منخران مزغبران، وأسنان بارزة، وشفة عالية رقيقة ثم شفة سفلى غليظة، وعدة شهادات، ودخل مالي كبير، وأصدقاء من علية القوم، وثقة الأسقف، والتوراة دائماً في جيبه.

أما السيّد لاتياري فقد بلغ من استغراقه في وساوسه أن دخول هذين الكاهنين لم يحدث عنده غير تقطيب خفي لحاجبيه.

وتقدم السيّد جاكمان هيرود، فألقى السلام، وتحدّث في كلمات قليلة مستعلية، عن ترقيته الحديثة ثم قال: إنه قد أتى تبعاً للعرف، ليقدّم إلى وجهاء المدينة - وإلى السيّد لاتياري بخاصة- خلفه في الخورنية، راعي سان - سامبسون الجديد، المحترم جو إيبانازر كودراي، والذي سيكون منذئذ راعي السيّد لاتياري.

فنهضت داروشات. وانحنى الكاهن الشاب الذي هو المحترم إيبانازر.

نظر السيّد لاتياري إلى كودراي إيبانازر ودمدم بين أسنانه:

«بحّار فاشل».

وقدمت الخادم «حلوة» كرسيين. فجلس المحترمان عليهما قرب المنضدة.

وبدأ الدكتور هيرود يلقي خطاباً. لقد بلغه نبأ الحادث. فأتى بصفته راعي المدينة يحمل تعزيته ونصائحه. إن الكارثة حدث بائس ولكنه حدث سعيد أيضاً. لنسبر أغوار نفوسنا، إذا لم تبعث الرفاهية

فينا روح الخيلاء؟ إن مياه الدعة مياه خطرة. وإنه لا يجب أن ننظر إلى البؤس من جانبه السيئ. إن طرق الله هي طرق مجهولة. لقد أفلس السيّد لاتياري. وماذا في ذلك؟ إن من الخطر أن يكون الإنسان غنيًّا. ولنا أصدقاء مزوّرون لا يبعدهم عنا غير الفقر. ويقال إن دوراند كان يوفر لصاحبه دخلاً لا يقل عن ألف ليرة استرلينية في العام الواحد. هذا كثير من أجل رجل عاقل حكيم. فلنهرب من المغريات، ولنحتقر الذهب. ولنقبل خرابنا ووحدتنا بعرفان جميل. إن العزلة مليئة بالثمرات. بها نحصل على الغفران الإلهي. ولنمتنع عن الثورة على أوامر الذات الإلهية التي لا تُعرَف حكمتها. إن أيوب، الرجل القدّيس: قد نما في الثروة، بعد بؤسه. ومن يدري ما إذا كان ضياع دوراند لن يعوّض عنه بتعويضات زمنية؟ وهكذا، فإن الدكتور جاكمان هيرود نفسه، قد وظف أموالاً كثيرة في عملية ناجحة مربحة كانت في طريقها إلى التنفيذ في شيفلد، فإذا رغب السيّد لاتياري، مع ما بقي له من المال، المشاركة في هذه الصفقة، فإنه يستعيد ثروته. والغرض من هذه الصفقة تزويد قيصر روسيا بالأسلحة، وقد كان منصرفاً آنذاك إلى تأديب بولونيا واستعمارها. إن الربح في هذه الصفقة مضمون بنسبة ثلاثمئة في المئة.

وبدا أن كلمة قيصر قد أيقظت لاتياري. فقاطع الدكتور هيرود:

- «لا أريد هذا القيصر أبداً».

فأجاب المحترم هيرود:

- «يا سيّد لاتياري! إن الأمراء هم أوصياء الله على الأرض، لقد جاء في الكتاب: (اعطِ ما لقيصر لقيصر)».

وتمتم لاتياري وقد رجع إلى حلمه نصف رجعة:

- «من هو هذا القيصر؟ أنا لا أعرفه».

فعاد المحترم جاكمان هيرود إلى مرافعته. ولم يصرّ على صفقة

شيفلد. فمن لم يرد التعاون مع القيصر فهو إذن جمهوريّ. والمحترم كان يفهم أن يكون المرء جمهوريًا. وفي هذه الحالة، يستطيع السيّد لاتياري أن يتوجّه نحو جمهورية. إن في وسعه أن يستعيد ثروته في الولايات المتحدة بأحسن مما يستعيدها في إنكلترا. فإذا رغب أن يضاعف ما بقي له عشرة أضعاف، فليس عليه إلاّ أن يشتري أسهماً من أسهم شركة استثمار الزروع الكبيرة في تكساس، هذه الشركة التي يعمل فيها أكثر من عشرين ألف زنجي.

قال لاتياري:

- «لا أريد التعاون مع عهد الاستعباد».

فأجاب المحترم هيرود:

- «الاستعمار هو مؤسسة مقدّسة. لقد جاء في الكتاب: «إذا ضرب السيّد عبده، لم ينله من ذلك أي عقاب، ذلك لأن العبد هو ماله»».

هذا والخادمتان، حلوة وجمال، تتلقّفان أقوال الراعي المحترم بنوع من النشوة وهما واقفتان عند عتبة الباب.

وتابع المحترم حديثه. لقد كان كما قلنا رجلاً طيّباً بصورة عامة، ومهما تكن خلافاته مع السيّد لاتياري في قضيّتي الطبقة والإنسان فقد أتى مخلصاً يحمل إليه كل عونه الروحي، بل الزمني الذي كان ، أي الدكتور جاكمان هيرود، يتصرّف به.

وإذا كان السيّد لاتياري قد أصيب بالخراب إلى درجة العجز عن التعاون بصورة مثمرة في مضاربة من المضاربات المالية، روسية أو أميركية، فما الذي يمنعه من العمل في الحكومة أو في وظيفة من الوظائف المأجورة؟ هذه الوظائف وظائف نبيلة وشريفة، وقد كان المحترم مستعدًا لمساعدة السيّد لاتياري في هذا الميدان.

فأثبت السيّد لاتياري حدقته في الدكتور هيرود وقال له:

- «أنا لا أحبّ الشنق».

وهنا بدا مزيد من الشدّة والجفاء في لهجة الدكتور هيرود وقال:

- «أيها السيّد لاتياري، إن الحكم بالإعدام هو أمر إلهي. لقد وضع الله السيف في يد الرجل. وجاء في الكتاب: «العين بالعين والسنّ بالسنّ»».

فقرّب المحترم إيبانازر كرسيّه بصورة غير ملحوظة من كرسي المحترم جاكمان وقال له بصوت لا يسمعه غيره:

- «إنّ ما يقوله هذا الرجل موحى به إليه؟».

فسأله المحترم جاكمان هيرود باللهجة نفسها:

- «من؟ وبماذا؟».

- «من قِبَل ضميره».

فأدخل المحترم هيرود يده في جيبه وأخرج منها كتاباً ثم وضعه على المنضدة وقال بصوتٍ مرتفع:

- «الضمير، هو هذا».

كان الكتاب هو التوراة.

وضرب السيّد لاتياري المنضدة بقبضة يده وصرخ قائلاً:

- «يا إلهي. إنها غلطتي أنا».

فسأله السيّد جاكمان هيرود:

- «ماذا تريد أن تقول؟».

- «قلت: إن هذه هي غلطتي أنا».

- «غلطتك، وما هي؟».

وهمس السيّد جاكمان هيرود في أذن السيّد إيبانازر كودراي:

- «هذا رجل خرافي».

ثم عاد إلى كلامه بصوت مرتفع يرسله بلهجة تعليمية:

- «اعلم يا سيّد لاتياري أن الإيمان بيوم الجمعة هو أمر تافه. وأنه لا يجب أن نصدق الحكايات الأسطورية. إن يوم الجمعة هو ككل يوم آخر. وهو في الغالب يوم سعيد. إن مَلانْدَازْ قد أسّس مدينة سانت أوغستان في يوم جمعة، وإن هنري السابع قد أعطى جون كابوت تفويضه في يوم جمعة، وحجاج مَايْ فْلاوَزْ قد وصلوا إلى بروفيدانس - تاون في يوم جمعة أيضاً. أما واشنطن فقد ولد في يوم الجمعة الواقع في 22 شباط من عام 1732، واكتشف كريستوف كولومب أميركا: الجمعة في 12 تشرين أوّل 1492.

ولم يكد يقول ما يقوله حتى نهض واقفاً.

ووقف السيّد إيبانازر الذي يصحبه. ففتحت الخادمان، جمال وحلوة، الباب على مصراعيه ظنًّا منهما أن المحترمين على وشك الاستئذان للخروج.

أما السيّد لاتياري فلم يكن يرى أو يسمع شيئاً.

قال السيّد جاكمان هيرود لإيبانازر كودراي:

- «إنه يمتنع عن كل شيء حتى عن التحية. هذا ليس حزناً، إنه خبل. يجب الاعتقاد أنه مجنون».

في هذه الأثناء تناول توراته الصغيرة من على المنضدة وأمسكها بيديه الممدودتين كما يمسك المرء عصفوراً يخاف أن يطير. وقد خلق هذا الوضع بين الأشخاص الحاضرين نوعاً من حالة الانتظار. أما حلوة وجمال فقد مدّتا رأسيهما.

وحاول وسعه هنا أن يضفي على صوته جلالاً فقال:

- «أيها السيّد لاتياري، يجب أن لا ينفصل أحدنا عن الآخر دون قراءة صفحة من الكتاب المقدّس. إن مواقف الحياة لا تستضيء إلا بالكتب، إن للكَفَرَة مصائر فرجيلية، وإن للمؤمنين عظات توراتية.

إن أول كتاب نحمله ثم نفتحه دون قصدٍ يمنحنا النصيحة. والتوراة التي تفتح مصادفة تكون بمثابة الوحي. وهي بصورة خاصة، صالحة جداً للمحزونين. ولا شك أن ما يخلص من الكتابة المقدّسة هو دون ريب تخفيف لألمهم. إن علينا، أمام المحزونين، أن نستشير الكتاب المقدّس، دون اختيار فصل معين، ثم نقرأ الفقرة التي تقع عليها بخفرٍ وحياء. إن ما لا يختاره الرجل يقع عليه الاختيار الإلهي. والله يعرف ما نحن في حاجةٍ إليه. إن إصبعه الخفية هي على الفقرة، غير المنتظرة، التي نقرأها. ومهما تكن هذه الصفحة، فإنه لا يخرج منها غير الضياء. فلا نفتش عن أخرى غيرها، ولنبق حيث نحن. إنه كلام الله. ومصيرنا مكتوب لنا بصورة سرية في النص الذي نواجهه بثقة واحترام. فلنستمع ولنطع. أيها السيّد لاتياري، إنك في غمرة من الألم، وهذا هو كتاب عزائك. إنك في غمرة من المرض، وهذا هو كتاب صحّتك».

وحرّك المحترم جاكمان هيرود نابض غطاء الكتاب وأدخل بنانه دون اختيار معيّن بين صفحتين، ووضع يده برهة من الزمن على الكتاب المفتوح، واستغرق في تبتّل عميق، ثم خفض عينيه بهيئة صاحب الأمر والنهي وأخذ يقرأ بصوت مرتفع.

وهاكم ما قرأه:

«كان إسحق يتنزّه في طريق تقود إلى البئر التي تسمّى بئر من يعيش ويرى.

«قالت ريبيكّا وقد رأت إسحق: من هو هذا الرجل الذي يأتي إلي؟

«وهنا أدخلها إسحق إلى خيمته، واتّخذها زوجةً له، وكان حبّه لها عظيماً».

فنظر إيبانازر وداروشات أحدهما إلى الآخر.

القسم الثاني

جيليات الماهر الذكي

الكتاب الأول

الصخرة

1

المكان الذي يصعب الوصول إليه ومغادرته

كان القارب الذي شُوهِدَ من نقاطٍ كثيرة في شاطئ غرناسي أثناء الليلة السابقة، وفي ساعاتٍ مختلفة، قد عُرِفَ بعد ذلك. إنه القارب ذو الكِرش المنتفخة. وقد اختار جيليات طريقاً على امتداد الشاطئ في ممرّ ضيّق عبر الصخور. وكانت هذه الطريق طريقاً خطرة، ولكنها أقصر الطرق. لقد كان همّه الأكبر هو اجتياز أقصر طريق. فالكوارث البحرية لا تنتظر، والبحر شيء في عجلة من أمره، وساعة تأخّر واحدة قد تكون ذات نتائج غير قابلة للتعويض. لقد كان يريد الوصول سريعاً لإنقاذ الآلة التي تتعرّض للخطر.

وقد بدا أن أعظم ما يشغل جيليات هو ألاّ يلفت أنظار الناس حين يغادر غرناسي. فتركها على طريقة الرجل الهارب. وبدت له هيئة من يرغب في إخفاء نفسه. وهكذا تجنّب الشاطئ الشرقي كمن لا يجد فائدة في المرور على مرأى من سان سامبسون وسان بيار بور. وبوسعنا القول تقريباً، إنه قد انزلق في صمتٍ بالغ على امتداد الشاطئ

المقابل الذي كان خالياً من السكّان نسبيًّا. وقد وجب عليه أن يجذفَ عبر الصخور، لكنه كان يحرك المجذاف تبعاً لقانون مائي خاص: أن يأخذ الماء دون عنف وأن يعيده دون تسرّع، وبهذه الطريقة استطاع أن يسبح في الظلمة بأكثر قدر من القوّة، وأقل قدر من الضجيج، حتى ليظن أنه كان يستهدف القيام بعملٍ خبيث هدّام.

والحقيقة أنه كان يخاف المنافسة في محاولة أشبه ما تكون بالمستحيل مخاطراً فيها بحياته، وظروفها كلها تقريباً ضده.

وبينما كانت شعاعات الفجر تنطلق، استطاعت عيون مجهولة منفتحة في أجواز الفضاء، أن ترى وسط البحر، في منطقة تتميّز بأكبر قدر من العزلة والخطر، شيئين، بينهما مسافة تقصر بصورة متتابعة، وكان أحدهما يقترب من الآخر. أحدهما قارب ذو شراع، لا يكاد يظهر في تحرّك الأمواج العريض، وفيه رجل. هذا القارب ذو الكِرش المنتفخة الذي يحمل السيّد جيليات. وثانيهما جامد مهيب أسود ينتصب فوق الأمواج على صورة مدهشة مذهلة. وهناك ركيزتان عاليتان تمسكان في الفراغ نوعاً من «عَبّارَة» أفقية، خارج الأمواج، وكأنها جسر يصل بين قمّتيهما. هذه «العَبّارة» تشبه باباً. فما هي فائدة باب في مثل هذه الفتحة المطلّة من كل جهة إلى البحر؟ إن الناظر إليها يكاد يظن أنها بطن عملاقية مغروسة هناك في وسط البحر، بدافع نزوة مهيبة، ومبنية بأيدٍ تعوّدت أن تجعل أبنيتها في مستوى يتناسب مع غور الهوّة. لقد كان هذا الشيخ القاسي ينتصب في غمرة الضياء السماوي.

كان لهب الصباح يتزايد في الجانب الشرقي، وبياض الأفق يزيد سواد البحر. بينما يغيب القمر في الجهة المقابلة؛ هاتان الركيزتان هما صخرتا دوفر. والكتلة بينهما هي المركب دوراند.

هذه الصخرة التي تمسك بفريستها على تلك الصورة وتبرزها

كانت ذات هيئة رهيبة، والحقيقة أن للأشياء أمام الإنسان، أحياناً، تيهاً قاتماً وذا صفة عدوانية. لقد كان في وضع هاتين الصخرتين شيء من التحدّي. وكان يبدو أن هذا المشهد هو في حالة انتظار.

لا شيء أكثر تيهاً وكبرياء من هذا المجموع: المركب المهزوم، والهوّة المنتصرة. أما الصخرتان اللتان ما تزالان، تتفصّدان ماء من عاصفة البارحة، فقد كانتا تبدوان وكأنهما مقاتلان يتفصّدان عرقاً. لقد هدأت الرياح، وراح البحر يتغضّن رخياً، بينما يكتشف المراقبون على وجه الماء بعضاً من أطراف الصخور التي تنداح فوقها فنون وأشتات من أشكال زبد الماء في جلالٍ علوي، رائع، ثم يأتي من أبعاد البحر ضجيج شبيه بضجيج النحل. كل شيء كان في استواءٍ شديد غير صخرتي دوفر القائمتين والمستقيمتين كأنهما عمودان أسودان.

أما حوضاهما المتوعّران فقد كانت فيهما انعكاسات دروع مسلّحة. إنهما تظهران وكأنهما مستعدّتان لخوض المعركة من جديد. ويدرك المشاهد أنهما كانتا متّصلتين في جذورهما تحت الماء بكتل من الجبال. إن شيئاً من القوّة الفائقة ينطلق منهما.

جيليات يلبس ثياب البحر، قميص من الصوف، وجوربان من الصوف، وحذاءان غطّيت نعلاهما بالمسامير، ومريلة منسوجة بـ«الصنّارة»، وبنطال، وعلى رأسه طاقية من الصوف الأحمر كانت تستعمل في الحياة البحرية.

وعرف جيليات الصخرة فتقدّم نحوها. وكانت لدوراند هيئة هي عكس هيئة سفينة غارقة، لقد كان يبدو وكأنه معلّق في الهواء.

إنه ليست هناك عملية إنقاذ أغرب من هذه.

وكان الوقت ضحى حين وصل جيليات إلى مياه الصخرة.

قلنا: إن البحر هادئ جداً. وإن اهتزاز الماء هو الاهتزاز الذي يحدثه انحصاره بين الصخور. في كل مضيق صغير أو كبير تصطفق

المياه. كما يزبد داخل كل مضيق في العادة أبداً.

جيليات لم يقترب من صخرتي دوفر دون احتياطٍ شديد. لقد سبر الماء مرّات كثيرة. وكان عليه أن ينزل إلى الصخرتين حملاً صغيراً.

إنه وهو المتعوّد على الغيبات الكثيرة، متزوّد دائماً بحقيبة زاد للسفر. فيها كيس من البسكويت، وكيس من دقيق الشَّيْلَم، وسلّة من السمك المحفوظ ولحم البقر المدخّن، و«تنكة» ماء كبيرة للشرب وصندوق نرويجي يحتوي على عدد من القمصان الصوفية، وجلد خروف يمدّه ليلاً فوق مريلته. لقد وضع هذا كله في قاربه ذي الكِرش المنتفخة متعجّلاً، وأضاف إليها قطعة من الخبز الطازج.

وتعجّله في الغدو جعله لا يحمل معه من آلات العمل غير مطرقة حدادة، وفأس وقدُّوم ومنشار وحبل ذي عقد مسلح بكُلاّب. بهذا النوع من السلم وبالطريقة التي يستعمل بها تصبح المنحنيات الوعرة سهلة التسلّق، والبحّار الماهر يستطيع أن يجد طريقاً ممهّدة في أشدّ الصخور وعورة. وفي وسعنا أن نرى ما يفيده صيّادو غوسلان من حبل ذي عُقَد في جزيرة سَرْكْ.

أما شباكه وخيوطه وأجهزة صيده فقد كانت موجودة في قاربه. لقد وضعها بصورة آلية، لأنه كان يستهدف قضاء بضعة أيام في أرخبيل من الصخور بعد انتهاء محاولته هذه.

وبينما يقترب جيليات من الصخرة، كان البحر ينخفض، وهي مناسبة سعيدة جداً. هذا والأمواج المتضائلة تكشف عند قدم صخرة دوفر الصغيرة، بضع مصاطب مسطّحة أو قليلة الانحناء، تبدو على صورة غربان تحمل ألواحاً من الخشب. إن هذه المساحات التي تضيق تارة وتتّسع تارة أخرى، والتي تتدرّج في الارتفاع درجات غير متساوية على امتداد الصخرة العمودية، تمتدّ على شكل كورنيش رقيق،

حتى المركب دوراند، القائم بين الصخرتين. لقد كان هناك مشدوداً وكأنما قد وُضِعَ في ملزمة.

كانت هذه المصاطب صالحة للنزول من القارب. وفي وسع المرء أن ينزل أحماله فيها. ولكن عليه أن يُسرع، فهي ليست خارج الماء إلا لبضع ساعات فقط. فإذا ارتفع المدّ غاصت في الزبد.

خلع جيليات جوربيه، وقفز بقدميه العاريتين، وربط القارب عند رأس من رؤوس الصخرة.

ثم تقدّم إلى أقصى حدٍّ ممكن على الكورنيش الضيّق من الغرانيت، وبلغ ما تحت دوراند، ثم رفع عينيه وتأمّل فيه طويلاً.

كان دوراند معلّقاً بإحكام بين الصخرتين، وعلى ارتفاع عشرين قدماً عن سطح البحر. لقد وجب أن تكون إحدى الموجات العنيفة جداً قد قذفت به هناك حتى وُجِدَ في مثل هذا الوضع الفريد.

إن هذه الضربات الفائقة القوّة لا تدهش رجال البحر.

على أنه لم يبقَ من دوراند غير نصفه.

إن هذه السفينة التي انتزعت من الأمواج، قد اجتثت من الماء بفعل عاصفة شديدة. لقد مزّقتها عاصفة الرياح، وأمسكت بها عاصفة الماء، فإذا بها، وقد أخذت بيدي العاصفة في اتجاهين متعاكسين، تتحطّم وكأنها «لاطة» من الخشب. أما المؤخّرة بما فيها من الآلة والعجلات، فقد حملت خارج الزبد وطردت بقوّة الريح العاصفة الغاضبة نحو الفراغ بين الصخرتين وبقيت هناك. ويبدو أن عصف الريح قد أحكم ضربته حتى أدخلها في مثل هذه الزاوية بين الصخرتين. وأما المقدمة التي دحرجتها الرياح فقد تمزّقت فوق الصخور الناتئة.

وأفرغ قاع السفينة حمولته من الثيران في البحر بعد أن بُقر بقراً.

وكانت ترى هنا وهناك فوق منعطفات الصخور البعيدة جسور وألواح خشبية، وأسمال من الشراع، وحلقات من السلاسل الحديدية، وبقايا متناثرة متنوّعة، جاثمة فوق الصخور في طمأنينة هادئة.

كان جيليات ينظر إلى دوراند في انتباهٍ شديد. وحيزوم المركب يمتدّ فوقه على صورة سقف مرتفع.

أما الأفق، الذي لا يكاد يحرّكه ماء البحر الممتدّ، فقد كان صافياً، والشمس تخرج بجلالٍ رائع من هذه الدائرة الواسعة الزرقاء.

وبين وقتٍ وآخر، كانت قطرة من الماء تنفصل عن حطام المركب لتسقط في البحر.

2

كمالات الكارثة

صخرتا دوفر مختلفتان في الشكل وفي الارتفاع.

أما دوفر الصغيرة، المنحنية والدقيقة. فقد كانت ترى عليها من القاعدة إلى القمّة أغصان طويلة لصخرة ذات لون قرميدي، وتحجب بهذه الأغصان الصخرية القسم الداخلي من الغرانيت.

وعلى سطح هذه الأغصان المحمرة توجد انكسارات صالحة للتسلّق. وكانت واحدة من هذه الانكسارات قائمة قليلاً فوق حطام المركب، قد صنعتها اصطفاقات الأمواج بحيث أصبحت مكاناً واسعاً يتّسع لتمثال كاملٍ. وصخرة دوفر الصغيرة تنتهي برأس على شكل قرن. أما الكبيرة فهي ناعمة ملساء، عمودية، تبدو وكأنها مصنوعة من العاج الأسود. لا ثقب فيها ولا نتوء. وعورتها جافية خشنة، حتى أن سجيناً محكوماً بالإعدام لا يسعه أن يستعملها للهرب، وأن عصفوراً

لا يلجأ إليها لبناء عشّه. وكانت في أعلاها كما هو شأن الصخرة «الرجل» مصطبة منبسطة، لكن الوصول إلى هذه المصطبة أمر متعذّر.

في وسع المرء أن يتسلّق صخرة دوفر الصغيرة ولكنه لا يمكن أن يبقى فيها، وفي وسعه أن يبقى في أعلى صخرة دوفر الكبيرة ولكنه لا يستطيع أن يتسلّقها.

وعاد جيليات، بعد أن ألقى نظرته الأولى، إلى قاربه ذي الكِرش المنتفخة وأفرغ منه حمله فوق أوسع مكان من الكورنيش ثم حزم هذا المتاع كله في حزمة واحدة وألقى بها في زاوية لا يصل الماء إليها. ثم تسلّق بقدميه ويديه صخرة دوفر الصغيرة مستعيناً بكل نتوء وبكلّ فجوة حتى بلغ دوراند المعلّق في الهواء.

ثم قفز إلى جسر المركب.

فكان داخل الحطام ذا المنظر الحزين الرهيب.

لقد كانت في دوراند كل آثار حادث رهيب. لقد كان ما فيها ثمرة لعدوان عاصفة مدمّرة. وكان سلوك هذه العاصفة كسلوك عصابة القراصنة. لا شيء يشبه الجريمة ككارثة الغرق، فالضباب والرعد، والمطر، وهبّات الرياح، والأمواج، والصخور، هذا الركام من الشركاء شيء رهيب حقاً.

ويحلم المرء وهو فوق هذا الجسر الأعزل بشيء كأنه دبدبة عنيفة لأرواح البحر. في كل مكان أثر من آثار ثورة مسعورة فتغضّنات بعض الأجهزة الحديدية تشير إلى عنف الرياح، أما تحت الجسر، فيبدو وكأنه مقصورة مجنون قد تحطم فيها كل شيء.

ليس من حيوان مفترس كالبحر لتمزيق فريسة. فالماء محتكّ بالبراثن. والريح تعضّ، والتيار يفترس. أما موجة البحر فهي فكّ هذا الحيوان. إن في ذلك ما يشبه عملية انتزاع، وعملية سحق أيضاً. إن للبحر المحيط ضربة كضربة قائمة الأسد.

لقد تميز تلف دوراند بما يدفع إلى المزيد من الدقّة في الوصف والتفصيل. إنه نوع من التقشير الرهيب. كثيرة هي الأشياء التي تبدو وكأنها صنعت عن سابق إصرار وتصميم. ولذلك كان في وسع المرء أن يقول: يا للإجرام الخبيث! إن مكاسر أطراف المركب قد تناولها التخريب واحداً واحداً. هذا النوع من التخريب هو من مزايا الإعصار اللولبي. فالتمزيق والتفتيت هما شهوة هذا المخرب الهائل. إن للإعصار اللولبي عمليات كعمليات الجلاّد. وكوارثه ذات هيئة كهيئة فنون التعذيب حتى ليقال إن في سلوكه حقداً، فهو يلطف كالوحش ويشرّح باستئصال الشأفة. إنه يعذّب الغريب، وينتقم منه، فيتسلّى، ويصنع في تسليته حقارة الصَّغَار.

والأعاصير اللولبية نادرة في أجوائنا، وهي تزداد عنفاً بالمقدار الذي يقلّ حدوثها به. إن الصخرة التي تلتقيها العاصفة تستطيع أن تطلق هذه العاصفة على شكل لولبيّ. ومن المحتمل أن العاصفة قد تحوّلت فوق صخرتي دوفر إلى إعصار لولبي، وهو ما يفسّر قذف المركب إلى مثل هذا الارتفاع فوق الصخور وإذا هبّ الإعصار لم يزن المركب في ميزان الرياح أكثر مما يزنه حجر صغير في مقلاع.

لقد كان جرح دوراند كجرح رجلٍ مقسوم إلى نصفين، كان يبدو جذعاً مبقوراً قد خرجت منه نفايات وبقايا شبيهة بالأحشاء. كانت فيه حبال تطفو وترتجف، وسلاسل حديدية تتأرجح وهي تصطكّ من البرد، أمّا أعصاب المركب وأليافه فقد كانت كاملة العري، ومعلّقة، فما لم يكن فيها مسحوقاً فهو ممزّق، كل شيء فيه على صورة الخراب. لا شيء فيه لم يكن ممزّقاً أو مقتلعاً، أو مقروضاً، أو مسحوقاً. كل شيء كان ينهار ويسيل. هنا وهناك ألواح منسابة، ولافتات، وقطع من الحديد، وحبال معدنية، وجسور قد تراكمت كلها عند مكسر حيزوم المركب الكبير، بحيث أن أية صدمة قادرة على

قذف الجميع إلى البحر. إن ما كان قد بقي من هيكل المركب الغائص في البحر، والذي كانت تكلُّله الأمجاد من قبل، وتلك المؤخرة المعلّقة بين صخرتي دوفر، والتي قد تكون مستعدة للسقوط، كانا مُثَقَّبَيْن هنا وهناك بحيث يتيحان للمشاهد بفجواتهما العريضة أن يرى داخل المركب الحزين.

هذا والزبد يبصق دون انقطاع على هذا الشيء البائس.

3

سالمة، ولكن ليست ناجية

لم يكن جيليات ينتظر ألا يجد أمامه غير نصف مركب. ذلك لأنه لم يكن في أوصاف ربان السفينة شيلتيل، وهي مع ذلك أوصاف دقيقة، ما يشعر المرء بانقصاف السفينة في وسطها. ومن المحتمل أن يكون هذا الانقصاف قد حصل تحت ضغط الزبد الكثيف الأعمى، فأرسل أصداء هذه «القضقضة الشيطانية» التي تلقفتها أذن الربّان في مركب شيلتيل. ولا شك أن هذا الربّان قد ابتعد عن مكان الكارثة أثناء عصف الريح الأخير، وكان ما ظنه صدى لموجات البحر الثائر هو انقصاف المركب دوراند. وعندما اقترب بعد ذلك ليراقب سقوط المركب لم يستطع أن يرى غير القسم الخلفي من الحطام، أما الباقي، أي المكسر العريض الذي فصل حيزوم المركب عن مؤخّره، فقد خفي عنه بسبب اختناقه بين الصخرتين.

وعلى ذلك فلم يقل ربّان السفينة شيلتيل غير ما هو دقيق وصحيح. لقد ضاع هيكل المركب، وسلمت الآلة المحرّكة له.

هذه المصادفات تكثر في كوارث الغرق كما تكثر في كوارث الحريق. ومنطق الكارثة هو شيء لا نستطيع أن ندركه.

كانت الصواري المحطّمة قد سقطت، وبقيت المدخنة سالمة حتى إنها لم تلتوِ أبداً. إن اللوح الحديدي الكبير الذي كان يحمل الجهاز الآلي كله قد أمسك بها واحتفظ بها قطعة واحدة. وأما الألواح الخشبية على الجانبين فقد تمزّقت قِدَداً كما هي قِدَد مِصْراع النافذة، وبدت العجلتان خلال فجوات هذه القِدَد في حالة جيدة، لا ينقصهما غير عددٍ قليلٍ من صفائحهما.

إن سلامة هذه الآلة تحتوي على شيء يبعث على الهزء، وتضيف لوناً من السخرية إلى الكارثة. إن خبث المجهول القاتم قد ينفجر في بعض الأوقات في أنواع من السخريات المرة. لقد سلمت الآلة ولكن هذا لم يكن يمنعها من الضياع. لقد احتفظ بها البحر المحيط لكي يسحقها بعد ذلك على هون منه. إنها لعبة القط.

لقد كانت تحتضر لتتفتت بعد ذلك قطعة قطعة. وستكون لعبة وحشيات الزبد. وستتضاءل شيئاً فشيئاً، ثمّ تذوب بتعبير آخر. فما العمل؟ يبدو أن نجاة هذه الكتلة الثقيلة من الميكانيك ومن الأجهزة المتداخلة، والتي هي في الوقت نفسه كثيفة ورقيقة، والتي قضي عليها أن تبقى جامدة بسبب ثقلها النوعي، متروكة في هذه العزلة تحت رحمة القوّة الهدّامة، يبدو أن نجاتها من الخراب البطيء هو شيء جنوني لمجرد تصوّره.

لقد كان المركب دوراند حبيس هاتين الصخرتين.

فما هو السبيل إلى إنقاذه؟

وكيف يمكننا أن نخرجه من هناك؟

إن نجاة الرجل عملية صعبة، أما نجاة آلة: فأية معضلة هي هذه!...

4

دراسة محلية أولية

وجد جيليات نفسه محاطاً بالخطير من الأمور من كل جانب. أما أخطر هذه الأمور فهو إيجاد مرسى ملائم للقارب ذي الكِرش المتنفخة، ثم إيجاد ملجأ له.

ويما أن دوراند قد ضغط في جانبه الأيسر بأكثر منه في جانبه الأيمن، فقد كان جانب اليمين من الهيكل أعلى من جانبه الأيسر.

وتسلّق جيليات الجانب الأيمن منه، واستطاع أن يتفحص تصميم الصخرة الهندسي.

لقد بدأ جيليات محاولته الإنقاذية بهذا الاستطلاع.

إن صخرة دوفر، مأخوذة في مجملها، لم تكن شيئاً آخر غير انبثاق صفحتين من الغرانيت تكادان تتلامسان، وتخرجان عمودياً من قمم غائصة من أعماق البحر المحيط، وهما على صورة عُرْف الديك. وقد مزّقت الرياح والأمطار هذا العرف فمنحته أسناناً كأسنان المنشار. ولم يكن يُرى منها غير جانبها الأعلى، هذا الجانب هو صخرة دوفر. ومن الواجب أن يكون ما يخفيه الموج منها شيئاً هائلاً وكبيراً. والزقاق الذي قذفت العاصفة إليه هذا المركب، هو الفراغ القائم بين هاتين الصفحتين الضخمتين.

إن هذا الزقاق، الذي كان متعرّجاً على صورة البرق الخاطف، ذو عرض واحد في كل جوانبه. هكذا صنعه البحر المحيط. والصخب الدائم هناك ينبثق دائماً من هذه التعرّجات المنتظمة الغريبة. هكذا خرجت أشكال هندسية من الموج.

وتنتصب الصفحتان الصخريتان متوازيتين وعلى مسافة تساوي تماماً على التقريب عرض الهيكل الخشبي للدوراند.

والواقع أن الواجهة الداخلية المضاعفة لهذه الصخرة كانت قبيحة جداً. وحينما نصل إلى أشياء البحر المجهولة أثناء استكشافنا لصحراء الماء التي تسمى بحراً محيطاً، نجد أن كل شيء فيها قد أصبح مدهشاً ومشوّهاً. ذلك أن ما كان يراه جيليات من أعلى الحطام عبر هذا المضيق الممتد، يبعث على الرعب والجزع. والغالب أن في ممرات البحر المحيط الغرانيتية، صورة دائمة باقية لكارثة الغرق. وقد كانت لمضيق دوفر صورته الرهيبة الخاصة. وكان أوكسيد الصخرة يترك هنا وهناك فوق تعرّجاتها الوعرة ألواناً حمراء أشبه ما تكون ببقع الدم المتجمّد إنه شيء كما يكون التحلّب الدامي لقبو مسلخ من المسالخ. لقد كان في هذه الصخرة مستودع من هياكل الأموات العظمية. إن الصخرة البحرية القاسية، التي تباينت ألوانها، بسبب تحلّل قشور معدنية ممتزجة بها، وبسبب تعفّنها، كانت تنشر في أمكنة مختلفة منها أرجواناً بشعاً، أو اخضراراً يبعث الشك، أو طيناً قرمزيّ اللون، فتبعث في النفوس فكرة القتل الإجرامي وعملية الاستئصال والإبادة. حتى ليقال إن رجالاً محطّمين مسحوقين قد تركوا آثارهم هناك. وكانت في الصخرة المنقضة كالشهاب النافذ طوابع متراكمة لحالات احتضار متنوعة. كما تبدو هذه المذبحة في بعض نقاط الصخرة وكأنها ما تزال تنساب حتى الآن، فجدارها مبلل، كما يبدو مستحيلاً أن يثبت الإنسان بنانته فيه دون أن يخرجها بعد ذلك دامية.

لقد كان يظهر في كل مكان صدأ مذبحة.

هذه المشاهد، كثيرة جداً، في كهوف البحر المختلفة.

5

كلمة حول تعاون العناصر السري

إن صورة الصخرة بالنسبة لأولئك الذين كتبت عليهم مصادفات الأسفار أن يكونوا من النزلاء الوقتيين في صخرة في البحر المحيط، ليست أمراً غير ذي شأن. فهناك الصخرة، الهرم، التي تكون لها قمّة وحيدة خارج الماء، وهناك الصخرة الدائرة، التي تبدو في أعلاها دائرة من الأحجار الضخمة الغليظة، وهناك أخيراً الصخرة الممر. والصخرة الممر هي أبعث على القلق. وليس السبب في ذلك هو قلق الموج بين جوانبها وصخب الموجة المضغوطة فقط، بل السبب في ذلك أيضاً هو الخصائص الجوية القاتمة التي تبدو وكأنها خارجة من توازي الصخرتين في وسط البحر. إن هاتين الصفحتين الصخريتين المستقيمتين هما جهاز كهربائي حقيقي.

الصخرة الممر هي صخرة موجّهة. والتوجيه شيء يبعث على الاهتمام ينتج عنه تأثير أول على الهواء والماء. والصخرة الممر ذات أثر فعّال في الموج وفي الرياح، إما ميكانيكياً بسبب شكلها الخاص، وإما كهربائياً عن طريق المغنطة المختلفة والمحتملة لصفحاتها العمودية، وهي كتل متجاورة، ومتنافرة، الواحدة منها ضد الأخرى.

هذه الطبيعة في الصخور تجتذب نحوها كل القوى الثائرة والمتناثرة في العاصفة، ولها على الأعصار قوّة فريدة في التركيز.

يجب أن نعرف بأن الريح شيء مركّب. والظن الغالب أنها بسيطة، وهي ليست كذلك. هذه القوّة ليست قوّة حركية فقط، بل هي قوّة كيميائية، وهي ليست كيميائية فقط بل هي قوّة مغناطيسية.

وكذلك الشأن في البحر. إنه أيضاً معقّد، وله تحت أمواجه

المائية أمواج القوى الخاصة به، والتي لا تُرى بالعين المجرّدة. البحر يتألف من كل شيء. إنه يتألف من كل خليط، والبحر المحيط هو أشدّ ما يكون استعصاء على التجزّؤ، وأشدّ عمقاً.

وفي البحر تتجمّع كل الظاهرات الوجودية. فالإعصار اللولبي يشرق ماء البحر «كالسيفون»، والعاصفة هي جهاز للضخّ، والصاعقة تأتي من الماء كما تأتي من الهواء، فيحسّ المرء في السفن هزّات عنيفة خرساء، ثم تنبعث رائحة كبريتية خارجة من بئر السلاسل الحديدية. والبحر المحيط يغلي ماؤه. كان رويتر يقول: «لقد وضع الشيطان البحر في مرجله». وفي بعض العواصف التي تتميّز بها اهتزازات بعض الفصول، ودخول القوى المولّدة في مرحلة التوازن، ما تبدو معه السفن التي يضربها زبد البحر وكأنها ترشح لهباً من النار، وتسيل فتائل مضيئة من الفوسفور متنقّلة فوق حبال السفن. وهي شديدة الاتصال بالحبل بحيث إن البحارة يمدّون يدهم للإمساك بهذه العصافير النارية وهي منطلقة نحو الفضاء. والمعروف أن نفساً من النار قد قذف نحو المدينة لساناً من اللهب علوّه ستون قدماً بعد اضطراب الأرض في ليشبونة. إن الاهتزازات البحرية متّصلة بالرجّات الأرضية الخفيفة.

هذه الطاقات الهائلة تجعل الزلازل الخطيرة أموراً محتملة. ففي أواخر عام 1864 وعلى بُعد مئة ميل من شواطئ مالابار، غارت في الأرض إحدى جزر المالديف. لقد غاصت كما تغوص السفينة في ماء البحر. إن الصيّادين الذين غادروها في الصباح لم يجدوا منها شيئاً في المساء، ولم يتميزوا قراهم الغارقة تحت الماء.

أما في أوروبا، حيث يبدو أن الطبيعة مرغمة على احترام الحضارة، فإن هذه الأحداث نادرة جداً حتى الاستحالة.

6

إسطبل للحصان

كان جيليات من المعرفة بالصخور بحيث أخذ مشكلة صخرتي دوفر مأخذ الجد الشديد. لقد قلنا منذ قليل، إن أهم شيء هو التأمين على القارب ذي الكِرش المنتفخة. إن حَسَك الصخور المضاعف الذي يمتدّ على صورة خندق متعرّج وراء صخرتي دوفر هو نفسه يشكّل مجموعة هنا وهناك مع صخور أخرى. فترى بين هذه المجموعات كهوفٌ منصبة على الزقاق ومتّصلة بالممر الرئيسي كما تتصل الأغصان بجذعٍ من الجذوع.

كان الجزء الأسفل من الصخور مغطّى بمقذوفات البحر النباتية وغيرها وكان جزؤها الأعلى مغطّى بنبات الأشْنة. إن المستوى الواحد الذي تبلغه مقذوفات البحر على كل الصخور يعين الخط الذي يبلغه ماء البحر أثناء المدّ الكامل. أما النقاط التي لا يبلغها ماء البحر فقد كانت تتميّز باللَّوْنَيْن الفِضيّ والذهبي اللذين تعطيهما برقشة الأشنة البيضاء والأشنة الصفراء للصخور الغرانيتية البحرية.

وأما القمم البعيدة للصخور التحتية، والتي ترتفع عن الماء أثناء المدّ النازل، فإنها تنتهي تحت وعورة صخرة «الرجل» نفسها، إلى نوعٍ من خليج صغير، سورته الصخرة من كل جهة تقريباً وفي هذا الخليج الصغير بالطبع مرسى محتمل للقارب. راقب جيليات هذا الخليج، فوجد أنه على صورة حَذْوة الحصان، وأنه ينفتح من جهة واحدة للرياح الشرقية التي هي في تلك المنطقة أقلّ الرياح شرًّا. والماء فيه محاط من كل جانب ويكاد يكون هادئاً. هذا الخليج الصغير صالح للرسوّ. على أن جيليات لم تكن أمامه فرصة الاختيار.

وإذا كان جيليات راغباً في الاستفادة من المدّ النازل فقد كان

من المهمّ أن يسرع في هذه الاستفادة.

بقي أن نقول إن الجوّ لم يتغيّر. لقد استمرَّ على جماله وهدوئه. أما البحر الوقح فقد كان آنذاك ذا مزاجٍ حسن.

وهنا نزل جيليات، ولبس جَوْرَبَيْهِ ثانية، ثم فكّ رباط القارب وانتقل إليه ودفعه في البحر. وحين وصل قرب الصخرة «الرجل» راح يتفحّص مدخل الخليج الصغير.

وقد كان يعين الممر إليه تموّج ثابت في الماء المتحرك، وهو تجعيدة خفيّة لا يراها غير البحّار.

درس جيليات هذا الانحناء بُرْهَةً من الزمن، وهو مَعْلَمْ لا يكاد المرء يميّزه في الماء، ثم اتجه قليلاً نحو البحر الواسع لكي ينحرف بيسر وسهولة، وهكذا، وبضربةٍ واحدة من مقذافه، دخل إلى الخليج الصغير.

وسَبَر الماء. فكان المرسى جيداً جداً.

وهكذا سيجد القارب هنا ما يحتاج إليه من الحماية ضد كلّ مفاجآت الموسم على التقريب.

إن أشدّ الصخور رَهْبَة وقسوة تملك مثل هذه الزوايا الهادئة. والمرافئ التي نجدها في صخرةٍ من الصخور تشبه قِرَى البدوي، إنها شريفة صادقة ومضمونة.

وصَفّ جيليات قاربه أقرب ما يكون من الصخرة «الرجل» ثم أنزل مرساتيه إلى الماء.

وشبك ذراعيه ثم أخذ يشاور نفسه فيما سيصنعه بعد أن قام بهذه المهمة.

لقد وجد للقارب ملجأ، وبذلك حُلَّت هذه المعضلة، ثم لم تلبث المعضلة الثانية أن ظهرت. فأين يجد ملجأً لنفسه؟

وجد جيليات بين يديه ملجأين: القارب نفسه، مع زاويته التي هي أشبه ما تكون بالمقصورة الصالحة للسكن تقريباً، ثم مصطبة الصخرة «الرجل»، التي يسهل التسلّق إليها.

وفي وسعه حين ينزل المدّ أن ينتقل من هذا الملجأ أو ذاك إلى ما بين صخرتي دوفر حيث يقع المركب دوراند، وفوق أرض يابسة تقريباً، قافزاً من صخرة إلى أخرى.

ولكن المدّ النازل لا يبقى غير فترة قصيرة جداً، ثم يصبح المرء بعد ذلك مفصولاً عن الملجأ أو عن الحطام بما يزيد على 200 باع من الماء. والسباحة في البحر انطلاقاً من صخرة، شيء شديد الصعوبة. وإذن فيجب الاستغناء عن القارب وعن صخرة «الرجل».

والواقع أنه ليس هناك محطة ممكنة في الصخور المجاورة. إن قممها السفلى تُمحى مرتين في كل يوم تحت المدّ المرتفع.

والقمم العليا كانت دائماً هدفاً لقفزات الزبد. وهي عملية تغسيل غير مرغوبٍ فيها.

لقد بقي الحطام نفسه. فهل يكون السكن فيه ممكناً؟

إن جيليات يرجو ذلك ويأمل فيه.

7

غرفة للمسافر

وبعد نصف ساعة، كان جيليات، أثر رجوعه إلى الحطام، يصعد إلى ظهر المركب وينزل منه ثم يغوص حتى قاعة الأدنى، معمّقاً نظرته المختصرة التي ألقاها في زيارته الأولى.

وقد استطاع أن يرفع حزمة الأمتعة التي أخرجها من قاربه ذي

الكِرش المنتفخة، إلى ظهر المركب دوراند بواسطة رافعة موجودة فيه. وكانت الرافعة سليمة من كل سوءٍ. والقضبان لا تنقصه لإدارة هذه الرافعة. وهكذا لم يبقَ أمام جيليات، في خِضَمٍّ هذا الركام من الخرائب إلا أن يختار.

لقد وجد في أكوام هذه الخرائب المتناثرة مقصًّا يعمل على البارد، سقط دون ريب من مقصورة النجّار في المركب، فزاد جيليات ثروة أجهزته التي أعدَّها لهذه المهمة.

يضاف إلى ذلك أنه كان يحمل مِدْيَتِه في جيبه.

وعمل جيليات طوال النهار في حطام المركب ينظف أرضه، ويدعم ركائزه ويبسط بعض الجوانب.

وعندما أتى المساء، اعترف جيليات بما يلي:

كان الحطام كلّه يرتجف أمام الرياح. لقد كان هذا الهيكل يقشعر عند كل خطوة يقوم بها جيليات. فلا شيء من هذا الهيكل ثابت مستقر غير جانبه الذي يقف مشدوداً بين الصخرتين، ويحتوي على الآلة. هنا تلتصق جوانب المركب أشد التصاق بصخر الغرانيت.

على أن السكنى في دوراند كانت عملاً طائشاً. إنها تثقله، والمهم آنذاك أن تخفّف الأحمال عن المركب، لا أن تزاد عليه.

إن الأثقال على الحطام هو ضدّ ما كان يجب أن يصنعه جيليات. كان هذا الخراب في أمسِّ الحاجة إلى رعايةٍ رقيقة. إنه كالمريض، الذي يحتضر. وسيكون أمامه من الريح ما يكفي لإنهاكه.

وإنه لمن المُغْضِب حقاً أن يجد المرء نفسه مرغماً على العمل في هذا المركب. إن كمية العمل التي يجب على الحطام أن يحتملها بالضرورة، ستتعبها دون ريب، وقد تكون شيئاً وراء ما تحتمله قواها الخاصة.

يضاف إلى ذلك، أنه إذا حدث حادث ليلي أثناء نوم جيليات، فإن قضاء الليل في الحطام لا يعني غير شيء واحد: الغرق معها. ومن ثم فلن تنفع أية مساعدة محتملة، فيضيع كل شيء. إن من الواجب أن يكون جيليات خارج الحطام ليستطيع العمل على إنقاذها.

هكذا كانت المعضلة: أن يكون خارج الحطام وقريباً منها في الوقت نفسه. وكانت الصعوبة تتعقد.

أين يمكن أن يوجد الملجأ في مثل هذه الشروط؟

وفكّر جيليات: لم يبقَ أمامه غير صخرتي دوفر. وكانتا تبدوان غير صالحتين للسكنى. كان يُرى فوق المرتفع المنبسط العالي لدوفر الكبيرة نوع من البروز. فالصخور القائمة ذات القمّة المنبسطة، كدوفر الكبيرة أو كصخرة «الرجل» تبدو وكأنها مقطوعة الرأس. وهي تكثر في الجبال وفي البحر المحيط.

وفي بعض الأوقات يبقى رأس الصخرة ثابتاً في مكانه لا يسقط لسببٍ مجهولٍ، ويبقى ذا صورة شوهاء مقيماً فوق القمة المقدودة. هذه الظاهرة الفريدة ليست شديدة النُّدرة.

ومن المحتمل أن تكون دوفر الكبيرة قد أُصيبت بشيء شبيه بذلك. فإذا كان هذا النتوء الذي يُرى فوق القمة المنبسطة شيئاً غير حدبة طبيعية للحجر، فقد وجب بالضرورة أن تكون قطعة باقية من الرأس الخرب المقطوع.

وقد تكون في هذه القطعة من الصخر فجوة.

كان جيليات يفتش عن ثقب يلجأ إليه، إنه لا يريد أكثر من ذلك. ولكن، كيف الوصول إلى القمة المنبسطة؟ وكيف يتسلّق هذا الحاجز العمودي، الكثيف الأملس كالحصوة، وقد غطي نصفه بغطاء من مادةٍ لزجة، وبدا له مشهد زَلِق وكأنه مغطّى بطبقةٍ من الصابون.

المسافة بين ظهر دوراند وحدود القمة المنبسطة لا تقلّ عن ثلاثين قدماً.

أخرج جيليات من صندوق أجهزته، حبله ذا العُقَد، ووصله بحزامه عن طريق الكُلاّب، ثم انطلق يتسلق دوفر الصغيرة. وكان كلما أمعن في صعوده، بدا الصعود أشدّ صعوبة وقسوة. ومما زاد من ارتباكه في الصمود أنه أهمل خلع حذائيه. فلم يبلغ القمة دون تعب شديد. وانتصب واقفاً بعد أن بلغها. فلم يجد مكاناً يتّسع لأكثر من قدميه. وإذن فمن الصعوبة جداً أن يجعل منه ملجأً له. وقد يجد المتعوّد على سكنى العواميد ما يكفيه من هذا المكان، أما جيليات فقد كان يريد شيئاً خيراً منه وأوسع.

وكانت دوفر الصغيرة تنحني في أعلاها نحو دوفر الكبيرة، مما يجعلها تبدو من بُعد وكأنها تلقي عليها السلام، أما المسافة بين الصخرتين في سفحهما فهي عشرون قدماً، ولكنها لا تتجاوز الثمانية أقدام عند قمتيهما.

وقد رأى جيليات بوضوح ظاهر ومن النقطة التي تسلّق إليها، النتوء الصخري الذي كان يغطي جزئياً قمّة دوفر الكبيرة المنبسطة.

وبينه وبين هذه القمة تقوم الهوّة الرهيبة.

وهنا انتزع جيليات حبله ذا العُقَد من حزامه، وألقى نظرة سريعة على الأبعاد أمامه، وقذف الكُلاّب على القمة المنبسطة.

وقد خدش الكلاّب الصخرة ثم تدحرج ساقطاً. لقد سقط الحبل ذو العقد تحت قدمي جيليات على امتداد دوفر الصغيرة بسبب الكلاّب المعلّق في طرفه.

وأعاد جيليات محاولته، فقذف الحبل إلى أبعد قليلاً حيث وجد عدداً كبيراً من الثقوب والفجوات. فكانت المحاولة من الإحكام والقوة بحيث جمد الكلاّب ثابتاً هناك. وشده جيليات.

فانكسرت الصخرة، ورجع الحبل ذو العقد يضرب الوعر تحت قدمي جيليات.

ثم قذف جيليات كلاّبه للمرة الثالثة. فلم يعد يسقط أبداً. وشدّ الحبل بقوّة. فقاوم وصمد. لقد علق الكلاّب بقوّة.

المهم الآن أن يكلْ جيليات حياته إلى هذا الحامل المجهول.

وجيليات لم يتردّد أبداً.

كل شيء كان بعجله. لقد كان عليه أن يتخذ أقصر الطرق.

ولجيليات، شأنه شأن كل البحارة الماهرين، حركات دقيقة الأهداف. فلم يكن يفقد قواه أبداً. وجهوده التي يبذلها هي جهود متناسبة . ومن هنا كان نشاطه الفائق الذي يقوم به بعضلات عادية، لقد كانت له عضلات أي إنسان سواه، لكن له قلباً آخر. لقد كان يضيف إلى القوّة، التي هي مادية، الطاقة، المعنويّة والنفسيّة.

إن الشيء الذي كان عليه أن يصنعه هو شيء مخيف.

هذا الشيء هو اجتياز المسافة القائمة بين الصخرتين وهو معلق بهذا الخيط الدقيق.

إننا نلتقي غالباً هذه العلامات الاستفهامية التي يبدو لنا أن الموت يوجهها، في أعمال يفرضها التفاني أو القيام بالواجب.

يقول الموت: وهل يفعل ذلك؟

ويعود جيليات إلى تجربة جذبٍ أخرى على الكلاّب فيصمد ويقاوم. وهنا لفّ يده اليسرى بمنديله، وشدّ الحبل ذا العُقد بقبضته اليمنى التي غطّاها ثانية بقبضته اليسرى، ثم مدّ قدماً إلى الأمام، ودفع الصخرة بقدمه الأخرى، لكي تحول قوّة الاندفاع دون دوران الحبل، وقذف بنفسه من قمّة دوفر الصغيرة نحو تعرجات دوفر الكبيرة الوعرة.

الصدمة قاسية شديدة.

وقد دار الحبل رغم الحيطة التي اتخذها جيليات، وصدمت كتفه جانباً من الصخرة.

ولذلك حدثت نبوة ثانية بعد أن مسّت الصخرة كتفه. وصدمت القبضتان الصخرة بدورهما، فانزاح المنديل عن مكانه.

وخدشت القبضتان. وكان الخدش شديداً بحيث أنهما لم تتحطما. وبقي جيليات فترة من الزمن معلّقاً ضائع الرشد.

ولكنه لم يفقد سيطرته على نفسه بحيث يترك الحبل.

ومرّ وقت حدثت فيه اهتزازات وقفزات قصيرة قبل أن يوفّق إلى إمساك الحبل بقدميه، ثمّ وفّق إلى ذلك.

نظر إلى ما تحته بعد أن عادت نفسه إليه وأمسك الحبل بقدميه ويديه. ولم يكن بالطبع قلقاً على طول حبله، الذي خدمه في مرتفعات أعلى من هذا المرتفع. والواقع أن الحبل كان يتجرّر فوق ظهر المركب.

وأخذ جيليات يتسلّق الحبل وهو الواثق من قدرته على النزول.

وبلغ القمّة المنبسطة في برهة قصيرة.

وهنا وجد أن افتراضه في محله. لقد رأى مجموعة من الفجوات ليست بالكهوف والغيران بل هي أقرب ما تكون إلى ثقوب الإسفنج. وكانت إحداها صالحة لإيواء جيليات.

هذه الفجوة قد غُطِّيَت أرضها بالعشب.

وسيكون جيليات فيها كما يكون في قراب.

لقد كان ارتفاع هذا المَخْدع عند مدخله قدمين. ثم تضيق هذه المسافة شيئاً فشيئاً حتى أعماق الفجوة. إن هناك قبوراً من الحجر مصنوعة على هذه الصورة.

وبما أن كتلة الصخرة متجهة نحو الجنوب الغربي فالفجوة في

نجوة من الموجات العالية، ولكنها مفتوحة للرياح.

ووجد جيليات أن هذا الملجأ هو ملجأ مناسب.

وهكذا حُلَّت المعضلتان؛ لقد أصبح للقارب ذي الكِرش المنتفخة مرفأً، كما أصبح له ملجأ ينام فيه.

ويمتاز هذا الملجأ بقُربه من الحطام.

ثم ثبّت جيليات كلاّب حبله في مكانه بحجر وضعه فوقه. وبادر بعد ذلك إلى العمل مباشرة في المركب دوراند.

لقد شعر أنه أصبح في بيته.

إن دوفر الكبيرة هي منزله، ودوراند هو ورشته.

أما الغدوّ والرواح، والنزول والصعود فليس شيء أسهل منهما. وتدحرج نشيطاً نحو ظهر المركب على امتداد حبله ذي العُقد.

لقد كان هذا النهار ناجحاً، والبداية حسنة، وهو سعيد، ثم لاحظ أنه قد جاع.

وفكّ خيوط السلة التي تحتوي على مؤونته، ثم فتح مديته، وقطع قطعة من لحم الثور المدخن، وعضّ «خبزته»، ثم تناول جرعة من الماء الحلو، فكان عشاؤه طيباً لذيذاً.

فرحتان في دنيا الإنسان: أن يأكل جيداً ويعمل جيداً.

والمعدة الممتلئة شبيهة بالضمير المستريح.

وكانت بقية من النهار باقية حين انتهى من تناول عشائه. فاستغلّها ليبدأ عملية تخفيف الأجمال عن الحطام وهي عملية هامة.

لقد قضى جزءاً من نهاره في تخير الخرائب «وفرزها». فوضع جانباً، أي في المقصورة الصلبة حيث توجد الآلة، كل ما كان يمكن أن يصلح له، من خشب وحديد وحبال وقماش. ثم رمى إلى البحر كل ما لا يفيده.

أما حمولة القارب، التي رفعها إلى ظهر دوراند بواسطة الرافعة، فقد وجد فيها ما يزعجه رغم حجمها الصغير. ونظر جيليات إلى الفجوة المحفورة في جدار دوفر الصغيرة، والقائمة على ارتفاع تستطيع يده أن تبلغه. ورأى أن تحويل هذه الفجوة إلى مستودع لأجهزته أمر ممكن. وهكذا فعل. ثم ربط حبله ذا العُقَد بطرفٍ من هيكل المركب لكي لا تتلاعب به الرياح.

وبقي القسم الأعلى من الحبل. إن تثبيت طرفه الأدنى شيء حسن، أما في قمّة الصخرة حيث يلتقي الحبل بطرفها، فقد تصبح زاوية الالتقاء الحادة، منشاراً ينشر الحبل شيئاً فشيئاً.

ونقب جيليات بين ركام الخرائب التي احتفظ بها. وتناول منها أسمالاً من قماش الشراع وخيوطاً من حبال المركب ثم دسّها في جيبه. وبعد أن أخذ من - الفجوة المستودع - ما هو في حاجة إليه تسلّق الحبل خفيفاً رغم الخدوش التي أصيبت بها يداه.

كانت شعاعات المغيب الصفراء والأخيرة تنطفئ. أما في البحر فقد هبط الليل كله. ولكن مرتفع دوفر بقي يحتفظ بقليل من اللهب.

وأفاد جيليات من هذا القليل من النور ليغلف حبله بالقماش الذي دسّه في جيبه مربوطاً حوله بإحكام بالخيوط التي حملها معه أيضاً.

ثم انتصب واقفاً بعد أن انتهى من عملية التغليف.

وأحسّ جيليات، وهو منهمك في وضع الأسمال حول حبله ذي العُقَد، برعشةٍ في الهواء غامضة مبهمة.

كانت هذه الرعشة شبيهة، في صمت المساء، بالضجة التي يحدثها خفق جناحين لخُفّاش هائل كبير.

ورفع جيليات عينيه. فرأى فوقه في سماء الغسق العميقة والبيضاء، دائرة كبيرة سوداء.

هذه الدائرة ترى مثيلاتها في اللوحات الفنية القديمة، فوق رؤوس القديسين. والفرق بينهما أن الدوائر فوق رؤوس القديسين دوائر ذهبية فوق خلفية قائمة، أما هذه فدوائر مظلمة فوق خلفية مضيئة. لا شيء أغرب منها. حتى ليقال إنها هالة الليل لصخرة دوفر الكبيرة.

كانت هذه الدائرة تقترب من جيليات ثم تبتعد، وكانت تضيق ثم تتسع.

لقد صنعت هذا الهالة طيور زُمّج الماء أو غيرها من طيور البحر، وقد أصابها دهش شديد. ومن المحتمل أن تكون صخرة دوفر الكبيرة هي حانتها فأتت تقضي فيها ليلها. وبما أن جيليات قد اتخذ لنفسه غرفة فيها، فقد أقلقها هذا النزيل الجديد.

رجل هناك! شيء لم تره هذه الطيور من قبل أبداً.

ودام هذا الطيران الجزع فترة من الوقت.

وكانت هذه الطيور تبدو منتظرة رواح جيليات. أما جيليات، الغارق في تفكير غامض، فقد كان يتبعها بنظره. وانتهى هذا الدوار الطائر باختيار مكان له، فتحولت الدائرة فجأة إلى شكل حلزوني، ثم نزلت الطيور فوق الطرق الآخر من الصخرة، صخرة «الرجل».

وهناك بدت وكأنها تتشاور وتفكر. وسمع جيليات هذه الطيور يتكلم كل منها بعد الآخر، كل في دوره من النعيب، بينما كان يتمدد في قرابة الغرانيتي، وقد وضع صخرة تحت رأسه بمثابة مخدّة له.

ثم صمتت، ونام كل شيء، الطيور فوق صخرتها، وجيليات فوق صخرته.

8

نام جيليات نوماً هادئاً. ومع ذلك فقد شعر بالبرد، مما كان يوقظه بين وقت وآخر. وطبيعي أنه قد وضع قدميه في الداخل ورأسه عند العتبة. ولم يحاول أن ينظف سريره من مجموعة من الحصوات القاطعة لم تكن تريحه في نومه.

كان يفتح عينيه بين برهة وأخرى.

فيسمع على فترات، انفجارات عميقة. لقد كانت هذه الانفجارات هي انفجارات البحر الصاعد الذي يدخل إلى كهوف الصخرة بضجيج كضجة طلقة المدفع.

كلّ شيء في هذا المكان يبعث جواً من الأشباح، لقد كانت حوله أساطير من الأوهام. انضمّ إليها الليل. لقد كان جيليات يجد نفسه غائصاً في «اللاممكن». ويقول في نفسه: «إنني في حلم».

ثم ينام، وفي الحلم يجد نفسه كرة أخرى في البو- دو- لا- رو في منزل لاتياري ثم في سان - سامبسون، فيسمع داروشات تغني، وبذلك كان يعيش في الواقع. كان يعتقد أنه يسهر ويعيش ما دام في نومه، فإذا استيقظ، خُيّل إليه أنه قد نام. والواقع أنه قد أصبح منذئذٍ في حلم.

وعند منتصف الليل تقريباً، انتشرت في السماء دمدمة واسعة. فأحسّ بها جيليات إحساساً غامضاً بينما كان غارقاً في نومه. ومن المحتمل أن يكون قد بدأ هبوب النسيم.

وعند طلوع النهار كان الصقيع قد اكتسح جسده كله وهو ينام نوماً عميقاً. وأخرجه الفجر المفاجئ من هذا النوم، الذي قد يكون خطراً. لقد كان مخدعه يواجه الشمس الطالعة.

وتثاءب جيليات، وحرّك أطرافه، ثم خرج من ثقبه.

لقد كان ينام جيداً بحيث أنه لم يعِ وضعه الجديد بادئ الأمر. ورجع إليه الإحساس بالحقيقة شيئاً فشيئاً حتى بلغ وعيه درجة صرخ معها قائلاً: لنتناول فطور الصباح.

الجو هادئ، والسماء باردة صافية، ولم تعد هناك غيوم أبداً. لقد كنس الليل الأفق، والسماء تشرق بنورها الكامل.

وشعر جيليات بموجة من الفرح الغامر.

ثم خلع ثياب نومه وغلّفها بجلد الخروف ودفعها إلى داخل الفجوة حمايةً لها من مطر قد يهطل على غيرِ انتظار.

ثم أصلح من شأن سريره، أي أنه أخرج الحصوات من الفجوة. عندما انتهى ترك نفسه ينزلق عبر الحبل نحو ظهر المركب دوراند، ثم مضى نحو المستودع حيث وضع سلة مؤونته.

وهناك وجد أن السلّة قد اختفت. لقد قذفت بها رياح الليل إلى البحر بسبب قربها الشديد من مدخل الفجوة.

لقد كشفت هذه الظاهرة عن نيّة العناصر المبيتة في الدفاع عن النفس. إن من واجب الرياح أن تتمتّع بإرادة ما، وبمهارة معينة لكي تنتزع هذه السَّلة من مكانها.

وكانت هذه بداية هجوم عدواني. فأدرك جيليات هذه الحقيقة. إنه من الصعب جداً ألا ننظر إلى الرياح نظرتنا إلى إنسان من الناس، وإلى الصخور نظرتنا إلى مجموعة من الأشخاص، حين نعيش في جوار صميمي عائلي مع البحر.

ولم يبقَ لجيليات مع البسكويت ودقيق الشيلم، غير الأصداف التي كان يتغذّى بها الغريق الذي مات جوعاً فوق صخرة «الرجل».

أما بالصيد فلا يجوز التفكير فيه أبداً. فالسمك، عدو الصدمات، إنه يتجنّب المناطق الصخرية، والقوارب الصغيرة تضيع

جهودها بين الصخور، بحيث لا تصلح هذه الرؤوس إلاّ لتمزيق الشباك.

وأفطر جيليات على بعض محتويات الأصداف المغروسة في الصخر التي اقتلعها بصعوبة شديدة، بطرف مديته التي كادت تنكسر.

وبينما كان يتناول هذا الفطور الهزيل، سمع ضجة غريبة في البحر فنظر نحوها.

لقد كانت هذه الضجة صادرة عن رف الطيور البحرية التي اندفعت منذ قليل نحو الصخور المنخفضة، تخفق بأجنحتها، وتتزاحم، وتصرخ، وتنادي. كلها كانت تتسابق متّجهة نحو نقطة واحدة. كان هذا القطيع من المناقير والأظافر يهدم شيئاً.

هذا الشيء هو سلّة جيليات.

إن السَّلّة التي قذفت بها الرياح نحو رأس صخري، قد بقرت فوقه، فانطلقت العصافير نحوها، وراحت تحمل بمناقيرها كل نوع من أنواع الأسمال الممزقة. وعرف جيليات من بعيد لحمه المدخن وسمكه المحفوظ.

وخاضت الطيور بدورها معركة خامية. لقد كانت للعصافير ثاراتها الخاصة بها. لقد استولى جيليات على منزلها فاستولت هي على طعامه.

9

الصخرة وطريقة استخدامها

ومرّ أسبوع. ولم تمطر السماء رغم أن الفصل فصل أمطار، مما أشاع الفرح في نفس جيليات.

بقي أن نقول: إن ما كان يحاوله يتجاوز، القوّة البشرية، في ظاهره. وكان النجاح يبدو بعيداً عن الواقع، بحيث أن المحاولة تبدو جنوناً محضاً.

لقد كان على جيليات أن يواجه العقبة بصورة مباشرة. إن أخراج آلة دوراند من كارثة الغرق، حيث كانت مغروسة حتى ثلاثة أرباعها، ومحاولة الإنقاذ، بنجاح نسبي، وفي مكان مثل هذا المكان، وفي فصل مثل هذا الفصل، يفرضان تعاون مجموعة من الرجال. ولكن جيليات كان وحده، بالإضافة إلى الحاجة الماسة إلى أجهزة كاملة من أجهزة النجارة والحدادة، وجيليات لا يملك منها غير منشارٍ، وفأسٍ، ومِقَصٍّ، ومِطرقةٍ، كما يجب أن تبنى ورشة جيدة وأن يرفع بناء مناسب، ولكن جيليات لا يملك سقفاً يفيء إليه! وكانت الحاجة ماسة إلى مؤن وطعام، وجيليات لا يملك خبزاً يأكله!.

ولو وقع نظر أحدهم، أثناء هذا الأسبوع الأول، على جيليات وهو يعمل في الصخرة، لما أدرك الغاية من هذا العمل. كان يبدو وكأنه لم يعد يفكر في المركب دوراند وفي صخرتي دوفر. لم يكن يشغله غير ما تناثر على الصخور الناتئة، كان يبدو منهمكاً في إنقاذ فتات هذه الحطام. وكان يستغل مرحلة الجزر البحري ليجرد الصخور من كل ما نثرته فوقها كارثة الغرق. كان يتنقل من صخرة إلى أخرى ملتقطاً ما كان البحر قد قذف به إليها، من أسمال الأشرعة، وأطراف الحبال، وقطع الحديد، وألواح الخشب، والأجزاء المبقورة من الهيكل، فهنا جسر خشبي، وهناك سلسلة من الحديد، وهنالك بكرة.

وكان في الوقت نفسه يدرس كل منحنيات الصخرة وأجزائها. وكان من سوء حظه أن أية فجوة منها لم تكن صالحة لسكناه وهو الذي كان يبرد ليلاً في الفجوة التي اختارها فوق دوفر الكبيرة، والتي كان يتمنى أن يجد سواها لمبيته.

وقد كانت هناك فجوتان بسعة كافية، حيث بوسع المرء أن يمشي منتصباً رغم التعرج الذي يتميز به داخلهما. المطر والرياح ينفذان إليهما بسهولة، ولكن ماء البحر لا يبلغهما. لقد كانتا مجاورتين لدوفر الصغيرة، وفي وسعه الاتصال بهما في كل ساعة. قد قرّر جيليات أن يجعل من إحداهما مخزناً ومن ثانيتهما محلاً للحدادة.

وهكذا جمع كل ما وقع عليه في حزم مختلفة ثم أخذ بجرّه بعد ارتفاع ماء البحر إلى «الفجوة المستودع». وقد وجد في ثقب صخرة من الصخور آلة رافعة يستطيع بواسطتها أن يرفع القطع الثقيلة. كما أخرج من البحر قطعاً كثيرة من السلاسل متناثرة فوق الصخور.

الواقع أن جيليات كان مندهشاً، شديد الصمود، في هذا الجهد الذي يبذله. كان يصنع كل ما كان يريد صنعه. فلا شيء يقاوم نشاط النملة المستمر.

وفي نهاية الأسبوع جمع جيليات في حظيرته الغرانيتية كل هذه القطع المتناثرة التي عصفت بها أمواج البحر ورتبها في نظام دقيق.

كل أجزاء المركب المصاب كانت هناك، مصنفة ومرقمة، لقد كانت أشبه ما تكون بالفوضى في مستودع.

وكان شراع، مثبت بأحجار ضخمة يغطي، رغم ثقوبه، ما كان يمكن أن يفسده المطر.

كما استطاع جيليات أن يتوصّل إلى إنقاذ المرتكزين اللذين تثبت فيهما المرساة مع عجلات ثلاثة من البَكَر.

ثم التقط في الوقت نفسه، المرساة الصغيرة، التي كانت معلقة بثقب في صخرة تحت الماء يكشفها البحر حين نزوله. وتمّت عملية إنقاذ الأجزاء المتناثرة في ثمانية أيام. فنظفت الصخرة وخففت الأحمال عن المركب دوراند، ثم لم يبقَ في حطامها غير الآلة.

وقد بحث جيليات، المفكر، عميقاً في نشاطه، عن التمثال

المحفور على هيكل المركب. لقد كانت أحد الأشياء التي جرفها ماء البحر دون رجعة، وكان جيليات، مستعداً للتنازل عن ذراعيه مقابل الحصول عليها، لو لم يكن في حاجة ماسة إليهما.

وعند مدخل المستودع وفي خارجه كومتان، كومة من الحديد الصالح للاستعمال، وكومة من الخشب الصالح للاحتراق.

وكان جيليات يبدأ عمله عند الفجر. فلا يأخذ لنفسه قسطاً من الراحة أبداً خارج ساعات النوم. أما طيور البحر الطائرة هنا وهناك فقد كانت تنظر إليه غارقاً في عمله.

10

الحدادة

ويبدأ جيليات يبني مصنع الحدادة بعد أن انتهى من إعداد مخزنة. لقد كانت الفجوة الثانية التي وقع عليها اختياره على صورة مقصورة صغيرة وعميقة.

وقد خطر في باله، بادئ الأمر، أن يجعلها مبيتاً له، ولكن الريح الباردة التي كانت تنفخ فيها باستمرار وعناد حالت دون ذلك. هذه الريح هي التي بعثت في نفسه فكرة بناء مصنعه الصغير. فإذا لم تكن هذه الغرفة مبيتاً له فلتكن مكاناً لمصنعه - إن استخدام العقبة هو خطوة كثيرة نحو النصر. لقد كانت الريح عدوة جيليات، فحاول جيليات أن يجعل منها خادماً له.

إن ما يقال عن بعض الرجال: - يعرف كل شيء، ولا يصلح لشيء -، يمكن أن يقال أيضاً عن ثقوب صخرة. إن ما تعرضه هذه الثقوب لا تعطيه أبداً. فهناك ثقب في صخرة يشبه الحمّام، ولكنه

يترك الماء ينساب في شق من الشقوق، وهذا الآخر غرفة، ولكن ليس لها سقف، وهذا الثالث سرير لبحار، ولكنه مبلل، وهذا الآخر معقد، ولكنه من الحجر.

إن المصنع الذي كان جيليات يستهدف العمل فيه قد صنعته الطبيعة. لكن ترويض صنيع الطبيعة هذا بحيث يصبح صالحاً للعمل، وتحويل هذا الكهف إلى مخبر، أمران لا أصعب منهما ولا أزعج.

لقد صنعت المصادفة بثلاث أو أربع صخور مفرغة على شكل القمع، ومنتهية بشق ضيق، كيراً واسعاً لا هندام له، وهو أقوى كثيراً من هذه الكيران الكبيرة القديمة التي يبلغ طول الواحدة منها أربع عشرة قدماً، والتي كانت ترسل في كل زفرة من زفراتها ثمانية وتسعين ألف إبهام من الهواء. وكان الأمر هنا شيئاً آخر. فإن قوّة الإعصار لا تخضع لحساب معين.

هذه القوّة الضائعة كانت مصدر إزعاج شديد، وكان ضبط زفرتها المنطلقة أمراً بالغ الصعوبة.

وكان لهذا الكهف نقيضان: فالريح تخترقه من جانب إلى آخر وكذلك الماء. والماء هنا ليس موجة بحرية، بل هو انسياب مستمر، أشبه ما يكون بالعرق المتفصد منه بالسيل الجامح.

إن الزبد الذي يقذفه باستمرار، ارتداد الموج إلى الوراء، والذي يرتفع مئة قدم في الهواء بعض الأوقات، قد ملأ بماء البحر، دَناً طبيعياً قائماً في الصخور المرتفعة التي تشرف على الفجوات والثقوب. وامتلاء هذا المستودع بالماء يحدث على امتداد التعرجات الوعرة شلاّلاً رقيقاً، لا يزيد قطره على قطر الإبهام، يضاف إليه ماء المطر النازل. وقد تمر غيمة بين وقت وآخر فتفرغ في هذا المستودع الذي لا ينضب كمية من الماء. وكان ماء هذا المستودع ماء أجاجاً، غير صالح للشرب، ولكنه صافٍ رغم ملحه.

هذا الشلال يتقطر ماؤه في مسارب الشقوق والثقوب كما يتقطّر الماء من الشعر المتبل.

وفكر جيليات باستخدام هذا الماء لتنظيم مرور الرياح. فراح يسدّ الشقوق والثقوب بقطع من الخشب ولم يبق غير ممر ضيق للهواء. وقد وجّه هذا الممرّ الهوائي على شكل أفقي نحو صخرة عريضة نصب فوقهما موقد الحدادة. فإذا أراد إغلاقه سده بسدادة صنعها خصيصاً له.

وبعد ذلك وضع فحماً وخشباً ثم أشعل فيها النار.

وجرّب الكير العجيب فكان مدهشاً في نتائجه. وأحسّ جيليات بكبرياء العملاق ذي العين الواحدة، سيد الهواء والماء والنار.

وبما أن الفجوة مطلقة على السماء من كل جانب تقريباً، فقد كان دخان الموقد يتجه حراً في كل ناحية، مسوداً تعرّجات الصخرة الوعرة المنتصبة.

إن هذه الصخور التي كُتِبَ عليها في الظاهر أن تعرف الزبد فقط، قد عرفت سخام الدخان أيضاً.

واستخدم صخرة شديدة الصلابة كسندان له.

وأسف جيليات على أنه لم يحمل معه سندانه. لقد كان يأمل في أن يجد أجهزة نجار السفينة كاملة، وهي التي توضع في العادة في قاع السفينة عند المقدمة، لأنه يجهل أن المركب دوراند قد قسم إلى قسمين وأن القسم الأمامي هو الذي حمله ماء البحر.

وكانت الفجوتان اللتان استخدمهما جيليات متجاورتين. فالمستودع ومصنع الحدادة ينفذ أحدهما إلى الآخر.

أما حالة التجرّد حيث كان يعيش جيليات فقد كانت تنمو وتتزايد بواقع مشاغله المادية. إن الواقع المادي في أعلى درجاته

يبعث على الانشداه. والنشاط الجسدي بتفاصيله التي لا تُحصى ولا تُعَدّ لا يقلّل شيئاً من الذهول في أن يجد المرء نفسه هناك وأن يصنع ما كان يصنعه. والعادة أن التعب المادي هو خيط يشد صاحبه إلى الأرض، ولكن غرابة العمل الذي يقوم به جيليات كانت تمسكه في نوع من منطقة مثالية وغسقية. لقد كان يبدو له في فترات من عمله أنه يضرب مطرقته في الغيوم. وفي فترات أخرى، يبدو له أن معداته هي أسلحة بين يديه. لقد كان يحس إحساساً فريداً بهجوم كامن يدفعه أو يستعدّ له. إن الأعمال الدقيقة لمحاولة الإنقاذ هذه تتحول في النهاية إلى احتياطات متخذة ضدّ هجومات ذكية واعية، ليست شديدة الاحتفاء ولكنها شديدة الشَّفافية. وجيليات لم يكن يعرف الكلمات التي تعبِّر عن الأفكار، ولكنه كان يدرك الأفكار ويعيها.

كان جيليات بمثابة المروِّض. وهو يكاد يفهم ذلك تقريباً. إنه نمو غريب لذهنه.

أما فيما سوى ذلك، فقد كان حوله، حتى الأفق البعيد، الحلم العظيم للعمل الضائع. وليس أبعث على الاضطراب من أن يرى المرء أمامه، قواه مبثوثة في لا يسبر غوره، ولا يدرك حده. ويبحث هذا المرء في مثل هذا الوضع عن أهداف معينة. فإذا القضاء الذي يتحرّك باستمرار، والماء الذي يضطرب دون تعب أو كلل، والغيوم المنهمكة في انطلاقها، والجهد القاتم الواسع، هذا الاختلاج كله هو معضلة قائمة. فماذا تصنع هذه الزلزلة الدائمة؟ وماذا عساها تبني هذه الهبات الشديدة من الهواء؟ وما هي القواعد التي ترفعها هذه الهزات؟ هذه الصدمات، والزفرات، وذاك العواء، ما الذي تستطيع أن تخلقه؟ إن مد هذه الأسئلة وجزرها خالد خلود المد البحري وجزره. لقد كان جيليات يعرف ما يصنع، ولكن هياج المد أمامه كان يلاحقه بأسراره في صورة غامضة منبهة. إن جيليات الحاكم كان يمزج بعمله، عمل

البحر الضخم الذي لا يفيد، وهو خاضع، دون علم منه، لضغط وتغلغل طاغ ميكانيكي دون أن تكون له أية نتيجة غير الاندهاش اللاشعوري الّذي يكاد يبلغ حد القسوة. وكيف يستطيع المرء أن يمتنع عن الخضوع لسر الموجة النشيطة والمخيفة حين يكون هناك، أو يمتنع عن سَبْرِ غورها؟ وكيف يسعه الامتناع عن التأمل بالمقدار الذي تبلغه طاقة التأمّل الممكنة عنده، في تحيُّر ماء البحر وتذبذبه، وفي هجوم الزبد المستمر، وتأمّل الصخرة الخفي، والإنهاك المستمر لرئتي الرياح الأربع بصورة لا تكاد تُحسّ أبداً؟ أي رعب مستمر للفكر، هذه المعاودة المستمرة لغضبة الماء، وهذا البحر المحيط البئر، كل ذلك الجهد الضائع دون هدف معين!

أما أنه دون هدف ولغير غاية، فلا. ولكنك أنت أيها المجهول تستطيع أن تعرف سبب هذا كله.

قد يزور الرجال صخرة مجاورة للشاطئ، ولكنهم لا يزورون صخرة في وسط البحر أبداً.

فماذا عسى يفتش عنه المرء فيها؟ إنها ليست جزيرة. فلا تموين فيها، ولا شجر مثمر، ولا مراعي، أو ماشية، أو ينابيع مياه صالحة للشرب. إنها عري في وحدة. بل هي صخرة ذات تعرجات وعرة خارج الماء ورؤوس مدببة تحته. لا شيء فيها غير كارثة الغرق.

هذه الأنواع من الصخور، والتي كانت تسميها اللغة البحرية القديمة باسم «المعزولة» هي، كما قلنا من قبل، أمكنة غريبة جداً. البحر فيها وحيد. وهو يصنع ما يشاء . فلا يقلقه ظهور اليابسة. إن الرجل يبعث الرعب في البحر، والبحر يحذره، وهو يخبئ عنه حقيقته وما يصنعه. أما عند الصخرة فهو مطمئن، والرجل لا يأتيه فيها أبداً. وحديث الماء مع نفسه لا يجد ما يزعجه أو يثير الاضطراب فيه. إنه يعمل في الصخرة، ويصلح منها، ويشحذ رؤوسها، ويسحقها، أو

يحددها، أو يحافظ عليها. يقوم بمحاولة ثقبها، أو يفتت الحجر الطري منها، ويعري القاسي، أو ينتزع لحمها، ويترك عظامها، ينقّب، ويشرّح، ويثقب، ويتغلغل، ويملأ الصخرة بالخلايا، ويقلد الأسفنجة على صورة مكبرة، يحفر داخلها، وينحت خارجها. وهو يصنع لنفسه في هذا الجبل الخفي، غيراناً، ومعابد مقدسة، وقصوراً، وله فيها نباتات قبيحة رائعة مؤلفة من أعشاب طافية تخز وتعض، كأنها وحوش تسيخ، جذورها، ثم تخفي تحت ظل الماء هذا الرائعة الرهيبة. لا شيء في الصخرة المعزولة يرقب البحر أو يتجسّس عليه ويزعجه، إن هذا البحر يبني في الصخرة جانبها السري، الذي لا يقربه الرجل. وهو يضع فيها إفرازاته الحية والمخيفة. كل المجهول من البحر هو هناك.

في الصخرة يبدو ضجيج الموجة وكأنه تسرّب إلى الغرانيت. فلا شيء يبعث على انفصال الذهن وتأثره من هذه الهندسة البنائية الجانبية، وهي في انهيارٍ دائمٍ وانتصابٍ دائمٍ أيضاً. كل شيء فيها يتعاون ويتعاكس. إنها معركة خطوط ينتج عنها بناء. ويكتشف المرء فيها تعاون معركتين، البحر المحيط، والإعصار.

إن لهذه الهندسة البنائية منجزاتها الرائعة الرهيبة، وصخرة دوفر هي واحدة من هذه المنجزات.

كان البحر قد بنى هذه الصخرة وأكملها بحب رهيب: وكان الماء المتجهم يلحسها. لقد كانت قبيحة، خائنة، مليئة بالأغوار.

وكان فيها جهاز شرياني من الثقوب تحت الماء، متفرعة في أعماق لا يسبر غورها أبداً. وكان الكثير من هذه الثقوب والفجوات، في هذا التغلغل المعقد تعقد ذنب الضبّ، جافًا حين يهبط ماء البحر. وفي وسع المرء أن يدخل إليها على مسؤوليته الخاصة.

وجيليات، على ضوء حاجاته في عملية الإنقاذ، مرغم على زيادة هذه الغيران والكهوف. وقد كانت كلها مخيفة مفزعة.

وفي مرّة من المرّات، نفذ جيليات مغامراً وباحثاً، داخل إحدى هذه الشقوق وكانت ساعة المد تتهيأ، واليوم جميل بهدوئه وشمسه. كما لم يكن من المنتظر حدوث حادث يمكن أن يعقد مثل هذه المغامرة الخطرة.

وهناك ضرورتان تدفعان جيليات إلى هذه الزيارة: البحث عن قطع الحطام النافعة لعملية الإنقاذ، وعن السراطين لغذائه، ذلك لأن الأصداف التي كان يتغذّى منها قد بدأت تندر في صخرتي دوفر.

كان الشقّ ضيقاً يكاد يكون المرور منه متعذراً. وجيليات يرى عبر هذا الشقّ ضوءاً في الداخل. فبذل جهداً، وطوى جسده ثم نفذ في الشق إلى أبعد حد ممكن.

وقد وجد نفسه على التحديد، دون أن يشك في ذلك، داخل الصخرة التي قذف كلوبان بالمركب دوراند نحو رأسها. لقد كان جيليات تحت هذا الرأس. وإذا به يجد أن الصخرة القاسية الجانبية في الخارج، مفزعة من الداخل. لقد كانت فيها غرف وردهات وآبار لكأنها قبر ملك في مصر. هذه الفراغات كانت من أعقد ما عرف منها في الصخور. إنها صنيع الماء، وحفر البحر الذي لا يكل ولا يتعب. ومن المحتمل أن تتصل هذه الفراغات بماء البحر في أكثر من مخرج واحد، بعضها فاغر منفتح عند سطح الماء، وبعضها الآخر أقماع عميقة. لقد كان كلوبان قد قذف بنفسه قريباً من هذا الجانب، وهو ما كان يجهله جيليات.

كان جيليات في هذا الشقّ، حيث لا خوف فيه، يزحف، ويصدم بجبهته، وينحني، ثم ينتصب، ويتعثّر بقدمه، ثم يثبتها فوق أرض جامدة، ويتقدّم بجهدٍ شديدٍ.

وأخذ هذا الممر الضيّق يتّسع شيئاً فشيئاً، وظهر ضياء قاتم، ثم وجد جيليات نفسه فجأة في كهف عجيب مدهش.

11

داخل بناء تحت البحر

لقد جاء هذا الضياء القاتم في وقت مناسب.

فلو خطا جيليات خطوة واحدة أخرى لسقط في ماء قد لا يكون له قعر أبداً. إن مياه هذه الكهوف هي من البرودة ومن الشلل المفاجئ، بحيث أن أقوى السبَّاحين يقون فيها على الغالب.

وتوقّف جيليات ثابتاً في مكانه. فالفجوة التي كان يخرج منها تنتهي، بنتوء ضيق لزج، وهو نوع من البناء القائم على عَقْد في جدار أملس.

واستند جيليات إلى الجدار وأخذ ينظر.

لقد كان في كهف كبير. وكان يعلوه شيء شبيه بداخل جمجمة ضخمة. وبدت هذه الجمجمة وكأنها قد شُرِّحت منذ زمن قريب. كان هذا الكهف مغلقاً من كل جوانبه. فلا كوّة، ولا نافذة، بل ولا شقّ في الجدار، أو في القبّة. والكهف كله مضاء من أدنى عبر الماء. لقد كان روعة ظلامية.

أما جيليات الذي كان قد تمدّدت حدقتاه أثناء اجتيازه لهذا الممر المظلم، فقد رأى كل شيء بوضوح في هذا الغسق.

كان يعرف كهوف بلامون في جرسي، و «كْرُوْمَايَا» في غرناسي، و«البوتيك» في سَرْك، وهو الذي زارها أكثر من مرة، ولكنه لم يجد واحدة من هذه الغيران الرائعة شبيهة بهذه الغرفة السردابية التي نفذ إليها تحت الماء.

كان يرى أمامه تحت الموج نوعاً من مركب غارق. هذا المركب الطبيعي الذي نحته الماء وصاغه، كان رائعاً بين صفين من

حجارته العميقة السوداء. ومن خلال هذا الباب الغائص يدخل الضياء إلى الكهف. إنه ضياء غريب يقدمه هذا الغوص المدهش.

لقد كان في هذا الكهف نور، ولكنه نور مجهول. ولم يكن فيه شيء من الضياء العادي الذي نعرفه. وفي وسع المرء أن يعتقد أنه قد انتقل إلى كوكب آخر. كان هذا الضياء سراً من الأسرار، حتى ليخيَّل إلينا أنه اللّهب الأخضر في حدقة أبي الهول، لقد كان هذا الكهف على صورة الجانب الداخلي لرأس ميت هائل رائع. فالقبة هي الجمجمة، والمركب هو الفم، أما محجرا العينين فغير موجودين. إن هذا الفم بابتلاعه المدّ والجزر ثم تقيؤهما، وبانفتاحه لنور الظهيرة في الخارج، كان يشرب النور ويقيء المرارة.

وهناك كائنات، ذكية وخبيثة، شبهة بذلك. أما الشعاع وهو يجتاز هذا الباب المغلق بكثافة زجاجية من ماء البحر، فقد كان يصبح أخضر اللون كشعاع «الألْدَابَارَانْ».

وكان الماء، الذي يغمره هذا الضياء، يبدو وكأنه زمردة ذائبة.

أما تموّجات الماء، التي تنعكس على سقف القبة، فكانت تتحلل ثم تتركب ثانية دون توقّف، توسّع من زرودها الذهبية أو تضيق منها في حركة راقصة خفية. وكان طائف شجي يخرج من هذا المشهد. وفي وسع الذهن أن يتساءل عمّا يضفي مثل هذا الفرح على هذه الشبكة الرائعة من النار الحيّة.

وكانت تتدلى من نتوءات القبّة وثقوب الصخرة نباتات طويلة دقيقة، يحتمل أن تكون جذورها مغمورة عبر الغرانيت في حوض مائي عال، وقد تساقطت من طرف كل منها، قطرة ماء بعد قطرة، بل لؤلؤة بعد لؤلؤة. هذه اللآلئ كانت تسقط في الهوّة يصاحبها ضجيج لطيف. والواقع أن تصوير هذا المجموع شيء لا سبيل إلى صوغه في ألفاظ

معينة. إنه لا يسع المرء أن يتخيل ما هو أروع من هذا المشهد، كما لا يسعه أن يلتقي ما هو أشدّ جهامة منه.

لقد كان شيئاً كما يكون قصر إله الموت السعيد.

12

ما نراه فيها وما نتخيّل رؤيته

إنه ظلّ يلمع، هكذا كان هذا المكان الرائع المعجب.

كانت خفقات البحر تتردّد في هذا الكهف. وكان حوض الماء الداخلي ينتفخ تارة ويضمر بتأثير الذبذبة الخارجية وبطريقة منتظمة انتظام التنفس. ويظن المرء أنه يرى في هذا الحجاب الحاجز الأخضر الكبير روحاً سرية خفية ترتفع في صمت وتنخفض.

كان الماء ساحراً في صفائه، وجيليات يرى فيه بوضوح، وعند أعماق متباينة، مساحات صخرية ناتئة ذات لون أخضر، تزيد قتامته كلما زاد عمقها. وهناك ثقوب قد لا يكون سبر غورها ممكناً أبداً.

وتبدو في جانبي الباب الغائص في الماء، انحناءات عقود وأقواس، ممتلئة بالظلمات، مشيرة إلى فجوات صغيرة جانبية، وهي الجوانب السفلى للكهف المركزي، وقد يكون الوصول إليها ممكناً في مراحل انخفاض البحر الشديد.

وكانت لهذه الفجوات والثقوب، سقوف منحنية، بزوايا متفاوتة الانفتاح. وهناك شطوط ضيقة لا يزيد عرضها على بضع أقدام، عرّاها البحر بحفرياته، كانت تغوص ثم تضيع معالمها في هذه الأشكال المنحرفة. وهنا وهناك أعشاب طويلة جداً تتموج تحت الماء كما يتأرجح الشعر ويتطاير في الهواء. لقد كانت ترى فيها غابات من النباتات المائية.

أما جدار الكهف من أعلى إلى أسفل، فوق الماء وتحته، وابتداءً من القمّة حتى ضياع معالمها في الخفي المجهول، فقد كان مغطى بأزاهير البحر الكثيفة، والتي يندر أن تراها العين البشرية. إنها عشب قوي، فيه كل خصائص الزيتون، يخفي ويُفَرِّع تضخم الغرانيت المرضي المتزايد. ومن كل مكان كانت تنبثق خيوط مقذوفات البحر الدقيقة، والتي يجعل منها الصيادون ميزاناً للأحوال الجوية. وكان نفس الكهف القاتم يحرك بقوّة هذه الخيوط اللامعة.

ويمتد على سطح الجدار الجانبي للكهف، قليلاً فوق مستوى المدّ البحري، نبات فريد رائع يتصل بزينة مقذوفات البحر وكأنه تطريز دائري، يكملها ويتابعها.

إن هذا النبات، الليفي، والكثيف يعرض على الناظر أحواضاً عريضة مضطربة وقائمة، غرست فيها من كل مكان أزهار كثيرة لا تعد ولا تحصى. وكانت هذه الأزهار تبدو وكأنها مضيئة، فيظن الرائي أنّ أمامه حجرات زرقاء. لقد كانت أزهاراً خارج الماء، ولكنها بواقيت زرقاء لازوردية تحته، بحيث أن الموجة المائية، في ارتفاعها وفي غمرها لجذور الكهف التي تغطيها هذه النباتات، كانت تغطي الصخرة بأحجار البَهْرَمان «الياقوت الحجري».

هذه الأزهار كانت تضيء عند كل موجة مرتفعة ارتفاع الرئة، ثم تنطفئ عند هبوطها، إنه شبه عجيب وحزين بالقَدَر نفسه. لقد كان شهيقاً، والشهيق هو الحياة، وكان زفيراً، والزفير هو الموت.

كان هذا الكهف، إن صح التعبير، كهفاً ذا طابع كوكبي، يتلقى فيه المرء كل ما للرعب من مفاجآت. أما النور الذي كان يملأ هذا السرداب فهو نور رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي. على أن المشاهد غير واثق من صحة ذلك. فأمام عينيه حقيقة واقعة مغلفة باللاممكن. إنه يراها، ويلمسها، ويجد نفسه فيها، ولكنه يصعب عليه أن يصدق نفسه.

هل كان ما يأتي من هذه النافذة تحت ماء البحر هو نور النهار؟

وهل ذاك الذي يرتجف ويضطرب في هذا الحوض القاتم هو الماء؟ أو ليست تلك العقود والأقواس والأبواب شيئاً من الضباب السماوي قد أتى يقلد صورة كهف؟ وما هو هذا الحجر الذي نقف فوقه؟ ألن يتفتت هذا الحامل تحت أقدامنا ويصبح دخاناً؟ وما هي هذه الجواهر من الأصداف التي نراها عبر الماء؟ وعلى أيّة مسافة نحن من الحياة، أو من الأرض أو من النَّاس؟ وما هي هذه المتعة الرائعة والممتزجة بهذه الظلمات؟ إنه انفعال غريب، يكاد يكون مقدساً، يضاف إليه قلق الأعشاب الرفيق في أعماق الماء.

وعند طرف الكهف، الذي كان مستطيل الأبعاد، وتحت نقش ناتئ في القسم العالي من حنية كحنية البناء العتيق الفسيح الضخم، «والمهندسة» هندسة دقيقة صحيحة، وفي فجوة لا تكاد تبدو تتضح أجزاؤها، وكأنها غار في غار، أو بيت القربان المقدس في المعبد، وراء موجة من الضياء الأخضر أسدلت كستارة هيكل، كان يرى خارج ماء البحر، حجر مربع الجوانب أشبه ما يكون بالمذبح. وكان الماء يحيط بهذا الحجر من كل ناحية. وكان يبدو أن آلهةً قد هبطت إليه منذ قليل. فلا يسع المرء الامتناع عن الحلم تحت هذا السرداب، وعلى هذا المذبح، بِعُزْيٍ سماوي يبعث على التفكير الخالد، والحلم في أن دخول رجل إليه جدير بأن يخسف هذا كله. لقد كان من الصعب أن يعي المرء هذه الحجيرة الجليلة دون إلهام داخلي. إن انبثاق هذا المشهد، الذي تبعثه يقظة حالمة، كان يعود إلى التكون النفسي بنفسه مرة أخرى، فهو انسياب من النور الخفر فوق أكتاف لا نكاد نراها، وجبهة مغمورة بضياء الفجر، وصورة بيضاوية لوجه أولمبي، ودوائر أثداء سرية، وأذرع عفيفة حييّة، وشعور متطايرة في نور الفجر، وخاصرتان يقف الوصف أمامهما عاجزاً هزيلاً، وقد

صنعتا من لون باهت في ضباب مقدس، وصور حورية من الجنان، ونظرة عذراء، بل فينوس خارجة من ماء البحر، أو حواء طالعة من فوضى الوجود. هكذا كان الحلم الذي كان يتعذر على المرء أن يمتنع عن صنعه. وقد كان من غير الواقعي ألا يكون هناك شبح. فمن المحتمل أن تكون في تلك الساعة على المذبح امرأة تامة العري. فعلى هذه القاعدة التمثالية التي تخرج منها نشوة فائقة الوصف، يتخيل المرء بياضاً حياً منتصباً على قدميه. ويستحضر الذهن، في وسط العبادة الخرساء لهذا الكهف، صورة لانغيتريت، أو تاتيس، أو ديانا، قادرة على الحب، تمثالاً للمثل الأعلى، صنعه شعاع وهو ينظر إلى الظلال نظرة رفق بالغ. لقد كانت هي نفسها، وقد تركت وراءها في الكهف، هذا الضياء، نوعاً من النور العطر خارجاً من هذا الجسد الكوكب. إن لمعان هذا الشبح لم يعد موجوداً، وصورته في الحقيقة لم تكن لتكون مرئية من العيون، بل صنعت لكي ترى من قبل الخفي المجهول فقط، ولكن المرء يحس بها، ويشعر بتلك الرجفة، التي هي إبداع في اللّذة. لقد كانت الآلهة غائبة، ولكن الألوهية حاضرة موجودة.

وكان يبدو أن جمال الكهف قد صنع لأجل هذا الحضور الإلهي.

والواقع أن هذا النفق العميق قد أحيط بسياج كامل من الجدران، كي لا يكون أي شيء من الخارج مصدر إزعاج للظلمة التي هو توقير واحترام، وللصمت الذي هو جلال مهيب، ظلمة وصمت يحيطان بهذا الشبح الإلهي، كل ذلك، أو هكذا نتصور على الأقل، بسبب هذا الإله، هذه الجنة من العروق اللؤلئية، وملكة الأنفاس هذه الروعة أخرجتها مياه البحر إلى النور، بسببها هي بالذات.

أما جيليات الذي كان من أصحاب الرؤى في الطبيعة، فقد كان

يحلم وفي أعماقه انفصال غامض.

وفجأة، وعلى بعد أقدام تحته، وفي الشفوف الجميل لهذا الماء، الذي كان أشبه بالحجارة الثمينة الذائبة، رأى شيئاً يعجز التعبير عن وصفه. لقد رأى أسمالاً طويلة من ثوب تتحرك في ذبذبة الموج. هذا الثوب لم يكن طافياً فوق الماء ولكنه يسير بقوّة دافعة، لقد كان له هدف معين، كان يتجه إلى مكان ما، سريعاً في تحركه. كما كانت هذه الأسمال شبيهة بصولجان في أعلاه قبعة، مع رؤوس كثيرة مدببة، وكانت هذه الرؤوس الرخوة تتموج، فتبدو مغطاة بغبار لا سبيل إلى ابتلاله. لقد كانت شيئاً أقبح من القبح الرهيب، لقد كانت وسخة. والوقع أنه قد كان في هذا المشهد شيء من الخيال، إنه مشهد كائن إنساني إلا إذا كان ظاهرة سحرية خادعة. كان هذا الشيء يبدو متجهاً نحو الجانب القاتم من الكهف ويغوص فيه. فأصبحت كثافات الماء قاتمة فوقه. وانزلق هذا الشبح ثم اختفى رهيباً مخيفاً.

الكتاب الثاني

العنـاء

1

موارد من ينقصه كل شيء

لم يكن هذا الكهف يطلق سراح الناس بسهولة، لقد كان الدخول إليه مزعجاً، أما الخروج منه فهو أشد إزعاجاً أيضاً. ولكن جيليات قد أخرج نفسه منه، ثم لم يعد إليه بعد ذلك أبداً. إنه لم يجد فيه ما كان في حاجه إليه، ولم يكن عنده من الوقت ما يسمح له بإشباع فضوله.

وانطلق يعمل في مصنع الحديد. كانت المعدات تنقصه، فراح يصنعها أيضاً.

كانت أجزاء الحطام هي وقوده، والماءُ هو المحرك، والرياح هي الكير، وقطعة من الحجر هي السندان، أما فنه فهو غريزته، وقوته هي إرادته.

وبدأ جيليات عمله هذا بحماسة بالغة.

وكان مرور الوقت يبدو وكأنه يضع فيه متعة خاصة.

وجاء شهر آذار، ولكن بصورة هادئة. وأخذت ساعات النهار تزيد. إن رقّة السماء، والرفق الواسع لحركات الفضاء الممتد، وصفاء الظهيرة، كل ذلك كان يبدو وكأنه يباعد بين كل نية سيئة. البحر مرح في ضوء الشمس. ولكن الرفق التمهيدي يقلل من سم الخيانات. هذا النوع من الرفق لم يكن يبخل به البحر أبداً. إن على المرء أن يكون على حذر منه حين يصله عمله به.

الريح قليلة، والكير المائي يعمل على أحسن صورة. والمزيد من الرياح يعرقل ولا يساعد.

كان جيليات يملك منشاراً، فصنع لنفسه مبرداً، فهو يقطع الخشب بالمنشار ويعالج المعدن بالمبرد، ثم أضاف إلى معداته يدي الحداد، الحديدتين: كماشة، ولاقطة. فالكماشة تشد، واللاقطة تحرك وتناور، إحداهما تعمل عمل قبضة اليد، والثانية تعمل عمل الإصبع. فالمعدات جهاز عضوي كامل. هكذا أخذ جيليات يصنع معداته المساعدة له شيئاً فشيئاً.

إن ممارسة هذه المهنة دون مساعد هي شيء أكثر من الإزعاج، ومع ذلك فقد استطاع جيليات أن يقوم بهذه المهمة. صحيح أنه كان يصنع قطعاً ذات كتل صغيرة، ولكنه كان في وسعه أن يحركها بيد مستعملاً بها لاقطة بينما يستعمل مطرقته باليد الأخرى.

لكن جيليات لم يكن يكلف نفسه كل هذا العناء، وسنرى ذلك.

وقد وجب عليه أن يعيد صنع فأسه وأسنان منشاره، وكان يستخدم في الوقت المناسب رافعة المركب دوراند. قد انكسر كلاّب السلسلة يوماً، فصنع كُلاَّباً آخر.

وحاول جيليات أن يفك عجلتي المركب، فتوصل إلى ذلك بفضل لاقطة وكماشة، وباستعانته بمقصه وكأنه مفك براغي. ولا ننسى أن فك هاتين العجلتين أمر ممكن، إنه خاصة من خاصات بناء هذا

النوع من العجلات. ثم صنع جيليات من ألواح الهيكل الخشبي الذي يغطي العجلتين صندوقين وضع فيهما أجزاء هاتين العجلتين بالذات في نظام دقيق ورقم كلاً منها. وكم كانت قطعة الطبشور التي يحملها مفيدة في عملية الترقيم هذه.

ثم وضع هذين الصندوقين فوق أثبت مكان من جسر المركب دوراند.

وبانتهاء هذه المقدمات، وجد جيليات نفسه أمام الصعوبة الكبرى. إنها معضلة الآلة التي تطرح أمامه.

كان فكُّ العجلتين شيئاً ممكناً، أما فك الآلة فلا.

أولاً: لأن جيليات لم يكن على معرفة تامة بأسرار هذه الآلة، فقد يحدث في بعض أجزائها وهو يفكه جرحاً لا سبيل إلى معالجته.

ثانياً: إنه لو قام بمحاولته الطائشة في فك أجزاء الآلة واحداً وراء الآخر، فإنه سيجد نفسه في حاجة إلى معدات غير تلك التي يمكن أن تصنع في كهف تَحَوَّل إلى مصنع للحديد، ورياح تحوّلت إلى كير، وحصوة أصبحت سنداناً. إن في محاولة فك الآلة خطر تمزيقها.

هنا يستطيع المرء أن يعتقد أنه يواجه ما لا سبيل إلى تنفيذه. لقد كان يبدو لجيليات أنه عند سَفْح جدار اسمه: اللاممكن. فما العمل؟

2

كانت لجيليات فكرته الخاصة

الواقع أنه لم يحدث ما هو مماثل لما كان يفكر جيليات في القيام به آنذاك، منذ أيام البنَّاء النجار في سالبري، في القرن السادس

عشر، حيث العلم في خطواته الأولى، وقبل أن يكتشف «امُونْتُون» قانون الاحتكاك الأول، و «لاهَيْرْ» القانون الثاني، و«كولومب» القانون الثالث، فيقدم هذا البنَّاء النجار، دون مشورة، أو قائد موجه، أو مساعد غير طفل واحد، وبمعدات بدائية، على وضع حلول مختلفة لخمس أو ست معضلات في ميداني التوازن والحركية متداخلين أحدهما في الآخر، حيث كلف بإنزال الساعة الضخمة لكنيسة «شاريته سور لوار».

أما العملية التي كان يحلم جيليات بالقيام بها فقد تكون أخطر من علمية هذا البنَّاء النجار، أي أجلّ منها وأروع.

فالوزن، والدقة، وتداخل الصعوبات، لم تكن في آلة المركب دوراند أقل منها في ساعة الكنيسة. وإذا كان للنجار الغوطي مساعد، هو ولده، فجيليات كان وحيداً.

وكانت هناك جماهير آتية من القرى المجاورة حتى أورليان، تستطيع عند الحاجة أن تساعد بناء سَالْبُرِيْ، وأن تشجعه بهتافاتها، أما جيليات فلم يكن من دمدمة حوله غير دمدمة الرياح، ومن جمهور غير جمهور الأمواج البحرية.

لا شيء يساوي خفر الجهل، إن لم يكن، جرأته. فإذا جرؤ الجهل فمعنى ذلك أن في أعماقه بوصلة هادية. هذه البوصلة هي إلهام الحقيقة، وهو في الأذهان البسيطة الساذجة أوضح منه في الأذهان المعقّدة.

الجهل يدعو إلى التجربة. الجهل هو يقظة حالمة، واليقظة الحالمة المتميزة بالفضول هي قوّة. المعرفة تثبّط الهمّة في بعض الأوقات، وتمنع صاحبها عن العمل في الغالب. إن «غاما» العالم كان جديراً بالتراجع أمام ما يسمى بـ «رأس العواصف». ولو كان «كولومب» عالماً ماهراً في الفلك، لما اكتشف القارة الأميركية أبداً.

ولو كان «غالفاني» عالماً حقاً، وكان يدرك ماذا تعنيه الصدمة في رجعتها، لما أثارت انتفاضة الضفدعة الميتة فضوله، ولما اكتشف هذه المجموعة من القوانين الرائعة التي أطلق عليها اسم «غَالْفَانِيْسْم».

إن الرجل الثاني الذي تسلق القمة البيضاء كان عالماً، «سُوْسَوْر»، أما الرجل الأول فهو أحد الرعاة، «بَالْمَا».

على أن هذه الحالات، ولنقل ذلك في هذه المناسبة، هي حالات استثنائية، وهي لا تقلل شيئاً من قيمة العلم، الذي يبقى هو القاعدة. إن في وسع الجاهل أن يجد، ولكن العالم وحده هو الذي يخترع. كان القارب ذو الكرش المنتفعة ثابتاً في الخليج الصغير لصخرة «الرجل»، حيث كان البحر يتركه في سلام. ونحن نذكر، أن جيليات قد نظّم كل شيء بحيث يستطيع التصرف حراً مع قاربه. وقد توجّه إليه، وراح يقيس فيه جسره العرضي الأفقي بعناية خاصة، وفي أمكنة كثيرة منه. ثم رجع إلى دوراند وأخذ يقيس القطر الأكبر لقاعدة الآلة. فوجد أن هذا القطر، دون عجلتيه طبعاً، هو أقصر من جسر القارب بقدمين اثنتين.

وإذن فالآلة تستطيع أن تدخل إلى القارب.

ولكن كيف يتمّ إدخالها إليه؟

3

إن أروع إنتاج لجيليات ينجد أروع إنتاج للاتياري

لو أنّ صياداً أصابه من الجنون ما دفعه إلى التردد في مثل هذا الفصل على هذه المناطق، وفي زمن قريب من ذاك الزمن، لكوفئ على شجاعته هذه بمشاهدة شيء فريد بين صخرتي دوفر.

وما كان سيشاهده هو: أربعة ألواح ثخينة صلبة، متباعدة على مسافات متساوية، تتجه من إحدى صخرتي دوفر إلى الأخرى. وقد ثبتت أطرافها في الصخرتين، فكانت أصلب ما تكون وأقوى.

أما فوق دوفر الصغيرة فقد ثبتت أطرافها بين النتوءات البارزة، وأما فوق دوفر الكبيرة، فقد وجب أن تكون هذه الأطراف قد غرزت بعنف شديد في الثقوب الوعرة بواسطة مطرقة يستعملها عامل قوي واقفاً فوق الجسر نفسه الذي يحاول غرزه. هذه الألواح كانت أطول قليلاً من المسافة التي تفصل بين الصخرتين، ومن هنا كانت صلابتها. وقد ربطت بالألواح الخشبية الأربعة أربع بكرات مضاعفة. وقد أرسلت منها حبال قوية تبدو من بعيد أشبه بالخيوط، وظهر المركب دوراند تحت هذه الألواح والحبال والبكرات وكأنه معلّق بالخيوط.

والحقيقة أنه لم يكن قد علق بها. ثم ظهرت ثمانية ثقوب عمودية تحت الألواح الخشبية وعلى ظهر المركب. أربعة منها إلى يسار الآلة، وأربعة إلى يمينها، ثم ثمانية ثقوب أخرى تحت الآلة في القسم المخصص للغوص.

وكانت الحبال الهابطة عمودياً من مجموعات البكرات الأربع تدخل في ظهر المركب، ثم تخرج في القسم المخصص للغوص، عبر ثقوب الجانب الأيمن من الآلة، ثم تمر تحت الآلة، وتدخل كرة أخرى إلى المركب عبر ثقوب الجانب الأيسر، ثم تصعد أخرى مجتازة ظهر المركب، لتعود مرة ثانية فتلتفّ حول بكرات الألواح الثخينة المثبتة بين الصخرتين، وقد جمعت هذه الحبال كلها في حبل واحد بحيث تستطيع يد واحدة أن تديره.

والواقع أن الحبال كانت خطرة جداً، وأن استعمال السلاسل الحديدية هو أشدّ أمناً، ولكن السلاسل هذه يصعب دورانها حول

البكرات الخشبية. والحقيقة أن هذا كله مليء بالأخطاء، ولكنه مدهشاً باعتباره صنع رجل واحد.

أما أعلى المدخنة فإنه كان يمر بين لوحي الوسط. وقد أعاد جيليات استعمال الطريقة التي توسلها نجار سالبري قبله بثلاثة قرون، دون أن يقصد إلى ذلك فينتحلها انتحالاً. والطريقة هذه طريقة بدائية غير صحيحة، وهي مخيفة حقاً لمن يقدم على الاستعانة بها.

ولنقل بهذه المناسبة أن أشد الأخطاء لا تمنع جهازاً من العمل والقيام بما صنع من أجله. الجهاز يعرج دون ريب، ولكنه يمشي في كل حال. والمعروف أن المسلّة القائمة في ساحة سان بيار من مدينة روما قد رفعت ونصبت بالاعتماد على قواعد تتناقض تناقضاً تاماً مع القواعد الصحيحة لفن التوازن. أما عربة القيصر بطرس فقد بنيت على طريقة تعرِّضها للانهيار والتعثّر في كل دقيقة من دقائق سيرها، ومع ذلك فقد كانت تسير في نجوة من كل خطر. وكم كان من الأخطاء البشعة في آلة مارلي! كل شيء فيها كان غير صحيح. ومع ذلك فقد كانت تقوم بواجبها فتقدم ماء الشرب للويس الرابع عشر.

ومهما يكن الأمر، فقد كان جيليات واثقاً من حسن صنيعه. وقد كان واثقاً من النجاح بحيث أنه استبق الحوادث فأثبت في جانبي قاربه، يوم ذهب يقيس جسره العرضي الأفقي، زوجين من حلقات الحديد، على الأبعاد نفسها التي تقوم بين حلقات دوراند الأربع، تلك التي كانت تتصّل بها سلاسل المدخنة الأربع أيضاً.

ولا ريب أنه قد كان لجيليات تصميم كامل واضح الحدود. وبما أن كل ظروف النجاة ضده، فقد كان يريد أن يتخذ من جانبه كل الاحتياطات الممكنة. كان يقدم على صنع أشياء تبدو غير مفيدة،

ولكنها علامة على تأمل وتدبير شديدي الانتباه.

وطريقته في العمل جديرة أن تثبّط همّة المراقب، حتى ولو كان هذا المراقب من العارفين، وقد سبق أن لاحظنا ذلك من قبل.

فلو أن شاهداً على أعماله قد رآه، مثلاً، يبذل جهوده الفائقة، متعرضاً لخطر الموت، لغرز ثمانية أو عشرة من المسامير الطويلة التي صنعها في مصنعه الحديدي، بواسطة المطرقة، لأدرك بصعوبة شديدة، سبب غرز هذه المسامير، وكان تساؤله عن الفائدة المنتظرة من هذا الجهد، شيئاً محتملاً.

ومن المحتمل أن تكون لدى جيليات أسبابه الخاصة.

ولكي يثبِّت جيليات المسامير في القسم الأدنى من صخرتَيْ دوفر، فإنه يحاول الاستفادة من شقوق الغرانيت الموجودة، وقد يوسِّعها عند الحاجة، ويغرز فيها مبدئياً، زوايا من الخشب، تكون بمثابة الأسافين، التي يدق فيها من بعد مساميره الحديدية. ويقوم جيليات بالتدبير نفسه في الصخرتين اللتين كانتا تنتصبان عند الطرف الآخر من مضيق الصخرة، في الجانب الشرقي. إنه يحيط كل الشقوق فيهما بهذه الأسافين، كما لو أنه كان يريد أن يُعدّ هذه الشقوق لاستقبال كلابات، لكن عمله هذا يبدو مجرد تدبير بسيط لأنه لا يغرز فيها مساميره. ويدرك المراقب أنه لا يستطيع، بسبب قلة وسائله، أن ينفق خاماتها الأولية إلاّ في حدود الحاجة الماسّة، وفي وقت الضرورة فقط. لقد كان هذا تعقيداً مضافاً إلى صعوبات أخرى.

كان إذا تحقّق عمل، برزت الحاجة إلى عمل آخر. فينتقل جيليات دون تردّد من واحد إلى آخر منجزاً بحزم شديد قفزاته العملاقة.

4

إن الرجل الذي كان يصنع هذه الأشياء قد أصبح مخيفاً

وكان جيليات، في غمرة هذا النشاط المتعدد، ينفق قواه كلها مرة واحدة، ثم يجدّد هذه القوى بصعوبة بالغة.

هناك حرمان من جهة، وإنهاك من جهة أخرى، فهزل بسبب ذلك. وقد طال شعره ونبتت لحيته. ثم لم يبقَ له غير قميص واحد لم يتحول إلى أسمال بالية. أما قدماه فعاريتان، لأن الرياح قد حملت معها أحد حذائيه، وحمل البحر الحذاء الآخر. وقد أحدثت شظايا سندانه الحجري البدائي، والشديد الخطر، جراحاً صغيرة في يديه وذراعيه، إنها أوحال العمل وآثاره. هذه الجراح، والخدوش، كانت سطحية، ولكن الهواء البارد والماء المالح كانا يهيّجانها.

لقد نزل به جوع وعطش وبرد.

لقد نقد الماء الحلو من وعائه. ودقيق الشيلم قد أكل أو استعمل. ثم لم يبق له غير قليل من البسكويت.

كان يكسر هذا البسكويت بأسنانه لأنه لم يكن يجد ماء يبله به. أخذت قواه تتضاءل قليلاً قليلاً، يوماً بعد يوم.

لقد كانت هذه الصخرة الرهيبة تنتزع الحياة منه.

فالشرب معضلة، والأكل معضلة، والنوم معضلة.

كان يأكل حين يتوصل إلى القبض على سرطان، وكان يشرب حين يرى عصفوراً يهبط فوق نقطة معينة من الصخرة. فيتسلق نحوها ويجد فيها فجوة تحتوي على قليل من الماء العذب. كان يشرب بعد العصفور أو معه، ذلك لأن طيور البحر قد تعوّدت عليه فلا تطير عند

اقترابه منها. والواقع إن جيليات لم يكن يسيء إليها حتى في أشدّ أوقات جوعه. لقد كان خرافياً بالنسبة للعصافير. والعصافير لم تعد تخافه، رغم شعره المتلبد الرهيب ولحيته الطويلة. إن تغير سحنته كان يطمئنها. إنها لم تعد ترى فيه إنساناً، بل حيواناً مثلها.

وهكذا أصبح جيليات صديقاً للعصافير. هؤلاء المساكين كانوا يتساعدون. فكان يضع لها فتات خبزه الذي يصنعه بدقيق الشيلم طالما بقي عنده شيء من هذا الدقيق، أما العصافير فقد كانت تدلّه، بدورها، إلى الأمكنة التي تحتوي على الماء العذب.

كان يأكل الأصداف النيئة، والأصداف، إلى حدّ ما، التي تكسر من حدّة العطش. أما السراطين، فقد كان يشويها، بين حجرين قد أحماهما بالنار على طريقة المتوحشين في جزر «فَارُوْوَا»، وذلك بسبب عدم وجود «قِدْرٍ» عنده.

وفي هذه الأثناء، هبط مطر قليل، ولكنه مطر مضرّ. فليس هناك فيض من الماء، أو وابل قد يحتفظ بقسم منه، بل هو عبارة عن إبر طويلة، دقيقة، مثلجة، ثاقبة، حادة، تنفذ في ثياب جيليات حتى بشرته، ومن بشرته حتى عظامه. هذا المطر لم يكن يعطي غير القليل من الماء للشرب ولكنه كان يبلل كثيراً.

بخلٌ في المساعدة، وكرمٌ شديد في الإشقاء، هكذا كان شأن هذا المطر. لقد استقبله جيليات بجسده خلال أسبوع كامل، نهارَه كله وليلَه كله. لقد كان هذا المطر عملاً خبيثاً من السماء.

لم يكن ينام ليلاً، في ثقب صخرته، إلا تحت ضغط الإنهاك الشديد. وكان بعوض البحر الكبير يأتي فيلدغه. فيستيقظ وقد غطي جسده بالبثور.

واشتعلت الحمى في جسده، مما كان يهبه المقاومة، فالحمى عون قاتل. وكان بدافع غريزي، يعلك ثمر الأُشْنة، وهو عشب هزيل

منتشر في شقوق الصخرة الجافة. على أنه كان قليل الاهتمام بآلامه. ولم يكن عنده من الوقت ما يسمح له بالانصراف عن عمله من أجله. لقد كانت آلة دوراند في حالة جيدة. وقد كان ذلك كافياً عنده.

وكانت ضرورات العمل، تفرض عليه أن يلقي بنفسه في الماء سابحاً، بين فترة وأخرى، ثم يعود إلى اليابسة. كان ينزل إلى الماء ويخرج منه، كما يمر الرجل في منزله من غرفة إلى أخرى.

لم تعد ثيابه تجفّ. لقد كانت مبتلّة بماء المطر الذي لا ينقطع وبماء البحر الذي لا يجفّ أبداً. كان جيليات يعيش في بَلَلٍ دائم.

والعيش في البللِ عادة قد يتعوّدها الإنسان. إن الجماعات الإيرلندية الفقيرة، شيوخاً، وأمهات، وفتيات شابات، عاريات تقريباً، وأطفالاً، يقضون الشتاء في الهواء الطلق تحت وابل من الأمطار والثلج، متلبداً بعضهم مع البعض الآخر عند زوايا المنازل في شوارع لندن، يعيشون ويموتون مبتلين.

الابتلال والعطش، هذا هو العذاب الذي يحتمله جيليات. لقد كان يعضّ كُمّ مريلته بين وقت وآخر. أما النار التي كان يشعلها فلم تكن تدفئه أبداً، فالنار في الهواء الطلق هي نصف مساعدة، فنحن معها نحترق من ناحية ونتجمد في الصقيع من ناحية أخرى.

إن جيليات الذي كان يتفصّد عرقاً كان يرتجف من البرد.

لقد كانت حوله إرادة خبيثة هائلة. ففي جسده حروق وقشعريرة. النار تعضّه، والماء يجمده، والعطش يعطيه الحمى، والريح تمزق ثيابه، والجوع يفجر معدته. لقد كان يستقبل ضغط مجموع من العوامل المنهكة. وكان جيليات يدرك، واعياً، وجود سهام قاتمة موجّهة نحوه، وحقد يبذل جهداً شديداً لإضعافه وإنهاكه. وكان هذا يجهده حتى يبلغ منه الجهد أقصاه. ويعصره، ويحرمه من مكان يطمئن إليه، ومن نفس يريحه. كان الخفي المجهول يحطمه.

واللولب السري ينفذ فيه بمقدار دورة واحدة في كل يوم.

لقد كان وضع جيليات في هذا الوسط المقلق شبيهاً بمبارزة غير قانونية يشترك فيها أحد الخونة. فتحالف القوى الغامضة يحيط به. وهو يحس أن في الجو تصميماً على التخلّص منه.

هكذا تطرد كومة من الثلج، كتلة موجودة في غير موضعها الطبيعي. كان هذا التحالف الكامن، دون أن تبدو عليه هيئة ملامسته تقريباً، يتركه في أسمال بالية، ويُنْزِف دمه، ويصيبه بضيق شديد، ثم يضعه خارج ميدان المعركة قبل خوض المعركة. ولكن جيليات لم يكن يضعف في عمله، فهو في عناد مستمر. والواقع أنه كلما تحقّق جزء من العمل، تهدّم جزء من العامل. حتى ليقال إن هذا الوحش الكاسر، «الطبيعة»، قد اختار، وهو الذي يخاف الروح، مهمة القضاء على الإنسان وإنهاكه. هذا وجيليات صامد ينتظر. كانت الهوّة قد بدأت تُرِثّه وتبليه. فماذا عساها تصنع بعد ذلك؟

إن صخرة دوفر المضاعفة، هذا التنين الذي صُنع من الغرانيت ونصب كميناً في وسط البحر، قد استقبل جيليات. لقد تركه يدخل ويعمل. لكن استقباله له أشبه بفخّ.

فالصحراء، والمدى، والفضاء، حيث تنتصب أمام الرجل عقبات كثيرة، والقسوة الخرساء للعناصر التي تتابع طريقها، والقانون الكبير العام في حزمه وسلبيته، والمدّ والجزر، والصخرة التي هي في الحقيقة مجموعة من الكواكب السوداء، كل رأس منها هو كوكب ذو دُرْدُوْر عاصف، ومركز لإشعاع التيارات المائية، وما لا تعرفه من مؤامرة اللامبالاة التي نجدها في أشياء الطبيعة ضد شجاعة كائن من الناس، والشتاء، والضباب، والبحر الذي يحاصر جيليات ويحيط به.. كل ذلك كان يضيّق عليه الخناق ببطء شديد، وينغلق عليه في نحو من الأنحاء، ويفصله عن الأحياء، كسجن ضيّق مظلم ترتفع

جدرانه حول رجل من الناس. كل شيء ضده، ولا شيء معه. لقد كان معزولاً، ومتروكاً، ومنهكاً ومنسياً. لقد فرغ بيت المؤونة عند جيليات، وفسدت معدات عمله، يطارده العطش والجوع نهاراً، والبرد ليلاً، جراح وأسمال، ومزق فوق سيول من القيح، وثقوب في الثياب وفي اللحم، اليدان ممزقتان، والقدمان داميتان، والأطراف هزيلة، والوجه أزرق اللون ضاربٌ إلى السواد، ونار في العينين.

اللهب الرائع، هو الإرادة المرئية. لقد صنعت عين الرجل على هذه الصورة لكي ترى فيها فضيلته. إن حدقتنا هي التي تقول لنا: أية كمية من الرجل في داخلنا. ونحن نبعث الثقة في أنفسنا بالنور القائم تحت حاجبنا. إن العقول الصغيرة تطرف بعيونها، لكن الكبيرة منها تطلق شُهُباً من البرق الخاطف. فإذا لم يلمع شيء تحت الجفن، فلا شيء يفكر في الدفاع، ولا شيء يحب في القلب. فمن أحد أراد، ومن أراد أضاء وانفجر. والتصميم يضع النار في النظر، ناراً معجبة تتألف من وقود الأفكار الحية.

العنيد هو العالي النبيل. فليس لمن كان جريئاً غير منفذ واحد، ولمن كان مقداماً غير مزاج واحد، ولمن كان شجاعاً غير فضيلة واحدة، أما العنيد المستمر في الحقيقة والحق فله العظمة الرائعة. إن سر القلوب الكبيرة هو في هذه الكلمة تقريباً: الاستمرار. فالاستمرار للشجاعة هو كما تكون العجلة للعَتَلَة «رافعة»، إنه التجديد المستمر لنقطة الارتكاز. إن الاتجاه نحو الهدف هو كل شيء، أكان هذا الهدف في الأرض أو في السماء، ففي الحالة الأولى، نكون كولومبس، وفي الحالة الثانية نكون المسيح. الصليب مجنون، ومن هنا كان مجده. بالحيلولة دون مناقشة الملكة الواعية ودون تثبيط الإرادة، هكذا نحصل على الألم، والانتصار. السقوط في الوقائع الأخلاقية، لا يعني عدم التجنيح في الفضاء. فالصعود يخرج من

السقوط. الضعفاء يتراجعون أمام الصعوبة العادية، أما الأقوياء، فلا. إن هلاكهم شيء ممكن، أما غزوهم المنتصر فشيء ثابت أكيد. في وسعك أن تجد «لأيتيان» كل نوع من أنواع الحجج والمبررات لكي لا يواجه عملية رجمه. إن احتقار الاعتراضات المنطقية هو الذي يلد الانتصار العلوي المغلوب والذي يسمى «الشهيد».

كانت جهود جيليات كلها تبدو وكأنها تتشبث باللاممكن، والنجاح فيها تافه، أو كامن خفي، وقد كان عليه أن ينفق كثيراً ليحصل على القليل، وهذا هو ما كان يجعله سَمِحاً نبيلاً، وما كان يجعله مؤثراً ومثيراً. وإذا كان على المرء أن يبذل مثل هذه الجهود التمهيدية، والأعمال، والمحاولات، وأن يقضي مثل هذه الليالي في العمل الشاق، ومثل هذه النهارات في الجهد المستمر، لكي ينصب أربعة ألواح خشبية ثخينة فوق سفينة غارقة، ولكي يقتطع، ويعزل من هذه السفينة، جزءها القابل للإنقاذ، ولكي يضع في هذا الحطام من الحطام أربع بكرات مضاعفة مع حبالها، فإن هذا الجهد هو البؤس الفائق في العمل الوحيد المعزول. هذا البؤس، لم يقبله جيليات فقط، بل أراده أيضاً. وبما أنه يخاف المنافس، والمنافس له هو الذي يسابقه للحصول على غرضه، فقد امتنع عن الاستعانة بمساعد له. لقد أخذ كل شيء على عاتقه. المحاولة الساحقة، الخطر المغامر، المهمة التي تتضاعف وتتكاثر بذاتها، والغرق المحتمل، الجوع، الحمى، العري، والانهيار الحزين. لقد كانت له هذه الأثرة.

لقد كان تحت نوع من أنواع الأجراس المفرّغة للهواء. فتنفصل عنه حيويته قليلاً قليلاً، ولكنه لا يكاد يلاحظ ذلك في نفسه.

إن استهلاك القوى لا يستهلك الإرادة، وليس الإيمان غير القوّة الثانية، والإرادة هي القوّة الأولى. والجبال من الأمثال التي يحملها الإيمان معه ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب ما تصنعه الإرادة. إن ما

يفقده جيليات من نشاطه، كان يستعيده بإرادته العنيدة. وإن هزال الرجل الجسدي تحت ضغط هذه الطبيعة المتوحشة ينتمي الرجل الأدبي. فجيليات لم يكن يحس تعباً، أو بعبارة أصح، لم يكن يوافق عليه. إن الروح التي ترفض الموافقة على تهالك الجسد هي قوّة هائلة.

وكان جيليات يرى تقدم عمله، ولا يرى غير ذلك.

لقد كان الرجل البائس دون أن يعرف ذلك. إن هدفه، الذي يكاد يبلغه، يفقده رشده. كان يتحمل كل هذه الآلام دون أن تمر في خاطره غير هذه الفكرة: إلى الأمام! إن عمله يصعد إلى رأسه ويملأه. فالإرادة تسكر. وفي وسع المرء أن يسكر من روحه.

ويسمى هذا السكر، بطولة.

لقد كان جيليات، أيوب البحر المحيط، في معنى من المعاني. ولكنه، أيوب، مقاتل، أيوب، مناضل، يجابه ضربات القدر، أيوب غاز، وإذا لم تكن مثيلات هذه الكلمات كبيرة جداً بالنسبة لبحار فقير، وصياد للسراطين وجراد البحر، فهو أيوب في شخص «بروميثيوس» الآلهي.

5

كان جيليات، في بعض الأوقات يفتح عينيه وينظر في الظلمة.

فيشعر بانفعال غريب.

العين مفتوحة على السواد. الموقف محزن، قلق شديد.

هذا، وضغط الظلمة قائم.

إنه سقف من الظلمات يستحيل التعبير عنه، بل ظلمة عالية لا يحتمل أن يكون لها غواص، ونور مختلط بهذه الظلمة، نور قاتم

مهزوم. إنه ضياء قد حول إلى مسحوق، فهل هو بذار؟ أم هو رماد؟ إن هناك ملايين من المشاعل، ولكن دون إضاءة، إنه احتراق واسع لا يكشف عن سره، إنه نار مبثوثة على صورة غبار يبدو وكأنه حفنة مجمدة من الشرارات، إنه فوضى العاصفة وجمود القبر، واللانهاية مقنعة بالسَّواد، هذا هو الليل.

هذا المزيج من كل الأسرار مرة واحدة، من السر الكوني كما هو من السر القدري، ينهك الرأس الإنساني ويتعبه.

ويعمل ضغط الظلام في اتجاه عكسي في مختلف الأجناس من الأرواح. والرجل أمام الليل يعترف بنقصانه. إنه يرى الظلمة ويحس عجزه. إن السَّماء السَّوداء، هي الرَّجل الأعمى. والرَّجل حين يواجه الليل، يسقط، ويركع، ثم يسجد، وينام على بطنه، ثم يزحف نحو ثقب من الثقوب، أو يبحث عن جناحين. فهو يريد دائماً أن يهرب من حضور المجهول الناقص. إنه يتساءل عن حقيقة ما يراه، وهو يرتجف، وينحني، ويجهل، وفي بعض الأوقات أيضاً، يريد أن يذهب إليه.

يذهب إلى أين؟ ـ هناك.

وهناك؟ ماذا هو؟ وماذا يوجد فيه؟

ذلك لأن هذا الفضول هو بالبداهة فضول الأشياء الممنوعة، إذ الجسور كلها من هذه الناحية مقطوعة حول الرجل. إن مركب اللانهاية مفقود. ولكن الممنوع يجذب، باعتباره هوّة عميقة. فحيث لا تتوجه القدم، يستطيع النظر، وحيث يقف النظر، يستطيع الذهن أن يتابع الذهن. ليس من رجل يمتنع عن التجربة والمحاولة مهما بلغ ضعفه، ونقصت كفايته. فالرجل، بمقتضى طبيعته هو في بحث دائم أو في توقف أمام الليل. فهو أمام البعض شيء كابت، وهو أمام البعض الآخر تمدد وتوسع. المشهد قاتم، واللامحدود ممتزج به.

هل الليل صاف شفاف؟ وإذن فخليفته ظلمة. أم هل هو عاصف؟ فخليفته من الدخان. اللامحدود يخفي ويقدم نفسه في الوقت نفسه، وهو منغلق أمام التجربة، منفتح أمام الافتراضات. إن لحظات من النور قد تجعل الظلمة أشد سواداً حين لا تكون لها خلفية. إنها يواقيت جمرية حمراء، وذبذبات متلألئة، وكواكب. أشياء موجودة وملموسة في المجهول، وتحديات مخيفة في التوجه إلى هذه الأنوار ولمسها. إنها جُدَدُ الإبداع في المطلق، وعلامات مسافة حيث لا تعود هناك مسافة، بل إنها نوع من ترقيم غير ممكن، وهو مع ذلك حقيقي، لضحولة الأعماق. نقطة ميكروسكوبية تتلألأ، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى: هي العالم الخفي، العالم الهائل. هذا النور هو موقد، هذا الموقد هو كوكب، هذا الكوكب هو شمس، هذه الشمس هي عالم، هذا العالم هو لا شيء. كل رقم هو صفر أمام اللانهاية.

إن هذه العوالم، التي هي ليست شيئاً، موجودة قائمة. وبملاحظة هذه العوالم، نشعر بالفرق بين ما ليس شيئاً، وما هو غير موجود.

إن ما لا نستطيع الاقتراب منه مضافاً إلى ما لا نستطيع النفاذ فيه، وما لا نستطيع النفاذ فيه، مضافاً إلى ما لا نستطيع تفسيره، وما لا نستطيع تفسيره مضافاً إلى ما لا بداية له، هو السَّماء.

من مثل هذا التأمل تخرج ظاهرة علوية: تنمية الروح بالروع المدهش. الرعب المقدس خاص بالرجل، والحيوان يجهل هذا الخوف. فالذكاء يجد في هذا الرعب الجليل خسوفه وبرهانه الدامغ.

الظلمة واحدة، ومن هنا كان الروع. وهي في الوقت نفسه معقدة، ومن هنا الجزع الشديد. إن وحدتها تثقل على ذهننا، وتنتزع الرغبة في المقاومة. وإن تعقدها يدفعنا إلى النظر في كل جهة حولنا، فيبدو لنا أن علينا أن نخاف من غزوات مفاجئة. فنستسلم ونحرس

أنفسنا. نحن أمام الكل الواحد، ومن هنا الخضوع، ونحن أمام الكثير، ومن هنا التحدي. إن وحدة الظلمة تحتوي الكثرة. وهي كثرة خفية، مرئية في المادة، محسوسة في الفكر. إن هذا يحدث صمتاً، وهو مبرر آخر لنا لنكون على حذر وأهبة.

الليل، هو الوضع الخاص السوي للخلق الخصوصي الذي نؤلف جزءاً منه. واليوم، قصير في الزمان والمكان.

والفيض الليلي الكوني لا يتحقق دون احتكاك، واحتكاكات آلة كهذه هي رضات ترض الحياة. إن احتكاكات الآلة، هي ما نطلق عليه اسم الشر. فنحن نحسّ الشر في هذه الظلمة، وهو تكذيب كامن للأمر الآلهي، وتجديف ضمني من قبل الواقع الثائر على المثل الأعلى. والشر يعقد المجموعة الكونية الواسعة، بخلق عجيب غريب له ألف رأس: والشر موجود لكل شيء لكي يحتج. فهو إعصار، يزعج سفينة، وهو فوضى، تعترض ولادة العالم. للخير وحدته، وللشر حضوره الكلي في كل مكان. إنه يجعل الذبابة فريسة للعصفور والكوكب السَّيار، فريسة للمذنّب. فالشر شطب للخلق والإبداع.

والظلمة الليلية مليئة بدوار. من تعمقها غرق فيها وتخبط. فلا تعب يقارن بامتحان الظلمات. إنه دراسة الأمحاء العادم.

والظلمة وحدة لا تتجزأ. إنها مسكونة. يسكنها المطلق دون تنقّل، ومسكونة أيضاً مع تنقّل. نتحرك فيها، وهو شيء مقلق.

اللامفهوم في كل مكان. أما اللامعقول فغير موجود. أضف إلى هذا كله السؤال الرهيب: هذا العالم المقيم هل هو الكائن الأكبر؟

نحن ننظر ونسمع تحت الظلمة. وفي هذه الأثناء تمشي الأرض وتدور، والأزهار تدرك هذه الحركة الهائلة، أن نبات السّلينوس يتفتح

عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، أما زهرة الفتنة فتتفتح عند الخامسة صباحاً. إنه انتظام دقيق رائع.

وفي أعماق أخرى تتحول القطرة من الماء إلى عالم، فالنّفاعيات تتكاثر بسرعة، والخصوبة العملاقة تخرج من الحُيَيْوِيْن الصغير، والخفي يعرض عظمته، والاتجاه المعاكس للامتداد الهائل يبدو ويظهر، أن مشطورة واحدة تنتج في ساعة واحدة ألف وثلاثمئة مليوناً من المشطورات.

أي عرض لأسرار الوجود في مرة واحدة!

إن الثابت الذي لا يتحول هو هنا.

نحن مرغمون على الإيمان. والإيمان بالقوة هو النتيجة الحتمية. ولكن الحصول على الإيمان غير كافٍ لإشاعة الطمأنينة. إن للأيمان حاجة غريبة إلى الشكل. ومن هنا كانت الأديان. فلا شيء أشد انهاكاً من عقيدة دون إطار.

ومهما يكن تفكيرنا، وتكن إرادتنا، ومهما تكن المقاومة التي نشتمل عليها، فإن النظر إلى الظلمة، لا يكون نظراً، ولكنه تأمل.

ماذا نصنع بهذه الظواهر؟ وكيف نستطيع أن نتحرك أمام تلاقيها عند نقطة مشتركة؟ إن تفتيت هذا الضغط أمر غير ممكن، وأي نوع من اليقظة الحالة نستطيع أن نتابع به هذه الاتجاهات الخفية؟ والظلمة صمت، ولكن هذا الصمت يقول كل شيء. إن حصيلة واحدة تخرج منها بجلال فائق، هي الله. الله، هو الكينونة التي لا تقبل ضغطاً. إنها في الإنسان. فالقضايا المنطقية، والمنازعات، والسلبيات، والمذاهب الفكرية، والأديان، هذه كلها تمر من فوقها دون أن تقلل منها. هذه الكينونة تؤكدها الظلمة كلها. ولكن الاضطراب يشيع في كل ما سوى ذلك. هذا حضور رهيب. إن تفاهم القوى الذي لا سبيل إلى التعبير عنه، يبدو بإبقاء هذه الظلمة كلها في عملية توازن. فالكون

معلّق، ولا شيء يسقط منه. والتنقّل المستمر الذي لا يخضع لقياس محدود، يحدث دون صدمة أو كسر. والإنسان يشارك في حركة التنقيل هذه، أما كمية الاهتزازات التي يتلقّاها، فإنه يسميها المصير. فأين يبدأ المصير؟ وأين تنتهي الطبيعة؟ وما هو الفرق بين حادث وفعل، بين حزن ومطر، بين فضيلة وكوكب؟ أليست الساعة موجة؟ والاحتباكات المتحركة ألا تتابع ثورتها المستعصية على كل انفصال، دون أن تجيب الإنسان؟ والسماء المضيئة بالكواكب هي رؤيا من العجلات، ومن رقاصات الساعة، ومن قوى توازنية. إنها التأمّل العلوي، يضاعفها تدبر علوي. هذه هي الحقيقة كلها، يضاف إليها التجريد كله. لا شيء وراء ذلك. فنحن نشعر بأننا قد أخذنا في كمين. ونحن تحت التصرف المطلق لهذه الظلمة. والهرب منها غير محتمل ولا ممكن. إننا نجد أنفسنا في وسط الاحتباك الكوني، فنحن جزء لا يتجزأ من كلّ مجهول، كما نحس بالمجهول الذي نحتويه في أنفسنا، يتآخى بصورة سرية مع مجهول نحتويه خارج أنفسنا. هذا هو الإعلان العاري عن الموت.

فأي قلق، وفي الوقت نفسه، أيّة فرحة عميقة! إنه التّعاون مع اللانهاية، وأن يكون المرء مشدوداً بهذا التعاون بحيث يمنح نفسه خلوداً ضرورياً. ومن يدري؟ إنه خلود محتمل، وإنه الشعور في الفيض من طوفان الحياة الكونية باستمرار الأنا التي لا تغرق أبداً! وأن تنظر إلى الكواكب ثم تقول: إنني روح مثلك! وأن تنظر إلى الظلمة ثم تقول: إنني هوّة هائلة مثلك!

هذه العظمات كلها، هي الليل.

كل ذلك، كان يثقل فوق جيليات، وقد زادته الوحدة نمواً.

فهل كان يفهمه؟ لا.

وهل كان يحس به؟ نعم.

لقد كان جيليات ذهناً كبيراً قلقاً، وقلباً متوحشاً كبيراً.

6

جيليات يتيح مكاناً لقاربه

إن إنقاذ الآلة، الذي أعدّه وتدبّره جيليات، كان، كما قلنا سابقاً، هروباً حقيقيًا، ونحن نعرف صعوبات هذا الهروب وشدائده. كما نعرف مهمّاته أيضاً. والمهمّة قد تبلغ حد المعجزة، والصبر الشديد يبلغ حد الحشرجة. فالسجين، توماس، مثلاً، في مون سان ميشال، قد وجد الوسيلة لحشر نصف الجدار في كيس فراشه. وهناك سجين آخر في تول، عام 1820، توصل إلى قطع الرصاص في ردهة السجن. فبأية سكين قطعه؟ إنه لا يسعنا أن نحزر ذلك. وقد أذاب هذا الرصاص، ولكن بأية نار أذابه؟ نحن نجهل ذلك. ثم صب هذا الرصاص الذائب، ففي أي قالب قد صبه؟ نحن نعرف أن هذا القالب هو قشرة رغيف من الخبز، ثم صنع بهذا القالب وذاك الرصاص، مفتاحاً، وبهذا المفتاح فتح قفلاً لم ير منه غير ثقبه. هذه المهارات العجيبة كان جيليات يملك شيئاً مثلها.

وكان سجّانه الذي هو البحر يراقبه.

ولنعترف بعد ذلك، أنه قد أفاد من المطر بالغاً ما بلغ من العقوق والخبث. لقد استطاع أن يضمن إلى حد قليل مؤونته من الماء الحلو، ولكن عطشه كان عصياً على الري بحيث أنه كان يفرغ وعاء الماء بالسرعة التي كان يملؤه بها.

وفي يوم من الأيام، وهو اليوم الأخير من نيسان، فيما أعتقد، أو اليوم الأول من أيار، أصبح كل شيء جاهزاً للعمل.

وبدت قاعدة الآلة وكأن قد أحيط بها تقريباً بين الحبال الثمانية ببكراتها المضاعفة، أربعة من جانب، وأربعة من جانب آخر. وكان

الجزء من حيزوم المركب الذي تعلوه الآلة مقطعاً من جهاته الأربع ومستعداً للانزلاق مع الآلة وهو ممسك بها. هذا الجهاز المخيف كله لم يعد متصلاً إلاّ بسلسلة، هي بدورها مرتبطة بضربة من المبرد. إن العجلة عند هذه النقطة من التمام، هي في الحقيقة حكمة وتعقل.

المدّ منخفض، وهو الظرف المناسب.

وقد توصّل جيليات إلى فك جذع العجلات الذي قد يصبح طرفاه عقبة تحول دون الإقلاع والانزلاق. ثم نجح في ربط هذه القطعة الثقيلة في قفص الآلة نفسه.

لقد سبق أن قلنا: إن جيليات لم يكن تعباً، ولم يكن يريد ذلك، ولكن معداته كانت متعبة. وعمله كاد يقارب النهاية. أما مصنعه الحديدي فقد أصبح عاجزاً عن العمل، وأما سندانه الصخري فقد تشقق. أما الكير فقد بدأ يسوء عمله. وبما أن شلاله المائي الصغير هو شلال ماء من البحر، فقد تكونت تجمعات ملحية في مفاصل الآلة، وأخذت تزعج حركتها.

وذهب جيليات نحو مرسى الصخرة «الرجل» واستعرض قاربه ذا الكِرش المتفخة، وتأكد من أن كل شيء فيه في حالة جيدة، خصوصاً الحلقات الأربع المثبتة في جانبي القارب، ثم رفع المرساة، وأخذ يجذّف، وعاد بالقارب إلى صخرتي دوفر.

وكان ما بين الصخرتين كافياً لاحتواء القارب. لقد كان فيه ما يكفي من العمق وما يكفي من السعة. وكان جيليات قد أدرك منذ اليوم الأول في الإمكان دفع القارب إلى ما تحت المركب دوراند.

ومع ذلك فقد كانت المناورة مفرطة الدقة. كانت تقتضي دقّة الجواهري، وإدخال القارب في الصخرة هو من الصعوبة، لتحقيق ما كان يريد جيليات تحقيقه، بحيث يفرض عليه بالضرورة أن يدخل بالقارب من مؤخرته، تتقدمه الدفة. وكان من المهم أن يبقى صاري القارب خارج الحطام من جهة المدخل.

هذه التعقيدات في المناورة جعلت عميلتها مزعجة حتى بالنسبة لجيليات نفسه. والمسألة لم تعد كما هو الشأن في مرسى الصخرة «الرجل»، مجرد ضربات بالمجذاف، لقد كان من الواجب في الوقت نفسه، أن يدفع القارب ويجذبه، ويسبر غور الماء، ويجذف. فلم يتوصل إلى تحقيق ذلك بأقل من ربع ساعة، وقد فعل.

وهكذا وضع القارب تحت دوراند خلال ربع أو ثلث ساعة. كان القارب يربط في هذا المكان ربطاً. وأنزل جيليات في قاربه الصندوقين اللذين يحتويان على أجزاء العجلتين المفكوكتين، بواسطة عتلة الرافعة. فكان هذان الصندوقات بمثابة «صابورة» للقارب.

لقد أصبحت نقائص هذا القارب، بالنسبة لتدبير جيليات، ميزات له، إنه لم يكن فوقه جسر معوق، بحيث يجد الحمل قدراً أكبر من العمق فيستقر في قاع القارب. أما الصاري فهو منتصب في القسم الأمامي بل هو شديد القرب من هذا القسم، بحيث يجد الحمل حرية في الحركة، بالإضافة إلى أن الصاري قائم خارج حطام المركب، وهو شيء يحول دون الخروج، لقد كان القارب على شكل حذاء، وليس في البحر ما هو أثبت من الحذاء وأصلب.

وفجأة، لاحظ جيليات أن البحر يرتفع. فراح ينظر نحو مصدر الرياح.

7

وفجأة بدا الخطر

النسيم قليل، لكن الرياح التي تهبّ، كانت تهبّ من الغرب إنها عادة سيئة تتميّز بها الرياح فتختار في فترة التعادل بين الليل والنهار.

والبحر الصاعد، تبعاً للرياح الهابة، يبدو على شكل متباين في صخرة دوفر. فيدخل الموج إلى هذا الممر من الشرق أو من الغرب، تبعاً للرياح التي تدفعه. فإذا دخل الموج من الشرق، فهو جيد ورضي، أما إذا دخل من الغرب فهو ثائر عاصف. والسبب في ذلك هو أن رياح الشرق الآتية من اليابسة، تكون فاترة النفس، أما رياح الغرب، التي تجتاز الأطلنتيك، فتحمل معها هبوب المفازات البحرية الهائلة. حتى أن القليل من النسيم الظاهري، يبعث على القلق، حين يأتي من الغرب. إنه يدحرج ألسنة الامتدادات البحرية اللامحدودة، ويدفع الكثير من الموج مرة واحدة في هذا العنق الضيق.

إن الماء الذي يغوص مخيف دائماً. وهو يكوِّن جمهرة من الماء، فالكثرة الهائلة شيء مائع، وإذا كانت الكمية القادرة على الدخول أقلّ من الكمية التي تريد أن تدخل، حدث الانسحاق لهذه الجمهرة، وكان التشنّج في الماء. وما دامت رياح الغرب مسيطرة، حتى ولو كانت نسيماً، فصخرتا دوفر تستقبلان الحملة في كل يوم مرتين. ويرتفع البحر، ويضغط المد، وتقاوم الصخرة، ثم لا ينفتح العنق إلا في بخل شديد، فيزأر الموج المدفوع بقوّة، ويقفز، وتقصف الموجة الغاضبة الجوانب الداخلية من الممر، بحيث أن صخرتي دوفر تعرضان هذا المشهد الفريد، عند أقل ريح تهبّ من الغرب.

في هذه الحالة يكون في البحر الخارجي هدوء، وفي الصخرة إعصار. وليس في هذه الجلبة المحلية المحدودة شيء من العاصفة. إنها ليست غير قطعان من الأمواج، ولكنها رهيبة. أما فيما يتعلق بالرياح الهابّة من الشمال والجنوب فإنها تصيب الصخرة عَرُضاً فلا تحدث غير القليل من ردّة الموج في داخل الممر الضيق. ومن الواجب أن نذكر، بأن المدخل من الشرق، يتاخم الصخرة «الرجل»،

أما فتحة الغرب الرهيبة فهي تماماً بين صخرتي دوفر.

في هذه الفتحة الغربية، كان جيليات مع دوراند العالق، والقارب المربوط بإحكام.

الكارثة تبدو حتمية. وكان لهذه الكارثة الموشكة على الوقوع، ما يكفيها من الرياح، وإن كانت بكمية ضئيلة.

كان انفتاح البحر الصاعد، قبل ساعات قليلة، يتجه في معركة عنيفة نحو مضيق دوفر. وكانت ألسنة الماء الأولى قد بدأت تضج. هذا الانفتاح، الذي هو ثمرة تيار مقاوم للمحيط الأطلنطي كله، يحمل وراءه جملة هذا البحر. لا عاصفة هناك، ولا ثورة، بل موجة طاغية مسيطرة تحمل في داخلها، قوّة دامغة، طول قناتها القاذفة ألفا ميل، آتية من أميركا لتصل إلى أوروبا. إن هذه الموجة، عارضة المحيط العملاقة، تتقي نتوء الصخرة، فتتغضن أمام صخرتي دوفر، عند أبراج مدخليهما، وركائز المضيق فيهما، ينفخها المدّ، وينفخها الحاجز الصخري القائم أيضاً، وتدفعها الصخرة، ثم يرهقها النسيم، فتعنف وتثور، وتندفع، مع كل هيجان الموجة المعترضة، بين الجدارين، فنجد فيهما القارب ذا الكِرش المنتفخة والمركب دوراند، وتحطمهما.

إن الاستعانة بمجنٍّ أمام مثل هذا الحادث المرتقب ضرورية. وكان جيليات يملكه.

كان من الواجب منع المدّ البحري من النفاذ إلى الداخل دفعة واحدة، وكان الواجب أيضاً منعه من أن يصدم كل شيء مع تركه يصعد ويرتفع ثم وضع العوارض في طريقه دون منعه من الدخول، فتقاومه ونستسلم له، ونتنبه لضغط الموج عند عنق الصخرتين، الذي هو مصدر الخطر كله، ثم إبدال عملية الاعتراض بعملية الإدخال، ثم انتزاع الثورة الوحشية من الموجة، وتحويلها إلى حركة هادئة لطيفة. لقد كان من الواجب استبدال العقبة المهدئة، بالعقبة المثيرة.

واستطاع جيليات بما كان يملك من المهارة، التي هي أقوى من القوّة أن يرفع سياجاً مقاوماً للمدّ البحري، وأن يغلق المضيق بين الصخرتين كما لو أنه استعمل باباً لهذه الغاية. لقد ناور كغزال في الجبل أو قرد في الغابة، مستعيناً لخطواته المتذبذبة والمدوِّخة بكل نتوء حجري، قافزاً في الماء، خارجاً منه، سابحاً في الموج المضطرب، متسلّقاً الصخرة، وبين أسنانه حبل، وبيده مطرقة، فاكاً الحبل الضخم الذي كان يمسك جزءاً من الجدار الأمامي للمركب دوراند، معلقاً ومشدوداً إلى قاعدة صخرة دوفر الصغيرة، صانعاً بأطراف من الحبال أنواعاً من الرزات تشد وتصل هذا الجدار الخشبي بالمسامير الغليظة المثبتة في الصخر الغرانيتي، محركاً على الرزات هذه الدرع من الألواح الخشبية الشبيهة بعارضة من عوارض السدود، رافعاً إياها على صورة معترضة للموج الذي يصطدم بها، كما يصنع بعارضة الدفة، مثبتاً أحد طرفيها في صخرة دوفر الكبيرة بينما تمسك الرزات طرفها الثاني وتشده إلى صخرة دوفر الصغيرة، مثبتاً طرفها في الصخرة الكبيرة بمسامير غليظة، تماماً كما فعل في الصخرة الصغيرة، محكماً ربط هذا اللّوح الخشبي الواسع بقوّة، بركيزة العنق الصخري المضاعفة وقد مدّ، لمزيدٍ من الإحكام في الربط وراء هذه العارضة الخشبية، سلسلة أشبه ما تكون بحمالة السيف الممدودة فوق الدرع. وقد تحقق هذا كله في أقل من ساعة.

إن هذا اللوح الثقيل، الذي كان يمكن أن يكون طوفاً في البحر حالة انبطاحه، وجداراً في حالة انتصابه، قد بني، بمساعدة الموج، من قبل جيليات بمهارة بهلواني مشعبذ.

بل نكاد نقول: إن هذا البرج قد بني قبل أن يجد البحر الصاعد وقتاً كافياً لملاحظة ذلك.

وفكّر جيليات بقاريه بعد إغلاق المضيق. فمدّ لمِرْساتَيْه ما

يكفيهما من الحبال لكي يرتفع مع المدّ البحري. والواقع أن جيليات لم يفاجأ في هذا كله. لقد كان الحادث منتظراً.

وفي هذه الأثناء كان المدّ قد تضخّم، وفي هذه البرهة بالذات تستطيع صدمات موجات المدّ، حتى الهادئة، أن تكون قاسية. لقد تحقق كل ما قدّر جيليات من التدابير والخطط. لقد كان الموج يتدحرج عنيفاً نحو السد القائم، فيصطدم به، وينتفخ، ثم ينساب تحته.

لقد كانت الموجات الصاخبة في الخارج، أما في الداخل فلا يوجد غير انسياب وتسلّل. وهكذا هزم المدّ البحري.

8

كان هناك موقف جديد لا حلّ نهائي

وجاءت الفترة المخيفة.

والقضية الآن هي قضية وضع الآلة في القارب.

وفكّر جيليات قليلاً، واضعاً مرفق ذراعه اليسرى في يده اليمنى، وممسكاً جبهته بيده اليسرى.

ثم صعد إلى الحطام، الذي يجب أن ينفصل عنه جزء منه، هو الآلة، ويبقى فيه جزء آخر، هو الهيكل.

وقطع الحبال الأربعة التي كانت تثبت في جانبي المركب دوراند سلاسل المدخنة الأربع، بسكينه.

وتدلّت السلاسل الأربع، التي حلّت أربطتها، على امتداد المدخنة. ثم صعد من الحطام إلى الجهاز الذي بناه بنفسه، ليتأكّد من أن كل شيء فيه هو في حالة جيدة، وأنه قادر على المقاومة، ثم قفز

منه إلى جسر المركب، واتخذ فيه مكانه، قريباً من الرافعة، وفي الجزء من دوراند الذي يجب أن يبقى معلقاً بصخرتي دوفر. لقد كان هناك مركز عمله. وبعد أن أرسل نظرة أخيرة إلى البكرات المضاعفة، وقد اجتاحه القَدْرُ النافع من الانفعال، أمسك بالمبرد، رصيناً وقوراً، وأخذ ينشر به السلسلة التي علّق بها كل شيء.

كان صرير المبرد يسمع في دمدمة البحر.

وكانت سلسلة الرافعة في متناول يده.

وفجأة حدثت قضقضة. لقد انكسرت الحلقة التي كان يعضها المبرد بعد أن نشر نصفها، فأصبحت الآلة كلها معلقة. وصدمت السلسلة المنكسرة جدار الصخرة، أما الحبال الثمانية فقد توترت، وانفصلت الكتلة المنشورة بكاملها من الحطام، وانفتح بطن دوراند، وظهرت قاعدة الآلة الحديدية تحت حيزوم المركب.

جيليات واقف، وقبضته ممسكة بالرافعة، لقد كانت يده كما يقال على نبض الجهاز الذي صنعه.

وهنا ظهر اختراع جيليات.

لقد حدث به تلاق عجيب بين القوى المختلفة.

وبنما كانت آلة دوراند، المنفصلة عن كتلة المركب، تنزل نحو القارب، كان القارب يرتفع نحوها. فالحطام والقارب المنقذ كانا يتبادلان العون في اتجاه عكسي، فيقترب أحدهما من الآخر. لقد كان يبحث أحدهما عن الآخر لتوفير نصف العمل.

لقد كان المدّ المنتفخ دون ضجة بين صخرتي دوفر، يرفع القارب ويقربه من دوراند. وبدا المدّ مروضاً أكثر منه مهزوماً. وكان البحر المحيط يشارك في إتمام هذه المهمة.

الموج الصاعد يرفع القارب بروية دون صدمة، بل يكاد يفعل

ذلك في حذر وحيطة كما لو أن القارب من البورسلين.

أما جيليات فقد كان يوازن بين العملين، عمل الماء، وعمل الجهاز ويضبط بطء النزول على بطء الصعود، وهو جامد أمام الرافعة، وكأنه تمثال مخيف تطيعه كل الحركات مرة واحدة.

وفي الوقت الذي توقّف فيه المدّ عن الارتفاع، توقّفت الحبال عن التكبّب. وفجأة توقفت البكرات عن الحركة دون ارتجاج.

واتخذت الآلة مكانها من القارب، وكأن يداً قد وضعتها هناك. لقد بدت فيه منتصبة، جامدة، صلبة. وكانت قاعدتها الحديدية مركوزة بزواياها الأربع في قاع المركب.

وقضي الأمر. فنظر جيليات كالمأخوذ عن نفسه.

إن هذا المخلوق المسكين لم يفسده الفرح. لقد شعر بالتواء سعادة هائلة. لقد شعر بأعضائه كلها تنحني، وأخذ يرتجف أمام انتصاره، وهو الذي لم يبدُ عليه الاضطراب حتى تلك الساعة.

وراح يتأمّل القارب تحت الحطام، والآلة في القارب. كان يبدو وكأنه غير مصدّق. وكان يظن أنه لم يكن ينتظر ما صنعه. إن أعجوبة خرجت من بين يديه، فهو ينظر إليها في دهشة شديدة.

واستمر هذا الذهول قليلاً.

ثم ندت من جيليات حركة من عاد إلى اليقظة، وانقضّ على المنشار، فقطع الحبال الثمانية، ثم قفز نحو القارب الذي كان يبعد عنه بفضل المدّ عشرة أقدام فقط، ثم أخذ لفيفاً من الحبال، واقتطع منها أطوالاً أربعة، أنفذها في الحلقات التي أعدها من قبل، وأثبت سلاسل المدخنة الأربع في جانبي القارب.

وبعد أن ربطت المدخنة، حرر جيليات الجزء الأعلى من الآلة. فقد كانت تتصّل به قطعة من جسر دوراند الخشبي. وانتزع جيليات

مساميرها، فأخلى القارب من هذه الألواح واللاطات الخشبية، المزعجة بعد أن قذف بها نحو الصخرة.

بقي أن نقول: إن القارب كما كان منتظراً قد ثبت بصلابة وقوة تحت حمل الآلة الشديد. ولم يغص من القارب في الماء غير جزء ضئيل. فآلة دوراند رغم ثقلها كانت أقل ثقلاً من أكوام الحجارة والمدفع التي حملها القارب قبل ذلك من هَارْمْ.

وإذن فقد انتهى كل شيء. ولم يبق إلا الرواح

9

استرجاع النجاح بُعَيد عطائه

الحقيقة أنه لم ينتهِ كل شيء. إن فتح العنق الصخري الذي كانت تغلقه قطعة خشبية من المركب دوراند، ثم الاندفاع بالقارب إلى خارج الصخرة، هو الهدف الآن. الدقائق كلها هامة في البحر. كان القليل من الرياح يبشر بليلة جميلة، لا سيما وأن تجعيدة واحدة في الماء لا تكاد تبدو للرائي يومذاك، بالإضافة إلى أن الأمسية قد كانت أمسية حلوة. البحر مرتفع ممتد، ولكن الجزر قد بدأ يظهر وينتشر، والبرهة مناسبة جداً لمغادرة هذا المكان. وبذلك يستفاد من البحر الهابط عند مغادرة صخرتي دوفر، ومن البحر الصاعد عند الوصول إلى غرناسي. وفي وسع القارب أن يصل إلى سان سامبسون عند شروق الشمس.

ولكن عقبة غير منتظرة قد ظهرت. لقد كان في تقديرات جيليات وخططه نقص ظاهر.

لقد كانت الآلة حرّة من كل قيد، أما المدخنة فلا.

إن المدّ البحري، بتقريبه القارب من الحطام المعلّق في الهواء، قد قلّل من خطر نزول الآلة واختصر عملية الإنقاذ، ولكن هذا التقصير في المسافة قد ترك الجزء الأعلى من المدخنة نافذاً في الفتحة الفاغرة التي كانت تبدو في هيكل دوراند. وبذلك أصبحت المدخنة وكأنها أسيرة جدران أربعة.

لقد كانت الخدمة التي قدّمها الموج الصاعد، تتعقد بهذا النفاق. ويبدو أن البحر الذي أرغم على الخضوع، قد بيّت في ذهنه أمراً.

والصحيح أن ما كان المد قد صنعه، فإن الجزر سيهدمه.

لقد كانت المدخنة في جزئها الأعلى تغوص في هيكل المركب دوراند ثمانية أقدام، وبما أن مستوى الماء سينخفض اثنتي عشرة قدماً بعد الجزر، فإن المدخنة التي تهبط مع القارب فوق الموج المتضائل، سيستفيد من أربع أقدام من الفراغ وتبتعد عن الحطام.

ولكن، إلى كم من الزمن تحتاج عملية التحرّر هذه؟ ست ساعات.

وبعد ست ساعات يكون الليل قد انتصف تقريباً. فما هي الوسيلة التي نتوسلها لتجربة الخروج في مثل هذه الساعة، أي ممر ضيق نستطيع أن نسير فيه عبر كل هذه الصخور أثناء النهار، وكيف نخاطر في وسط الليل البهيم في مثل هذا الكمين من الصخور الخفية؟

لقد كان الانتظار حتى اليوم التالي ضرورة لازمة. إن هذه الساعات الست الضائعة قد ضيّعت في الحقيقة ضعفها على الأقل.

حتى أنه قد كان من الواجب ألا يقدم على فتح عنق الصخرة. فسيكون هذا السدّ القائم ضرورياً في المدّ القادم.

واضطر جيليات للاستراحة.

إن تشبيك الذراعين، هو الشيء الوحيد الذي لم يكن بعد قد فعله جيليات منذ كان في صخرة دوفر.

لقد أثارته هذه الراحة الإجبارية وأسخطته تقريباً، كما لو أنها كانت بخطأ منه. لقد كان في نفسه: وماذا عسى داروشات تقول عني، لو رأتني هنا لا أعمل شيئاً؟

ومع ذلك فإن هذا الاستجمام لم يكن بلا فائدة.

لقد كان القارب في مركزه الطبيعي، فقرر أن يقضي ليله فيه.

وانطلق باحثاً عن جلد الخروف الموجود في الصخرة الكبيرة، ثم عاد أدراجه، وتناول عشاءه، وشرب بعد عطش شديد، الجرعات الأخيرة من مائه الحلو الباقي في الوعاء. وأحاط نفسه بجلد الخروف، الذي بعث فيه صوفه لذّة فائقة، واستلقى ككلب الحراسة قرب الآلة، ثم نام. وكان نومه عميقاً. وكم يستمتع المرء بمثل هذا النوم بعد أن ينتهي من أعماله.

10

تحذيرات البحر

واستيقظ في وسط الليل، بصورة مفاجئة، كما لو أن نابضاً قد دفعه دفعاً. ثم فتح عينيه.

فوجد فوقه صخرتي دوفر مضيئتين، كما لو أن هذا الضياء هو انعكاس حجرة كبيرة بيضاء. لقد انتشر فوق واجهة الصخرة السوداء شيء كانعكاس اللهب.

فمن أين كانت تأتي هذه النار؟

من الماء.

لقد كان البحر مدهشاً.

وكان يبدو أن الماء يحترق. كان البحر كله يلتهب على امتداد النظر في داخل الصخرة وخارجها. ولم يكن هذا الاحتراق أحمر اللون، بل لم يكن فيه شيء من اللهب الحي الهائل لفوهات البراكين أو الأفران المشتعلة. فلا احتدام، ولا حرارة، ولا أرجوان ولا ضجة. لقد كانت هناك خيوط تميل إلى الزرقة وتقلد فوق الموج تغضنات الكفن. إنها لهب عريض باهت يرتعد فوق الماء. إنها ليست حريقاً، ولكنها طيف حريق. إنها شيئاً كالضرام المائل إلى الزرقة الشديدة في داخل ضريح يلهب من الحلم.

لنتصور ظلمات مضيئة.

كان الليل، الليل الواسع في شيوع مختلج، يبدو وكأنه وقود هذه النار الجليدية. إنها ضياء صنعه العمى. والظلام يشترك في صنع هذا النور الشبح كعنصر من عناصره.

إن بحارة المانش كلهم، يعرفون هذه الأنواع من الإضاءة الفائقة الوصف، والممتلئة بالتحذيرات الموجهة إلى المسافر. إنها ليست أكثر إدهاشاً في أي مكان، منها في شكل 7 الكبير، قرب إِيْسِيْنْيْ.

في هذا النور، تفقد الأشياء حقيقتها. إن تغلغلاً طفيفاً يجعلها شفافة. فالصخور لا تعود بها غير خطوط ناتئة. وحبال المراسي تبدو عوارض من الحديد أحميت حتى ابيضّ لونها. أما شباك الصيادين فتبدو تحت الماء زرداً من النار. يبدو نصف القارب أسود اللون، ويظهر النصف الآخر تحت الماء أبيض كالفضة. أما قطرات الماء التي تتساقط من المجذاف فتتحول إلى كواكب تضيء البحر. كل قارب يجر وراءه مذيلاً. والبحارة المبتلون والمضيئون يظهرون وكأنهم يحترقون. إن غمست يدك في ماء البحر ثم أخرجتها بدت ذات قفاز من اللهب، واللهب ميت، إنك لا تحسّ به أبداً. ذراعك مشعل

مضيء. والأشكال التي تراها في البحر متدحرجة تحت الأمواج، تظهر وكأنها سيل من النار. الزبد يرسل شرره. والأسماك ألسنة من النار وجذوع من البرق زاحفة في الأعماق الباهتة.

كان هذا الضياء يمر عبر جفون جيليات المغلقة. وقد استيقظ بفضلها. وكانت هذه اليقظة في الوقت المناسب.

لقد هبط البحر، وعاد مد جديد. ومدخنة الآلة التي تحررت أثناء نوم جيليات، تكاد تعلق مرة أخرى بالحطام، الفاغر فوقه.

لقد كانت عائدة إلى فتحة الحطام ببطء.

ولم يبقَ أمامها غير قدم واحدة للعودة إليها.

وارتفاع قدم واحدة، بالنسبة إلى المدّ يحتاج إلى نصف ساعة. فإذا رغب جيليات في الاستفادة من هذا الإفراج، فقد كان أمامه نصف ساعة لتحقيق ذلك، فانتصب قافزاً في مكانه.

ومهما يكن الموقف خطيراً، فإنه لم يسعه إلا أن يبقى واقفاً بضع دقائق وهو ينظر متأمّلاً إلى هذا الضياء.

كان جيليات على معرفة عميقة بالبحر. فهو رفيقه منذ زمن طويل، رغم ما قابله به من سوء المعاملة في الغالب. إن هذا الكائن الخفي الذي نسميه محيطاً، لم يكن يحتوي على أية فكرة قد يجهلها جيليات أو يعجز عنها. لقد أصبح جيليات تقريباً، بفضل طول الملاحظة، واليقظة الحالمة، والوحدة، قادراً على التنبؤ بتقلبات الجو.

وانطلق جيليات يدفع قاربه حتى أصبح قريباً من السد وبعيداً عن حطام دوراند، خلال عشر دقائق. وامتنع الخوف من أن تؤخذ المدخنة مرة أخرى في الفخ. وكان في وسع المدّ أن يرتفع.

ومع ذلك فإن جيليات لم تكن تبدو عليه هيئة من بهم بمغادرة المكان. ونظر إلى الضياء أيضاً، ثم رفع المراسي، ولم يكن ذلك للانطلاق بل لتثبيت القارب، بقوّة، قرب المخرج.

والحقيقة أنه لم يكن قد استعمل بعد، غير مرساتي القارب، فلم يستعن بمرساة دوراند الصغيرة، التي كان قد وقع عليها، فوق الصخور. لقد احتفظ بهذه المرساة في زاوية من القارب مع كيس من البكرات، للضرورة الملحة. وهنا أنزل جيليات هذه المرساة الثالثة في الماء على سبيل الاحتفاظ.

أما الضياء الذي كان يراقبه جيليات، فمن الممكن أن يكون مصدر تهديد له، لكنه كان يخدمه في الوقت نفسه. فلولاه لبقي أسير نومه وضحية لخداع الليل. لقد أيقظه، وأضاء له ما حوله.

كان هذا الضياء يرسل في الصخرة نوراً يبعث على الشك. ولكنه مهما ظهر مقلقاً لجيليات، فقد جعل الخطر أمامه مرئياً، كما جعل المناورة ممكنة. ومنذئذ أصبح القارب الذي يحمل الآلة حراً كما أصبح جيليات قادراً على الحركة حين يعزم على الانطلاق.

لكن تفكير جيليات في مغادرة المكان، كان يقل شيئاً فشيئاً. فراح يبحث عن أقوى السلاسل وأمتنها في مخزنه، بعد أن ثبّت القارب، ثم ربط هذه السلسلة بالمسامير المغروسة في صخرتي دوفر، مضاعفاً بذلك قوّة التحصينات التي تشدها من الخارج وتحميها السلسة الأخرى. وهكذا مكن السد وقواه بدلاً من أن يزيله.

وأخذ الضياء يتضاءل. وبدأ نور الصباح ينتشر.

وفجأة أصغى جيليات بانتباه شديد.

11

سلام على من يستمع جيداً

وبدا له أن يسمع، في الأبعاد الهائلة، شيئاً ضعيفاً مبهماً. إن للأعماق، في بعض الساعات، دمدمة.

وأصغى مرة أخرى. فعادت الضجة البعيدة. وهزّ جيليات رأسه كمن يدرك معنى ما سمعه.

وبعد دقائق قليلة، انتقل إلى طرف الممر الآخر، إلى المدخل الشرقي، الذي كان حرًّا حتى ذلك الوقت، فانطلق يغرس في الغرانيت مسامير غليظة بواسطة مطرقته، وفي جانبي العنق الصخري المجاور للصخرة «الرجل»، تماماً كما فعل في عنق دوفر.

وكانت فجوات هذه الصخور مهيأة، وقد وضعت فيها كلها تقريباً أسافين من خشب السنديان. وبما أن الصخرة في هذا الجانب كثيرة الشقوق فقد استطاع جيليات أن يضع فيها عدداً أكبر من المسامير التي وضعها في جذور صخرتي دوفر.

وفي برهة معينة، انطفأ الضياء، كما لو أن أحداً قد نفخ فوقه، وحل الفجر، الذي يتزايد نوره، محله.

وجرّ جيليات، بعد غرس المسامير، لاطات خشبية ثم حبالاً وسلاسل، وراح يعمل على بناء سدٍّ خشبيٍّ عبر العنق الصخري، دون أن يتلهى فترة واحدة، أو أن يصرف عينيه عن عمله. وقد كان هذا السد متمماً للمواصفات التي تبناها العلم اليوم، وهي مواصفات السد الذي يطلق عليه اسم «كاسر الموج».

في هذه الأثناء كانت الشمس قد ارتفعت في وضوحٍ تامٍّ. أما السماء فكانت صافية، وأما البحر فكان هادئاً.

وضاعف جيليات نشاطه. لقد كان هادئاً أيضاً، وكان في عجلته، قلق شديد.

كان ينطلق من صخرة إلى صخرة في خطوات واسعة، من السدّ إلى المستودع، ومن المستودع إلى السدّ. فيجرّ وراءه تارة لوحاً خشبياً وأخرى جسراً من الجسور. وهنا ظهرت فائدة هذه الأخشاب المخزونة. لقد كان يبدو أن جيليات أمام حادث مرتقب.

وقد استعمل عارضة قوية من الحديد على صورة عتلة لتحريك الجسور الخشبية. وتحقق العمل بسرعة حتى كاد يبدو نمُوًّا أكثر منه بناء. ومن الواضح أن من لم يشاهد مهندس جسور عسكرياً لا يستطيع أن يكوّن فكرة عن هذه السرعة.

كان العنق الشرقي أضيق من العنق الغربي. فكان هذا الضيق مصدر عون لجيليات. وبما أن الفتحة التي تحتاج إلى الحماية والتقوية فتحة أضيق، فإن تسليحها يكون أشد صلابة وبساطة. وهكذا كانت الجسور الأفقية كافية دون حاجة إلى أخشاب عمودية.

ولم يكد جيليات ينتهي من تثبيت العوارض المحطمة للأمواج حتى صعد فوقها وأصغى.

لقد أصبحت الدمدمة أكثر قوّة.

فتابع جيليات بناءه. وهو يقرض قطعاً من البسكويت بين أسنانه. لقد كان عطشاً، ولكنه لم يكن قادراً على الشرب، لأنه لم يعد لديه ماء. لقد أفرغ وعاء الماء بعد عشاء أمس.

وبعد أن رفع أربعة ألواح خشبية أو خمسة، صعد كرّة أخرى فوق السد وراح يصغي.

كانت الضجة في الأفق قد انقطعت. وصمت كل شيء.

وكان البحر لطيفاً ورائعاً، إنه يستحق كل القصائد الغزلية التي يوجهها إليه البورجوازيون حين يكونون مسرورين منه فهو: - «مرآة» و«بحيرة من الزيت»، - «ونكتة حلوة» - و«حمَل». - وكانت زرقة السماء العميقة تتجاوب مع خضرة المحيط العميقة أيضاً. لقد كان هذا الياقوت اللازوردي وذاك الزمرد قادرين على الاستمتاع أحدهما بالآخر. لا تثريب بينهما ولا لوم. لا سحابة فوق ولا زبد تحت. وفي غمرة هذه الروعة كانت شمس نيسان تصعد مختالة مبدعة. لقد كان من المستحيل أن يشاهد المرء جواً أكثر جمالاً.

وكان في الأفق القصي خيط طويل أسود من العصافير. لقد كانت هذه العصافير تنطلق مسرعة نحو اليابسة. وكان يبدو وكأنها في طيرانها هاربة. وعاد جيليات إلى رفع المزيد من محطمات الموج.

لقد رفعها إلى أقصى ارتفاع ممكن، يسمح له به انحناء الصخور. وعند الظهيرة بدت له الشمس أشدّ حرارة مما يجب أن تكون عليه. إن الظهيرة هي فترة اليوم الحرجة، وعاد جيليات يتأمّل المدى أمامه، وهو واقف فوق السدّ القوي الذي بناه.

كان في البحر شيء أكثر من الهدوء، لقد كان فيه جمود المستنقع الذي لا شراع فيه. والسماء صافية في كل مكان، لكن شيئاً واحداً قد حدث هو تحوُّل الزرقة إلى بياض. وكان هذا البياض فريداً. وكان في الأفق عند الجانب الغربي بقعة صغيرة غير مطمئنة في الظاهر. وبقيت هذه البقعة جامدة في المكان نفسه، ولكنها كانت تتضخّم. أما الموج قرب الصخور فقد كان يضطرب بلطفٍ شديد.

لقد أحسن جيليات صنعاً ببناء محطم الأمواج.

إن عاصفة كانت تقترب.

وقد قرّرت الهوّة خوض المعركة.

الكتاب الثالث

المعركة

1

الطرف يلمس الطرف، والنقيض يعلن النقيض

لا شيء أشدّ تهديداً من التعادل المتأخر بين الليل والنهار.

إن في البحر ظاهرة وحشية يمكن أن نسمّيها : وصول رياح المحيط. وفي كل فصل، ولا سيما الفترة التي يحدث فيها اقتران القمر، وفي البرهة التي يكون فيها انتظارنا لحادث أقل ظهوراً، يبدو البحر فجأة وكأنه أسير هدوء غريب. إن هذه الحركة الخصبة المستمرة تهدأ، إنها تغفو، وتدخل في مرحلة فتور، فيظهر البحر وكأنه يستسلم، وفي وسعنا الاعتقاد بأنه تعب. إن كل الأقمشة البحرية تتدلى فوق الصواري. أما رايات أمراء البحر والملوك والأباطرة فتنام.

وفجأة تعود هذه الأسمال إلى الحركة الخفية. إنها الفترة التي يجب أن نراقب فيها طخارير السحاب، هذا إذا كانت في السماء غيوم، أما إذا كانت الشمس تغرب، فيجب أن نتفحص حمرة المساء، وإذا كان ليلاً مقمراً، وجب أن ندرس الهالات التي تحيط بالقمر.

في هذه الدقيقة بالذات، يراقب قائد الأسطول الذي يتمتع

بملكية بلورة من بلورات العاصفة التي لا يعرف مخترعها، ويتخذ احتياطاته اللازمة ضد ريح الجنوب إذا كان المزيج أمامه على صورة السكر الذائب، وضد ريح الشمال، إذا كان هذا المزيج على صورة بلورات شبيهة بحشية من الخِنْشار أو أخشاب الصنوبر. في هذه الدقيقة بالذات يُخرج الصياد الإيرلندي المسكين أو البريطاني قاربه من البحر.

في هذه الأثناء يستمر شفوف السماء والمحيط. ويشرق الصباح مشعاً ويبتسم الفجر، ويملأ الرعب الديني قلوب الشيوخ من الشعراء والمتنبئين، وقد ملأهم الذعر حتى ليظن أن في الشمس تزويراً.

إن الرؤية القائمة للإمكان الكامن تعترضها في الرجل كثافة الأشياء التي وضعها القدر. إن أشد المشاهد رهبة وأكثرها خيانة، هو قناع الهوة. يقال: إبرة تحت صخرة، ومن الواجب أن يقال: عاصفة تحت الهدوء.

هكذا يمر بعض الساعات، أو بعض الأيام في بعض المرات. يوجه الربابنة مناظيرهم المقربة هنا وهناك. وتبدو الشدّة في وجوه شيوخ البحارة، وهي شدّة تتصل بغضب الانتظار الخفي.

وفجأة تسمع دمدمة غامضة كبيرة. ففي الجو نوع من حديث متبادل خفي. أما في الفضاء فلا يرى شيء أبداً.

ويستمر المدّ عارياً من كل انفعال وتآمر.

وفي هذه الأثناء، تنمو الضجة وتزيد وتتضخم وترتفع، والحديث المتبادل يتضح.

هناك شيء وراء الأفق. شيء رهيب هو الرياح.

الرياح، أي هذه الجماهير من العمالقة التي نسميها هبّات ونفخات، إنها رعاع الظلمة الهائل.

الهند تسميها «ماروت»، ويهوذا تسميها «كاروبيم»، واليونان

تمنحها اسم «أكِيْلُوْنْ». إنها طيور اللانهاية الكاسرة الخفية. هذه الرياح الشمالية تتراكض في زحام رهيب.

2

رياح المحيط

من أين تأتي؟ من المفازات العصية على كل قياس. فامتداداتها يجب ألا تقاس إلا بقطر الهوّة. وأجنحتها الهائلة في حاجة لتراجع مبهم في المفازات الخالية. إن ما يلائمها هو المحيط الأطلنطي أو الهادي، شيء مثل هاتين الفتحتين الواسعتين الزرقاوين. إنها تحلّق فيها جماعات وقطعاناً. لقد رأى القائد «باج» في عرض البحر، يوماً، سبعة أعاصير، مرّة واحدة. إنها هنا، ذات هيئة وحشية. إنها تستهدف إنزال الكوارث عن سابق تصوّر وتصميم. وموضع نشاطها هو انفتاح الموج السريع والخالد. الكل يجهلون ما تستطيع صنعه، والكل يجهلون ما تريد صنعه. إنها أبو الهول لكل هوة، و«غاما» هو أوديبها. فمن يشاهد خطوطها الناتئة في زرقتها الضاربة إلى السواد منتشرة عبر الأفق البحري، يحس وكأنه أمام قوّة ساحقة لا تحطم. وقد يقال إن الذكاء البشري يقلقها، فهي تنقضّ عليه انقضاضاً. فالذكاء لا يغلب، ولكن عنصر الطبيعة لا يؤخذ. وما عسانا نصنع ضد الكائن الكلي الوجود الذي لا سبيل إلى الإمساك به؟ إن هبة الريح تتحول إلى مطرقة شديدة ثم تعود إلى طبيعتها الأولى. الرياح تقاتل بالسحق وتدافع عن نفسها بالزوال والتلاشي. ومن يلاقها يجد نفسه عارياً من كل حيلة. وهجومها المختلف الأشكال ينتزع من المرء كل قدرة على الدفاع. إنها تتمتع بعدد من الهجمات مساوٍ للعدد نفسه من محاولات الهروب. فكيف السبيل إلى التغلب عليها؟

إن حفرة من الرياح هي أشد وحشية من حفرة من السباع. كم من الجثث تحت هذه التجعدات التي لا مقر لها! الرياح تدفع الكتلة الكبيرة القاتمة والمُرَّة دون شفقة. إنها تسمع دائماً، أما هي فلا تسمع شيئاً. وهي تقترف من الأشياء ما هو شبيه بالجرائم. لا أحد يعرف على من تقذف زبدها الأبيض المُمزِّق. كم من الوحشية الكافرة في كارثة الغرق! وكم من التحدي للعناية الإلهية! إنها تبدو في بعض الفترات وكأنها تبصق على الإله. إنها طغاة الأمكنة المجهولة.

الفضاء المرتعد يستقبلها في طريقها إلى المجهول. إن ما يحدث في هذه المفازات الكبيرة شيء لا يعبر عنه. إن فيها فارساً ممتزجاً بالظلمة. أما الهواء فيصنع ضجة غابة. نحن لا نرى شيئاً ولكننا نسمع وقع سنابك الخيل التي تحمل الفرسان. ونحن في الظهيرة، ولكن الليل يهبط فجأة ويمر إعصار، وقد نكون في منتصف الليل، ولكن النهار يشرق فجأة أيضاً، ويلتهب التيار الذي حدث به تفريغ كهربائي قطبي. وتتناوب الأعاصير في اتجاه عكسي، بحيث تبدو لها صورة راقصة قبيحة، وفيها تظهر دبدبة البلاء الإلهي فوق عناصر الطبيعة. إن غيمة ثقيلة جداً تنكسر في وسطها ثم تهبط قطعاً إلى البحر. وهناك غيوم أخرى ممتلئة بالأرجوان، تضيء وتدمدم، ثم تظلم، أما الغيمة التي أفرغت من الصاعقة فيسودّ لونها، إنها فحمة منطفئة. إن أكياساً من المطر تنفجر فتتحول إلى ضباب. فهناك نار ملتهبة حيث تمطر، وهنا موجة تنبثق منها ألسنة من اللَّهب. إن بياض البحر تحت الوابل الشديد يضيء أبعاداً شاسعة مذهلة. فهناك بُجَرٌ وحشية تحفر الضباب الكثيف. البخار يدور حول نفسه، والأمواج كذلك، وعرائس الماء السكرى تتدحرج، وعلى مدى النظر يتحرك البحر الكثيف والطري دون أن ينتقل من مكانه، كل شيء ذو لون أزرق ضارب إلى السواد، وصرخات يائسة تخرج من هذا اللون الباهت.

أما في أعماق الظلمة البعيدة، فترتعد حِزَمٌ كبيرة من الظلام. وقد تبلغ هذه الرعدة أقصى شدتها بين فترة وأخرى. فالضجة تصبح صخباً شديداً، وكذلك الموجة فإنها بحر شديد الهيجان. أما الأفق وهو مجموعة من الأمواج المتراكمة، ففيه ذبذبة مستمرة، وضجيج دائم منخفض، وانفجارات تنقذف على شكل غريب، حتى ليخيّل إلينا أننا نسمع عطاس ثعابين من ذوات الرؤوس السبعة. وتنطلق هبات من الرياح الباردة ثم تعقبها هبات حارة. إن رجّة البحر تعلن عن خوف شديد يترقب كل شيء. القلق. والضيق الشديد، ورعب المياه العميقة. وفجأة تأتي العاصفة كالحيوان الكاسر لتشرب من ماء المحيط، وشربها ارتشاف عجيب، يصعد به الماء نحو الفم الخفي، ويتكون شيء على صورة المِحْجَم، وينتفخ الورم، فتتكون الزوبعة.

والواقع أن لاضطراب الفضاء الواسع سلماً تتدرج بها عناصر الرعب. فهي تبدأ من النسيم، فالهواء الرخي، فالهواء النافخ، فالريح الشديدة، فالعاصفة، فالإعصار، فالزوبعة. إنها الحبال السبعة لقيثارة الرياح، إنها ألحان الهوّة السبعة. السماء امتداد عرضي، والبحر امتداد مستدير، وبينهما تمر زفرات، ثم لا يبقى شيء من هذا، كل ما فيه ثورة واختلاط مبهم ضائع. هكذا تبدو تلك الأمكنة القاسية.

الرياح تركض، وتنقض، وتنتهي، ثم تعود سيرتها الأولى، فتجنح في الفضاء، وتصفر، وتزأر، وتضحك، مسعورة، داعرة، جامحة، مستعملة حريتها التامة فوق الموج النزق الغاضب. إن لهذه الرياح العلوية إيقاعها الخاص. إنها تجعل السماء مُرِنّة. وهي تهب في الضباب كما لو أنها تهبّ في نحاس، إنها تسد الفضاء، وتغني في اللانهاية. بكل أصوات الأبواق المتداخلة. أما ما فيها من الخوف فهو أنها توقع هذه الأصوات. إن فيها فرحاً هائلاً مؤلفاً من الظلمة الداكنة. إنها تقوم في العراء بمطاردة السفن البحرية. فهي ليلاً

ونهاراً، دون هدنة أو توقف، وفي كل فصل، في المناطق الحارة والمناطق القطبية. توجه، وهي تنفخ في أبواقها الهائمة الشديدة الانفعال، عبر التواشج القائم بين الضباب والموج، مطاردتها السوداء لكوارث الغرق. إن هذه الزوابع هي سيدة قطعان من الكلاب المسعورة. إنها تتسلى. وهي تدفع هذه الكلاب إلى النباح وراء الصخور والأمواج. إنها تخلط الغيوم وتفرقها. وتعجن المياه الهائلة المرنة، وكأنها تستعمل ملايين من الأيدي.

والماء مرن لأنه غير قابل للانضباط. إنه ينزلق تحت القوّة النازلة. فإذا دفع من جانب نجا بنفسه من جانب آخر. هكذا يكوّن الماء موجة. إن الموجة تعبير عن حريته.

3

توضيح الضجة التي سمعها جيليات

إن وصول الرياح الكبير نحو اليابسة لا يحدث إلا في الفترات التي يتعادل فيها الليل والنّهار. في هذه الفترات يتأرجح ميزان خط الاستواء والقطب، فيصب المدّ الجوي ماءه المرتفع فوق نصف الكرة الأرضية. كما يصب ماءه المنخفض فوق النصف الثاني من الكرة. وهناك كواكب تفسر هذه الظاهرات وتوضحها. إنها برج الميزان وبرج الدلو. هذه هي ساعة الأعاصير.

البحر ينتظر، ويحافظ على هدوئه. وقد تبدو السماء في بعض الأوقات مكفهرة الوجه. إنها صفراء باهتة، إن عارضة كبيرة تسد منافذها. وينظر البحارة بقلق شديد إلى هيئة الظلمة الغاضبة.

ولكن ما يخافونه على الأكثر هو هيئة الرضى التي تظهر بها. إن السماء الضاحكة في فترة التعادل، لا تعني غير العاصفة الشديدة في

قفاز مخملي. أمام مثل هذه الأجواء، كان برج الباكيات في أمستردام يمتلئ بالنساء اللاتي يتفحصن الأفق.

والعاصفة الشتوية أو الخريفية المتأخرة لا تعني غير أنها تركم طاقتها المتفجرة. إنها تدخر هذه الطاقات لغرض واحد هو التدمير.

فإذا كال الانتظار، فإن البحر لا يكشف عن نفاد صبره إلا بالمزيد من الهدوء. إلا أن التوتر المغناطيسي يبرز بما يسمى بالتهاب الماء. إن ألسنة من اللّهب تخرج من الموج. هواء كهربائي، وماء فوسفوري. ويشعر البحارة أنهم متعبون.

ويكون مشهد البحر في هذه الفترات غريباً، بالنسبة لمن طالت معاشرتهم له، فيقال إنه راغب في الإعصار وخائف منه أيضاً. إن نوعاً من العرائس تؤخذ بمثل هذه الطريقة، وهي مرغوبة جداً من قبل الطبيعة. إن اللبوءة في يقظتها الجنسية تحاول الهرب من الأسد. والبحر، هو نفسه، ذو حرارة مرتفعة. ومن هنا تكون رعشته.

إن الزواج في طريقه إلى التحقُّق.

هذا الزواج يعلن عن نفسه بالقتل والتذبيح والاستئصال، شأن أعراس الأباطرة القدماء. إنه عيد مُتبّل بالكوارث.

وفي هذه الأثناء تصل الرياح من هناك، من مفازات البحر، من آفاق العراء الزرقاء الضاربة إلى السواد، من أعماق الحرية التي لا حدود لها.

احذروا وانتبهوا، هذا هو ما يحدثه التعادل. كل عاصفة تسبَقُ بدمدمة. فوراء الأفق همسات تمهد لظهور الأعاصير.

هذا ما يسمعه المرء، بعيداً، في الظلمة، من وراء صمت البحر المذعور. هذه الهمسات الرهيبة، هي التي كان قد سمعها جيليات. لقد كان اللهب الفوسفوري هو التحذير الأول، أما الدمدمة فهي التحذير الثاني.

الهوة كلها محتواة في عاصفة شديدة. والبحر المحيط كله في إعصار. إن طاقاته كلها تندمج في أعماقه وتشترك فيه. الموجة هي الهوّة في الدرك الأدنى، وهبوب الرياح، هو الهوّة في الدرك الأعلى. والتعامل مع الزوبعة هو تعامل مع البحر كله والسماء كلها.

الرياح هي الكلية الوجود.

وهذا لا يعني، على التأكيد، إنه لا توجد مناطق شديدة الرياح بخاصة. إن تقنية الهواء بواسطة الريح ظاهرة ثابتة، فهناك أنهار كبيرة من الرياح، وأنهار صغيرة، وجداول أيضاً، شيء واحد يحدث فقط هو أن تفرعات الهواء بعكس تفرعات الماء: الجداول تخرج من الأنهار الصغيرة، والأنهار الصغيرة تخرج من الأنهار الكبيرة، بدلاً من أن تصب فيها، ومن هنا يكون التوزّع بدلاً من التركز.

هذا التوزّع هو الذي يصنع ظاهرة التضامن في الرياح، ووحدة الجو. إن الجزيئة تتحرك تحرك الجزيئة الأخرى، والرياح كلها تتحرك جملة واحدة. أضف إلى هذا المزيج من الأسباب العميقة، تضاريس الكرة الأرضية الناتئة، والتي تثقب الجو بجبالها كلها، محدثة عقداً والتواءات في اتجاهات الرياح، وصانعة في كل هذه الاتجاهات تيارات معاكسة. فهي إشعاعات هوائية غير محدودة.

وظاهرة الرياح هي ذبذبة محيطين، أحدهما فوق الآخر، محيط الهواء القائم فوق محيط الماء.

إنه الواحد الذي لا يقبل التجزئة. فليس هناك حاجز بين موج وآخر. إنّ جزر المانش تحس تيارات رأس الرجاء الصالح. والسفر البحري العالمي يواجه وحشاً موحداً. البحر كله هو الثعبان ذو الرؤوس السبعة نفسه. والأمواج تغطي البحر بنوع من جلد السمك.

على هذه الوحدة تنقض الكثرة التي لا تحصى.

4

هناك اثنان وثلاثون ريحاً بالنسبة إلى البركار، أي اثنان وثلاثون اتجاهاً، ولكن هذه الاتجاهات تستطيع أن تنقسم إلى أقسام لانهائية العدد. والرياح التي تصنف بالاتجاهات، لا تخضع لإحصاء معين، كما أنّها حين تصنف بالأنواع، تكون هي اللانهاية.

إن هومير جدير بالتراجع أمام هذا التعدد.

التيار القطبي يصدم التيار الاستوائي. وبذلك يمتزج البارد والحار، ويبدأ التوازن بالصدمة، ثم تخرج منها موجة الرياح، متورمة، موزعة، ممزقة في كل اتجاه وفي سيلان وحشي. إن توزّع هبّات الرّياح يهز الهواء المبعثر في زوايا الأفق الأربع.

وفي الوقت الذي كان فيه جيليات يبني محطم الأمواج كانت صخرة دوفر تستمع إلى عدو هذه الرياح البعيد.

لقد قلنا، آنفاً، إن الريح، هي مجموعة الرياح كلها.

لقد كانت هذه القطعان تصل مجتمعة.

هذا الجيش اللجب من ناحية. وجيليات من ناحية أخرى.

5

جيليات يختار

كانت القوى الخفية قد أحسنت اختيار الوقت المناسب.

ولئن كانت هناك مصادفة، فهي ماهرة حاذقة.

كان جيليات في حرز حريز مادام القارب مربوطاً في خليج الصخرة «الرجل»، وما دامت الآلة موجودة في الحطام. فالقارب في أمان، والآلة في ملجأ حصين، أما «دوفر» التي كانت تمسك بالآلة،

فقد قضت عليها بالتفتت البطيء، ولكنها كانت تحميها من المفاجأة. ويبقى لجيليات، في كل حال، ملجأ يلجأ إليه. إن تهديم الآلة لا يهدم جيليات. فالقارب وسيلة للنجاة بنفسه.

ولكن الانتظار حتى يُخْرَجَ القارب من مرساه حيث كان في نجوة من الخطر، ثم تركه يدخل إلى المضيق بين صخرتي دوفر، ويقع بين يدي الصخرة، وإتاحة الفرصة لجيليات للقيام بعملية الإنقاذ، وانتزاع الآلة من الحطام ثم نقلها إلى القارب، دون عرقلة هذا العمل الرائع، والموافقة على هذا النجاح، في هذا كله كان يكمن الفخ. هنا كانت الهوّة القائمة الرّهيبة تكشف عن نفسها عبر الحجب.

في تلك الساعة كان جيليات والآلة والقارب مجتمعين في زقاق الصخور الضّيّق: لقد كانوا شيئاً واحداً. فإذا سحق القارب بالصخرة، وانزلقت الآلة إلى الأعماق، وغرق جيليات، كانت القضية قضية جهد واحد في نقطة واحدة. كان من الممكن أن ينتهي كل شيء في الوقت نفسه، دون بعثرة، وكان من الممكن أن يسحق كل شيء مرة واحدة.

فلا وضع أشد حرجاً من وضع جيليات آنذاك.

إن أبا الهول المحتمل، الذي كان يتراءى للحالمين في أعماق الظلمات، يبدو وكأنه يضع أمام جيليات برهاناً ذا حدّين.

أن يبقى أو أن يغادر المكان.

فمغادرة المكان عمل جنوني، والبقاء فيه شيء مخيف.

6

المعركة

صعد جيليات فوق دوفر الكبيرة.

ومن هناك كان يرى البحر كله.

لقد كان الغرب مذهلاً. لقد كان يخرج منه جدار. جدار كبير من الضباب، يسد الفضاء من أقصاه إلى أقصاه، ويصعد ببطء من الأفق نحو سمت السماء. وكان هذا الجدار المستقيم والعمودي والذي خلا من كل فجوة في أعلاه، ومن كل تمزق في جوانبه، يبدو وكأنه مبني بمثلث مساح ومشدود بحبل متين. لقد كان غيماً شبيهاً بالغرانيت. وكان تعرج هذا الغيم، ذي الاتجاه العمودي في طرفه الجنوبي، ينحني قليلاً نحو السماء وكأنه لوح معدني ملتو، فيبرز على صورة منحنية ذات إنزلاق خفيف غامض. وكان هذا الجدار من الضباب يعرض، وينمو مع استمراره على صورة متوازية مع خط الأفق، الذي لا يكاد يتضح في الظلمة الهابطة. وكان هذا الجدار من الهواء يرتفع قطعة واحدة في صمت. فلا تموّج، ولا تجعّد، ولا نتوء يتغير شكله أو ينتقل من مكان إلى آخر. وكان هذا الجمود في الحركة شيئاً يبعث على الحزن. والشمس الصفراء وراء ما لا نستطيع تعريفه من الشفوف الخبيث، تنير هذه الخطوط من رؤيا يوحنا. وأصبح الضباب يكتسح تقريباً نصف الفضاء. حتى ليقال إنه منحدر الهوّة الرهيب. لقد كان شيئاً كما يكون ارتفاع جبل من الظلام بين الأرض والسماء.

المشهد هو مشهد ارتفاع الليل في وضح النهار.

وكانت في الهواء حرارة كحرارة الموقد. فيخرج من هذا الركام الخفي بخار كبخار الآلة المجففة. أما السماء التي أصبحت بيضاء بعد زرقة. فقد تحول لونها إلى رمادي. حتى ليقال إنها قرميدة كبيرة. أما البحر المغبر والرصاصي تحتها، فقد كان قرميدة هائلة أخرى. فلا هبّة ريح، ولا موجة، ولا ضجة. البحر خال على امتداد النظر. فلا شراع فيه. والطيور مختبئة. فيحس المرء وكأن في اللانهاية خيانة.

وكان تضخّم هذه الظلمة كلها يتسع بصورة غير محسوسة.

وكان جبل الأبخرة المتحرك والمتجه نحو صخرتي دوفر واحداً في تلك الغيوم التي يمكن تسميتها بغيوم المعركة. إنها غيوم مريبة. لا يدري المرء عبر هذه الأكوام المظلمة أي حَوَلٍ ينظر إليه.

لقد كان هذا الاقتراب رهيباً.

وأمعن جيليات النظر في هذا الضباب ثم ردد بين أسنانه: إنني عطشان، وستقدم إليّ ماء أشربه. وبقي جامداً بعضاً من الوقت، وعينه مشدودة إلى الغُيوم. حتى ليقال إنه يحسّ العاصفة.

وأخرج طاقيته من جيب مريلته وغطى بها رأسه. ثم أخذ ثيابه الاحتياطية من الفجوة التي طالما نام فيها، لَبِسَ ما وسعه أن يلبسه منها، فبدا كالفارس الذي يحمل درعه لمواجهة المعركة.

أما حذاءاه فنحن نعرف أنه قد فقدهما، ولكن قدميه كانتا قد قستا بفضل الصخور.

ولم يكد يلبس عدته من الثياب، حتى تأمل كاسر الموج، ورفع بحيوية، الحبل ذا العقد، ثم هبط من قمّة دوفر، وجاس خلال الصخور المنخفضة، وركض نحو مستودعه. وبعد فترة قصيرة بدأ بالعمل. لقد استطاع الغيم الواسع الأخرس أن يسمع ضربات مطرقته.

فماذا كان يصنع جيليات؟ لقد كان يبني بما بقي عنده من المسامير والحبال والجسور الخشبية سداً آخر عند العنق الشرقي على بعد عشرة أقدام أو اثنتي عشر قدماً وراء السدّ الأول.

الصمت عميق. وغصون العشق الدقيقة في فجوات الصخرة جامدة لا تتحرك. اختفت الشمس فجأة. فرفع جيليات رأسه.

كان الضباب الصاعد قد بلغ موضع الشمس. فبدا المشهد وكأنه انطفاء النهار، وقد حلّ محله شعاع منعكس باهت فيه مزيج غريب.

أما جدار الضّباب فقد تغيّرت هيئته. إنه لم يعد يحتفظ بوحدته.

لقد تحدد أفقياً وهو يلامس سمت الرّأس ثم ينتشر فيما بقي من

السّماء. لقد أصبح الآن ذا طبقات. وأخذت خطوط العاصفة ترتسم وكأنها في قطاع من الخنادق. فيميز المرء بين طبقات المطر وركان البَرَد. واختفى البرق، ليحل محله لهب مبعثر مرعب، وفكرة الرعب قد تتصل بفكرة النور. وكانت تسمع أنفاس العاصفة المبهمة. وكان هذا الصمت ينبض بصورة قاتمة. وجيليات، الصامت هو أيضاً، ينظر إلى هذه الكتل من الضباب تتجمع فوق رأسه أو تتكون فيه هذه الغيوم الشوهاء. كان يمتد ثقيلاً عبر الأفق قطاع من الضباب الرمادي، وفي القرب قطاع من الضباب الرصاصي، وتتدلّى من الغيوم العالية خرق زرقاء ضاربة إلى السواد فوق الضباب المنخفض. إن كل الخلفية، والتي هي جدار الغيوم، كانت باهتة لبنية، ترابية، حزينة، غير قابلة للوصف. وهناك ضبابة مائلة إلى البياض معترضة، آتية من جهة مجهولة، تقسم الجدار العالي المظلم في اتجاه منحرف، من الشمال إلى الجنوب. وكان أحد طرفي هذه الضبابة يتصل بماء البحر. وفي النقطة التي كانت تلامس فيها الأمواج المختلطة، كان يرى في الظلمة، اختناق بخار أحمر. أما فيما دون الضباب الباهت الطويل، فتبدو غيوم صغيرة، شديدة السواد. طائرة، في اتجاهات عكسية الواحدة ضد الأخرى كما لو أنها لم تكن تعرف مصيرها. أما الغيم القوي في خلفية السماء فكان ينمو ويمتد من كل جانب، فيزيد من انكساف الشمس، ويتابع اعتراضه ما بين الشمس والماء. ولم يعد في الجهة الشرقية وراء جيليات، غير قطاع من السماء الوضيئة في طريقه نحو الانغلاق. وانطلقت ريشات مبعثرة، مفتتة، كما لو أن طائراً عملاقاً قد تناثر ريشه وراء جدار الظلمات دون أن يحسّ الرائي بوجود ريح في الفضاء. وكان يتشكل سقف من السواد الكثيف، يتصل بالبحر عند الأفق، البعيد، ويمتزج فيه بالليل الدامس. كان المشاهد يحسّ كأن شيئاً يتقدّم. كان هذا الشيء واسعاً، ثقيلاً، ووحشياً أيضاً. وكانت الظلمة تتكاثف. ثم انفجر رعد في الجو بصورة مفاجئة.

وأحسّ جيليات نفسه بصدمته المزلزلة. إن في الرعد حلماً. وفي هذه الحقيقة الوحشية في المنطقة المسكونة شيء رهيب. فيخيِّل للسامع أنه يستمع إلى سقوط أثاث في غرفة عمالقة.

ولم يرافق هذا الرعد أي التهاب كهربائي. لكأنه رعد أسود. وساد السكون مرة أخرى. ومرت فسحة من الوقت كأن في الجو محاولة لأخذ مركز معين. ثم ظهرت بروق كبيرة ضائعة الأشكال، الواحد وراء الآخر وبصورة بطيئة. لقد كانت هذه البروق خرساء. لا هدير. وكان كل شيء يضيء عند ظهور كل برق. لقد أصبح جدار الغيوم الآن على هيئة كهف. لقد كانت تظهر قناطر وحنايا. وتبرز فيها أشباح وخيالات. وترتسم رؤوس وحشية بشعة، لقد كانت تبدو فيها رقاب ملتوية، وفيلة تحمل أبراجها، بادية عبر ذلك، ثم تختفي.

وكان يبدو عمود هائل من الضباب، مستقيم، مستدير، أسود، يعلوه بخار أبيض، شبيه بمدخنة باخرة ضخمة غارقة في الماء، تشتعل فيه وترسل دخانها. وهناك أحواض من الضباب تتموج. فيكاد الرائي يظن أنه يشهد رايات وبيارق. وتغوص في مركز الفضاء، بألوان فضية ذهبية، نواة من الضباب الجامد، غير القابل للاحتراق، ذات شرارات كهربائية، وكأنها نوع من جنين بشع في بطن الإعصار العاصف.

وفجأة شعر جيليات أن هبّة ريح كانت تبعثر شعره. كما كانت تنسحق أمامه فوق الصخرة ثلاث شباك أو أربع من المطر. ثم انفجرت صاعقة أخرى، وارتفعت الرياح.

لقد بلغ انتظار الظلام قمّته، وكان الرعد الأول قد حرك ماء البحر، أما الثاني، فقد شق جدار الضباب من أعلى إلى أدنى، وظهرت فجوة فيه، وانسكبت من هذا الجانب المزْنَة المعلقة، وأصبحت الفجوة أشبه بالفم المنتفخ المليء بالماء، ثم بدأ قيء العاصفة.

وكانت تلك البرهة مخيفة حقاً.

وابل، وإعصار، ووميض، وانفجارات، وأمواج مرتفعة حتى الغيوم. وزبد، والتواءات مسعورة، وصرخات، وأصوات مبحوحة وصفير، كل هذا مرة واحدة. لقد كانت أشبه بهيجان وحوش كاسر.

كانت الرياح تنفخ صواعق. والمطر لا ينزل بل يتدحرج كسفاً.

لا أزمة أشدّ تهديداً لرجل مسكين كجيليات، حاصره مع قاربه المحمّل، مضيق بين صخرتين في وسط البحر. إن خطر المدّ الذي كان جيليات قد انتصر عليه، لم يكن شيئاً بالنسبة لخطر العاصفة.

وكان جيليات قد كشف الغطاء في الدقيقة الأخيرة وأمام الخطر الفائق، وقد كان كل شيء حوله هوّة مخيفة، عن خطة ماهرة دقيقة. لقد جعل نقطة ارتكازه عند العدو نفسه، وتحالف مع الصخر. إن صخرة دوفر، التي كانت من قبل عدوة له، قد أصبحت الآن عوناً له في هذه المبارزة الهائلة. لقد جعلها جيليات تحته. وصنع من هذا الضريح حصناً له. وجعل من نفسه شرفة مطلة محصنة فوق هذا البناء الهائل. لقد كان فيها محصوراً، ولكنه كان محصناً أيضاً. وبتعبير آخر كان مستنداً إلى الصخرة، وقد واجه الإعصار أمامه. وكان قد سدّ المضيق، هذا الزقاق من الأمواج. على أن هذا كان الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يصنعه. ويبدو أن البحر المحيط نفسه، وهو الطاغية الجبار، يمكن أن يرغم هو نفسه على التعقل بواسطة السدود. ومن الممكن أن يعتبر القارب في حرز حريز من جهات ثلاث.

كانت تحميه من الشمال صخرة دوفر الصغيرة، ومن الجنوب صخرة دوفر الكبيرة. ويحميه من الغرب سدّ من الأخشاب والجسور المسمرة في الصخور، وهو سدّ مكين صمد أمام الامتحان العسير.

أما في الشرق فلم يكن غير «كاسر الأمواج». ومهمة هذا الكاسر أن يفتّت الموج. إنه بحاجة إلى فتحتين. لكن جيليات لم

يستطع أن يحدث غير فتحة واحدة. وكان يبني الثانية تحت الإعصار.

وكان من حسن الحظ أن الرّياح آتية من الشمال الغربي. والبحر بالتالي يرتكب أخطاء كثيرة. لقد كان لهذه الرياح تأثير ضئيل على صخور دوفر. كان ينقض على الصخرة بطريقة معترضة، فلا يدفع الماء أبداً نحو أي من العنقين في المضيق، بحيث أنه كان يصطدم بالجدار الصخري بدلاً من النفاذ إلى المضيق. لقد فشلت العاصفة في هجومها وأساءت توجيهه.

لكن هجمات الرياح هجمات منحنية، وقد كان من الواجب أن يترقب المرء انحرافاً مفاجئاً. فإذا حدث هذا الانحراف نحو الشرق قبل بناء الفتحة الثانية في كاسر الموج كان الخطر خطراً كبيراً. ومن ثم تقتحم العاصفة الزقاق بين الصخور، ويضيع كل شيء.

جنون العاصفة يتزايد بصورة مطردة. فالإعصار كله ضربة وراء ضربة. هنا تكون قوته، وهنا يكون خطأه أيضاً. وهو بمقدار سعاره، يتيح مكاناً لعمل الذكاء، ويدافع الإنسان عن نفسه، ولكن تحت أية قوّة ساحقة؟ فليس شيئاً أشد وحشية منها. لا هدنة، ولا توقّف، ولا راحة. إن في هذا الفيض من القوّة التي لا تنضب، شيئاً من الجبن لا ندركه. حتى لنحس أنه رئة اللانهاية، تتنفس.

هذه المفازة الهائلة من الضجيج كانت تنقض على صخرة دوفر، كانت تسمع أصوات لا عدّ لها. فمن هو الذي يصرخ كذلك؟ لقد كان هناك رعب قديم مخيف. وبين فترة وأخرى يبدو ذلك على هيئة من يتكلم، كما لو أن إنساناً يوجه أوامره. ثم ترتفع صيحات، وأصوات أبواق، ودبدبات غريبة، وهذا العواء الكبير الجليل الذي يسمّيه البحارة: نداء المحيط. والرياح التي تهب بخطوط لولبية مبهمة تصفر وهي تلوي الموج لياً، أما الموجات التي أصبحت دوراناً بفعل هذه الرياح اللولبية العاصفة، فقد كانت تنقذف ضدّ الصخور كما لو

أن مِطَثّات عملاقة تقذفها يدُ عملاقٍ خفيٌ. وكان الزبد الهائل يتبعثر على سفوح كل الصخور. سيول فوق ولعاب تحت. ثم يتضاعف الزئير. ليس هناك صوت بشري أو حيواني يستطيع أن يعبّر عن الضجيج الممتزج بتمزق البحر. الضباب يرسل طلقات كطلقات المدفعية، والبَرَدُ يرسل طلقات كطلقات رشاش، والموج الثائر يتسلق. وكانت الرياح تنطلق مسافات طويلة في الثانية الواحدة. والبحر على مدى النظر يبدو أبيض اللون، إن عشرة أميال من ماء الصابون تملأ الأفق. وكانت أبواب من النار تنفتح وتنغلق. وهناك بضعة غيوم فوق أكوام من الضباب الأحمر الشبيهة بالجمرات، لقد كانت هذه الغيوم شبيهة بالدخان.

أما جيليات فيبدو وكأنه لا يعير ما حوله أي انتباه. لقد كان رأسه منحنياً فوق عمله. وقد بدأت الفتحة الثانية ترتفع وتمتد. لقد كان يجيب بضربة من مطرقته عن كل ضربة من الرعد. هذا الإيقاع كان يسمع في غمرة تلك الفوضى الناشبة. وكان رأسه عارياً. لقد حملت هبّة ريح غطاء رأسه. أما عطشه فكان شديداً. ومن المحتمل أنه قد أصيب بالحمى. لقد تكونت برك من الماء حوله في فجوات الصخور. فهو يرفع بكفه قليلاً منه إلى فهمه بين فترة وأخرى. ثم يعود إلى عمله، دون أن يلقي نظرة فاحصة على مصير العاصفة.

كل شيء كان يتعلق ببرهة قصيرة من الزمن. وكان يعرف ما ينتظره إن هو لم ينهِ بناء «كاسر الموج» في الوقت المناسب. فما الفائدة إذن من إضاعة دقيقة في النظر إلى اقتراب وجه الموت؟

لقد كان الاضطراب من حوله كمرجل يغلي.

العاصفة الآن أصبحت غريبة، إنها تقصف سد صخرتي دوفر، ولكن جيليات كان واثقاً من قوّة هذا السدّ، وثقته في محلها. هذا السدّ، المصنوع من قطع خشبية كبيرة منتزعة من مقدم المركب

دوراند، يتلقى صدمة الموج. إن المطاطية قوّة مقاومة، وقد أثبتت معادلات ستيفنسون، أن مجموعة من الأخشاب، ذات أبعاد معينة، مقيّدة بالسلاسل بطريقة معينة أيضاً تشكل عقبة خيراً من كاسر الموج المبني بالصخر القوي. إن هذه الشروط متوفرة في سد دوفر، وقد بني بمهارة شديدة، بحيث أن الموجة المنقضة عليه تفعل فعل المطرقة التي تغرز المسمار، وتثبّته في الصخرة. وتخريب هذا السدّ يفرض تخريب الصخرتين نفسيهما. أما الرياح العاصفة فلم تستطع أن ترسل إلى القارب من فوق السدّ غير نفثات من اللعاب. لقد كان فعل العاصفة من هذه الجهة دون ما كانت تستهدفه. وقد استدبر جيليات هذا الجهد، لأنه كان مطمئناً إلى فشل السعار من ورائه.

وكانت سبائخ الزبد، تتطاير من كل ناحية، وهي أشبه ما تكون بسبائخ الصوف. وأما الماء الهائج، فقد كان يغرق الصخور، ويصعد فوقها، ثم ينفذ إليها عبر شبكات الشقوق الداخلية، ويخرج ثانية من الكتل الغرانيتية عبر شقوق ضيقة، شبيهة بأفواه لا تنضب، فتصنع بهذا الطوفان ينابيع هادئة صغيرة. من هنا وهناك كانت تسقط بظرف فائق، من هذه الثقوب إلى البحر، خيوط من الفضة.

وانتهت الفتحة الثانية في السدّ الشرقي. ولم يبقَ غير قليل من عقد الحبل والسلسلة، ليقترب الوقت الذي يستطيع فيه هذا السياج بدوره أن يخوض المعركة.

وفجأة، ظهرت فجوة وضيئة، فأخذ المطر ينزل متقطعاً، وتفتت الضباب، وقفزت الرياح، وانفتح شيء كالنافذة الغسقية العالية، وانطفأت البروق، حتى ليخيل للمرء أن هذه هي نهاية العاصفة. والواقع أنها كانت البداية. كانت قفزة الرياح متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. والعاصفة تتهيأ للانقضاض بقطيع جديد من الأعاصير. والشمال يستعد لهجمة عنيفة.

وبذلك أخذ الهجوم العدواني، الآتي من الشرق، يستعد للانقضاض على النقطة الضعيفة.

وفي هذه المرة أقلع جيليات عن عمله. وراح ينظر.

ثم وقف فوق نتوء صخري وراء الفتحة الثانية التي انتهت تقريباً. فإذا قصفت الفتحة الأولى تحت وطأة الهجوم، انهارت الثانية، التي لم تبلغ بعد كامل قوتها، ثم ينسحق جيليات وراء هذا الانهيار. إن جيليات جدير أن ينسحق قبل أن يشاهد مصير القارب والآلة وكل ما بناه، في المكان الذي اختاره لنفسه. هكذا كان القدر المنتظر، وقد قبله جيليات، بل أراده أيضاً.

كان يجب أن يموت أولاً في حالة حدوث مثل هذه الكارثة، ذلك لأن الآلة بالنسبة إليه تفعل فيه وكأنها كائن حي. ورفع بيده شعره الذي ألصقه ماء المطر، وأمسك المطرقة بقوّة بقبضة يده، وانحنى إلى الوراء على هيئة المهدد، وانتظر.

والواقع أنه لم ينتظر طويلاً.

لقد أعطت الإشارة صاعقة منفجرة، ثم انقضت مزنة شديدة من المطر، وعاد الظلام في كل مكان، ثم لم يبق من النور غير ضياء البرق. كانت الهجمة المظلمة تقترب.

وارتفعت موجة هائلة من الماء، مرئية عبر ضربات البروق، من الجانب الشرقي وراء الصخرة «الرجل». لقد كانت شبيهة باسطوانة ضخمة من الزجاج. كانت خضراء بلون البحر دون زبد وقد سدت البحر كله. وكانت تتقدم نحو كاسر الموج. ثم تنتفخ وهي تقترب، فبدت وكأنها اسطوانة عريضة من الظلمات متدحرجة فوق سطح المحيط. هذا والرعد يرسل هزيمة المصمم.

وبلغت الموجة حيث الصخرة «الرجل» فانكسرت إلى نصفين ثم تجاوزتها. وبعودة هذين النصفين إلى التلاحم ظهرت وكأنها جبل من

الماء، وبعد أن كانت متوازية مع محطّم الأمواج أصبحت ذات شكل عمودي. لقد كانت هذه الموجة على صورة جسر خشبي كبير.

وانقضّ هذا الجسر على محطّم الأمواج. فكان للصدمة زئير. ثم أمحى كل شيء في الزبد.

لقد أعمت كتلة البحر كل شيء حولها خلال لحظات. ولم يعد يظهر أمام الرائي غير ركام هائج، ولعاب هائل، وبياض الكفن الدائر في الضريح، إنه كومة من الضجيج يعمل تحتها الموت الحاصد.

وتبعثر الزبد. وكان جيليات واقفاً في مكانه.

لقد صمد السدّ جيداً. فلم تنكسر سلسلة، ولم يقتلع مسمار. وكشف السد تحت التجربة عن ميزتي كاسر الموج. لقد كان مرناً وصلباً. وذابت أمامه الموجة العارمة مطراً.

إن سيلاً من الزبد، منزلقاً على امتداد تعرجات المضيق، راح يموت تحت القارب. إن الرجل الذي صنع هذه الكمامة للمحيط لم يسترح أبداً.

وكان من حسن الحظ أن العاصفة قد تاهت لمدة من الزمن. وعاد سعي الأمواج الحثيث يصطدم بالجوانب الصخرية. لقد كانت هدنة. فاستغلها جيليات لتكميل الفتحة الخلفية.

وانقضى النهار في هذا النشاط المستمر. وتابعت العاصفة هجماتها العنيفة ضد الصخرة في احتفال حزين. وكان حوض الماء وحوض النار يندلقان بما فيهما دون نضوب. وكانت تموجات الرياح العالية والمنخفضة شبيهة بحركات التنين.

وعندما جاء الليل لم يشعر به أحد، لأنه كان منتشراً قبل ذلك.

على أن الظلمة لم تكن كاملة أبداً. فالعواصف التي كانت تضيئها البروق وتعميها تتناوب في الظهور مرئية وخفية. البياض في

كل مكان، ثم ينتشر السواد في كل مكان أيضاً. وهكذا كان يشاهد خروج الرؤى ودخول الظلمات.

إن منطقة من الفوسفور الأحمر، حمرة الشمال، كانت تخفق كما تخفق أسمال من اللهب الطيفي وراء كثافات الغيوم. فينتج عنها شحوب واسع. وكانت الأمطار الواسعة الممتدة مضيئة نيرة.

هذه الأنوار كانت تساعد جيليات وتقوده. وقد توجه مرة نحوها وقال للبرق: احمل لي هذا الشمعدان.

واستطاع، في ضوء هذا اللهب أن يزيد ارتفاع الفتحة الخلفية عن الفتحة الأمامية. وهكذا أصبح كاسر الموج كاملاً تقريباً.

وبينما كان جيليات يربط مقدم السد في قمته بحبل لتقويته، صدمته هبة ريح شديدة في وجهه. فأرغمته على أن يرفع رأسه. لقد كانت الرياح تدخل إلى المضيق. وكانت قد تحولت فجأة إلى اتجاه شمالي شرقي. وهكذا عاد الهجوم ضد العنق الشرقي. ألقى جيليات نظرة نحو البحر.

إن محطم الأمواج سيكون هدف انقضاض جديد. لقد كانت تقترب ضربة جديدة. كانت هذه الموجة شديدة، وعقبتها ثانية، ثم أخرى، وأخرى أيضاً. خمس أو ست منها تنقض مجتمعة في جلبة شديدة، ثم موجة أخيرة رهيبة.

كانت هذه مجموعة من القوى، تملك ما لا ندركه من شيء حي. ولم يكن من المتعذّر على المرء أن يتصور في هذا الشكل المتورم وفي ذاك الشفوف مشاهد من الخياشيم والزعانف.

لقد تسطّحت وتفتّتت فوق كاسر الموج. إن شكلها الحيواني تقريباً قد تمزّق على هذا الكاسر على هيئة انبجاس شديد. وكان هذا المشهد، فوق تلك الكتلة من الصخور والأخشاب، شيئاً أشبه ما يكون بانسحاق واسع لثعبان ذي سبعة رؤوس. لقد كانت الموجة

الهائجة تخرب وهي تموت. فيبدو الماء وكأنه يتشبث ويعض. إن هزة عميقة قد حرّكت الصخرة. وقد امتزج بها زئير حيوان وحشي.

وكشف الزبد بعد هبوطه عن خراب. لقد فعلت المحاولة الأخيرة فعلها. وتألم كاسر الموج، إذ إن جسراً طويلاً وثقيلاً، قد انتزع من الفتحة الأمامية، وقذف به إلى ما وراء السدّ الخلفي، فوق الصخرة التي اختارها جيليات مركزاً لمعركته من قبل. وكان من حسن حظه أنه لم يعد إليها بعد ذلك. فلو كان هناك لمات توًّا.

وقد حدث في سقوط هذا الجسر الخشبي شيءٌ فريد، أنقذ جيليات من ارتداداته المحتملة، وذلك يمنع الجسر من القفز مرة أخرى. بل كان هذا السقوط ذا فائدة له. كما سنرى بعد ذلك، بل إن بين الصخرة الناتئة والتعرج الداخلي للمضيق، مسافة، بل شق كبير، شبيهة بانحناء الفأس. وقد علق أحد طرفي الجسر بعد أن قذفه الموج في هذا الشق. فاتسع الشق بسبب ذلك.

وخطرت في بال جيليات فكرة.

أن يضغط بقوّة على الطرف الآخر.

إن الجسر الذي علق في شق الصخرة الذي وسّعه، كان يخرج منه مستقيماً كذراع ممدودة. وكانت هذه الذراع تمتد متوازية مع سطح المضيق الداخلي، والجسر الحر يبتعد عن نقطة الارتكاز هذه حوالي عشرين إبهاماً. وهي مسافة جيدة. لجهد يجب أن يبذله.

وتشبث جيليات بقدميه وركبتيه وقبضتيه بالتعرج الداخلي ثم أسند كتفيه إلى العتلة الهائلة. وكان الجسر طويلاً، مما زاد قوّة الضغط. أما الصخرة فقد تزلزلت. ومع ذلك فقد اضطر جيليات أن يكرر محاولته أربع مرات. فتفصد من شعره عرق بمقدار ما كان يسيل من الماء فيه. وكانت محاولته الرابعة محاولة جنونية. وخرج صوت

مبحوح من الصّخر، فانفتح الشق وكأنه فك كبير، وسقطت الكتلة الثقيلة في المضيق بين الصخرتين ترافقها ضجة رهيبة.

لقد سقطت مستقيمة، أي دون أن تنكسر.

وتبع، «الجسر- العتلة» الصخرة، فكاد جيليات يسقط وراءه. كان القعر مليئاً بالحصى، وكان فيه قليل من الماء. فامتد هذا العمود الحجري بين الصخرتين الكبيرتين المتوازيتين وشكل بذلك سوراً بينهما. أما الماء وراء هذه العارضة الحجرية فهو هادئ تقريباً.

كان هذا السور أقوى كثيراً من مقدم المركب دوراند العالق بين الصخرتين. لقد جاء هذا السدّ في الوقت المناسب.

أما ضربات البحر فقد تتابعت. والموج مستمر بعناد في الانقضاض على السدّ. وقد بدأت الفتحة الأولى تنهار وتتفتّت. وهكذا أصبح اتساع الفجوة أمراً لا سبيل إلى تجنبه، بل لا سبيل إلى معالجته. لقد تغلبت الموجات الثائرة على العامل.

وقد كشف تفريغ كهربائي، أضاء الصخرة لجيليات، عن فداحة الخراب الذي حدث في محطم الأمواج، فالجسور تحطّمت، أما أطراف الحبل والسلسلة فقد أصبحت تتأرجح في الرياح، وظهر تمزق في وسط الجهاز. وأما الفتحة الثانية فقد كانت سالمة من كل أذى.

وكانت كتلة الحجر التي قذفها جيليات بين صخرتي دوفر وراء كاسر الموج، من أصلب السدود، إلاّ أن فيها نقصاً فاضحاً، هو شدة انخفاضها. كانت ضربات البحر عاجزة عن تحطيمها، ولكنها كانت قادرة على تجاوزها.

إن ارتفاع هذا البرزخ القليل من الغرانيت يشغل بال جيليات.

ولم يلبث النقص حتى ظهر بصورة عملية. إن الرياح العاصفة لم تترك محطم الأمواج بعد ذلك.

ثم انفجرت ضجة جديدة.

فمدّ جيليات رأسه. ووجد أن الفتحة التي تمثل جبهة السدّ قد مزقت تمزيقاً. وكانت أطراف الجسور الخشبية ترى قافزة في الموج. لقد استعان البحر بمحطم الأمواج الأول لينقض به على الثاني.

وشعر جيليات بما يشعر به القائد حين تنهار مقدمة جيشه. ولكن صف الجسور الثاني قد صمد أمام الصدمة. وأصبحت أخشاب الفتحة الأولى أداة بيد البحر يقذف بها الفتحة الثانية يساعده على ذلك أنها لم تتفتت بسبب إحكام ربطها. فتحولت ميزة الدفاع التي صنعها جيليات حين بناها إلى وسيلة شديدة للتهديم. فقد كانت أخشاب الفتحة الأولى هي القذيفة وكان البحر هو المنجنيق.

وتتابعت الضربات في انتظام يبعث على الأسى. أما جيليات، الغارق في تفكيره وراء هذا الباب الذي سده بنفسه، فكان يستمع إلى ضربات الموت الراغب في الدخول.

كان يقول في نفسه بمرارة: لولا مدخنة دوراند التي حبسها الحطام، لكنت الآن بل منذ الصباح، في غرناسي، مع القارب الناجي، والآلة المنقذة.

وتحقق ما كان يخافه. لقد حدث الانهيار. وكان له صدى كصدى الحشرجة. لقد اندفعت أخشاب الفتحتين كلها نحو السد الحجري، بعد أن سحقت وامتزج بعضها بالبعض الآخر وكأنها شكل فوضوي ينقذف فوق جبل ثم يتوقف عنده.

وراح جيليات يتساءل أمام هذه الكارثة عن الكيفية التي يحول بها دون وصول هذه العاصفة الثائرة إلى القارب؟

والواقع أن هذه الرياح الشديدة لم تكن في حاجة إلى كثير من الوقت لكي تعصف بالماء الموجود في داخل المضيق، وهكذا تبقر بطن القارب وتغرق الآلة بعد بضع ضربات من البحر.

كان جيليات يفكر وهو يرتعش. ولكنه لم يكن يستسلم أبداً. فلا هزيمة محتملة بالنسبة لهذه النفس الإنسانية.

ووجدت العاصفة طريقها نحو العنق الصخري، وغاصت في سعار شديد بين جداري المضيق. وفجأة ترددت في المضيق، وتصادت، على خطوات قليلة وراء جيليات، قضقضة، أشد رهبة من كل ما سمعه منها جيليات حتى تلك الساعة.

لقد كانت هذه القضقضة في الجانب الذي يقيم فيه القارب.

إن شيئاً محزناً كان يحدث. وانطلق جيليات نحو مصدر الصوت.

ولم يكن في وسعه، وهو عند العنق الشرقي، أن يرى القارب بسبب تعرّجات المضيق. ثم وقف عند المفرق الأخير، وانتظر حتى يلمع البرق. ووصل البرق فكشف له عن الوضع القائم.

لقد ظهر له أن القارب لم يصب بأيٍّ سوءٍ، مرئيٍّ، فهو في وضعه المكين، في حرزٍ حريزٍ، ولكن هيكل دوراند كان في حالة محزنة حقاً.

إن هذا الخراب وفي مثل هذا الإعصار، جدير أن يبدو شديد الاتساع. كان بادياً خارج الماء معروضاً في الفضاء فوقه. والواقع أن الفجوة التي أحدثها جيليات في هيكل المركب دوراند لإخراج الآلة، قد ساعدت على إضعاف الحطام وزلزلته. وكان جسر حيزوم السفينة مقطوعاً لقد كانت السلسلة الفقرية لهذا الهيكل متكسرة محطّمة.

هذا والعاصفة المجنونة تهب فوق الحطام.

وما رآه جيليات وهو يقترب من هذا الحطام يبدو مستعصياً على كل علاج ممكن. فالقطاع المربع الذي أحدثه في المركب قد تحوّل إلى جرح خطير. وقد سبّبت الرياح لهذا القطاع كسراً. وقد انقسم الحطام إلى نصفين بسبب هذا الكسر العرضي. أما النصف الخلفي،

المجاور للقارب، فقد بقي عالقاً بشدة في الصخر، وأما النصف الأمامي، الذي كان يواجه جيليات، فقد كان يتدلّى في الفضاء، وتُؤرجحه الرياح بضجة مخيفة.

ومن حسن الحظ أن القارب لم يعد تحت الحطام.

ولكن هذا التأرجح كان يزلزل النصف الثاني للهيكل، وهو النصف الذي ما يزال مغروساً جامداً بين صخرتي دوفر. والمسافة ليست طويلة بين الزلزلة والتمزّق. إن في وسع النصف المتمزّق المنهار أن يجرّ وراءه النصف الآخر بصورة مفاجئة، تحت وطأة الرياح العنيدة، وبما أن هذا النصف يكاد يلامس القارب، فإن كل شيء سيكون مصيره الغرق: القارب والآلة.

كان جيليات يرى ذلك أمام عينيه.

إنها الكارثة. فكيف السبيل إلى تجنّبها؟

وكان جيليات من أولئك الذين يستخرجون النجدة من الخطر نفسه فانطوى على نفسه قليلاً يتأمّل ويفكّر.

ومضى جيليات نحو مصنعه فحمل فأسه، ثم صعد نحو الحطام. وثبت قدميه فوق القسم الذي لم يتزلزل بعد، ثم راح يجهز على الجسور المحطمة، وانطلق يقطع ما كان قد بقي من الأربطة في الهيكل المتدلّي، وهو يطلّ فوق الهوّة القائمة تحته بين الصخرتين.

فالفصل الكامل بين نصفي الحطام، وتحرير النصف المتمكن، ورمي ما كانت الرياح قد أمسكت به من المزق إلى الموج، ومشاركة الإعصار في عمله. كانت هي مهمة جيليات. لقد كانت تتميّز بالخطر بأكثر مما تتميّز بالإزعاج.

وبلغ الإعصار قمّة ثورته. وبعد أن كانت العاصفة مخيفة، أصبحت بشعة مرعبة. وانتقلت عدوى التشنج من البحر إلى السماء. وكان الضباب يبدو، حتى ذلك الوقت، السيّد غير المدافع، كان يبدو

وكأنه يفعل ما يشاء، فهو الذي يبعث الحركة المندفعة، ويصب الجنون في الأمواج، في الوقت الذي يحتفظ فيه بنوعٍ لا ندركه من الوعي الرهيب. في القاع سعار مجنون، وفي الأعاليّ غضب ثائر. السماء هي الهبوب المستمر، والمحيط هو الزبد. ومن هنا سلطة الرياح. إن العاصفة شيء عبقري. وفي هذه الأثناء كان سكر ذعرها الخاص قد بعث الاضطراب في أعماقها. إنها لم تعد غير زوبعة لولبية. لقد كانت العمى الذي يلد الليل. وفي العواصف الشديدة فترة يحدث فيها الذهول، وهي بالنسبة إلى السماء نوع من الصعود إلى الدماغ. فالهوّة لا تعود تدرك ما تصنع. إنها تقصف وهي تجسّ الأشياء من حولها. فلا شيء أبعث على الرعب. إنها الساعة القبيحة الشوهاء. أما دبدبة الصخرة فقد كانت في قمّة نشاطها. لكل عاصفة اتجاهها الخفي، ولكنها في تلك الفترة، تضيّع اتجاهها هذا. إنه مكان الإعصار الخبيث. في هذه الفترة، تكون الرياح كما كان توماس فولر يقول: مجنونة ثائرة. وفي هذه الفترة بالذات يحدث التبذير المستمر للطاقة الكهربائية تلك التي يسميها بيدنغتون: «شلال البروق». وفي هذه الفترة، ووسط أشد الضباب سواداً، يبدو ما لا ندرك كهنه وسببه، للتجسس على الانشداه الكوني، هذه الدائرة من اللهب الأزرق التي كان يسمّيها شيوخ البحارة الإسبانيون: «عين الإعصار». لقد كانت هذه العين المحزنة القاتمة مثبتة على جيليات نفسه.

أما جيليات من جانبه فقد كان ينظر إلى الضباب. وها هو يرفع رأسه. ينتصب بكبريائه الواثقة بعد كل ضربة من ضربات فأسه.

كان ضياعه من الشدّة، أو كان يبدو كذلك، بحيث لم تكن مندوحة من عودة الكبرياء إليه. فهل كان يائساً؟ كلا. لقد كان أمام سعار المحيط في قمّة ثورته وهيجانه، متعقّلاً وجريئاً في الوقت نفسه. وكان لا يضع قدميه إلا فوق النقاط الصلبة من الحطام. كان يخاطر

وكان يحتاط أيضاً. لقد كان هو أيضاً في قمّة نشاطه. وكان هذا النشاط قد تضاعف. فأذهلته جرأته. وضربات فأسه ترنّ وكأنها تحديات موجهة. وكان يبدو أنه قد ربح في ميدان الوعي ما كان الإعصار قد أفقده إياه. إنه نزاع مثير. فكان الفيض الذي لا ينضب من جانب، وكان النشاط الذي لا يتعب من جانب آخر، والعقبى لمن يرغم الآخر على الاستسلام.

المهارة وحدها هي التي تستطيع أن تناضل ضد هذيان القوى. هذه المهارة كانت انتصار جيليات. لقد كان يريد سقوطاً جماعياً لكل النفايات الممزّقة. ولذلك فقد كان يضعف الأربطة والكسور بفأسه دون أن يقطعها بصورة نهائية، تاركاً بضعة ألياف للإمساك بالباقي من الجزء المتمزّق. وتوقف فجأة، وهو يرفع الفأس عالياً. لقد انتهت عمليته. وانفصلت القطعة المتدلّية كلها مرّة واحدة.

لقد غرق هذا النصف من هيكل الحطام بين صخرتي دوفر، تحت جيليات الواقف فوق النصف الثاني، منحنياً وناظراً. لقد غاص في الماء على شكل عمودي، وقذف الرشاش في الصخرتين، وتوقّف في الجانب الضيّق بينهما قبل أن يلامس القعر. وبقي بحيث يستطيع أن يسيطر على الموج الثائر على علوٍّ يتجاوز اثنتي عشرة قدماً، وهكذا تحوّل هذا الجزء الخشبي إلى جدار بين الصخرتين، تماماً كالصخرة التي قذف بها أبعد قليلاً في المضيق، هذا الجدار لا يكاد يتيح للزبد أن يمر من طرفيه إلا بالقدر اليسير، وبذلك كان السدّ الخامس الذي بناه جيليات ضد الإعصار في هذا الزقاق من البحر.

وكان الإعصار الأعمى، قد عمل في هذا السدّ الأخير.

وكم كان من حسن الحظ أن ضيق ما بين الصخرتين قد منع هذا السدّ من النزول حتى القعر، يضاف إلى ذلك أن في وسع الماء أن يمرّ تحت العقبة مما ينزع عنه شيئاً من قوته. فما يمر في المكان

المنخفض لا يمكن أن يمر في المكان المرتفع. وهنا يكمن، بصورة جزئية، سر كاسر الموج الطافي فوق الماء.

ومنذئذٍ، لم يعد هناك أي خوف على القارب والآلة، مهما يكن من أمر الضباب المتكاثف. إنه لم يعد في وسع الماء أن يتحرّك حولها. فبين سياج دوفر الذي كان يحميهما من الغرب، وبين السد الجديد الذي كان يحميهما من الشرق، تبدو كل ضربة من ضربات البحر عاجزة عن الوصول إليهما.

لقد استخرج جيليات سلامته من الكارثة نفسها. وقد ساعده الضباب بصورة إجمالية.

وبتحقيق هذا كله، رفع جيليات بجمع يده قليلا من ماء المطر في بركة من البرك، وشربه ثم قال للضباب: غبي أبله!

إنها فرحة ساخرة لدى الذكاء المناضل حين يحسّ البله الواسع للقوى الثائرة وقد انتهت إلى تقديم الخدمات لخصومها، وكان جيليات يحس بتلك الحاجة الدائمة لإهانة خصمه الذي يرجع تاريخه إلى أبطال هوميروس.

ونزل جيليات إلى القارب مستغلاً ضوء البروق ليتفحّصه. لقد حان الوقت لتقديم عون ما إلى هذا القارب المسكين، لقد هزته العاصفة هزاً شديداً. ولم يلاحظ جيليات بنظرته السريعة التي ألقاها أي نقص أو تخريب. ومع ذلك فقد كان واثقاً من أنه قد تحمّل الكثير من الصدمات العنيفة. ولم يكد الماء يهدأ حتى انتصب هيكل القارب، أما المراسي فقد قامت بواجبها خير قيام، وأما فيما يتعلق بالآلة فإن سلاسلها الأربع قد حفظتها من كل سوء.

وبينما كان جيليات ينهي هذا الاستعراض، مرّ بالقرب منه بياض ثم غاص في الظلام. لقد كان طيراً من طيور زُمّج الماء.

لا شيء خير من هذه الرؤية وسط العواصف. فوصول الطيور

يعني أن العاصفة تنسحب.

وهناك علامة طيبة أخرى. هي الرعد الذي كان يتضاعف.

إن ضربات العاصفة الكبرى هي التي تفتتها. والبحارة كلهم يعرفون ذلك، إن الامتحان الأخير هو امتحان قاس، ولكنه قصير. إن قمّة الصاعقة تعلن نهايتها.

وانقطع المطر فجأة. وتوقّف الرعد وكأنه لوح خشبي سقط أرضاً. فهو ينكسر فيما يقولون. وآلة الغيوم الهائلة قد تبعثرت أجزاؤها. وأخذت فجوة في السماء الوضيئة تغرق الظلمات. فدهش جيليات، وعاد ضوء النهار.

لقد استمرّت العاصفة قريباً من عشرين ساعة.

والرياح التي حملتها قد عادت بها من حيث أتت. وملأ سقوط الظلمة جوانب الأفق. أما الضبابات التي تقطّعت وانطلقت هاربة فقد كانت تحاول التجمّع في اختلاطٍ عجيبٍ وجلبةٍ شديدةٍ، وانطلقت من أقصى الغيوم إلى أقصاها، حركة تراجع، وكانت تسمع أصداء دمدمة طويلة متضائلة، ثم نزلت بضع قطرات أخيرة من المطر، ثم انطلقت هذه الظلمة المليئة بالرعود وكأنها قطعان من العربات الرهيبة.

وفجأة بدت السماء زرقاء.

ولاحظ جيليات أنه كان منهكاً. والنوم ينقض فوق المنهك انقضاض الطير الكاسر. فترك جيليات نفسه تنحني وتسقط في القارب دون أن يختار مكاناً معيناً لنفسه، ونام. وبقي كذلك بضع ساعات جامداً ومتمدّداً، لا يكاد يتميّز من الجسور والألواح الخشبية التي كان يتمدّد بينها.

وعندما استيقظ أحسّ بالجوع.

الكتاب الرابع

الأغوار المضاعفة للعقبة

1

من جاع لم يكن الجائع الوحيد

كان البحر يهدأ. ولكن بقية هيجانه لم تلبث موجودة في عُرضه بحيث تتعذّر معها مغادرة المكان. على أن النهار قد تقدّم كثيراً. ومن الواجب أن يسافر المرء منذ الصباح لكي يصل إلى غرناسي قبل منتصف الليل مع الحمل الذي كان القارب يحمله.

ويدأ جيليات يتعرّى من ثيابه، كوسيلة وحيدة للتدفئة، رغم الجوع الذي كان يلحّ عليه إلحاحاً شديداً. وكانت ثيابه مبلّلة بالعاصفة، لكن ماء المطر قد غسل ماء البحر.

ولم يحتفظ جيليات إلا بسرواله.

فمدّ هنا وهناك وأثبت بحصوات فوق نتواءاتٍ الصخرة من حوله، قميصه، ومريلته، وجلد الخروف وغيرها لتجف.

ثم فكّر في تناول الطعام.

وقد استعان جيليات بسكينة التي عني بشحذها عناية خاصة،

وانتزع بها بعض الأصداف من الصخور. ومحتويات هذه الأصداف كما نعلم تؤكل نيئة. ولكن هذه الوجبة كانت ضئيلة بعد الكثير من الجهد الذي بذله. لقد نفذ البسكويت. أما الماء فلم يعد ينقصه.

واستغلّ هبوط ماء البحر ليفتش في الصخور باحثاً عن بعض من جرادات البحر. لكنه لم يكن يفكّر في أنه لم يعد بوسعه أن يشوي ما يصيده أو يخرجه من البحر. ولو قصد مستودعه، لوجده خرباً منهاراً تحت المطر. كان خشبه وفحمه قد غرقا، أما مؤونته من المُشَاقّة والدسار، التي كانت تقوم بدور الصوفان فلم يبق منها خيط دون بلل. وإذن، فلا سبيل إلى إشعال النار أبداً.

أما الكير فقد خرب وتفتّت، وكذلك كُنّةُ موقد الحدادة فقد انفرطت أيضاً. وكان في وسع جيليات أن يقوم بعمل نجّار فيما بقي من المعدات لا بعمل حدّاد، بعد التخريب الذي أحدثته العاصفة البحرية. ولكن جيليات، لم يكن يفكّر، حينها، بورشته.

لقد انطلق يفتّش عن وجبة طعام له بعد أن أخذت معدته تتمزّق من الجوع، دون أن يفكّر في أي شيء آخر. وكان يهيم على وجهه، لا عند عنق الصخرة فقط، بل في الخارج أيضاً، عند أطراف الصخور البارزة في مستوى الماء حيث سبق للمركب دوراند أن اصطدم قبل ذلك بعشرة أسابيع.

والحقيقة أن ما كان يبحث عنه جيليات من الطعام متوفر خارج دوفر أكثر منه داخلها. فمن عادة السراطين، عند انخفاض البحر، أن تظهر لتستنشق الهواء. وهي تتدفأ في حرارة الشمس مختارة. إن هذه الكائنات الشوهاء تحب فترة الظهيرة. وخروجها من الماء في وضح النهار شيء غريب «وارتباكها في ظهورها بكثرة» يبعث على القرف تقريباً. فإذا رؤيت في خطوها المنحرف، تصعد ثقيلة، من ثنية إلى ثنية، طبقات الصخور السفلى، وكأنها درجات سلم، أرغم الناظر

إليها على الاعتراف بأن في المحيط ديداناً قذرة.

هذا وجيليات يقتات من هذه الديدان لمدة شهرين اثنين.

ومع ذلك فإن جرادات البحر كانت تهرب في ذلك اليوم. لقد طرد الإعصار البحري هذه الحشرات المتوحّدة نحو مخبئها ولم تكن بعد قد عادت طمأنينتها إليها. أما جيليات فكان يحمل بيده سكينة مفتوحة، يقتلع بها من فجوات الصخور، بين فترة وأخرى، صدفة تحت مقذوفات البحر المنتشرة فوقها. وكان يأكل وهو يسير.

كان يحب ألا يكون بعيداً عن المكان الذي غرق فيه كلوبان.

وبينما كان جيليات قد قرّر الاكتفاء بأصداف البحر هذه، حدث عند قدميه اضطراب خفيف في الماء. إن سرطاناً كبيراً، قد قفز في ماء البحر، خائفاً منه عند اقترابه. ولم يكن السرطان قد غاص بعيداً فيغيب عن ناظري جيليات.

وانطلق جيليات يركض وراء السرطان في الطبقة السفلى من الصخرة. ولكن السرطان كان قد هرب ناجياً بنفسه.

وفجأة اختفى كل شيء أمامه.

لقد اختبأ السرطان في فجوة تحت الصخرة.

فتشبّث جيليات بطرف ناتئ من الصخرة ومد رأسه لينظر إلى جوف الماء. والواقع أنه قد كانت هناك فجوة كبيرة. وكان من الواجب أن يكون السرطان قد اختبأ فيها.

لقد كانت هذه الفتحة شيئاً أكثر من فجوة، إنها باب كبير. وكان البحر يدخل تحت هذا الباب، لكنه لم يكن عميقاً. لقد كان الغور مرئياً وهو مغطى بالحصى. وكانت هذه الحصوات خضراء اللون يغلفها نوع من الأشْنة (العشب)، مما يدل على أنها لم تعرف الجفاف أبداً. لقد كانت شبيهة بقمم رؤوس أطفال ذي شعور خضراء.

ووضع جيليات سكينه بين أسنانه، ثم هبط على يديه وقدميه من الصخرة الوعرة وقفز في ذلك الماء، الذي بلغ مستوى كتفيه.

ونفذ إلى ما تحت الباب. فوجد نفسه في ردهة خشنة معقدة مع شيء شبيه بالقنطرة فوق رأسه. وكانت جوانب هذه الردهة ناعمة ملساء. لقد غاب السرطان عنه. وتقدم في ضوء متضائل. وبدأت الرؤيا تتلاشى أمامه. ثم انقطعت القنطرة فوقه بعد خمس عشرة خطوة. لقد أصبح خارج الردهة. واختفى الفضاء حوله. وبالتالي ذهب الضياء تماماً. وكانت حدقتاه قد تمددتا، وبفضل هذا التمدّد تجدّدت أمامه رؤية كافية. فواجهته مفاجأة.

لقد وجد نفسه في ذلك الكهف الغريب الذي سبق له أن زاره في الشهر الماضي. والفرق بين الزيارتين أنه قد دخل إليه في المرة السابقة عن طريق البحر. إن هذه القنطرة التي رآها غارقة، هي التي مرّ بها. وبدا اجتيازها ممكناً عند انخفاض البحر.

كانت عيناه قد تعودتا على الرؤية، فأخذ يميّز ما حوله أحسن فأحسن. لقد كان مندهشاً. إنه قد وجد هذا القصر المدهش من الظلام، هذه القنطرة، وتلك الركائز، هذه الدماء أو تلك الأرجوانيات، هذه النباتات الحجرية. وفي القاع، ذلك السرداب القبري تقريباً، وهذا الحجر، «المذبح على التقريب».

إنه لم يعِ كل هذه التفصيلات، ولكنه كان يذكرها بصورة إجمالية، ويراها كرّة أخرى أمامه. لقد رأى أمامه مرة أخرى، وعلى مستوى مرتفع شيئاً ما، الفجوة التي نفذ منها في المحاولة الأولى، والتي كانت تبدو من مكالمة بعيدة عن متناول يده.

ثم لاحظ بالقرب منه شقاً أفقياً من الغرانيت. وظن أن السرطان قد لجأ إليه. فأدخل يده فيه حتى أبعد حد ممكن، وراح يتجسس جوانب هذا الثقب من الظلمات.

وفجأة شعر كأن شيئاً يمسكه من ذراعه.

فكان الرعب الذي شعر به يتجاوز الوصف. إنه شيء رقيق، خشن، مسطح، شديد البرودة، لزج وحيّ أيضاً، قد استدار حول ذراعه العارية. وقد امتد أثر هذا الشيء حتى صدره. لقد كان ضغطه أشبه بضغط الحزام، ودفعه أشبه بدفع المثقب. وفي أقل من ثانية، اندفع شكل لولبي، لا يدرك كنهه، فاكتسح القبضة، والمرفق، ولامس الكتف. وكان رأس هذا الشكل الحلزوني ينقب تحت إبطه.

فارتد جيليات إلى الوراء، ولكنه شعر أنه لا يكاد يتحرك إلا قليلاً. كان كالمسمر في مكانه. وأمسك سكينه التي بين أسنانه، بيده اليسرى الحرة، واستند إلى الصخرة بجهد يائس ليخرج ذراعه. فلم ينجح في إزعاج الرباط الذي اشتد حولها، إلا قليلاً. وكان هذا الرباط مرناً كالجلد، صلباً كالفولاذ، بارداً كالليل.

ثم خرج من الشق شريط ثان ضيق وحاد. لقد كان كلسان خارج شَدْق حيواني. فراح يلحس صدر جيليات العاري بصورة مرعبة. وفجأة تمدد طويلاً والتصق بجلده ثم أحاط بجسده كله.

وفي الوقت نفسه رفع ألم فظيع عضلات جيليات المتشنجة، وكان ألماً لا يقارن بشيء. كان يحسّ أن شيئاً مستديراً رهيباً يخترق جلده. وبدا له أن شفاهاً لا تحصى، ملتصقة بلحمه، تحاول أن تشرب دمه. ثم تموّج شريط ثالث خارج الصخرة، وراح يتجسّس جسد جيليات ويسوط خاصرتيه وكأنه حبل، ثم يثبت فوقهما.

والحقيقة أن القلق في أعلى درجاته، يكون صامتاً. إن جيليات لم يرسل صرخة واحدة. وكان هناك من الضياء ما يكفيه ليرى الأشكال الكريهة التي انقضّت عليه ولصقت به. ثم خرج رباط رابع، سريع كالسهم في هذه المرة، وانقضّ على بطنه فأحاط به.

إن قطع هذه السيور اللزجة التي تحيط إحاطة شديدة بجسد

جيليات وفي نقاط متعددة، أمر غير محتمل. وقد كانت كل نقطة منها مصدر ألم غريب وفظيع. لقد كان يحس وكأن جمهرة من الأفواه الصغيرة تبتلعه مرّة واحدة.

وأخيراً خرج شريط خامس من الثقب. ولحق بالأشرطة السابقة فأحاط بما بين صدره وبطنه. فأضيف الضغط الشديد إلى القلق الشديد، فكاد جيليات يعجز عن التنفس.

وراحت هذه الأشرطة الدقيقة في أطرافها تتسع كما تتسع شفرة السيف حين تقترب من قبضته. ومن البدهي أن الأشرطة الخمسة كانت تتصل بمركز واحد. لقد كانت تمشي وتزحف فوق جيليات. ويحس بتنقل هذه الضغوط القائمة التي كانت تبدو له أفواهاً.

وفجأة خرج شيء مستدير لزج مسطح من أسفل الشق. إنه هو المركز. إن الأشرطة الخمسة كانت تتصل به كما تتصل شعاعات الدولاب «ببطيخة»، وكانت ترى في الجانب المقابل لهذه الاسطوانة القذرة بداية أشرطة ثلاثة أخرى، بقيت في أعماق الصخرة. وكانت في وسط هذا الشيء المستدير اللزج عينان تنظران.

لقد كانتا تنظران إلى جيليات. فعرف جيليات الأخطبوط.

2

الوحش

التصديق بالاخطبوط يفرض رؤيته

فالثعابين ذات الرؤوس السبعة تبدو مضحكة حين تقارن بالأخطبوط.

يتصرف المجهول بالمعجزة، ثم يستعين بها ليخلق الوحش. إن

أورفيوس، وهوميروس، وهزيود، لم يصنعوا غير الوهم، أما الله فقد صنع الأخطبوط. والله عندما يريد، يبرع في خلق الشر المقيت.

إن تعليل هذه الإرادة هو مصدر رعب للفكر الديني.

وفي الوقت الذي تتقرر به المثل العليا، ويكون الرعب هدفاً، فالأخطبوط هو أروع ما يتمثّل به هذا الهدف.

يتميّز الحوت بالضخامة، والأخطبوط صغير، أما بقر البحر فله درعه. والأخطبوط عار. ولوحيد القرن قرنه، أما الأخطبوط فلا قرن له. وللعقرب شوكتها، ولكن الأخطبوط لا شوكة له. ولكلب البحر زعانفه القاطعة، أما الأخطبوط فلا زعانف له، وللقنفذ سهامه ولكن الأخطبوط لا سهام له. وللسيف شفرته، والأخطبوط لا شفرة له. وللسمك الرعّاد صدماته الكهربائية، أما الأخطبوط فليس فيه تيار كهربائي. وللعلجوم جرثومته، والأخطبوط لا جرثومة له. وللأفعى سمها، ولكن الاخطبوط لا سمًّ له. وللأسد مخالبه، أما الأخطبوط فلا مخالب له. وللتمساح شدقه، والأخطبوط لا أسنان له.

ليس للأخطبوط، كتلة عضلية، أو صرخة مهددة، أو درع، أو قرن، أو شوكة، أو لاقطة، أو زعانف قاطعة، أو شفرة سيف، أو صدمات كهربائية،أو جرثومة، أو سم، أو مخالب، أو أسنان.

إن الأخطبوط هو أشدّ الحيوانات الوحشية تسلّحاً.

فما هو الأخطبوط إذن؟ إنه المحجم.

في الصخور القائمة وسط البحر، حيث يتسع الماء، ويخفي كل روائعه، وفي فجوات الصخور التي لم يزرها أحد، وفي الغيران المجهولة حيث تكثر النباتات والأصداف، تحت أبواب المحيط العميقة، يخاطر السابح الهائم فيها، وقد اجتذبه جمال المنطقة، بمواجهة لقاء. فإذا حدث هذا اللقاء، لا تكن فضولياً، بل انج بنفسك. فأنت تدخل معجباً مأخوذاً، ثم تخرج جزعاً خائفاً.

هذا هو اللقاء، المحتمل دائماً في صخور البحر.

إن شكلاً رمادياً يتذبذب في الماء، وهو ضخم كالذراع، إنه خرقة، هذا الشكل شبيه بمظلة مغلقة لا قبضة لها. هذه الخرقة تتقدّم نحوك شيئاً فشيئاً. وفجأة تنتفخ، فتظهر ثماني شعاعات متباعدة حول وجه ذي عينين، هذه الشعاعات تعيش، وفي تموجها احتراق، إنها نوع من العجلة، قطره أربع أقدام أو خمس حين يتمدد. إنه انبثاق رهيب لا يلبث حتى ينقضّ عليك.

الثعبان ذو الرؤوس السبعة، يخطف الإنسان.

أما هذا الحيوان فإنه يلتصق بفريسته، ويُغطيها، ثم يربطها بأربطته الطويلة. وهو في أسفله أصفر، وفي أعلاه ترابي، لا شيء يستطيع أن يصور لك هذا الشكل العجيب، فيقال إنه حيوان مصنوع من الرماد الذي يسكن في الماء. إنه عنكبوتي في شكله، وحربائي في لونه. فإذا ثار أصبح بنفسجياً. إنه شيء رهيب، إنه طري.

عُقَدُه تصفِّر، وملامسته تشلّ.

له هيئة داء الحَفَر والغنغرينة. إنه مرض صنع على شكل وحشي. لا سبيل إلى تمزيقه. إنه يلتصق بفريسته التصاقاً شديداً. كيف ذلك؟ بالفراغ. ثماني هوائيات، عريضة في جذورها، تنطلق وهي تَدِق ثم تنتهي في دقة الأبر. تحت كل منها صفان من البثور المتضائلة، الكبيرة منها قرب الرأس، والصغيرة عند الأطراف. في كل صف خمسة وعشرون بثراً، وفي كل هوائية خمسون بثراً.

والحيوان كله يحتوي على أربعمئة بثرة. هذه البثور هي المحاجم. والمحاجم هذه غضاريف اسطوانية زرقاء ضاربة إلى السواد. إن هذه الجذوع من الأنابيب تخرج من الحيوان وتدخل فيه. وفي وسعها أن تغوص في فريستها، بما يزيد عن الإبهام الواحد.

هذا الجهاز المصاص يتميز بلطافة ملمس الأرغن. إنه ينتصب

ثم ينسحب. وهو خاضع لأقل رغبة من رغبات الحيوان. وإن أروع الحساسيات لا تشابه قدرة هذه المحاجم على الانقباض، وهي تتناسب دائماً مع حركات الحيوان الداخلية والأحداث الخارجية.

إن كاتب هذه السطور قد رأى بعينه في سَرْك، وفي الكهف المسمى «بوتيك» أخطبوطاً يلاحق مستحماً. وقد قيس بعد قتله فكان طوله أربعة أقدام إنكليزية، وقد استطاع قاتلوه أن يحصوا بثوره الماصة. وكان الحيوان أثناء احتضاره يخرجها بصورة متشنجة. ويقول دنيس مونفور، أحد أولئك المراقبين الذين يرتفع بهم الإلهام أو ينزل بهم حتى السحر: إن لهذا الأخطبوط شهوات الإنسان، فهو يحقد. والواقع أن البشاعة، في ميدان المطلق، هي الحقد.

البشع ينتفض تحت ضرورة الاستئصال التي تجعله ذات طبيعة عدوانية. والأخطبوط السابح يبقى، إن صح القول، في قرابه.

والأخطبوط في طراده أو في كمينه، ينسحب، ويتضاءل، ويتمركز، ويتحول إلى أصغر أشكاله. إنه يختلط بالظل. فتبدو له هيئة ثنيةٍ في الموج. وهو شبيه بكل شيء، باستثناء كائن حي.

الأخطبوط هو المنافق الذي لا ننتبه له. ثم يفاجؤنا. إنه لزوجةٌ لها إرادة، فأي شيء أشد رهبة! واللزوجة هذه معجونة بالحقد.

إن هذا الكوكب البشع المفترس من البحر لا يظهر إلا في أجمل لون سمنجوني من الماء الصافي. لا يحسّ المرء باقترابه، فهو شيء مخيف. والواقع إننا حين نراه، نعتبر فريسة له تقريباً.

ومع ذلك فهو في الليل، ولا سيما في فصل اليقظة الجنسية، فوسفوري. إن لهذا الرعب غرامه. فهو ينتظر أنثاه. إنه يتزين، ويضيء. وفي وسعنا أن نراه تحتنا من على بعض الصخور، منيراً في الظلمات العميقة مزدهراً في إشعاع شاحب، وكأنه طيف شمسي.

الأخطبوط يسبح، كما أنه يمشي أيضاً. فهو سمكة كما هو

حشرة زاحفة. إنه يزحف في غور البحر. ويسير مستعملاً قوائمه الثماني.

لا عظم، ولا دم فيه، ولا لحم. إنه رخو، لا شيء فيه. إنه جلد فقط. يدير هوائياته الثمانية من الداخل إلى الخارج كأصابع القفاز.

وله فتحة واحدة، في وسط إشعاعاته المتشعبة. هذه الفجوة الوحيدة ما هي؟ هل هي دبره؟ هل هي فمه؟ إنها الاثنان معاً. الفتحة نفسها تقوم بالوظيفتين. مدخلها هو المخرج. الحيوان كله بارد.

إنها الآلة المفرغة للهواء التي تهاجمك. فراغ ذي قوائم. فلا ضربة مخلب، ولا عضة أسنان، بل تشريط لا سبيل إلى التعبير عنه. ليس المخلب شيئاً بالنسبة للمحجم. فالمخلب هو الحيوان الذي يدخل في لحمك، أما المحجم فأنت الذي تدخل به في الحيوان. عضلاتك تتورّم، وأليافك تلتوي وجلدك ينفجر تحت ضغط بشع، ودمك ينبجس ويمتزج بصورة رهيبة بالمادة اللمفاوية في هذه الحشرة اللزجة. الحيوان يلتصق بك بألف فم كريه، والثعبان ذو الرؤوس السبعة يتحد بالإنسان، والإنسان يتصل بالثعبان. إنهما شيء واحد. لا يستطيع النمر إلاّ أن يفترسك. أما الأخطبوط، المرعب! فهو يستنشقك. إنه يجتذبك نحوه وفي داخله، فتشعر، وأنت المقيد، اللزج، العاجز، إنك تُفْرَغُ في هذا الكيس الرهيب، الذي هو الوحش.

إن فيما وراء الحدث الرهيب، الذي هو أن تفترس حيًّا، ما لا سبيل إلى التعبير عنه، إنه أن تُشْرَبَ حيًّا.

هذه الحيوانات هي أشباح بالقدر الذي تكون فيه وحوشاً.

إن هذه الامتدادات من الوحوش، في العالم الخفي أولاً، ثم في العالم الممكن بعد ذلك، قد قدر وجودها، بل قد تكون رؤيت،

من قبل النشوة الجافية، والعين الثابتة للسحرة والفلاسفة. ومن هنا الرجم بوجود جحيم. إن الشيطان هو نمر العالم الخفي. وحيوان الأرواح قد أعلن عنه للجنس البشري بواسطة شخصين صاحبي رؤيا، أحدهما يسمى حنا، وثانيهما يسمى دانتي.

وإذا كانت دوائر الظلام متتابعة حتى اللانهاية في الواقع، وإذا كانت بعد كل حلقة، حلقة أخرى، ولئن كان هذا الاطراد في الشر باقياً في حركة لا نهائية، وإذا كانت هذه السلسلة، التي عزمنا على الشك بما يتصل منها بنا، موجودة حقًّا، فالثابت أن الأخطبوط في أحد الطرفين يبرهن على وجود الشيطان للطرف الآخر.

والثابت أن الخبيث في طرق يثبت للطرف الآخر وجود الخبث.

كل حيوان خبيث، ككل ذكاء داعر، هو أبو الهول.

أبو الهول الرهيب مقترحاً السرّ الرهيب. سرّ الشرّ.

هذا الكمال في الشرّ هو الذي دفع في بعض الأوقات عقولاً كبيرة إلى الاعتقاد بوجود إله مزدوج.

إن قطعة من الحرير، قد سرقت في الحرب الأخيرة من قصر إمبراطور الصين، تمثل كلب بحر يأكل التمساح، والتمساح يأكل الحية، والحية تأكل النسر، والنسر يأكل السنونو، والسنونو يأكل أسْرُوْعاً.

إن كل الطبيعة التي نراها بعيوننا هي آكلة، مأكولة. والفرائس يعضُّ بعضها بعضاً.

وفي هذه الأثناء، نرى علماء وفلاسفة في الوقت نفسه، وبالتالي من الذين يميلون إلى الإيمان بالخلق، يجدون أو يعتقدون أنهم قد وجدوا تفسير هذه الظاهرة. أما التفسير فهو كما يلي: الموت في كل مكان يطالب التكفين في كل مكان. والحيوانات المفترسة هي الكائنات المكفنة.

الحيوانات كلها يدخل بعضها في البعض الآخر. العفن هو الغذاء. إنه تنظيف للكرة الأرضية، مخيف. الرجل، آكل اللحم، هو الطامر أيضاً. فحياتنا مصنوعة من الموت. هذا هو القانون الرهيب. فنحن قبور وأضرحة.

هذا النظام الأزلي، في عالمنا الغسقي، ينتج وحوشاً. وتقولون أنتم: وما الفائدة من ذلك؟ هاكم هي.

هل هذا هو التفسير؟ وهل هذا هو الجواب عن السؤال؟ ولكن لم لا يكون هناك نظام آخر؟ ويعود السؤال من جديد.

نريد أن نحيا، ليكن ذلك. ولكن لنحاول أن نجعل من الموت مصدر تقدم لنا. ولْنَتُقْ إلى عوالم أقل ظلمة.

لنتبع الضمير الذي يقودنا إليها.

ولنذكر دائماً أن الحسن. لا يجده إلا الأحسن.

3

شكل آخر من المعركة في الهوّة

هذا هو الكائن، الذي كان يتصل به جيليات، منذ فترة قصيرة.

هذا الوحش كان يسكن في ذلك الغار. لقد كان الجني المرعب لذلك المكان. لقد كان الرعب الوحشي هو مركز هذه الروائع كلها.

وكان الأخطبوط في المكان نفسه حين نفذ جيليات للمرة الأولى إلى داخل هذا الغار.

الأخطبوط هناك في منزلة.

وعندما دخل جيليات إلى هذا الكهف للمرة الثانية، مطارداً

السرطان، لاحظ الشق الذي ظن أن السرطان قد لجأ إليه، فكان الأخطبوط جاثماً فيه، يترقبه.

هل يمكننا أن نتصوّر ذلك الانتظار؟

لا طائر يجرؤ على حضانة بيضه، ولا بيضه يجرؤ على التفريخ، ولا زهرة تجرؤ على التفتح، ولا صدر يجرؤ على الإرضاع، ولا قلب يجرؤ على ممارسة الحب، ولا فكر يجرؤ على الانطلاق، حين نفكّر في الانتظار الصابر المرعب والكامن في الهوّة.

وعندما أدخل جيليات ذراعه في الفجوة، تلقفه الأخطبوط.

وكان يمسك بها جيداً.

لقد كان هذا الذراع ذبابة العنكبوت.

وكان جيليات غارقاً في الماء حتى حزامه، وقدماه متشنجتان فوق استدارة الحصوات الزلقة، وذراعه اليمنى مشدودة، خاضعة لدوائر السيور المسطحة للأخطبوط، وقد كان نصفه الأعلى يختفي تحت طيات هذا الرباط المرعب وتشبيكاته.

وكانت ثلاث من أذرعة الأخطبوط متشبثة بالصخر، وخمس منها ملتصقة بجيليات. وبهذه الطريقة استطاع الأخطبوط أن يقيد جيليات بالصخرة. لقد كان فوق جسد جيليات مئتان وخمسون ماصة. إنه مزيج معقّد من القلق والقرف، أن تشعر بأن قبضة هائلة تمسك بك، بأصابعها المطاطية الطويلة التي تبلغ متراً تقريباً، وهي ممتلئة في داخلها ببثور حيّة تنقب في لحمك.

لقد قلنا سابقاً، إنه لا يسعنا أن ننتزع أنفسنا من الأخطبوط. فإذا حاولنا ذلك ضاق القيد واشتد. إن قوّة هذا القيد تزيد بنسبة زيادة قوتك والمزيد من الهز الشديد من قوّة الانقباض.

ولم يكن لجيليات ما يستعين به غير سكينه.

ولم يكن حرًّا من جوارحه غير ذراعه اليسرى، ولكننا نعلم أنه كان يستعملها بقوّة. حتى ليقال إن له يدين يُمنَيَيْنْ.

وسكينه المفتوحة كانت في تلك اليد.

وهوائيات الأخطبوط لا تقطع، إنه جلد لا سبيل إلى قَدّه، إنه ينزلق تحت الشفرة.

الأخطبوط مخيف، ومع ذلك فهناك وسيلة لاستعمال هذه السكين. وصيادو سَرْك يعرفون هذه الوسيلة، ومن رآهم يمارسون في البحر بعض الحركات المفاجئة، يعرف ذلك. وخنازير البحر تعرفها أيضاً، إن لها طريقتها الخاصة في عض جبّار البحر الذي تقطع له رأسه. ومن هنا مصدر الأعداد الكبيرة من حيوانات السّبيدَج والحبّار والأخطبوط التي تجدها في وسط البحر دون رؤوسها.

والواقع، أن نقطة الضعف في الاخطبوط، هي رأسه.

وجيليات لم يكن يجهل ذلك.

ولم يسبق لجيليات أن رأى أخطبوطاً بمثل هذه الضخامة. لقد وجد نفسه مرّة واحدة، في قبضة أكبر أنواعه. إن أي رجل سواه كان جديراً باليأس والاضطراب. وهنا فترة مناسبة يجب أن نستغلها للانقضاض على الأخطبوط شأننا مع الثور: إنها الفترة التي يخفض فيها الثور عنقه، كما أنها تلك التي يمد فيها الأخطبوط رأسه، وهي فترة قصيرة سريعة. فمن أضاع هذه الفرصة ضاع هو شخصيًّا.

إن كل ما أتينا على وصفه لم يستمر غير بضع دقائق. ومع ذلك فقد كان جيليات يحس نموّ الامتصاص وتزايده في 250 محجماً.

الأخطبوط خداع مخاتل. إنه يحاول مبدئياً أن يخدِّر فريسته. إنه يمسك بها، ثم ينتظر أطول وقت ممكن.

جيليات كان يمسك سكينه. وعمليات الامتصاص تنمو وتتزايد.

وكان ينظر إلى الأخطبوط الذي كان ينظر إليه.

وفجأة انتزع الحيوان من الصخر هوائيته السادسة، ثم قذف بها نحو جيليات، وحاول أن يمسك بها ذراعه اليسرى.

وفي الوقت نفسه مدّ رأسه بسرعة. وكاد «فم الدبر» يلتصق بصدر جيليات بعد ذلك بثانية واحدة. بحيث يصبح جيليات، الذي دميت خاصرته، وقيدت ذراعاه، ميتاً.

لكن جيليات، كان يقظاً. إنه يراقب في الوقت الذي كان فيه موضوع المراقبة.

وتجنب الهوائية، وفي الوقت الذي كان الحيوان ينقض فيه على صدره، أهوت قبضته المسلحة على الحيوان. وحدث تشنجان في اتجاهين معاكسين، تشنج الأخطبوط، وتشنّج جيليات.

لقد كان شيئاً أشبه بمعركة بَرْقَين من البروق.

وغرس جيليات طرف سكينه في الجسم اللزج المسطح، وبحركة دائرية شبيهة باستدارة ضربة السوط، محدثاً دائرة حول العينين، انتزع الرأس كما تنتزع سن من الأسنان.

وانتهى كل شيء. فسقط الحيوان كله.

فأشبه ذلك قطعة من القماش تنفصل. لقد تحطمت المضخة المستنشقة وتفتّت الفراغ. وتركت الأربعمئة محجم الصخرة والرجل مرة واحدة. وغرقت الخرقة في غور الماء. أما جيليات، الذي بهرته المعركة، فقد استطاع أن يرى فوق الحصى وعند قدميه، كومتين جيلاتينيتين مشوهتين، الرأس في جانب، والباقي في جانب آخر. نقول الباقي، لأننا لا نستطيع أن نقول: الجسد.

وتراجع جيليات، خوفاً من عودة محتملة لتشنّج الاحتضار، بعيداً عن هوائيات الحيوان.

ولكن الحيوان قد مات فعلاً. فأغلق جيليات سكينه.

4

لا شيء يختفي ولا شيء يفنى

حان وقت الإجهاز على الأخطبوط. وجيليات يكاد يختنق من التعب، ذراعه والنصف الأعلى من جسده بنفسجيان، ظهر فيهما أكثر من مئتي ورم، والدماء تنبثق من بعضها هنا وهناك. وعلاج هذه الأورام، هو الماء المالح. فغاص فيه جيليات. وفي الوقت نفسه راح يفرك جسده براحة يده. فاختفت الأورام تحت هذا الدلك.

وكان بتراجعه، وذهابه بعيداً مع الماء، قد اقترب، دون أن يلاحظ ذلك من الغار الصغير، الذي سبق له أن رآه قرب الشق حيث انقض عليه الأخطبوط.

كان هذا الغار يمتد في اتجاه منحرف جاف، تحت جوانب الغار الكبيرة. وكانت الحصوات المتجمعة هناك قد رفعت غور البحر فوق مستوى المدّ العادي. لقد كانت هذه الفجوة حنية عريضة منخفضة، وفي وسع الرجل أن يدخل إليها منحنياً، وكان الضياء الأخضر للكهف البحري يخترقه، ويضيئه إضاءة ضعيفة.

وقد حدث له، وهو يدلك جلده المتورم بسرعة، أن رفع عينيه بصورة آلية.

فغاص نظره في هذا الغار الصغير. وغمرته قشعريرة شديدة.

لقد بدا له أنه يرى في أعماق هذا الثقب شيئاً كالوجه الضاحك.

وكان جيليات يجهل كلمة هذيان، ولكنه كان يعرف الهذيان نفسه. إن الالتقاءات الخفية مع اللاواقعي، والتي نسميها هذيان، هي في الطبيعة، أوهام أو حقائق، إنها رؤى تمر. ومن وجد نفسه أمامها

فقد رآها حقاً. لقد قلنا، إن جيليات رجل مفكّر. وكانت له عظمة الرجل الذي يأتيه الهذيان في بعض الأوقات كالنبي. وطبيعي أن المرء لا يمكن أن يكون أحد الحالمين في الأمكنة المتوحدة. دون مواجهة عقوبات هذه الأمكنة.

وظن نفسه أمام سراب، أتيح له أكثر من مرة أن يندهش به وهو رجل الليل. ودخل إلى الفجوة، وهو يحني جبهته، وتوجه نحو ما كان يراه في قعرها. إن شيئاً كان يضحك في الواقع.

لقد كان رأس ميت.

لم يكن أمامه غير الرأس، وهناك الهيكل أيضاً.

إن هيكلاً بشرياً كان يتمدد في هذا الغار الصغير.

ونظرة الرجل الشجاع، في مثل هذه الحالات، تريد معرفة ما يجري أمامها. فألقى جيليات نظرات حوله. فإذا به محاط بعدد من كبير السراطين. ولكن هذه السراطين الكثيرة جامدة لا تتحرك.

فبدا المشهد وكأنه منملة ميتة. كل تلك السراطين كانت جامدة. لقد كانت فارغة. وكان جيليات، الذي أثبت نظره في مكان آخر يمشي فوقها دون أن يلاحظ ذلك.

الجمود الطيفي للهيكل وللحيوانات يتذبذب بصورة غامضة، بسبب انعكاسات المياه التحتية التي كانت ترتعش فوق هذا المشهد المتحجّر. وبدت السراطين وكأنها قد أكملت تناول وجبتها. هذه الهوام المدرعة تبدو وكأنها تأكل ذلك الهيكل. لا شيء أشد غرابة من تلك الديدان الميتة فوق هذه الفريسة الميتة. إنها امتداد قاتم للموت.

لقد كانت أمام عيني جيليات حافظة طعام الأخطبوط.

إنها رؤيا محزنة، تنفضح فيها بالجرم المشهود، البشاعة العميقة المرعبة للأشياء. لقد أكلت السراطين الرجل، وأكل الأخطبوط هذه

السراطين. ولم يكن أمام الجثة أية بقية لثياب. ومن الواجب أن يكون قد أخذ وهو في كامل عريه.

وراح جيليات، بانتباه ويقظة، يرفع السراطين عن الرجل. فمن عساه يكون هذا الإنسان؟ لقد شُرِّحت الجثة تشريحاً يبعث على الإعجاب. انتزع اللحم كله، ولم تبق عضلة واحدة، ولم تضع عظمة واحدة. وبدت الجثة وكأنها مدفونة تحت السراطين الميتة، فأخرجها جيليات. وفجأة انحنى فوقها.

لقد شاهد حول العمود الفقري شيئاً أشبه بالرباط.

إنه حزام من الجلد وجب أن يكون مربوطاً حول بطن الرجل وهو حيّ. الجلد متعفّن. القفل صدئ.

وأخرج جيليات هذا الحزام. فوجده سليماً. وقد بدأت طبقة من الأصداف تتكوّن حوله.

ثم جسّه فأحس بشيء قاس ذي شكل مربع في داخله. وشقّ جيليات الحزام الجلدي. الذي وجد فيه علبة صغيرة من الحديد وبضع قطع من الذهب. فعدّها فكانت عشرين جنيهاً.

أما علبة الحديد فقد كانت علبة تبغ يحملها البحارة، تنتفخ بواسطة نابض. لقد كانت محكمة الإغلاق شديدة الصدأ. أما النابض الذي صدئ صدءاً شديداً فإنه لم يعد صالحاً للعمل.

وهنا أنقذت السكين جيليات من ورطته أيضاً. فقد انفتح غطاء العلبة بإدخال رأس الشفرة خلال الخط الفاصل بين فلقتيها.

لم يكن في العلبة غير ورق.

إن حزمة صغيرة من أوراق رقيقة جداً، مطوية أربع طيات، كانت في أرض العلبة. كانت الأوراق مبتلة ولكنها لم تكن فاسدة.

لقد حفظتها العلبة التي كانت مغلقة إغلاقاً شديد الإحكام.

وفتحها جيليات. فوجدها ثلاث أوراق من البنكنوت كل منها من فئة ألف جنيه استرليني، تساوي في مجموعها 75 ألف فرنك.

وطواها جيليات كرة أخرى. ثم أعادها إلى العلبة، واستغلّ القليل الباقي من الفراغ فدسّ فيه العشرين جنيهاً، وأغلقها خير إغلاق ممكن. ثم أخذ يتفحّص الحزام.

لقد كان الجلد المصبوغ سابقاً في خارجه، خاماً في داخله. وقد نقشت في هذا الداخل حروف سوداء بحبر شحمي. ففك رموز الحروف وقرأ: السيّد كلوبان.

5

أعاد جيليات العلبة إلى الحزام، ووضع الحزام في جيب سرواله. وترك الهيكل للسراطين مع الأخطبوط الميت إلى جانبه.

وبينما كان جيليات مع الأخطبوط والهيكل، كان المد الصاعد قد أغرق فتحة المدخل. فلم يستطع الخروج منها إلا بالغوص تحت القنطرة. وقد فعل ذلك دون جهد ظاهر، فقد كان يعرف المخرج، وكان سيداً في هذا النوع من الرياضات البحرية.

نستطيع أن نتبيّن المأساة التي تلاحقت حوادثها هناك منذ عشرة أسابيع. إن وحشاً قد قبض على وحش آخر. لقد افترس الأخطبوط السيّد كلوبان.

لقد كان هناك، في الظلمة القاسية، ما يمكننا أن نسمّيه بلقاء المنافقين. فحدث في قاع الهوّة تلاقٍ بين هذين الوجودين اللذين صنعهما الانتظار والظلام، الأول، وهو الحيوان، قد أنزل الموت بالآخر وهو النفس الإنسانية. إنها عدالة رهيبة.

السرطان يغتذي بالجيفة، والأخطبوط يغتذي بالسراطين.

الأخطبوط يستوقف في الطريق، حيواناً سابحاً، ثعلباً من ثعالب الماء، كلباً، ورجلاً إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيمتص دمه، ثم يترك الجسد في قاع الماء. السراطين هي جِعْلان البحر آكلة الجيف. فاللحم المتعفن يجتذبها، إنها تأتي، وتأكل الجثة، والأخطبوط يأكلها. الأشياء الميتة تختفي في السرطان، والسرطان يختفي في الأخطبوط.

فكان كلوبان طعم الأخطبوط.

لقد أمسك به وأغرقه، وافترسته السراطين. إن موجة قد دفعته إلى الغار الصغير، في قاع الفجوة الصخرية حيث وجده جيليات.

وعاد جيليات يبحث خلال الصخور، مفتشاً عن الخنازير البحرية بعد أن عافت نفسه السراطين. لقد بدا له أنه يأكل بها لحماً بشرياً.

ولم يعد يفكر إلا في تناول خير عشاء ممكن قبل الرحيل. فما عاد شيء يوقفه. فقد يستمر الهدوء أياماً كثيرة أحياناً بعد الأعاصير الضخمة. إنه لا خطر من جانب البحر بعد ذلك أبداً. وقد صمم جيليات على الرحيل في الغد. ومن المهمّ أن يحتفظ بالسدّ بين صخرتي دوفر سليماً أثناء الليل، بسبب المد البحري، وكان جيليات عازماً على إزالته عند بزوغ شمس الصباح، ودفع القارب خارج دوفر، ثم رفع الشراع باتجاه سان سامسون. وكان النسيم الذي يهب هادئاً باتجاه جنوبي شرقي، هو الريح التي يحتاج إليها.

وبعد أن ملأ جيليات معدته، عاد إلى ما بين صخرتي دوفر حيث القارب، بينما كانت الشمس تجنح إلى الغرب، والغسق يتضاعف بضوء القمر الباهت الذي هو ضوء الهلال، وقد بلغ المدّ أعلى درجاته، ثم بدأ يهبط . هذا ومدخنة الآلة قائمة فوق القارب قد غطاها زبد الإعصار بطبقة من الملح منحها القمر لوناً أبيض.

وقد ذكره هذا المشهد بأن الإعصار قد قذف بكثير من ماء المطر والبحر في القارب، وأن عليه أن يفرغه من الماء في حالة تصميمه على الرحيل في الغد.

وفوجئ جيليات بماء في جوف القارب لا يقلّ عمقه عن قدمين. وهو حادث خطير. فقد امتلأ القارب شيئاً فشيئاً أثناء غيابه. ولو ارتفع الماء قليلاً أيضاً لغرق القارب بما فيه. ولو أنه تأخر ساعة أخرى لما وجد شيئاً خارج الماء غير المدخنة والصاري.

الوقت ضيق ولا مجال للتأمل دقيقة واحدة. إن عليه أن يبحث عن طريق الماء، ويغلقه، ثم يفرغ القارب، أو على الأقل يخفف من حمله المائي. هذا ومضخات دوراند قد ضاعت في الكارثة.

وبدأ جيليات عمله، دون أن يمنح نفسه وقتاً للبس ثيابه، وهو يرتعش. ولم يعد يشعر بالجوع ولا بالبرد.

الماء في القارب يرتفع. ومن حسن الحظ أن الريح قد انقطعت. فأقل اضطراب في الماء جدير بإغراقه.

وغاب القمر.

واكتشف جيليات موضع الثقب.

إنه ثقب في الجانب الأيمن من هيكل القارب القوي، أحدثه نتوء في صخرة دوفر الصغيرة أثناء العاصفة حين اصطدم به القارب.

وقد لاحظ جيليات أن الكسر الحادث رغم خطورته هو أعلى من مستوى الغاطس في هيكل القارب.

وفي الوقت الذي حدثت فيه هذه الفجوة، كان الموج هائجاً في المضيق حيث ضاعت معالم هذا الغاطس، وقد نفذ الموج إلى القارب أثناء ذلك، وبما أن حمل القارب قد زاد بدخول الماء بعد إنزال الآلة إليه مع مدخنتها فقد غطس قسم آخر منه، وبقي كذلك بعد هدوء

الإعصار بسبب تغلغل المياه بكثرة. ومن هنا مصدر الخطر. فإذا وُفِّق جيليات إلى إغلاق هذا الثقب ثم إلى إفراغ القارب، فإن خط الغاطس يعود إلى مستواه العادي. وقد قلنا إن جيليات مازال محتفظاً بمعدات النجارة في حالة جيدة.

في هذه الأثناء كان الماء يرتفع لقد تجاوز القدمين.

وغاص جيليات في الماء إلى ما فوق ركبتيه.

6

وفِّق جيليات إلى تغطية طريق الماء، ولكنه لم يسده بالدِّسار ولم يحلفطه بعد، فتغطية طريق الماء كانت هدفه.

ثم انطلق يفرغ الماء بمجرفة مقعَّرة. وكان الوقت مناسباً لتخفيف الحمل. وأعاد العمل إليه دفئه، ولكن تعبه كان شديداً. وقد أرغم على الاعتراف بعجزه عن متابعة مهمته، وأنه لن يتوصّل إلى تجفيف قعر القارب. كان جيليات قد أكل منذ قريب، وكان يحسّ بذلة الشعور بالانهيار.

لقد كان يقيس تقدمه في العمل بانخفاض مستوى الماء عند ركبتيه. فوجد الانخفاض بطيئاً.

ومن ناحية أخرى لم يكن مجرى الماء قد انقطع نهائياً. لقد اعتُرِض سيره فقط ولكنه لم يعالج معالجة جذرية.

وفي مثل هذه الحالة يستعين البحارة أمام الكارثة بكل أنواع الخرق والمزق ويدسونها كلها في الفجوة.

ولكن جيليات لم يكن قد بقي عنده منها شيء أبداً. إن كل ما كان قد اختزنه من الأسمال والمزق والدسار والمشاقّة قد استعمله في أعماله أو بعثرته الرياح. وقد يتوصل إلى جمع بعضها بين الصخور إن

هو بحث عنها. فقد خفّ حمل القارب بحيث يستطيع أن يغيب عنه مقدار ربع ساعة، ولكن كيف السبيل إلى البحث دون ضياء؟ لقد كانت الظلمة كاملة تامة. فلا قمر هناك، بل سماء قاتمة ذات نجوم. لم يكن في حوزة جيليات حبل يصنع منه فتيلاً، ولا شحم يصنع منه شمعداناً، ولا نار يشعلها.

كل شيء كان غامضاً مبهماً في القارب والصخرة. كان يسمع خرير الماء حول الهيكل الجريح، والفجوة خفية في الظلام يجسّها جيليات بيديه ليدرك مدى الخطر. ومن المستحيل في مثل هذه الظلمة أن يقوم بمهمة التنقيب عن الأسمال والحبال المبعثرة عبر الصخور. فكيف السبيل إلى جمع هذه الخرق دون ضياء؟ ونظر جيليات حزيناً إلى الليل. الكواكب كلها هناك، ولكن لا شمعدان عنده.

كان هبوط كمية الماء في الداخل يزيد الضغط من الخارج. وكان انتفاخ الغطاء يزداد باطراد. فعاد الموقف إلى الخطر بعد أن تحسن قليلاً. لقد أصبحت الحاجة إلى الخرق والأسمال ملحّة.

ولم يبق لجيليات غير ثيابه.

لقد وضعها كما نذكر فوق الصخور الناتئة لدوفر الصغيرة. فانطلق يجمعها ثم ركع في الماء ودسّ معطفه في الفجوة ثم أضاف إليه جلد الخروف، وأعقبه بقميصه، ثم أتبع المريلة بالقميص.

ولم يبقَ على جسده غير سرواله فنزعه وثبت به الحشية في الفجوة. وهكذا تمّت عملية وضع الدِّسار، ولم تبدُ هذه العملية ناقصة.

وتابع جيليات مهمة تفريغ قعر القارب، لكن ذراعيه، وقد نزل بهما إعياء شديد، لا تكادان تطيقان رفع المجرفة المليئة بالماء. لقد كان عارياً، وكان يرتعش من البرد.

وشعر جيليات باقتراب النهاية الرهيبة.

وهنا خطر في باله خاطرة سعيدة. إنه أمل في أن يمرّ في عرض البحر شراع. إن في وسع صياد تدفعه المصادفة إلى مياه دوفر أن يساعده. لقد أتى الوقت الذي أصبح فيه المساعد ضرورياً. رجل ومصباح، وينجو كل شيء من الغرق إن رجلين اثنين يستطيعان أن يفرغا القارب بسهولة، فما أن يجف القارب، ويرتفع عنه الحمل الزائد، حتى يرتفع القارب ويعود خط الغاطس إلى مكانه الطبيعي، ثم تخرج الفجوة من الماء. ومن ثم يسهل إصلاحها فترفع حشايا الثياب ويوضع مكانها غطاء محكم. وإذا لم يمر هذا الصياد، فإن عليه أن ينتظر حتى الصباح، أن ينتظر الليل كله! وهو تأخّر محزن قد يكون فيه الضياع الأبدي. كانت في جسد جيليات حمى الإحساس بأهمية العمل وخطورته. فإذا صادف أن فنار سفينة مر في مرمى النظر، كان في وسع جيليات، من قمّة دوفر الكبيرة، أن يرسل إليه إشارات الاستغاثة. إن الجو هادئ، والريح ساكنة، والبحر مستقر، ولذلك فإن من المحتمل أن يرى رجل يتحرك بعنف في خلفية السماء المُنْجمةَ. إن ربّان سفينة، بل بحّار قارب، لا يمكن أن يمر بمياه دوفر دون أن يوجه منظاره المقرب نحو صخورها. من قبيل الاحتراز.

وأمل جيليات في أن يكتشف مكانه.

وتسلّق الحطام، ثم أمسك بالحبل ذي العقد، وصعد إلى قمّة دوفر الكبيرة. لم يكن أي شراع في الأفق. ولا فنار. لقد كان الماء خالياً على مدى النظر.

لا عون ممكن ولا مقاومة ممكنة.

وأحسّ جيليات أنه أعزل، وهو شيء لم يكن قد شعر به حتى ذلك الوقت. لقد أصبح القدر القاتم سيده. فهو مع قاربه، ومع آلة دوراند، ومع إعيائه كله، ونجاحه كله، وشجاعته كلها، قد أصبح ملكاً للهوة السحيقة. لم يعد عنده أي ذخر للنضال، لقد أصبح سلبياً.

فكيف السبيل إلى منع المد من المجيء ، والماء من الارتفاع، والليل من الاستمرار؟ إن الحشايا التي دسها هي نقطة ارتكازه الوحيدة. لقد أنهك نفسه وجرّدها من كل شيء لتكميل هذه الحشايا، ولم يعد في وسعه إن يقويها ويثبتها، فالحشايا هي هي، ومن الواجب أن تبقى كذلك، وقد انتهى كل جهد بإرادة القدر. إن هذه المزق هي التي تنبري للقتال، لا عقله. وارتفاع الموج كاف لاقتحام الفجوة. المسألة كلها هي زيادة أو نقصان في الضغط.

وسيحل كل شيء بمعركة آلية بين كميتين ميكانيكيتين. لم يعد جيليات قادراً على تقديم العون والمساعدة، لإيقاف العدو. لم يبق منه غير الشاهد على حياته أو موته. إن جيليات هذا الذي كأن عناية إلهية، قد نابت عنه في الدقيقة الحرجة، مقاومة لا واعية.

إن كل التجارب والمخاوف التي واجهها جيليات لا تقارن بهذه التجربة. وبوصوله إلى صخرة دوفر، رأى نفسه محاطاً أو كالممسوك بالوحدة. هذه الوحدة لم تكن تحيط به فقط بل كانت تغلقه. إن ألف تهديد رهيب قد مد قبضته نحوه. الريح هناك، مستعدة للهبوب، والبحر متهيئ للزئير. ومن المستحيل أن يكم هذا الفم، الريح، ومن المتعذّر أن يقتلع أنياب هذا الشدق، البحر. ومع ذلك كان يناضل، فهو كرجل قاتل المحيط جسداً إلى جسد، وأمسك بتلابيب العاصفة.

لقد صمد أمام أخطار مقلقة أخرى، وواجه ضرورات ملحة أيضاً. لقد تعامل مع كل أنواع الكوارث المحزنة. وكان عليه أن يقوم بأعمال كثيرة دون عُددٍ ومعدات، وأن يحرّك أثقالاً دون مساعد، وأن يحلّ معضلات دون علم، وأن يأكل ويشرب دون مؤونة، وأن ينام دون سرير وسقف يؤويه.

فوق هذه الصخرة، آلة التعذيب المفجعة، كانت قضية قد طرحت على بساط البحث من قبل أقدار الطبيعة المعذبة، هذه الطبيعة

التي تكون أمًّا حين يحلو لها ذلك ، وتكون جلاداً حين يسرها ذلك.

لقد هزم الوحدة، وهزم الجوع، والعطش، والبرد، والحمّى والعمل، والنوم. لقد التقى عقبات متحالفة تحاول أن تعترض طريقه. فعناصر الطبيعة بعد العري، والإعصار بعد المدّ البحري، والأخطبوط بعد العاصفة، والطيف بعد الوحش.

إنها سخرية النهاية المحزنة. لقد أتى كلويان الميت ينظر إليه ضاحكاً في هذه الصخرة التي كان يقدّر خروجه منها منتصراً.

كانت سخرية الطيف على حق. لقد رأى جيليات نفسه تضيع. كان يرى نفسه ميتاً ككلويان.

فالشتاء، والجوع، والتعب، والحطام الذي يجب أن يقطَّع، والآلة التي يجب أن تنقل، والريح، والرعد والأخطبوط، كل ذلك لم يكن شيئاً أمام مجرى الماء. كان في وسع المرء، وقد فعل جيليات ذلك، أن يجد النار ضد البرد، وأصداف الصخرة ضد الجوع، والمطر ضدّ العطش، والصناعة والعمل ضد صعوبات الإنقاذ، والسكين ضد الأخطبوط. أما ضدّ مجرى الماء، فلا شيء.

لقد تركت له العاصفة هذا الوداع الرهيب. إنه محاولة أخيرة، طعنة مخاتلة، هجوم منافق يقوم به مهزوم على منتصر. العاصفة الهاربة تقذف وراءها هذا السهم. الهزيمة تعود وتضرب.

نحن نقاتل العاصفة، ولكن كيف نقاتل رشح الماء؟

إن شعور المرء بقوّة قاتمة تحته، شيء مخيف.

الهوّة تجتذبه نحوها.

فإذا غرق قاربه، لم يبق أمامه غير الموت جوعاً وبرداً، تماماً كذلك الآخر، غريق الصخرة «الرجل».

إن العقول وقوى العناية الإلهية الموجودة في العالم الخفي

كانت تشاهد هذا خلال شهرين طويلين: المفازات، الأمواج، الرياح، والبروق والظواهر الجوية، من جانب، ورجل من جانب آخر، البحر من جانب، ونفس إنسانية من جانب آخر، اللانهاية من جانب، وذرة من جانب آخر... وكانت معركة.

وهاكم المعجزة التي قد تنزل سِقطاً.

هكذا انتهت هذه البطولة النادرة إلى العجز، وهكذا أكملت باليأس تلك المعركة المقبولة، ونضال اللاشيء، ضد كل شيء، إلياذة شخص واحد.

وكان جيليات الواله ينظر إلى الفضاء.

لم يبق لديه حتى ثوب واحد. كان عارياً أمام المدى الكبير.

وأمام هذا الإنهاك الهابط من المجهول الهائل، جاهلاً ما كان يراد له، مجابهاً الظلام، أمام تلك الظلمة الدامسة في ضجة المياه، والأمواج، والبحر العاصف، والزبد، والرياح الشديدة، تحت الضباب، والقوة الواسعة المبعثرة، تحت هذه الصفحة الخفية من الجوانح، من الكواكب والأصرخة، تحت الإرادة الممكنة ممتزجة بهذه الأشياء الضائعة الحدود، ومن حوله، وتحته البحر المحيط، ومن فوقه الكواكب المضيئة، وتحت الأغوار التي لا تسبر، طأطأ رأسه مستسلماً، وأقلع عن كل محاولة جديدة، وتمدّد مستلقياً على ظهره فوق الصخرة، ووجهه إلى النجوم، مهزوماً، جامعاً يديه أمام الأعماق الرهيبة، وصرخ في اللانهاية قائلاً: غفرانك ورحمتك!

وراح يصلّي بعد أن حطّمته المفازات الهائلة.

كان هناك وحيداً في تلك الليلة وعلى تلك الصخرة، في وسط ذلك البحر، وقد سقط عاجزاً مغلوباً على أمره، أشبه ما يكون بمن حطمته الصاعقة، عارياً كالمصارع في «السيرك»، لكنه هنا في الهاوية بدلاً من السيرك، ومع عين المجهول بدلاً من عيون الشعب، ومع

الكواكب بدلاً من كاهنة الهيكل، ومع الله بدلاً من قيصر.

وبدا له أنه يذوب في البرد، وفي التعب، وفي العجز، وفي الصلاة، وفي الظلمة. وانغلقت عيناه.

7

إن في المجهول أذناً

ومضت بضع ساعات.

ثم ارتفعت الشمس تغشي بنورها.

وقد أضاء شعاعها الأول فوق قمّة دوفر الكبيرة شكلاً جامداً. إنه جيليات. وكان متمدّداً فوق الصخرة.

ولم يكن في ذلك المتجمد من البرد أية رعشة. الجفنان المغلقان شاحبان. وقد كان من الصعب أن يقال بأنه ليس جثّة هامدة.

هذا والشمس تبدو ناظرة إليه.

فإذا لم يكن هذا الرجل العاري ميتاً، فقد كان قريباً من الموت بحيث تكفي أقل ريح للإجهاز عليه.

وأخذت الريح تهب دافئة منعشة، إنها أنفاس أيار الربيعية.

وفي هذه الأثناء كانت الشمس تصعد في السماء العميقة الزرقاء، وقد اتشح شعاعها المنحرف بلون الأرجوان. وأصبح نورها حرارة. فأحاطت بجيليات من كل جانب.

أما جيليات فلم يكن يتحرّك. ولئن كان يتنفّس، فقد كان نفسه نفساً متهيئاً للانطفاء، لا تكاد صفحة المرأة أن تتكدّر به.

وتابعت الشمس صعودها، وانحرافات نورها فوق جيليات تقل شيئاً فشيئاً. والريح الدافئة قد أصبحت حارة.

أما هذا الجسد الجامد والعاري فقد بقي دائماً دون حركة، ومع ذلك فقد كان الجلد يبدو أقل زرقة.

وسقطت أشعة الشمس باقترابها من سمت الرأس فوق قمّة دوفر على شكل عمودي. إن فيضاً من النور ينصب من أعالي السماء، ومعه انعكاس البحر الصافي، وبدأت الصخرة تسخن، وتدفئ الرجل.

لقد رفعت زفرة صدر جيليات. إنه مازال حيًّا.

وتابعت الشمس ملامساتها الرقيقة والحامية تقريباً. والريح التي كانت ريح الظهيرة وريح الصيف، قد اقتربت من جيليات، وكأنها فم ينفخ رخياً.

وتحرّك جيليات.

هدوء البحر فائق الوصف. لقد كانت له تمتمة مرضعة قريبة من طفلها. وبدت الأمواج وكأنها تهدهد الصخرة. أما طيور البحر التي تعرف جيليات فقد كانت تطير فوقه قلقة وهو قلق غير قلقها الوحشي القديم. لقد كان شيئاً، لا يدرك، من العواطف والحب الأخوي. فهي ترسل أصواتاً كأنها تناديه. وأقدم طير من زُمّج الماء على الاقتراب منه، وكان يحبه دون ريب. وراح يكلّمه. لكن جيليات لا يبدو أنه يسمعه. فقفز نحو كتفه وأخذ ينقر شفتيه برفقٍ شديد.

وفتح جيليات عينيه.

فطارت العصافير، مسرورة وحشية.

ثم انتصب جيليات واقفاً، وتمطى كالأسد المستيقظ، وركض نحو طرف القمة ونظر تحته بين الصخرتين.

كان القارب هناك سليماً. لقد قاومت الحشايا، ومن المحتمل أن يكون البحر قد رفق بها.

لقد نجا كل شيء.

أما جيليات فلم يعد يشعر بالتعب. لقد استعاد قواه. وكان إغماؤه نوماً. فأفرغ القارب، وجفّف قعره، وارتفع الكسر فوق خط الغاطس، ثم لبس ثيابه، وشرب، وأكل، وكان سعيداً.

أما مجرى الماء، الذي انكشف في ضوء النهار، فإنه يتطلب من العمل فوق كل ما كان يقدّره جيليات. لقد كان كسراً خطيراً. وهكذا قضى جيليات بعض نهاره في إصلاح هذا الخلل.

وفي فجر الغد، وبعد أن رفع السد وفك أجزاءه، وفتح مخرج المضيق، لابساً تلك الأسمال التي تغلبت على مجرى الماء، حاملاً في وسطه حزام كلوبان والخمسة والسبعين ألف فرنك، منتصباً فوق القارب الذي أصلحه، قرب الآلة الناجية، وفي ريح مؤاتية، وفوق بحر رائع، خرج جيليات من صخرة دوفر.

وأقلع متجهاً نحو غرناسي.

ولو كان أحدهم هناك وأصغى إليه في الفترة التي كان يبتعد فيها عن الصخرة لسمعه يغني بصوت خفيض لحن «بوني داندي».

القسم الثالث

داروشـــــــات

الكتاب الأول

ليل وقمر

1

جرس المرفأ

تكاد سان سامبسون الحالية تكون مدينة، ولكنها منذ أربعين عاماً كانت أقرب إلى القرية.

وبمجيء الربيع، وذهاب ليالي الشتاء الطويلة، أصبحت السهرات قصيرة، وأخذ الناس يأوون إلى مضاجعهم عند هبوط الليل. لقد كانت سان سامبسون خورنية قديمة حافظت على عادتها في إطفاء شمعدانها في وقت مبكر. كان الناس فيها ينامون ويستيقظون مع النهار. إن هذه القرى النورماندية القديمة هي بيوت دجاج اختيارية.

ولنقل إن سان سامبسون، باستثناء بعض الأسر الغنية البورجوازية، هي جمهور من قالعي الحجارة والنجارين. والمرفأ هو مرفأ إصلاح وترميم. إنهم خلال النهار كله يقتلعون حجراً أو يصنعون لاطات من الخشب، هنا مِنْقَر وهناك مطرقة. عمل مستمر في خشب السنديان أو الغرانيت. وفي المساء يسقط الجميع من الإعياء وينامون كقطع من الرصاص. فالأعمال الشاقة هي التي تصنع النوم العميق.

وفي مساء بداية أيار، وبعد أن نظر إلى الهلال في الشجر واستمع إلى خطوات داروشات التي تتنزه وحيدة، في غضارة الليل، عبر حديقة المنزل، كان السيّد لاتياري قد أوى إلى غرفته المطلّة على المرفأ ونام. أما حلوة وجمال فكانتا في فراشهما. كل شيء كان نائماً في المنزل باستثناء داروشات. وكل شيء كان ينام أيضاً في سان سامبسون. الأبواب والنوافذ مغلقة في كل مكان. لا حركة في الشوارع. وبضعة أضواء، شبيهة بِطَرَفِ العيون، مشرفة على الانطفاء، توشّح الكوى في السقوف بلون أحمر، وهي دلالة على نوم الخدم.

وكانت شعبية السيّد لاتياري في سان سامبسون مرتبطة بنجاحه. وعلينا أن نصدق بأن النحس شيء يكتسب، وأن البائسين مصابون بداء الطاعون، وليس أسرع من وضعهم في المحجر الصحي. لقد كان فتيان العائلات يتجنبون داروشات. وقد أصبحت العزلة حول المنزل بحيث أن أحداً لم يعد يعرف الحدث المحلي الصغير الكبير الذي هز في ذلك اليوم سان سامبسون كلها فجعلها في جلبة مستمرة. وكان المحترم جو إيبانازر كودراي، راعي الخورنية، رجلاً غنيًّا. لقد مات عمّه، عميد سان زاف، الرائع في لندن منذ قليل. وقد حمل النبأ عن طريق مركب البريد كشمير الذي وصل من انكلترا في صباح اليوم نفسه، والذي كان قد رؤي صاريه في مرسى سان بيار بور. وكان على كشمير أن يعود إلى سوثمبتون ظهر غد، وقيل، إنه سيحمل معه الراعي المحترم، الذي دعي إلى إنكلترا في مهلة قصيرة لقراءة الوصية الرسمية، بالإضافة إلى مهمات أخرى يفرضها استلام إرث كبير. لقد كان هذا الأمر حديث سان سامبسون. المركب كشمير، المحترم إيبانازر، عمّه الميت، غناه، رحيله، وترقياته المحتملة في المستقبل، هذا كان جوهر الطنين.

منزل واحد فقط، لم تبلغه الأنباء، فبقي صامتاً، هو منزل لاتياري.

أما السيّد لاتياري فقد كان غارقاً في سريره، بكامل ثيابه. لقد كان هذا هو ملجأه الوحيد، منذ كارثة دوراند. إن الاستلقاء على الفراش المتواضع هو كل ما يلجأ إليه السجين، والسيّد لاتياري كان سجين الحزن. وكان نومه، هدنة، أو استرداداً لأنفاسه، أو تجميداً لأفكاره. فهل كان ينام حقًّا؟ لا. وهل كان يسهر حقًّا؟ لا أيضاً... وبتعبير أدقّ، نستطيع أن نقول: إن السيّد لاتياري كان كالسائر في نومه منذ شهرين ونصف الشهر. لم يكن بعد قد استعاد وعيه وهدوءه. كان في تلك الحالة الغامضة المختلطة التي يعرفها أولئك الذين يواجهون الكوارث الفادحة. فليست تأملاتهم شيئاً من الفكر، وليس نومهم شيئاً من الراحة. إنه لم يكن في النهار رجلاً مستيقظاً، كما لم يكن في الليل رجلاً نائماً. لقد كان واقفاً ثم متمدّداً، هذا كل ما في الأمر. فإذا كان في فراشه، غمره قليل من النسيان، فيسمّي ذلك نوماً، وتطفو الأوهام والخيالات فيه وعليه، والسحاب الليلي، المليء بالوجوه الغامضة، يجتاز دماغه، والإمبراطور نابوليون يملي عليه مذكراته، وكانت هناك داروشات كثيرات، وطيور غريبة في الأشجار، وشوارع «لون - لورسولينا» قد أصبحت كالأفاعي. كان الكابوس هدنة اليأس. لقد كان يقضي لياليه حالماً، ونهاراته مفكراً.

وقد يقضي في بعض المرّات فترة ما بعد الظهيرة كلها، جامداً أمام نافذة غرفته التي تطل، كما نذكر، على المرفأ، وقد خفض رأسه واستند بمرفقيه على الحجر، أذناه في قبضته، وظهره مستديراً للعالم كله، وعينه مثبتة على الحلقة الحديدية القديمة المشدودة إلى جدار منزله على بعد خطوات من نافذته، حيث كان يربط المركب دوراند. وكان ينظر إلى الصدأ الذي يجتاح هذه الحلقة.

لقد أصبح السيّد لاتياري كائناً يحيا على صورة آلة.

والواقع أن أشجع الرجال يبلغون هذه المرحلة، حين يحرمون من فكرتهم القابلة للتنفيذ. إن هذا هو ثمرة الوجود الفارغ. فالحياة هي السفر، والفكرة هي الطريق. فإذا اختفت الطريق، توقف المسافر. فالهدف ضائع والقوة ميتة. إن للقدر سلطة مطلقة قائمة. وهو يستطيع أن يلمس بعصاه جوهرنا الأخلاقي. واليأس هو عزل للروح تقريباً. والأذهان الكبيرة جداً هي التي تقاوم فقط.

كان السيّد لاتياري يتأمّل مفكّراً باستمرار، هذا إذا كان الاستغراق يدعى تأمّلاً، في أعماق نوع من أنواع الهوّة المضطربة. وقد تندّ عنه أقوال حزينة من مثل: لم يبق لي إلا أن أسأل عالم السماء ورقة الخروج.

ولنلاحظ في هذه المناسبة، تناقضاً في هذه الطبيعة المعقدة كالبحر، تلك التي كان لاتياري نتاجاً لها: إن السيّد لاتياري لم يكن يصلّي أبداً.

من القوّة أن يكون المرء عاجزاً. والرجل في عجزه، أما عمانا المزدوج الكبير، يجد في الصلاة، نقطة ارتكازه.

يجد الرجل عونه في الرعب، إنه يطلب هذا العون من خوفه، والقلق، هو نصيحة الركوع. والصلاة، هي قوّة الروح الهائلة وهي من فصيلة السر. الصلاة تتوجه نحو سماحة الظلمات، وهي تنظر إلى السر بعيني الظلمة نفسها، ويحسّ المرء أمام الثبات القوي لهذه النظرة المتضرعة، تجرد المجهول، المحتمل، من سلاحه.

إن هذا الاحتمال الذي يتنوزه المرء هو مصدر العزاء.

ولكن لاتياري لم يكن يصلّي.

لقد كان الله موجوداً بالنسبة إليه، يوم كان سعيداً، حتى أن وجوده هذا هو وجود لحم وعظم، وكان لاتياري يكلمه، ويتعهد

أمامه، بل ويصافحه تقريباً بين وقت وآخر. أما في بؤس لاتياري، فقد انخسف الله، وهي ظاهرة كثيرة الحدوث. هذا يحدث حين يصطنع المرء لنفسه إلهاً طيباً.

ولم يبقَ للاتياري في حالته تلك، غير رؤيا واحدة واضحة: ابتسامة داروشات. كل شيء كان يتشح بالسواد، خارج هذه الابتسامة.

وقد أصبحت هذه الابتسامة منذ زمن غير بعيد أشدّ ندرة، بسبب كارثة دوراند دون ريب، تلك الكارثة التي كانت تحسّ بوقعها الشديد. لقد كانت تبدو منشغلة باستمرار. فانطفأ ظرفها بما كان فيه من طابع الطفولة وبراءة العصفور. وكانت لها في بعض الأوقات هيئة رصينة، وهو شيء محزن في مثل هذا الكائن اللطيف. وفي هذه الأثناء تبذل جهداً لكي تبتسم للسيد لاتياري، ولكي تسري عنه، ولكن فرحتها تنطفئ يوماً فيوماً وتتلفع بالغبار، كجناح فراشة يخترق جسدها دبوس دقيق. نضيف إلى ذلك إنها بدأت تميل كثيراً نحو الدين، وقد يكون ذلك بسبب حزنها على حزن عمتها، إذ أن هناك آلاماً كثيرة منعكسة. إنها لم تكن، قديماً، أيام الراعي السيّد جاكمان هيرود، تتردد على الكنيسة غير أربع مرّاتٍ في السنة. أما الآن فهي شديدة الملازمة للهيكل. لم تكن تغيب عن أي قداس يقيمه الراعي، في كل أحد وخميس. وقد كانت النفوس التقية تجد الرضى في هذا التبدل الجديد. ذلك لأن في الفتاة التي تتجه إلى الله، وهي تواجه كثيراً من الأخطار إلى جانب الرجال، شيئاً سعيداً حقاً.

وفي المساء، حين يسمح الجو، كانت تتنزه ساعة أو ساعتين في حديقة المنزل. وكانت مستغرقة في تأمّلاتها استغراق لاتياري تقريباً، وهي وحيدة دائماً. وكانت آخر من ينام. مما لم يكن يمنع «حلوة وجمال» من مراقبتها، مدفوعتين بغريزة المراقبة التي تمتزج

بمهنة الخدمة في المنازل، فالتجسّس هو الذي يزيل ضجر الخدمة.

أما السيّد لاتياري، وفي الحالة المبرقعة التي يغرق فيها ذهنه، فإن هذه التغيرات الصغيرة في عادات داروشات قد خفيت عليه. على أنه لم يلد بطبيعته قهرمانة. حتى أنه لم يكن يلاحظ دقة تردد داروشات على قداديس الخورنية. ولو أنه فعل ذلك لما سرّه هذا التردّد، بسبب تشدّده ضد رجال الدين وما يتصّل بهم من أشياء حياتهم.

ولا يعني ذلك أن وضعه المعنوي نفسه لم يكن في حالة تغيّر. فالحزن كالغيم وهو يغيّر شكله.

إن الأرواح القوية، وقد سبق أن قلنا ذلك، تعزل في بعض الأوقات تحت بعض ضربات البؤس. وصفات الرجولة، كصفات لاتياري، تتفاعل في وقت معين. ولليأس درجاته الصاعدة. فمن الإنهاك يصعد المرء إلى الانهيار، ومن الانهيار إلى الحزن العميق، ومن الحزن العميق إلى السهوم. السهوم هو الغسق. يذوب فيه الألم في فرحة قائمة.

إن السهوم هو سعادة الحزن.

هذه الظروف الرثائية المخفّفة، لم تكن مصنوعة للسيّد لاتياري، إن طبيعة مزاجه، وفصيلة بؤسه، لا تتحمّلان هذه المعاني والمواقف.

شيء واحد فقط، هو أن اليقظة الحالمة ليأسه الأوّل كانت تميل في الوقت الذي رجعنا فيه إليه، ومنذ أسبوع تقريباً، إلى التلاشي، دون أن يكون أقلّ حزناً، فهو أقلّ جموداً، ولكنه مستمرّ القتامة، غير ضائع في حزنه. لقد كان يعود إليه، نوع من الإدراك للواقع وللأحداث، وبدأ يحسّ بشيء من تلك الظاهرة التي يمكن أن نسمّيها «رجوعاً إلى الحقيقة الواقعة». وهكذا لم يكن، في غرفته المنخفضة، أثناء النهار، يصغي إلى أقوال الناس، ولكنه كان يسمعها. وفي صباح

ما جاءت حلوة على هيئة المنتصرة تنبئ داروشات أن السيّد لاتياري قد انتزع رباط جريدة من الجرائد.

هذا القبول، النصفي للواقع، هو في نفسه، علامة طبية. إنه آية على النقاهة. البؤس الكبير في حالة دُوار. ومن هنا يخرج المرء منه. لكن أثر هذا التحسّن في البداية كان مزيداً من الخطورة. إن حالة الحلم السابقة كانت تخنق الألم، فالرؤية مضطربة، والشعور قليل، أما الآن فإن الرؤية واضحة صافية، لا يخفى فيها شيء على صاحبها، ومن ثم ينزف من كل مكان. الجرح تزيد حدته. والألم يعنف أمام كل التفصيلات التي يراها صاحبه. إنه يعود إلى رؤية كل شيء في الذكرى. ووجدانه كل شيء، هو حزن على كل شيء. وفي تلك العودة إلى الواقع كل أنواع المشاعر المرّة السابقة. في هذا الأمر تحسّن، ولكن فيه المزيد من السوء. هذا ما كان يحسّ به لاتياري.

لقد كان يتألّم بوضوح أشد.

أما الشيء الذي أعاد السيّد لاتياري إلى الشعور بالحقيقة الواقعة فهو هزّة.. لنذكر هذه الهزّة.

بعد ظهر يوم من الأيام الواقعة بين 15 و20 نيسان، سُمعت على باب الغرفة المنخفضة للمنزل طرقتان تعلنان وصول موزّع البريد. وفتحت حلوة الباب. لقد كانت في الواقع رسالة.

هذه الرسالة كانت آتية من البحر. لقد كانت موجهة إلى السيّد لاتياري. وكانت تمغتها من لِشْبُوْوَا.

حملت حلوة الرسالة إلى السيّد لاتياري الذي كان في غرفته، فأخذها، ووضعها على المنضدة بصورة آلية، ثم لم ينظر إليها.

وبقيت الرسالة أسبوعاً كاملاً دون أن يفضّ ختمها.

ومع ذلك فقد حدث يوماً أن حلوة قالت للسيّد لاتياري:

-«سيّدي هل يجب أن أرفع الغبار عن رسالتك؟»

وبدا لاتياري يستيقظ.

قال:

-«هذا صحيح.»

وفتح الرسالة.

فقرأ فيها ما يلي:

من البحر، 10 آذار.

السيّد لاتياري في سان - سامبسون.

«ستستقبل من أنبائي ما يسرّك.

«أنا على ظهر السفينة تاموليباس، في طريقي دون رجعة. بين البحارة بحار آهيا توستافان، من غرناسي، سيعود، وسيقصّ عليك من الأنباء. انتهزت لقاء السفينة هرنان كورتاز المتوجهة نحو لشبونة لأرسل إليك هذه الرسالة.

«كن مندهشاً. فأنا رجل فاضل.

«وفضيلتي هي بقدر فضيلة السيّد كلوبان.

«عليّ أن أعتقد أنك تعرف حقيقة ما حدث، ومع ذلك فقد لا أكون متأخراً في إحاطتك به علماً.

«هاك هو:

«لقد أعدت إليك رأس مالك.

«لقد استدنت منك، بطريقة غير صحيحة إلى حدٍّ ما، خمسين ألف فرنك. وقبل أن أغادر سان مالو، سلمت السيّد كلوبان، موضع ثقتك، ولحسابك الشخصي، ثلاث أوراق من البنكنوت كل منها من فئة الألف جنيه. وستجد في تسديد هذا الحساب ما يرضيك ويكفيك.

«وقد تلقى السيّد كلوبان نقودك بقوّة ظاهرة. لقد بدا لي شديد الحماسة، ولهذا أحذّرك وأنبهّك.

«رَجُلُك الأمين الآخر.

رانتان

ملاحظة: كان السيّد كلوبان يحمل مسدساً ولهذا لم أستلم منه وصلاً».

كان هناك ارتجاج شديد تحت هذا الغلاف، تحت تلك الورقة المطوية طيات أربعاً والتي لم يعرها انتباهه بادئ الأمر.

لقد عرف الخط، وعرف التوقيع. أما فيما يتعلّق بالحادث نفسه، فلم يفهم شيئاً عند أول وهلة.

إنه ارتجاج شديد بحيث جعل قدميه تنتصبان واقفتين.

إن ظاهرة الخمسة والسبعين ألف فرنك التي ائتمن رانتان كلوبان عليها، باعتبارها السر القائم، كانت هي الجانب المفيد من الهزّة، فقد أرغمت دماغ لاتياري على العمل. إن وضع افتراض معين، هو انتقال صالح للفكر. لقد أوقظ التفكير، ونودي على المنطق.

كان الناس، منذ بعض الوقت، منشغلين بالعودة إلى محاكمة كلوبان، هذا الرجل الذي كان الجميع مجمعين على احترامه في سوق التقدير لسنوات كثيرة، وكانت هناك مراهنات معه وضده. وظهرت أضواء فريدة. لقد بدأ كلوبان يتّضح، أي بدأ يتشح بالسواد.

والواقع أن حاسة الشم عند الشعب دقيقة وعادلة. والغريزة العامة تبدع في ترميم الحقيقة المصنوعة من أجزاء وقطع مختلفة. شيء واحد فقط، هو أن في هذه الوقائع التي كانت تبدو فيها عملية التخريب محتملة واقعية، أشياء تبعث على التردّد الرصين.

الحجج كلها قائمة، والوقائع كلها متجاوبة متجانسة، ولكن القاعدة ما تزال خفية مفقودة.

إن إغراق سفينة لا يكون لمجرد التلذّذ بإغراقها. ومجابهة كل هذه الأخطار، من ضباب، وصخرة، وسباحة، واختفاء وهروب، لا يمكن أن تكون دون سبب. فما عساه سبب كلوبان؟

لقد كانت الثغرة خطيرة جداً.

هذه الثغرة قد ملأتها رسالة رانتان.

لقد كشفت عن مبرر كلوبان. سرقة خمسة وسبعين ألف فرنك.

كان رانتان هو الله في الآلة. لقد كان ينزل من الغيم وفي يده شمعدان. لقد كانت رسالته حزمة الضياء النهائية. فسرت كل شيء، بل أضافت في تقديم شاهد هو آهيا- تورستافان.

هذا شيء مقرّر نهائي، لقد دفع إلى استعمال المسدس.

ولا شك أن رانتان كان على علم بالحقيقة. لقد وضعت رسالته كل شيء في متناول اليد. فلا سبيل إلى أي ظرف تخفيفي للصوصية كلوبان. لقد رتب الكارثة، والبرهان على ذلك، هو الكيس- الحقيبة الذي حمله إلى المنزل المسكون. ولو فرضنا براءته، وقبلنا فكرة الكارثة المقدّرة، أما كان حريًّا به، في الدقيقة الأخيرة، وقد قرر التضحية بنفسه على الحطام، أن يرسل الأموال إلى السيّد لاتياري مع الرجال الذين نجوا بأنفسهم في القارب؟

كانت القضية واضحة. والآن ما الذي انتهى كلوبان إليه؟ من المحتمل أن يكون ضحية جريمته. لقد هلك دون ريب في صخرة دوفر.

هذا البناء من الافتراضات، الذي يتجاوب تجاوباً شديداً، كما نرى، مع الحقيقة قد شغل ذهن لاتياري أيام كثيرة. إن رسالة رانتان قد أحسنت إليه إذ أرغمته على التفكير. لقد أصابته رجة الدهشة بادئ الأمر، ثم عمل جاهداً على التفكير. ثم بذل جهداً آخر أشد صعوبة هو محاولة الاستعلام. وقد وجب عليه أن يقبل المحادثة بل أن يبحث

عنها. وعاد رجلاً عملياً إلى حدّ معيّن؛ خلال ثمانية أيام. لقد رجع إلى ذهنه توقده وتكيفه، وكاد يشفى تماماً. لقد خرج من ذهوله.

والواقع أن رسالة رانتان قد أضاعت آخر حظ له، على افتراض أن السيّد لاتياري قد يخامره الأمل في استعادة أمواله من هذه الجهة.

لقد أضافت إلى كارثة دوراند، الكارثة الجديدة لهذا المبلغ الكبير. إنها أعادت إليه ملكية هذا المال لتشعره بضياعه. لقد كشفت له هذه الرسالة عن غور خرابه.

ومن هنا كان الألم الجديد، الفائق الحدة، وقد أشرنا إليه آنفاً، لقد بدأ بالانشغال بمنزله، بمصير هذا المنزل، وبما يجب أن يصلحه من أمره، وهو شيء لم يقم به منذ شهرين. إنه انزعاج صغير ذو ألف رأس مدببة، يكاد يكون أشدّ سوءاً من اليأس. إنه شيء كريه جداً أن تواجه بؤسك في الأشياء الصغيرة، وأن تنازع الأمر الواقع قدماً إلى قدم، الأرض التي غصبها منك. المجموع ينهك، والتفصيل يعذب. كانت الكارثة منذ قليل تزلزلك، أما الآن فإنها تماحكك بنيّة سيئة.

الذل الذي يزيد من خطورة الانسحاق. وهو إلغاء ثان وقبيح يضاف إلى الإلغاء الأول. به ننزل درجة في العدم. ثم لا نجد بعد الكفن غير الأسمال البالية.

ليس ما هو أبعث على الحزن من أن يفكّر المرء في التضاؤل.

الخراب يبدو لنا بسيطاً. ضربة عنيفة، قسوة من القدر، إنه كارثة مُرَّة وإلى الأبد، ليكن ذلك، فنحن نقبله. كل شيء قد انتهى فنحن مفلسون. هذا حسن، نحن أموات. ولكن لا. نحن أحياء.

ونلاحظ ذلك من الغد. نلاحظ ماذا؟ وخزات دبوس. هذا رجل يمتنع عن تحيتك، وفواتير التجار تُمطر فوق رأسك، وهذا أحد أعدائك يضحك. ومن الممكن أنه يضحك لآخر نكتة من نكات آرنال، ولكن لا فرق، فهذه النكتة لا تبدو له ظريفة إلا لأنك مفلس.

إنك تقرأ تضاؤلك حتى في النظرات اللامبالية، والناس الذين يتناولون غداءهم عندك يجدون تبذيراً في تقديم ثلاثة ألوان على منضدتك، إن نقائصك تقفز أمام عيون الجميع، والعقوق يبرز في كل مكان، البُلْه كلهم كانوا يتنبئون بهذه النتيجة، والخبثاء يمزقونك، أما الأشرار فيجرحونك. وثمة مئة تفصيل حقير. كنت تشرب خمراً، وستشرب عصيراً.. خادمان! ولكن الواحدة كثيرة عليك. إن من الواجب صرف هذه وإرهاق تلك. في الحديقة أزهار كثيرة، فلتزرع بطاطس. كنت تعطي ثمارك لأصدقائك، أما الآن فعليك أن تبيعها في السوق. أما فيما يتعلّق بالفقراء، فلا يجب أن تفكّر فيهم بعد ذلك أبداً، ألست أنت فقيراً؟ أشياء الزينة، قضية مزعجة. أي عذاب، في انتزاع شريط من امرأة! أن تمنع الزينة عمن يمنحك الجمال! وأن تبدو على هيئة بخيل! وقد تقول لك هذه المرأة: - ماذا، لقد رفعت الزهور من حديقتي، وها أنت ترفعها من قبعتي!- واأسفاه! أن يقضى عليها بحمل ثياب ذابلة! وتصبح منضدة العائلة صامتة ساكنة. وتتصوّر أن من حولك حاقد عليك والوجوه التي تحبك قلقة. هذا ما يعنيه التضاؤل. إن عليك أن تموت في كل يوم. السقوط ليس شيئاً، إنه النار الهائلة. أما التضاؤل، فهو النار الخفيفة.

الانهيار، هو واترلو، أما النقصان فهو سانت هيلين. إن القدر المتمثّل، في ولنجتون، محتفظ ببقية من الكرامة، أما حين يتمثل في هدسون لُوْ فأية حقارة هو! المصير هنا يصبح عناء عادم المروءة. هنا نرى رجل كامبور فورميو ينازع الآخرين من أجل زوج من الجوارب الحريرية، إنه تصغير لنابوليون يصغّر إنجلترا نفسها.

هذان الوجهان، واترلو وسانت هيلين، حين تستحيل أبعادهما إلى أبعاد برجوازية. يجتازهما كل رجل خرب مفلس.

وفي المساء الذي تحدثنا عنه، والذي كان إحدى أمسيات أيار

الأولى، أوى لاتياري إلى مضجعه وهو أشدّ ما يكون حزناً، تاركاً داروشات تسير في الحديقة، تحت ضوء القمر، دون هدى.

إن كل هذه التفاصيل الضئيلة والمسيئة، وهي تعقيدات كل ثروة ضائعة، وإن كل هذه المشاغل من الدرجة الثالثة والتي تبدأ خالية، وتنتهي محزنة، كانت تتلاحق في ذهنه. إنها أكوام كاسفة من كل طعم من البؤس. كان السيّد لاتياري يحس بسقوطه الذي لا سبيل إلى معالجته. فما هو العمل؟ وأين المصير؟ وأية تضحيات يجب أن تفرض على داروشات؟ وأيهما يصرف، حلوة أم جمال؟ هل يبيع المنزل؟ أفلا يرغمنا ذلك على مغادرة الجزيرة؟ أن لا نكون شيئاً حيث كنا كل شيء، إنه سقوط لا يحتمل في الواقع أبداً.

هذا الكابوس المتلاحق من الحزن كان يعذّب لاتياري. إن في فكره دموعاً. وهو لم يسبق له تقريباً أن شعر بمثل ما كان يشعر به من المرارة. إن نوعاً من الحذر يعقب هذه النوبات الحادة. وغرق لاتياري في نومه تحت وطأة هذا الحزن الشديد.

وبقي قرابة ساعتين وجفناه مغلقان، ينام قليلاً، ويفكّر كثيراً، وقد عصفت به الحمّى. إن هذا النوع من الخمود يغطّي عملاً قائماً في الذهن، وهو شديد الإنهاك.

وفي موهن من الليل، قبل انتصافه قليلاً، أو بعد انتصافه قليلاً، هزّ لاتياري هذا الحذر. فاستيقظ، وفتح عينيه، فرأى عبر النافذة التي تقابل مضجعه شيئاً مدهشاً.

كان أمام نافذته شكل غريب. إنه مدخنة مركب بخاري.

وانتصب السيّد لاتياري كتلة واحدة فوق مقعده. وتذبذب مضجعه كما لو أن عاصفة قد عصفت به. ونظر لاتياري. لقد كانت في النافذة رؤيا. وفي المرفأ الذي يغمره نور القمر كان يتأطر على

الزجاج، وفوق هذا الضياء، قريباً من المنزل، فيبدو مستقيماً، مستديراً، أسود اللون، إنه شبح رائع.

إن أنبوباً من الآلة كان هناك.

وقفز لاتياري من مضجعه، ثم ركض نحو النافذة، ورفع هيكلها ومدّ رأسه إلى الخارج منحنياً، فعرف الآلة.

لقد كانت مدخنة دوراند أمامه. إنها في مكانها القديم.

إن سلاسلها الأربع تمسك بها مربوطة على ظهر مركب، تبدو في داخله وتحتها، كتلة ذات إطار معقد.

وتراجع لاتياري، مستدبراً النافذة، ثم سقط جالساً. وعاد ثانية فرأى الرؤيا كرّة أخرى. بعد فترة قصيرة، وفي سرعة البرق الخاطف، كان على الرصيف، والمصباح في يده.

وقد ربط بحلقة مرسى دوراند قارب يحمل قليلاً في جزئه الخلفي كتلة كثيفة تخرج منها المدخنة، مستقيمة، أمام نافذة المنزل. أما الجزء الأمامي من القارب فقد كان يمتد خارج زاوية جدار المنزل. ولم يكن أحد في القارب.

وكان لهذا القارب شكله الخاص تعرف غرناسي كلها شارته. إنه القارب ذو الكِرش المنتفخة. قفز لاتياري في القارب. وركض نحو الكتلة التي كان يراها خلف الصاري. إنها الآلة.

لقد كانت هناك، تامّة، كاملة سالمة، من كل أذى، مثبتة فوق قاعدتها الحديدية، لا شيء ينقصها.

وتفحّص لاتياري الآلة.

وتعاون المصباح والقمر على إضاءة ما حوله.

لقد استعرض أجزاء الآلة كلها.

ورأى الصندوقين إلى جانبها. ونظر إلى جذع العجلتين.

واتجه نحو المقصورة. فوجدها خالية.

ثم عاد إلى الآلة ولمسها. ومدّ رأسه إلى مرجلها. ثم ركع لينظر إلى الداخل. ووضع مصباحه في الموقد، فأضاء أجزاءه كلها وأحدث على التقريب هيئة آلة مضيئة كاذبة.

ثم انفجر ضاحكاً، وانتصب وعينه مثبتة في الآلة، وذراعاه ممدودتان نحو المدخنة وصرخ قائلاً: «إلى النجدة!».

كان جرس المرفأ فوق الرصيف وعلى بضع خطوات منه. فمضى نحوه، راكضاً، وأمسك السلسلة بكلتا يديه ثم أخذ يهزّ الجرس في هيجان شديد.

2

جرس المرفأ أيضاً...

والواقع أن جيليات قد وصل إلى سان سامبسون قبيل الساعة العاشرة ليلاً، بعد رحلة بطيئة بسبب حمل قاربه الثقيل، قضاها دون حادث يذكر. وكان كل ما في المرفأ الصغير نائماً. وقد رسا في مياهه بعض السفن. كما كانت في أحواضه الجافة قوارب معدة للإصلاح والترميم.

ولم يكد جيليات يتجاوز مدخل المرفأ، حتى ألقى نظرة فاحصة سريعة عليه وعلى الرصيف. فلم يكن فيه ضوء، كما لم يكن في منزل لاتياري أي بصيص من النور. أما المارة فقد اختفوا تماماً باستثناء واحد فقط كان قد دخل إلى منزل كاهن الرعية أو خرج منه. مع العلم أن وجوده أمر مشكوك فيه، فالليل يمحو كل ما يصنعه من الرسوم، وضوء القمر لا يصطنع غير رسوم غامضة مبهمة. إن البعد كان مضافاً

إلى الظلمة. وقد ساحل جيليات منزل لاتياري في صمت، وربط قاربه بحلقة دوراند تحت نافذة السيّد لاتياري نفسه.

ثم قفز إلى اليابسة.

وهكذا ترك جيليات القارب عند الرصيف وراءه، ودار حول المنزل، ثم سار في زقاق ضيق، وتجاوزه إلى زقاق آخر، دون أن يلقي أية نظرة على الطريق المتفرعة عنه والتي تنتهي إلى البو دو لارو. وبعد دقائق وصل إلى زاوية الجدار حيث يرتفع نبات الخُبّازة الوحشي ذو الأزهار الوردية في حزيران، وتنتصب شجيرات شرّابة الراعي، واللبلاب، والقُرَّاص. من هناك كان يتأمل الحديقة وينظر عبر أغصان الأشجار إلى نافذتين لغرفة من غرف المنزل، مختبئاً وراء الأشواك، جالساً فوق قطعة من الحجر، مرّات كثيرة، في أيام الصيف خلال ساعات طويلة، وعبر شهور كاملة، يتأمّل كل ذلك من فوق جدار منخفض، في توق شديد يكاد يغريه باجتيازه قفزاً. فوجد قطعته الحجرية، وشوكه، والجدار المنخفض، والزاوية القائمة، وربض هناك، لكأنه حيوان يعود إلى حجره منزلقاً إليه أكثر منه ماشياً نحوه. ثم جمد في مكانه بعد أن اتخذ مقعده المعتاد. ونظر إلى الأمام.

كان يرى الحديقة مرة أخرى، ويرى الممرات، والكتل الكثيفة ومربعات الأزهار، والمنزل، ونافذتي الغرفة. لقد كان القمر يكشف له هذا الحلم. وكم هو بغيض على المرء أن يرغم على التنفس. وكان يحاول وسعه أن يخنق أنفاسه.

وكان يبدو له أنه يرى جنة شبحية. فهو يخاف أن يطير هذا كله، ويكاد من المستحيل أن تكون هذه الأشياء حقاً في متناول ناظريه، إذا كانت موجودة، فإن وجودها لا يمكن إلا أن يكون وشيك الزوال مما تتميز به الأشياء الإلهية. فتختفي كلّها أمام زفرة رقيقة. لقد كان جيليات يحسّ بهذا النوع من الرعشة.

وكان بالقرب منه مقعد خشبي ذو لون أخضر ينتصب تجاهه في الحديقة عند طرف ممر. نحن نذكر هذا المقعد.

إنه ينظر إلى النافذتين أيضاً. وكان يفكر في نوم محتمل لأحدهم في تلك الغرفة. إنه ينام وراء هذا الجدار. وكم تمنى ألا يكون حيث هو. فهو يفضّل الموت على الرحيل. كان يفكر في نفس يرفع صدراً. إنها هي، ذلك السراب، وذلك البياض الغارق في ضبابه، والكابوس الطافي على ذهنه، إنها كانت هناك! كان يفكّر في الشيء النائم الذي هو جد قريب، وكأنه في متناول نشوته. كان يفكّر في المرأة المستحيلة المخدّرة، والتي تزورها الأحلام، هي أيضاً. إنه يفكّر في المخلوقة المتمنّاة، والبعيدة، والتي لا سبيل إلى الإمساك بها، مغلقاً عينيه، واضعاً جبهته في يديه، في سرّ النوم للكائن المثالي، في الأحلام التي يمكن أن يصنعها الحلم. لم يكن يجرؤ على التفكير فيما وراء ذلك، ومع هذا فقد كان يغامر في اجتياز مواطن الوقاحة لأحلامه اليقظة، كانت تبعث الاضطراب في نفسه، كمية الشكل الأنثوي الذي يمكن لملاك أن يملكه، والساعة الليلة تبعث الشجاعة في العينين الخجولين ذاتي النظرات الهاربة. وكان ينظر في العالم الخفي، مغلوباً على أمره، مرغماً، مدفوعاً، ومرتعشاً أيضاً. إنه يحس بالقشعريرة ، وبالألم تقريباً، لمجرد تصوره لتنورة على كرسي، أو لرداء نسائي ملقى فوق بساط، أو حزام فكّ قفله، لمزقة من القماش. كان يتخيّل مشداً يشد به الثوب متمدداً فوق الأرض، وجوارب، وأربطة ساق. لقد كانت روحه في الكواكب والنجوم.

وقد صُنعت الكواكب لقب بشري يملكه رجل فقير كجيليات، كما صُنعت لقلب بشري يملكه غني كبير. إن كل رجل في درجة معينة من الشهوة يكون موضعاً لعشاوات عميقة. فالتوجس بطبيعته مدد

للحلم غزير. والفرح نوع من الامتلاء يفيض كأي امتلاء آخر. والنظر إلى هاتين النافذتين يكاد يكون شيئاً كثيراً بالنسبة إلى جيليات.

وفجأة رآها، هي نفسها.

لقد خرج من خلال أغصان في دغل كثّفه الربيع، وفي بطء طيفي سماوي فائق الوصف، شكل، ثوب نسائي، وجه إلهي، بل شيء يكاد يكون نوراً وضيئاً تحت القمر.

وشعر جيليات بجسده ينهار، لقد كانت داروشات.

واقتربت داروشات، ثم وقفت. وخطت خطوات لتبتعد، ثم وقفت أيضاً، وعادت بعد ذلك لتجلس فوق المقعد الخشبي. كان القمر في الأشجار، وكانت ضبابات تتيه عبر الكواكب الباهتة، والبحر يتحدث مع أشياء الظلام بصوت خفيض، والمدينة نائمة، وغمامة تصعد من الأفق.. لقد كان هذا السهوم عميقاً. كانت داروشات تحني جبهتها، مع عين مفكرة تنظر بانتباه إلى العدم، يبدو منها جسدها على شكل جانبي، ويكاد يكون رأسها عارياً، تعلوه قلنسوة مفكوكة الرباط، تكشف عن أصول شعرها في مؤخر رقبتها الرقيق، وهي تطوي بصورة آلية أحد أشرطة هذه القلنسوة حول إصبعها، بينما كان الظل يمنح يديها اللتين كانتا على صورة تمثال، صورة عبقرية، وفي ثوبها طرز من الألوان يحيلها الليل بيضاء ناصعة، والأشجار تتحرك كما لو أنها كانت متأثرة بالسحر المنبجس من جسدها، وكان يظهر طرف إحدى قدميها، وفي أهدابها المنخفضة هذا الانقباض الغامض الذي يعلن عن دمعة محتقنة أو فكرة مكبوتة، وفي ذراعيها نوع من التردّد الساحر الذي يبدو حين لا تجد متكأ تستند إليه؛ إن شيئاً أشبه ما يكون بالطفاوة، يمتزج بكامل هيئتها، وهو أقرب إلى اللهب منه إلى النور، وإلى الظرف الرقيق الفائق، منه إلى الحور العين. أما تغضنات تنورتها السفلى فكانت رائعة الحلاوة، وفي وجهها الحبيب تأمّلات عذرية. كانت قريبة جداً حتى بدت رهيبة.

لقد كان جيليات يسمع رجع أنفاسها.

وكان في الأعماق بلبل يغني. والرياح المارّة في الأغصان تبعث الحركة في الصمت الليلي الذي يتعذر وصفه. وبدت داروشات، الجميلة والمقدّسة، في هذا الغسق، وكأنها حصيلة هذه الإشعاعات وتلك الروائح العبقة. إن هذا الظرف الهائل والمبعثر كان يصب فيها بصورة خفية، ويتمركز حولها، فإذا بها موضع تفتحه وزهرته المنوِّرة. لقد كانت تبدو الروح المزدهرة لكل هذه الظلال.

هذه الظلال الطافية في داروشات، كانت ثقيلة فوق جيليات. لقد كان متولهاً. أما ما كان يحس به فالألفاظ تخطئه، العاطفة المنفعلة دائمة التجدّد، والكلمة قولبية المعنى جامدة الأداء ومن هنا استحالة التعبير عن العاطفة المنفعلة. وإنهاك السعادة حقيقة موجودة. إن رؤية داروشات، رؤيتها هي شخصياً، ورؤية ثوبها، وقلنسوتها، وشريطها الذي تطويه حول إصبعها، كل هذا شيء لا سبيل إلى تصويره! وهل من الممكن أن يحس المرء بأنه بالقرب منها؟ وأن يسمع رجع أنفاسها، فهي إذن تتنفس! وعلى ذلك فالكواكب تتنفس أيضاً. جيليات يرتعش. إنه أشدّ الرجال بؤساً وأكثرهم سكراً. إنه لم يكن يدري ما يفعل. إن هذيان رؤيتها يسحقه. ماذا! لقد كانت هي نفسها هناك، وكان هو شخصياً هنا! وأفكاره الهائمة والثابتة تتوقف عند هذه المخلوقة وكأنها تتوقف عند ياقوت جمري. كان ينظر إلى هذه الرقبة وذلك الشعر. لم يكن حتى ليقول لنفسه بأن هذا كله قد أصبح ملكاً له الآن، وأنه قبل قليل من الزمن، وقد يكون ذلك غداً، سيجد من حقه أن يفك أشرطة هذه القلنسوة، وإن يربط ذلك الشريط. إن بلوغ هذه المرحلة من التفكير لم يخطر في باله، فهو لم يملك بعد، هذا المزيد من الجرأة. والملامسة بالفكر تكاد تكون ملامسة باليد. لقد كان الحب بالنسبة إلى جيليات كالعسل بالنسبة إلى الدب،

أي، الحلم الجميل والرقيق. كان يفكّر في غموض. ولم يكن يدرك ما أصابه. لقد كان البلبل يغني. فأحسّ بجسده يحتضر.

أن يجتاز الجدار، ويقول: ها أنذا، وأن يكلم داروشات. . إن هذا كله لم يخطر في باله. لو خطر حقاً، لنجا بنفسه هارباً.

ولئن نبت في ذهنه شيء شبيه بفكرة، لكان ما يلي، إن داروشات هناك، وهو في غير حاجة إلى المزيد، لقد بدأ الخلود عنده.

وارتفعت ضجة أخرجتهما كليهما، هي من يقظتها الحالمة، وهو من نشوته. كان أحدهم يمشي في الحديقة، فلا يتبيّنه الناظر، بسبب الأشجار. ولكنها كانت خطوات رجل.

رفعت داروشات عينيها.

واقتربت الخطوات ثم توقفت. إن الشخص الذي يمشي قد توقف عن السير. إنها يجب أن تكون شديدة القرب منه. فالطريق التي يقوم فيها المعقد ضائعة بين كتلتين كثيفتين. والشخص كان هناك بين الكتلتين، وعلى بعض خطوات من المقعد.

لقد كانت كثافات الأغصان تُغطيه بحيث تراه داروشات ولا يراه جيليات. وكان القمر ينعكس على الأرض خارج الكتلة الكثيفة حتى المقعد، ظله. وكان جيليات يرى هذا الظل.

فنظر إلى داروشات.

لقد كانت شاحبة. وفمها الفاغر يرسم صرخة اندهاش. ثم نهضت قليلاً وعادت إلى المقعد كرة أخرى، لقد كان في موقفها مزيج من الهرب والانبهار. وفي دهشتها فرحة فائقة يغمرها الخوف. وكان على شفتيها تقريباً، شعاع ابتسامة، ولهب دموع في العينين. كانت كمن بدله حضورٌ حادث. ولم يكن يبدو أن الشخص الذي تراه هو من الأرض. لقد كانت في نظرتها انعكاسات ملاك.

وتكلم الكائن الذي لم يكن بالنسبة لجيليات غير ظل. لقد خرج صوت من الكتلة الكثيفة، صوت أرق من صوت امرأة، ومع ذلك فهو صوت رجل. وسمع جيليات هذه العبارات:

- «أيتها الآنسة، إنني أراكِ في كل أحد وخميس، وقد قيل لي أنك لم تكوني تترددين قبلاً بمثل هذه الكثرة. إنها ملاحظة قد صنعت، فأنا أسألكِ الصفح. إنني لم أكلمكِ من قبل أبداً، وقد كان هذا واجباً عليّ، أما الآن فإنني أكلمكِ، وهذا واجبي أيضاً. عليّ بادئ الأمر أن أتوجه نحوكِ. سيبدأ المركب كشمير رحلته من الغد، وهذا ما دفعني إلى المجيء. وما كان يليق بي أن أعرف عاداتكِ، لو لم أكن أملكُ الفكرة التي أملكها الآن. يا آنستي، أنتِ فقيرة، وأنا غني منذ هذا الصباح. فهل تقبلين بي زوجاً لكِ؟».

وجمعت داروشات كفّيها على هيئة المتضرعة، ونظرت إلى من كان يكلّمها، خرساء، ثابتة العين، مرتعشة من الرأس إلى القدمين.

ثم أردف الصوت قائلاً:

- «إنني أحبكِ. والله لم يخلق قلب الرجل ليسكت. وبما أن الله يعدنا الخلود، فمعنى ذلك أنه يريد أن نكون اثنين. لي في الأرض امرأة، هي أنتِ. إنني أفكّر فيكِ كما أفكّر في صلاة. إيماني في الله وأملي فيكِ. الجناحان اللذان أملكهما، أنتِ التي تحملينهما. أنتِ حياتي، بل سمائي قبل ذلك».

قالت داروشات:

- «سيّدي لا يوجد في المنزل أحد ليجيبك»..

وارتفع الصوت من جديد:

- «لقد رأيت هذا الحلم الجميل. والله لا يحرّم الأحلام. إنك تبعثين في نفسي ما يبعثه المجد. أحبّكِ بقوّة يا آنستي. البراءة المقدسة، هي أنتِ. وأنا أعلم أن هذه الساعة هي ساعة النوم، ولكن

لم يكن لي أن أختار غير هذا الوقت. هل تذكرين نصّ التوراة الذي قرئ لنا؟ كتاب الخلق، الفصل 24؟ لقد فكرت فيه منذ سمعته. وعدت إلى قراءته في الغالب الكثير. كان المحترم هيرود يقول لي: يجب أن تكون لكَ زوجة غنية. فأجبته: لا، بل يجب أن تكون لي امرأة فقيرة. يا آنستي، إنني أكلمكِ دون أن أقترب، وسأتراجع، حتى إذا رغبتِ في أن لا يمسّ ظلي قدميكِ. فأنت السيّدة، وستأتين إليّ إذا أردتِ ذلك. أحب وانتظر. إنّكِ الشكل الحي للبركة».

وتمتمت داروشات:

- «سيّدي، لم أكن أعلم أنني كنت هدف مراقبة في كل أحد وخميس».

وتابع الصوت:

- «نحن لا نستطيع شيئاً أمام الأشياء الملائكية. فالقانون كله هو حب. والزواج هو كنعان. أنتِ الجمال الموعود. أيتها الطافحة بالروعة أحبيكِ».

ويتابع الصوت:

- «لقد وضع الله رغباته في الأزهار، في الفجر، في الربيع، وهو يريد أن نحب. أنك جميلة في هذه الظلمة المقدسة من الليل. لقد حرثت هذه الحديقة بيديكِ، وفي روائحها شيء من أنفاسكِ. آنستي، إن التقاء الأرواح أمر غير منوط بها. وهو ليس من خطئنا. لقد كنتِ تحضرين القداس، لا أكثر، وكنتُ هناك لا أكثر. ولم أفعل شيئاً غير شعوري بأنني كنتُ أحبك. وقد ارتفعتْ عيناي تحوكِ في بعض المرات. فأخطأت، ولكن ما العمل؟ وبالنظر إليكِ أتاني كل شيء. ولا سبيل إلى منع ذلك عن نفسي. هناك إرادات خفية فوقنا. إن أول هيكل هو القلب. أن تكون روحك في منزل، هو الجنة الأرضية التي أتوق إليها، فهل توافقين؟ إنني لم أقل شيئاً طيلة عهدي

بالفقر، فأنا أعرف عمرك. إنك في العام الواحد والعشرين. وأنا في السادس والعشرين. سأرحل غداً. ولن أعود إذا رفضت عرضي كوني «خطيبتي»، هل تريدين ذلك؟ على أن عيني قد وجهتا رغماً عنهما هذا السؤال إلى عينيك، أكثر من مرة. إنني أحبك، فأجيبيني. وسأكلم عمك حين يستطيع أن يستقبلني، ولكنني أتوجه نحوك بادئ الأمر. إن روبيكا لا تُطلب إلا من روبيكا. إلا إذا كنت لا تحبينني».

وأحنت داروشات جبهتها، وتمتمت:

- «أوه، إنني أعبده!».

وقد كان صوتها من الانخفاض بحيث أن جيليات قد سمعه وحده. وبقيت بجبهتها المنحنية كما لو أن الوجه في الظل يضع الفكرة في الظل.

ومرّت فترة صمت. وأوراق الأشجار جامدة لا تتحرك. لقد كانت تلك البرهة الوقور والممتعة حيث ينضم نوم الأشياء إلى نوم الكائنات، وحيث يبدو الليل وكأنه يسمع وجيب قلب الطبيعة.

في هذا التبتّل كانت ترتفع أصداء البحر الهائلة، كما يرتفع اللحن الذي يكمل الصمت.

وعاد الصوت إلى الكلام:

- «آنستي».

فاختلجت داروشات.

وتابع الصوت.

- «واأسفاه، إني أنتظر».

- «ماذا تنتظر؟».

- «جوابك».

قالت داروشات:

- «لقد سمعه الله».

وهنا أصبح الصوت رناناً على التقريب، وفي الوقت نفسه، أرق ما يمكن أن يكون أبداً. وخرجت هذه الأقوال من الكتلة الكثيفة. وكأنها خارجة من دغل حار:

- «أنتِ «خطيبتي». انهضي، وتعالي إلي. وليشهد هذا البساط الأزرق العميق قبول روحكِ لروحي. ولتمتزج قبلتنا الأولى بالفضاء الواسع!».

ونهضت داروشات، ثم وقفت برهة، جامدة، ونظرتها مثبتة أمامها في نظرة أخرى دون ريب. ثم اتجهت نحو الكتلة الكثيفة، واختفت فيها بخطوات بطيئة، مرتفعة الرأس، ممدودة الذراعين، متباعدة أصابع اليدين، كما لو أنها تمشي فوق حامل مجهول.

وبعد قليل كان على التراب ظلاّن بدل ظل واحد، لقد كانا يختلطان، وكان جيليات يرى، عند قدميه، عناق هذين الظلين.

يسيل الزمن منا كما يسيل من الساعة الرملية، ونحن لا نحس بهذا الهروب، ولا سيما في بعض الفترات الحرجة. فهنا زوج كان يجهل وجود هذا الشاهد ولا يراه، ومن هناك هذا الشاهد الذي لم يكن يرى الزوج، ولكنه يعرف أنه هناك، فكم من الدقائق بقيا كذلك في هذا التعلّق الخفي؟ الإجابة مستحيلة هنا. وفجأة، ارتفعت ضجة من بعيد، وصرخ صوت يقول: «إلى النجدة!» وقرع جرس المرفأ.

ومن المحتمل ألا تسمع السعادة، السكرى والسماوية، هذه الجلبة.

وتابع الجرس قرعه. ولو أن أحداً حاول البحث عن جيليات في زاوية الجدار، لما وجده فيه أبداً.

الكتاب الثاني

العرفان في تمام طغيانه

1

فرحة محاطة بالقلق

السيّد لاتياري يهزّ الجرس بحماسة فائقة. ثم توقف فجأة. وكان رجل يجتاز زاوية الرصيف. إنه جيليات.

ركض السيّد لاتياري نحوه، وبعبارة أصح قذف بنفسه نحوه، وأمسك يده بقبضتيه، وأخذ ينظر برهة من الزمن في عينيه في صمت عميق هو في حقيقته انفجار لا يدري من أين يخرج.

ثم أدخل جيليات إلى غرفة المنزل المنخفضة، وهو يهزّه، ويجذبه، ويضمّه بذراعيه، ثم أغلق الباب وراءهما بطرف قدمه، وجلس، أو سقط جالساً فوق كرسي إلى جانب منضدة كبيرة يضيئها القمر، الذي كان ينعكس نوره فيمنح وجه جيليات بياضاً غامضاً مبهماً، وصرخ بصوت، فيه انفجارات قهقهة ودموع ممتزجة:

- «آه! يا ولدي! جيليات! لقد كنت أعرف جيداً، إنك أنت! يا إلهي! قصّ عليّ ذلك. لقد ذهبت إذن! إنهم كانوا يحرقونك. لو فعلت ذلك منذ مائة عاماً. هذا شيء من السحر. إنه لا ينقصها برغي

واحد. لقد نظرت إلى كل شيء، وتعرفت إلى كل شيء، وزاولت فيها كل شيء أيضاً. لقد حاولت أن أبحث عنك في مقصورتك من القارب. ثم رحت أقرع الجرس. لقد كنت أبحث عنك. وكنت أقول لنفسي: «أين هو فآكله!» يجب أن نوافق على أن هناك أشياء مدهشة تحدث. إن هذا الحيوان هناك قد عاد من صخرتي دوفر. لقد حمل حياتي معه! أيتها السماء! إنَّك ملاك حقاً. نعم، نعم، نعم، هذه هي آلتي. إن أحداً لن يصدّق ذلك. وسيرونها، وسيقولون: «هذا غير صحيح». كل شيء فيها، ماذا! كل شيء فيها! لا حاجة فيها إلى شيء غير قليل من الزيت. ولكن، كيف صنعت، أن يقال إن دوراند ستسير مرة أخرى! قل لي بحقك أنه ليس بي مسّ من الجنون».

ونهض واقفاً، وتنفس، ثم تابع يقول:

- «أقسم لي على ذلك. أية ثورة فعلت! إنني جننت، وأحس بأنني لا أحلم. أنت طفلي، أنت ولدي، بل أنت الله نفسه. آه! يا بني! أن تحمل إليّ آلتي المسكينة! من وسط البحر! وفي كمين تلك الصخرة! لقد شاهدت أشياء غريبة كثيرة في حياتي. ولكنني لم أشهد شيئاً مثل ذلك. لقد رأيت الباريسيين الذين هم أبالسة. وإنني أتحداهم أن يفعلوا مثل الذي فعلتَ. هذا شيء أشدّ صعوبة من الباستيل نفسه. لقد صنعت هنا معجزة، معجزة صحيحة حقاً! آه ! أيها العفريت! تعال إليّ وعانقني. ستدين البلاد كلها لك في سعادتها. أيها السادة. لقد ذهب إلى دوفر. قلت: إلى دوفر. لقد ذهب وحيداً.

صخور دوفر ! إنها شيء لا أسوأ ولا أخطر. هل تعرف؟ وهل قيل لك؟ لقد ثبت لنا أن الكارثة مقصودة، لقد أغرق كلوبات دوراند ليسرق المال الذي كان يحمله إليّ. لقد دفع تانغروي إلى السكر. وهي قصة طويلة، سأقص عليك يوماً قصة اللصوصية هذه. وأنا الغبي الفظيع كنت واثقاً بكلوبان. لقد علق هذا المجرم في كمينه، إذْ أنه لم

يستطع الخروج منه. هناك إله، أي قذر حقيرا هل ترى يا جيليات! سنبني دوراند من جديد وسنمنحها عشرين قدماً أخرى. إن مراكب اليوم أكثر طولاً من قبل. وسأشتري خشباً من دانتزيغ وبريم. وسيقرضونني بعد أن حصلت على الآلة. وستعود الثقة إليّ».

وتوقف السيّد لاتياري، ثم رفع عينيه بتلك النظرة التي ترى السماء عبر السقف، وقال بين أسنانه: «هناك إله، ما في ذلك ريب».

وأردف قائلاً:

– «لا بأس، إن قليلاً من المال يكفيني لكي أبدأ عملي من جديد. على نطاق واسع. آه! لو كنت أملك أوراق البنكنوت الثلاث التي أعادها إليّ هذا اللّص رانتان، والتي سرقها كلوبان بعد ذلك!».

وراح جيليات يبحث، في صمت، عن شيء في جيبه، ثم أخرجه ووضعه أمامه. لقد كان الحزام الجلدي الذي حمله معه. وفتح الحزام ثم أخرج منه علبة، ومن العلبة ثلاث أوراق مطوية فتحها ثم مدّ بها يده إلى لاتياري.

وتفحص لاتياري القطع الثلاث. وتحت ضوء خفيف قرأ الرقم 1000. وأخذ السيّد لاتياري الأوراق الثلاث، ووضعها فوق المنضدة الواحدة إلى جانب الأخرى، ونظر إليها، ثم نظر إلى جيليات، وبقي جامداً لا يتحرك برهة من الزمن، ثم صدر عنه شيء كالانفجار:

– «وهذا أيضاً! أنت معجزة! أوراقي البنكنوتية! الثلاث كلها! كل منها من فئة الألف! وإذن فقد ذهبت حتى الجحيم. إن هذا حزام كلوبان. يا الهي! إنني أقرأ في داخله شيئاً اسمه القذر. جيليات يحمل الآلة بالإضافة إلى المال! هاك شيئاً ينشر في الصحف. سأشتري خشباً من النوع الممتاز. لقد حزرت، لعلك وجدت الهيكل. لعلك وجدت كلوبان متعفناً في زاوية! سنستورد الصنوبر من دانتزيغ، والسنديان من بريم، وسنضع السنديان في الداخل، والصنوبر في

الخارج. وقد نصنع الهيكل من خشب الدردار. فخشب الدردار صالح جداً لأجزاء السفينة الغاطسة، وإنه ليؤذيها ويفسدها أن تكون تارة جافة وأخرى مبتلة، أما شجر الدردار فيريد البلل دائماً، إنه يتغذى بالماء. أي دوراند رائع سنبني! ولن يفرض القانون عليّ من قبل أحد أبداً. ولن احتاج إلى قرض. فعندي المال. هل رأى أحد هذا الجيليات! لقد كنت منبطحاً، ميتاً، على اليابسة. فأقال عثرتي! وأنا الذي لم أكن أفكر فيه من قبل أبداً! لقد خرج ذلك من ذهني. أما الآن فقد عاد كل شيء إليّ. آه! هل تعلم، إنك ستتزوج داروشات».

واستند جيليات إلى الجدار، كمن يتأرجح فيشرف على السقوط، وقال بصوت خافض شديد الوضوح:

- «لا».

فانتفض السيّد لاتياري.

- «كيف، لا!».

فأجاب جيليات:

- «أنا لا أحبّها».

وذهب السيّد لاتياري نحو النافذة، ففتحها، ثم أغلقها، وعاد إلى المنضدة، وأمسك بأوراق النقد الثلاث، فطواها، ووضع العلبة الحديدية فوقها، وحكّ شعره، وأمسك حزام كلوبان، فقذف به نحو الجدار بعنف وقال: - «هناك أمر».

ثم وضع قبضته في جيبه وأردف.

- «لا تحب داروشات! وإذن فقد كنت تنفخ في القربة الموسيقية من أجلي؟».

أما جيليات، المستند دائماً إلى الجدار، فقد كان من الشحوب بحيث بدا كالرجل الذي سينقطع وشيكاً نفسه. وكلما زاد شحوبه، زادت حمرة لاتياري:

- «هاك رجلاً أبله! إنه لا يحبّ داروشات! حسن جداً، فحاول أن تحبّها إذن، إذ إنها لن تتزوج غيرك. أي عجيب من القول جئت تقول! إذا كنت تظن أنني أصدقك! فهل أنت مريض؟ حسن جداً، اجيء بطبيب يعالجك، ولكن لا تقل أشياء جنونية سخيفة. من المستحيل أن تكون قد وجدت الوقت الكافي لوقوع نزاع بينك وبينها ثم مغاضبتها! أصحيح أن هذا شأن المحبين، وهو شيء سخيف غبي! هون عليك، هل لك مبررات لمواقفك؟ فإذا كان عندك شيء منها، فقله. ومع ذلك، فإن في أذني قطناً، فلم أحسن الاستماع إليك كرر ما قلته!»

فأردف جيليات:

- «قلت: لا».

- «لقد قلت: لا. وأنت مصر على قولك! هل أصابك شيء، هذا أكيد؟ لقد قلت: لا! هاك سخفاً يتجاوز حدود العالم المعروف. إننا نقذف الآخرين بدلاء من الماء لما هو أقل من ذلك. آه! أنت لا تحبّ داروشات! وعلى ذلك، فقد فعلت ما فعلته حبًا بالرجل العجوز الطيب! وذهبت إلى دوفر لسواد عيني الأب، فأصابك البرد، والحرّ، وكدت تموت جوعاً وعطشاً، وأكلت ديدان الصخور، وواجهت الضباب، والمطر، والرياح، من أجل غرفة نوم، وحملت الآلة إليّ، كما يحمل عصفور شارد لامرأة جميلة! والعاصفة التي ثارت منذ ثلاث أيام. وإذن فقد درت، وبردت، ونشرت، ونجرت، وابتدعت، وفعلت الأعاجيب وحدك كما لا يفعله كل قديسي الجنة، من أجلي أنا: آه! أيها الأبله! ومع ذلك فقد طالما أزعجتني بقربتك الموسيقية. آه! أنت لا تحبّ داروشات! لا أدري ما الذي أصابك. إنني أذكر جيداً، لقد كنتُ هناك في الزاوية، وقالت داروشات: سأتزوّجه. وستتزوجك. آه! أنت لا تحبها! إنني لا أفهم شيئاً بعد أن أدرت كل

ذلك في ذهني وتدبرته فإما أنك جننت، أو أنني أنا المجنون. وهاك هو لا ينبس ببنت شفة. إنه لا يسمح لك أبداً أن تقول أخيراً بعد الذي فعل: أنا لا أحب داروشات. وليس من أحد يخدم الناس ليغضبهم. فإذا لم تتزوجها فإنها ستلتحق بسلك راهبات القديسة كاترين. أولاً، أنا في حاجة إليك. إنك ستكون ريّان دوراند. وإذا تصورت إنني سأتركك تذهب بمثل هذه السهولة، فأنت واهم يا قلبي، إنني لن أتركك أبداً. سأمسك بك، ولكنني لن أستمع إليك. أين هناك بحار مثلك! أنت رجلي. ولكن تكلم إذن!».

كان الجرس في تلك الأثناء قد أيقظ من في المنزل والجوار. وكانت حلوة وجمال قد استيقظنا، ودخلتا مندهشتين، إلى الغرفة المنخفضة، دون أن تقولا كلمة واحدة. وكانت جمال تحمل بيدها شمعداناً. وخرجت جماعة من الجيران، بورجوازيين، وبحارة، وفلاحين، إلى الرصيف، وكلهم ينظرون باندهاش وجمود إلى مدخنة دوراند فوق القارب. وبدأ بعضهم يتسلل بصمت إلى الغرفة المنخفضة بعد أن سمع صوت السيّد لاتياري. وقد ظهر رأس السيّد لاندوا بين وجهين لامرأتين ثرثارتين، هو الذي يقدر له أن يكون دائماً حيث يأسف يوماً لعدم وجوده.

إن الفرح الكبير لا يطلب خيراً من أن يكون أمامه جمهور كبير. ولاحظ السيّد لاتياري فجأة أن هناك ناساً من حوله. فقبل بهذا الجمهور المستمع من أول وهلة:

- «آه! هاكم أنتم، الآخرون. هذا شيء سعيد جداً. لقد علمتم بالنبأ. إن هذا الرجل كان هناك، وقد حمل إلينا هذا. صباح الخير يا سيد لاندوا. لقد رأيت هذا الأنبوب عندما استيقظت منذ قليل. لقد كان تحت نافذتي. إنه لا ينقصه مسمار واحد. إنهم يصنعون صوراً لنابوليون، أما أنا، فأحب هذا أكثر من معركة

أوسترليتز. إنكم تخرجون من سريركم أيها السادة! ودوراند تأتيكم وانتم نائمون. وبينما تضعون قلانسكم فوق رؤوسكم وتنفخون على شمعداناتكم، يوجد أناس من الأبطال . نحن كومة من الجبناء والكسالى، ونحن ندفئ أوجاع الروماتيزم، ومن حسن الخط إن هذا لم يحل دون وجود رجال ثائرين. هؤلاء الثائرون يذهبون حيث يجب أن يذهبوا ويفعلون ما يجب أن يفعل. إن رجل البو دو لارو قد وصل في دوفر. لقد رفع دوراند من أعماق البحر، وانتزع المال من جيب كلوبان، من فجوة أشد عمقاً أيضاً. ولكن كيف فعلت؟ لقد كان الشيطان كله ضدك، الرياح والمد البحري، والمد البحري والرياح. صحيح أنك ساحر. الذين يقولون هذا ليسوا أغبياء. لقد عاد دوراند. أيها الأصدقاء، أنبئكم أنه لن تكون كوارث بعد اليوم. لقد زرت الآلة، فوجدتها جديدة، كاملة، ماذا! إن صمامات البخار تتحرك وكأنها تسير على عجلات. حتى ليقال إن الآلة هي صنع هذا الصباح. آه! إنك ستتزوجها!».

فسأل السيّد لاندوا:

- «من؟ الآلة؟».

- «لا، الفتاة. نعم، الآلة. الاثنتين معاً. سيكون ختني مرتين. سيكون الربّان. أيها الربّان، جيليات. ستنشأ سفينة جديدة من دوراند! وسنعقد بها صفقات، وسنقوم معها برحلات، وسننقل أحمالاً من الثيران والخراف! إنني لن أعطي سان سامبسون حتى مقابل لندن. وهاكم هو الخالق المبدع. أقول لكم: إن هذه مغامرة. وستقرأ قصتها يوم السبت في صحيفة الأب موجا. إن جيليات الماهر ماهر حقًّا».

كانت داروشات في الغرفة منذ برهة قصيرة. فلم بقل كلمة، ولم تحدث ضجة أبداً. لقد كان دخولها كدخول الظل. وجلست، غير منظورة تقريباً، فوق كرسي وراء السيّد لاتياري الذي كان واقفاً،

ثائراً، فرحاً، مسرفاً في حركاته، متكلّماً بصوت مرتفع. ثم ظهر بعدها شيء آخر صامت أخرس. رجل ذو ملابس سوداء، وربطة رقبة بيضاء، قبضته في يده، كان قد وقف عند فتحة الباب. لقد كثر عدد الشمعدانات بين الجماعة المتضخّمة في بطء. وكانت هذه الأنوار تتجه نحو رجل الملابس السوداء، وقد ارتسمت صفحة وجهه الجانبية بصفاء الميدالية على الخلفية القائمة، ببياضها الفتي الجميل، وهو يسند مرفقه على زاوية حلقة من حلقات الباب، ويضع جبهته في يده اليسرى، في موقف رائع، على غير علم منه، يكشف عن عظمة الجبهة بلطافة اليد. وكان عند زاوية شفتيه المتقلّصتين، شيء من القلق. إنه يتفحص ما حوله ويستمع إليه بانتباه عميق. وقد وسّع له الموجودون مكاناً، عندما عرفوا فيه المحترم إيبانازر كوداري ولكنه بقي عند العتبة. لقد كان في هيئته تردد، وفي نظرته تصميم. وكانت هذه النظرة تلتقي نظرة داروشات بين وقت وآخر. أما فيما يتعلّق بجيليات، فقد كان في الظل، عرضاً، أو قصداً، فلا يرى إلاّ في إبهام وغموض. ولم يرّ السيّد لاتياري المحترم إيبانازر بادئ الأمر، ولكنه رأى داروشات. فاتجه نحوها، وضمّها إليه بكل ما تحمله قبلة في الجبهة من حماسة مستطيرة. وكان في الوقت نفسه، يمدّ ذراعه نحو الزاوية القائمة حيث كان جيليات.

قال:

- «داروشات، ها أنتِ غنية مرة أخرى، وهذا هو زوجك».

فرفعت داروشات رأسها ضائعة ونظرت إلى هذه الظلمة. وأردف السيّد لاتياري:

- «سنقيم الزفاف في الحال، غداً إذا أمكن، سنحصل على الإعفاءات، على أن الشكليات هنا ليست ثقيلة، والعميد يفعل ما يشاء، إن المرء هنا يتزوج قبل أن يجد الوقت لإرسال صرخة

التحذير، وليس الأمر كفرنسا، حيث تفرض مهل الإعلان، والنشر، وستفخرين بأنك زوجة رجل شجاع، وليس لنا ما نقوله، فهو بحار. لقد فكرت في ذلك منذ اليوم الأول حين رأيته يعود من هارم مع المدفع الصغير. أما اليوم، فهو يعود من دوفر، بثروتكِ، وثروتي، وثروة البلاد. إنه رجل سيتحدث الناس عنه يوماً كما لا يتحدثون عن أي رجل آخر. لقد قلتِ: سأتزوجه، وستتزوجينه، وسيكون لكِ أطفال، وسأكون جداً، وستحظين بأن تكوني سيدة رجل يعمل، وينفع، ويُدْهش، يساوي مئة رجل، وينقذ مخترعات الآخرين، ويكن عناية إلهية، وهكذا لن يكون شأنكِ على الأقل، شأن الفتيات الغنيات في هذا البلد، إنك لن تتزوجي جندياً أو كاهناً، أي الرجل الذي يقتل، أو الرجل الذي يكذب. ولكن، ماذا تصنع في زاويتك يا جيليات؟ نحن لا نراك. حلوة، جمال! كلكم، أريد نوراً. أضيئوا ختني. إنني أكرّسكما خطيبين، يا ولدي، هاك زوجك، وهاك ختني، إنه جيليات من بور دو لارو، الفتى الطيب، والبحار الكبير، ولن يكون لي ختن آخر، ولن يكن لكِ زوج آخر، إنني أتعهّد بذلك مرّة أخرى أمام الله. آه! هذا أنت أيها السيّد الخوري، إنك ستزوج هذين الشابين».

وكانت عين السيّد لاتياري قد سقطت على المحترم إيبانازر.

وأطاعت حلوة وجمال. لقد أضاء شمعدانان السيّد جيليات من رأسه إلى قدميه بعد أن وضعا على المنضدة.

وصرخ لاتياري قائلاً: - «كم هو جميل!».

وكان جليليات شديد البشاعة.

إنه على هيئته التي خرج بها، في الصباح نفسه، من صخرة دوفر، في أسماله وبمرفقيه المثقوبين، ولحيته الطويلة، وشعره المتلبد، وعينيه المحترقتين الحمراوين، ووجهه المسلوخ، وقبضتيه الداميتين،

وقدميه العاريتين. وكان بعض بثور الأخطبوط ما يزال ظاهراً فوق ذراعه ذات الشعر الكثيف. ولكن السيّد لاتياري يتأمّله معجباً.

- «إنه ختني الحقيقي. كم قاتل البحر! إنه غارق في أسماله! أية كتفين! وأية قائمتين! فكم أنت جميل!».

وتراكضت جمال نحو داروشات تمسك لها رأسها. لقد كانت داروشات مشرقة على الأغماء.

2

حقيبة الجلد

كانت سان سامبسون منذ الفجر قائمة على قدمها وسان بيار بور قد بدأت تصل. لقد أحدث بعث دوراند في الجزيرة ضجة شبيهة بتلك التي أحدثتها -سالات- في جنوبي فرنسا. لقد كان عند الرصيف جمهور من الناس ينظر إلى المدخنة خارجة من القارب. وقد كان الجميع راغبين في رؤية الآلة أو لمسها قليلاً، ولكن لاتياري بعد أن قام بدورته التفتيشية الأخرى، مرة ثانية أثناء النهار، قد عهد إلى اثنين من البحارة بمنع الاقتراب منها. يضاف إلى ذلك، أن المدخنة كانت كافية للنظر والتأمل. لقد كان الجمهور معجباً، فلا يتحدث إلا عن جيليات. وكانت التعليقات على الحادث كثيرة، وصفة «الماهر الخبيث» تستعمل بكثرة، والإعجاب الشامل ينتهي بهذه العبارة: «ليس من الممتع أن يكون في الجزيرة أناس جديرون بفعل أشياء كهذه».

هذا والسيّد لاتياري، جالساً أمام منضدته عند النافذة وهو يكتب، عين على ورقته، وعين على الآلة. وكان من استغراقه في عمله أنه لم يقطعه غير مرّة واحدة نادى فيها حلوة ليسألها عن آخر أنباء داروشات. فأجابته: «لقد نهضت الآنسة وخرجت». فقال السيّد

لاتياري: «إنها تحسن صنعاً بتغيير الهواء. لقد أزعجتها الحرارة في هذا الليل. وكان في الغرفة كثير من الناس. ثم المفاجأة، والفرحة، بالإضافة إلى أن النافذتين كانتا مغلقتين. سيكون لها زوج فخور!» - ثم عاد إلى الكتابة. كان قد وقع على رسالتين ثم ختمهما موجهتين إلى أكبر أصحاب الورش في بريم. وكان يكمل الرسالة الثالثة.

ثم انتصبت رقبته على ضجة عجلة عند الرصيف. فانحنى عبر نافذته، ورأى عند مخرج الطريق المؤدي إلى البو دو لارو صبياً يدفع أمامه نقالة على عجلتين. وكان هذا الصبي متجهاً في طريق سان بيار بور. وعلى النقالة حقيبة من جلد أصفر تزينها مسامير من النحاس ومن القصدير.

فناداه السيّد لاتياري قائلاً:

- «أين تذهب أيها الصبي؟».

فوقف الصبي وأجابه:

- «إلى كشمير».

- «وماذا تصنع هناك؟».

- «احمل هذه الحقيبة».

- «حسن جداً، ستحمل أيضاً هذه الرسائل الثلاث».

وفتح السيّد لاتياري جارور منضدته، فأخرج منه خيطاً، ربط به رسائله في حزمة واحدة وعقد الخيط على شكل صليب ثم رمى بالحزمة إلى الصبي الذي تلقاها طائرة بيديه.

- «ستقول لربان كشمير إنني أنا الكاتب، وأن يعنى بها. إن وجهتها بريم عبر لندن».

- «لن أكلم الربان، يا سيّد لاتياري».

- «ولماذا؟».

- «ليست كشمير عند الرصيف».

- «آه!».

- «إنها عند الطوف».

- «نعم هذا صحيح. بسبب البحر».

- «إنني لن أستطيع أن أكلّم غير صاحب الماعون».

- «إذن، ستوصيه برسائلي خيراً».

- «نعم يا سيد لاتياري».

- «متى تقلع كشمير؟».

- «عند الساعة الثانية عشرة».

- «المدّ يصعد اليوم ظهراً. فالبحر ضدها».

- «ولكن الريح مؤاتية».

قال السيّد لاتياري وقد وضع إبهامه على مدخنة الآلة:

- «أيها الصبي هل ترى هذه؟ إنها تهزأ بالرياح وبالمدّ».

ووضع الصبي الرسائل في جيبه، ثم رفع قبضتي النقالة، واتخذ طريقه نحو المدينة. فنادى السيّد لاتياري:

- «حلوة! جمال!».

ففتحت جمال الباب قليلاً.

- «سيّدي، ماذا تريد؟».

- «ادخلي، وانتظري».

فأخذ السيّد لاتياري ورقة وراح يكتب. ولو أن «جمالاً» الواقفة وراءه، كانت فضولية، ومدّت رأسها وهو يكتب، لقرأت من فوق كتفيه ما يلي:

«أكتب إلى بريم من أجل الخشب. ويومي مليء بالمواعيد مع

النجارين. وسيتم البناء بسرعة. أما أنت، من جهتك، فاذهبي إلى راعي الكنيسة للحصول على الإعفاءات. أرغب في أن يكون الزواج بأسرع ما يمكن، ومن الأفضل أن يتم حالاً. إنني أتولى أمر دوراند، فتولَّ أنت أمر داروشات».

ثم كتب التاريخ ووقّع: لاتياري.

ولم يكلّف نفسه ختم الورقة، بل طواها ببساطة ومدّ بها يده إلى جمال.

- «احملي هذه إلى جيليات».

- «إلى البو دو لارو؟».

- «إلى البو دو لارو».

الكتاب الثالث

ذهاب كشمير

1

هافيلا القريب جداً من الكنيسة

لا يمكن لسان سامبسون أن تكتظ بالجماهير دون أن تصبح سان بيار بور خالية. هذه ظاهرة تلفت النظر، إنها كالمضخة في نقطة معينة. الأنباء تنتقل بسرعة في البلدان الصغيرة، كان الذهاب منذ طلوع الشمس، لرؤية مدخنة دوراند، تحت نوافذ السيّد لاتياري، هو قضية غرناسي الكبرى. إن أي نبأ آخر جدير بالاختفاء أمام هذا النبأ العظيم. لقد أسدل الستار على موت عميد سان آزاف، ولم تعد قضية إيبانازر كوداري المحترم، موضع اهتمام أحد، وكذلك غناه المفاجئ، ثم سفره إلى كشمير. إن آلة دوراند المحمولة من دوفر هي قضية اليوم. لم يكن أحد يصدّق هذا النبأ. لقد ظهرت الكارثة مدهشة، ولكن عملية الإنقاذ بدت مستحيلة. وأصبح الأمر منوطاً بمن يتحقّق الشيء بعينيه. وقد انقطعت على كل المشاغل الأخرى. خطوط طويلة من البورجوازيين في تجمّعات عائلية، رجالاً، ونساء، وسادة نبلاء، وأمهات مع أطفالهن، وأطفالاً مع دُمَاهُمْ، كانوا يتجهون من كل طريق

نحو «الشيء الذي تجب رؤيته» وكانوا يستدبرون سان بيار بور. وكان الكثير من دكاكين سان بيار بور قد أغلق. لقد توقّفت حركة البيع والشراء في «كوميرشال- أركاد»، وانتباه الجميع موجه نحو دوراند، لم يتخلّف تاجر واحد عن جوهري كان سعيداً ببيع محبس ذهبي للزواج «إلى رجل يبدو على عجلة من أمره وقد سأله عن منزل راعي الخورنية». أما الدكاكين التي بقيت مفتوحة فقد أصبحت أمكنة للحديث والتعليق بضجة مرتفعة على عملية الإنقاذ العجيب.

في ذلك اليوم كانت السفينة كشمير قد آثرت أن ترسي مرساتها خارج مرفأ سان بيار بور بسبب اضطراب الماء في داخله. ولا يحدث هذا في العادة إلاّ حين تكون الريح شرقية. يضاف إلى ذلك أن السفن التي تبقى بسبب هذه الريح خارج المرفأ توفر نفقات إيوائها فيه. وفي هذه الحالة يُقْدِم أصحاب القوارب الصغيرة على نقل المسافرين وحمل أمتعتهم إلى السفن التي تتهيأ للإقلاع، وغالباً ما يكون ذلك أثناء هيجان البحر، دون وقوع أي حادث. فالريح الشرقية صالحة جداً للسفر إلى انجلترا، والسفينة تدرج خلالها ولكنها لا تتأرجح أو تتمايل.

فإذا كانت السفينة التي تتهيأ للسفر في المرفأ، انتقل الجميع إليها من المرفأ، أما إذا كانت في عرض البحر، فإن في وسع المسافرين أن يختاروا إحدى النقاط القريبة من السفينة الراسية. وهناك « مراكبيون» موجودون بكثرة في كل الخلجان الصغيرة.

وكان الهافيلا واحداً من هذه الخلجان الصغيرة. إنه قريب من المدينة ولكنه شديد الوحدة بحيث يبدو بعيداً عنها. ووحدته كانت بسبب تراكم الصخور العالية لحصن جورج، وهي التي تسيطر على تلك الحنية الخفية. والوصول إلى الهافيلا ممكن من طرق كثيرة. أقربها تلك التي كانت تمر قرب شاطئ الماء، وميزته أنه كان يبلغ

بالسائرين عليه المدينة والكنيسة عند المرفأ بخمس دقائق، أما النقص فيه فهو أنه يغمر بالماء مرتين في كل يوم. وأما الطرق الأخرى فقد كانت ممتدة عبر فجوات الوعر الصخري. والهافيلا حتى في وضح النهار، يكون في شبه ظلال. كانت فيه من كل جهة كتل كثيفة من النباتات المختلفة. والأشواك والأدغال المتلبدة تتكاثف وتحدث نوعاً من ليل رقيق فوق هذه الفوضى من الصخور والأمواج، إنه لا أروع ولا ألطف من هذا الخليج في جو صاحٍ هادئ، ولا شيء أبعث على الضجيج من المياه الثائرة. لقد كانت هناك حواشي من الأغصان مبتلة دائماً بالزبد. وهي في الربيع مملوءة بالأزهار، والأعشاش، والروائح الطيبة، والطيور، والفراشات والنحل. وقد اختفت اليوم بفضل الأعمال الحديثة، كل هذه الأمكنة الوحشية، لقد حلّت محلها خطوط مستقيمة، فهناك أبنية، وأرصفة، وحدائق. لقد انتشرت عمليات تسوية الأرض، وانتصر الذوق على غرائب الجبل، وجنوح الصخور.

2

اجتماع اليائسين

كانت الساعة قليلاً قبل العاشرة صباحاً، وكان إقبال الجماهير يتزايد بصورة مطردة في سان سامبسون. يدفعها فضول كأنه الحمى نحو شمالي الجزيرة، بينما كان الهافيلا في الجنوب منها خالياً من الناس تقريباً.

ومع ذلك فقد كان يرى فيه مركب ومراكبي ينتظر. والسفينة كشمير في عرض البحر لم تتهيأ بعد للإقلاع والسفر.

فلو أن أحد المارة، قد حاول أن يصغي، وأن يرى، لسمع وشوشات من الأحاديث، ورأى في زاوية خفية من الصخور

والأغصان رجلاً وامرأة، إيبانازر وداروشات.

إن هذه الزوايا القائمة عند شاطئ البحر والتي كانت تغري السابحات على السباحة، ليست دائماً في عزلة كما يظن. إن الذين يلجأون إليها قد يلاحقون عبر النباتات والأغصان الكثيفة، حيث تتكاثر المخارم فيها وتتصالب. إن الصخور الغرانيتية والأشجار التي تستطيع أن تخفي الهاربين، في وسعها أيضاً أن تخفي شاهداً عليهم.

إيبانازر وداروشات واقفان متقابلين، النظرة في النظرة، واليدان في اليدين. وكانت داروشات تتكلم. بينما يصغي إيبانازر إليها صامتاً. وقد تجمعت بين أهدابه وتوقفت دمعة مترددة، ممتنعة عن السقوط.

الأسى والهوى منطبعان على جبهته الدينية. يضاف إلى ذلك استسلام صابر، استسلام متعارض مع الإيمان، وإن كان صادراً عنه. لقد كانت على هذا الوجه، الملائكي حتى ذلك الوقت، بداية تعبير قدري. والواقع أن إيبانازر كان مؤمناً يمتزج إيمانه بتعقل منطقي، وكان كاهناً تعقده أهواء ثائرة.. إن الأديان العازبة تعرف ما تصنع. لا شيء يحطم الكاهن كأن يحب امرأة جميلة. لقد كان كل نوع من الغيوم يسدل ستاراً من القتامة على إيبانازر.

كان يتأمّل داروشات كثيراً.

وكانت في حدقته عبادة اليأس الخرساء.

أما داروشات فكانت تقول:

- «إنك لن تسافر. فأنا لا أقوى على احتمال ذلك. ألا ترى، لقد ظننت أنني قادرة على توديعك، ولكنني غير مستطيعة أبداً. لماذا أتيت البارحة؟ لقد كان من الواجب عليك ألا تأتي إن كنت تريد السفر وأنا التي لم أكلمك من قبل. كنت أحبك، ولكنني لم أكن أعرف ذلك. شيء واحد فقط، وكان ذلك في اليوم الأول، حين قرأ السيّد هيرود تاريخ ريباكا وتقابلت عيوننا، لقد شعرت بالنار في

وجنتيّ، وفكرت في نفسي،أوه! كم كانت ريباكا متّشحة بالحمرة آنذاك! سيان عندي، لقد كنت أضحك، لو قيل لي أول أمس: إنك تحبين راعي الكنيسة. وهو الجانب الرهيب من هذا الحب. لقد كان شيئاً كالخيانة. فلم أتنبّه له. كنت أذهب إلى الكنيسة، وأراك، وأظن أن الناس كلهم مثلي. فأنا لا ألومك، إنك لم تفعل شيئاً كي أحبك، ولم تبذل أي جهد، وكنت تنظر إليّ، ولا تثريب عليك في أن تنظر إلى الناس، فكان من ذلك أنني عبدتك. كنت أشك في ذلك أبداً. كنت إذا تناولت الكتاب، بدا لي شيئاً كالنور، وإذا تناوله غيرك، لم يكن غير كتاب فقط. كنت ترفع ناظريك نحوي في بعض الأوقات. وتتكلم عن الملائكة فكنت أنت الملاك. كنت أفكر حالاً فيما تقوله. ولم أكن أدري قبلك ما إذا كنت مؤمنة بالله. أما بعد ذلك، فقد أصبحت امرأة تقيم الصلاة. ولو أنك لم تقل لي شيئاً، لما عرفت شيئاً. ولكنت ذهبت، وساورني قليل من الحزن أما الآن فإنني سأموت. أما وقد عرفت أنك تحبني، وأنني أحبك، فلن يسعك أن تسافر أبداً. بم تفكر؟ إنك لا تبدو مصغياً إليّ».

فأجاب إيبانازر:

- «لقد سمعت ما قيل أمس».

- «واأسفاه!».

- «وما الذي أستطيع عمله؟».

ثم سكتا قليلاً. وأردف إيبانازر:

- «لم يبق أمامي غير شيء واحد، هو الرحيل».

- «وأنا الموت. أوه! كم أتمنى ألا يكون بحر وألا تكون غير السماء. يبدو لي أن هذا الأمر هو التدبير الصحيح، فيكون رحيلنا هو نفسه. كان عليك ألا تكلمني، أنت. فلماذا كلمتني؟ وإذن لا ترحل. ما الذي سيصير إليه أمري؟ قلت لك: إنني سأموت. أوه! إن قلبي

محطّم. وإنني لبائسة حقاً. ومع ذلك فإن عمي رجل غير خبيث».

كانت هي المرة الأولى التي استعملت فيها داروشات كلمة عمي بدلاً من أبي.

وتراجع إيبانازر خطوة إلى الوراء، ثم أشار إلى المراكبي أن يقترب. فصرخت داروشات:

- «لا، لا!».

واقترب منها إيبانازر قائلاً:

- «يجب ذلك يا داروشات».

- «لا، أبداً! أمن أجل آلة! هل هذا ممكن! هل رأيت ذلك الرجل الرهيب أمس! إنك لا تستطيع أن تتخلى عني. أنت ذكي، وفي وسعك أن تجد طريقة ما. وليس من المعقول أن تطلب إليّ المجيء هذا الصباح لترحل بعد ذلك. إنني لم أسئ إليك. وليس لك أن تشكو مني. إنك لن تتركني. والسماء لا تنفتح لتغلق بعد ذلك. قلت لك: إنك ستبقى. على أن ساعة الرحيل لم تأزف بعد. أوه! إنني أحبك».

وضمّته إلى صدرها، ثم أحاطت رقبته بأصابعها العشرة، كما لو أنها تقيّده بذراعيها، وتصلي إلى الله بيدها.

فباعد إيبانازر بين هاتين الذراعين اللتين قاومتا وسعهما. ثم سقطت داروشات فوق نتوء صخري مغطى باللبلاب وانفجرت باكية.

في تلك البرهة سمعا صوتاً وقوراً وبطيئاً يقول لهما:

- «لماذا لا تتزوجان؟».

فأدار إيبانازر رأسه، ورفعت داروشات عينيها.

فكان جيليات أمامهما.

ولم يعد جيليات كما كان بالأمس. لقد رجّل شعره، وسوّى لحيته، ولبس حذاءين، وقميصاً بحرية بيضاء ذات ياقة مفتوحة، لقد

كان يلبي ثياب بحار جديدة. وفي إصبعه خاتم ذهبي. كما كان يبدو هادئاً. أما وجهه فهو ذو لون أزرق ضارب إلى السواد.

كان هذا الوجه برونزاً يتألّم.

ونظرا إليه مشدوهين. وعرفته داروشات رغم خفاء صورته، ثم أردف جيليات قائلاً:

- «وما حاجتكما إلى الوداع؟ تزوجا. ثم تسافران معاً».

فارتعشت داروشات. وشاعت الرجفة في جسدها كله من رأسها حتى قدميها.

وتابع جيليات قائلاً: - «إن الآنسة داروشات قد بلغت ربيعها الحادي والعشرين. ومصيرها معلّق بإرادتها. أما عمها فهو عمها فقط. وأنتما متحابان..».

فقاطعته داروشات برقة: - «كيف حدث أنك هنا؟».

فتابع جيليات أيضاً: - «تزوّجا».

وبدأت داروشات تدرك ما كان يقوله هذا الرجل لها. فتمتمت:

- «مسكين عمي..».

قال جيليات:

- «إنه قد يرفض عزمكما على الزواج، ولكنه سيوافق بعد زواجكما. على أنكما ستسافران. وسيغفر لكما بعد رجوعكما».

وأضاف جيليات بمرارة:

- «على أنه لا يفكّر الآن إلاّ في بناء مركبه. وسيشغله ذلك أثناء غيابكما. إنه سيجد عزاءه في دوراند».

فتمتمت داروشات، في دهشة تغمرها فرحة:

- «إنني غير راغبة في أن أترك ورائي أحزاناً».

قال جيليات: - «إنها لن تستمر طويلاً».

ثم أصبح صوت جيليات وجيزاً وقاسياً، يحس فيه السامع نبضات الحمى:

- «حالاً. ستسافر كشمير بعد ساعتين. وأمامكما من الوقت متسع. تعالا».

فتأمّله إيبانازر بانتباه. وصرخ فجأة:

- «لقد عرفتك. إنك أنت الذي أنقذت حياتي».

أجابه جيليات:

- «لا أظن ذلك».

- «هناك عند رأس «البنك».

- «لا أعرف هذا المكان».

- «إنه اليوم الذي وصلت فيه».

قال جيليات:

- « لا تضيّعا وقتكما».

- « وأنا لا أخطىء، فأنت رجل الأمس».

- «قد يكون ذلك».

- «ما اسمك؟».

فرفع جيليات صوته:

- «أيها المراكبي، انتظرنا. فسنعود، وأنتِ أيتها الآنسة: لقد سألتني عن سبب وجودي هنا، هذا شيء بسيط، لقد كنت أمشي وراءكما. ولنأخذ الآن طريق الساحل فهو صالح للمرور، والبحر لا يرتفع إلاّ عند الظهيرة».

وبدا إيبانازر وداروشات يتشاوران بالنظرات، لقد كانا في سكر

تقريباً. إن هناك مواقف يتردد فيها المرء بغرابة عند طرق الهوة، السعادة. لقد كانا يفهمان دون أن يفهما.

قالت داروشات لإيبانازر بصوت منخفض:

- «اسمه جيليات».

فأردف جيليات على هيئة ذي سلطان:

- «ماذا تنتظران؟ قلت لكما: اتبعاني».

فسأل إيبانازر:

- «إلى أين؟».

- «إلى هناك».

وأشار جيليات بإصبعه إلى جرس الكنيسة.

فتبعاه.

كان جيليات في المقدمة. خطوته ثابتة، أما هما فكانا يتأرجحان. وكلما زاد اقترابهم من الجرس، بدا على وجهي إيبانازر وداروشات الصافيين الجميلين شيء لا يلبث أن يكون ابتسامة. لقد كان اقترابهما من الكنيسة يضيئهما. أما في عين جيليات الغائرة فلم يكن غير الليل.

حتى ليقال: إن طيفاً يقود روحين إلى الجنة.

3

احتراس إنكار الذات

الساعة تدق العاشرة والنصف حينما كانوا يدخلون إلى الكنيسة. كانت الكنيسة خالية. ليس فيها غير ثلاثة أشخاص: المحترم جاكمان

هيرود، وإنجيليّ، ومسجل. وكان المحترم هيرود جالساً، فلم يكد يرى المحترم إيبانازر كوداري حتى هبَّ واقفاً.

قال: - «إنني انتظركم».

فنظر إيبانازر إلى جيليات. وأضاف المحترم هيرود:

- «إنني تحت تصرّفك يا زميلي».

ثم حيّاه. وقال بعد ذلك:

- «سأزوّجكما. وسيكون مساعدي الإنجيلي شاهد الزوج، أما فيما يتعلق بشاهد الزوجة..».

وأدار رأسه نحو جيليات، فأشار جيليات إليه برأسه.

قال المحترم هيرود:

- «يكفيني هذا».

وبقي إيبانازر جامداً لا يتحرّك. أما داروشات فقد كانت نشوة متحجّرة.

ثم أردف يقول:

- «ومهما تكن رغبتي طيبة، فإنه لا يكفيني قول أسمعه. إنني في حاجة إلى إذن مكتوب من قبل السيّد لاتياري».

قال جيليات:

- «هذه ليست عقبة».

وقدّم إلى المحترم هيرود ورقة مكتوبة. أمسك بها المحترم وقرأ ما فيها بصوت مرتفع.

- «اذهب إلى عميد الخورنية للحصول على الإعفاءات. إنني راغب في تحقيق الزواج في أسرع وقت ممكن. ومن الأفضل أن يتحقّق حالاً».

ثم تابع يقول بعد أن وضع الورقة على المنضدة:

- «التوقيع: لاتياري. لقد كان الأمر أجدر بالاحترام لو وجهت هذه الورقة إليّ. إمَّا وأن الأمر متعلّق بزميل، فأنا لا أسأل شيئاً وراءها».

ونظر إيبانازر إلى جيليات من جديد. فكان بينهما تفاهم روحي. وأحس إيبانازر بالتزوير، ولكنه لم يملك القوّة على فضحه، بل قد لا تكون الفكرة خطرت في ذهنه. إما خضوعاً منه لبطولة كامنة كان يتبينها، أو ذهولاً من ذهنه أمام صاعقة الفرح، فبقي صامتاً.

وبدأت حفلة الزواج.

لقد كانت البرهة غريبة حقاً.

قال المحترم هيرود بعد أن ملأ أرواقه الرسمية:

- «هل هناك اعتراض؟».

فلم يجب أحد.

فأردف المحترم:

- «آمين».

وتقدم العروسان خطوة نحو المحترم جاكمان. فقال:

- «جو إيبانازر كوداري: هل تريد هذه المرأة زوجة لك؟».

فأجاب إيبانازر:

- «نعم أريد».

قال المحترم:

- «دوراند داروشات لاتياري، هل تريدين هذا الرجل زوجاً لكِ؟».

فقالت داروشات، في احتضار الروح تحت غمرة من الفرح كالمصباح تحت الزيت الكثير، وكأنها تغمغم:

- «نعم أريده».

- «من يعطي هذه المرأة لهذا الرجل؟».

قال جيليات:

- «أنا».

وسرى صمت. فأحسّ إيبانازر وداروشات نوعاً لا يدرك من الضغط الغامض عبر فرحتهما.

ووضع المحترم يد داروشات اليمنى في يد إيبانازر اليمنى، وقال إيبانازر لداروشات:

- «داروشات، إنني أتخذكِ زوجة لي، ولتكوني خيراً مما أظن أو أسوأ، أغنى أو أفقر، في مرض أو في صحة، لأحبكِ حتى الموت، وأهبكِ قلبي».

ثم وضع المحترم يد إيبانازر اليمنى في يد داروشات اليمنى، وقالت داروشات لإيبانازر:

- «إيبانازر، أنني اتخذتك زوجاً لي، ولتكن خيراً مما أظن أو أسوأ، أغنى أو أفقر، في مرض أو في صحة، لأحبكَ حتى الموت، وأهبكَ قلبي».

قال المحترم:

- «أين الخاتم؟».

هنا كانت المفاجأة. إن إيبانازر الذي أخذ على غرة لم يكن يحمل خاتماً.

فنزع جيليات خاتماً ذهبياً من إصبعه، وقدّمه إلى المحترم ومن المحتمل أن يكون هو خاتم «الزواج» الذي باعه في الصباح جواهري «الكوميرشان - أركاد».

فوضع المحترم الخاتم على الكتاب ثم قدمه إلى إيبانازر.

فأمسك إيبانازر يد داروشات اليسرى الصغيرة والمرتجفة، وأدخل الخاتم في إصبعها الرابعة وقال:

- «أتزوجكِ بهذا الخاتم».

قال المحترم:

- «باسم الأب والابن وروح القدس».

وردّد مساعده الإنجيلي:

- «لتكن إرادة الله».

ثم رفع المحترم صوته: - «أنتما زوجان».

قال الإنجيليّ: - «لتكن إرادة الله».

فأردف المحترم: - «لنصلّ».

فاستدار إيبانازر وداروشات نحو المنضدة وجثوا راكعين على ركبتيهما. أما جيليات فبقي واقفاً، وقد خفض رأسه.

لقد كانا يركعان أمام الله، أما هو فقد كان ينحني أمام القدر.

4

«من أجل امرأتك، يوم ستتزوج»

وعند خروجهم من الكنيسة، رأوا كشمير تستعد للرحيل.

قال جيليات:

- «لقد وصلتما في الوقت المناسب».

فاتخذوا طريق الهافيلا ثانية.

كانا يمشيان في المقدمة. أما جيليات فيسير وراءهما.

لقد كانا كالسائرين في نومهما. كل ما حدث أن ضياعهما قد غيّر اتجاهه. لم يكونا يعرفان أين هما ولا ماذا يصنعان، كانا يسرعان

بصورة آلية، فلا يذكران وجود شيء أبداً. وكانا صامتين، يتبادلان أشياء كثيرة بالروح. وداروشات تشد إليها ذراع إيبانازر.

ويعد دقائق قليلة بلغا الهافيلا.

واستقلّ إيبانازر المركب أولاً. وبينما كانت داروشات تهم باتباعه، أحسّت بشيء يشدّ كمّها برفق. إنه جيليات الذي كان قد وضع إصبعه فوق طية من ثوبها.

قال:

- «سيدتي، إنك لم تكوني تنتظرين السفر. وقد فكرت أنك ستحتاجين إلى أثواب وبياض. ستجدين على ظهر كشمير صندوقاً يحتوي على ملابس نسائية. هذا الصندوق قد ورثته عن أمي. لقد كان معدًّا للمرأة التي قد أتزوجها. اسمحي لي أن أقدمه إليكِ».

واستيقظت داروشات من حلمها قليلاً. واستدارت نحو جيليات. فتابع جيليات، بصوت منخفض لا يكاد يسمع.

- «اسمعي يا سيدتي، لا لأوخركِ طبعاً، ولكن يجب أن أشرح لكِ كل شيء. اليوم الذي وقعت فيه الكارثة، كنت جالسة في الغرفة المنخفضة، وقلت عبارة. ونحن غير مرغمين على تذكر كل الكلمات التي نقولها. وكان السيّد لاتياري شديد الحزن. والثابت أنه كان مركباً جيداً، وكان يقدم الكثير من الخدمات. وقد نزلت كارثة البحر، فشاع الاضطراب في البلدة. وهي أشياء قد نسيت طبعاً. لم تغرق غير هذه السفينة في الصخور. ولا يسعنا بالطبع أن نفكر دائماً في حادث مقدر. لكن ما كنت أحب أن أقوله لك، هو أنني قد ذهبت، حين كان يقول الجميع: لن يذهب أحد. كانوا يقولون: هذا مستحيل، والواقع أن هذا لم يكن من المستحيل. أشكرك على إصغائك إليّ فترة قصيرة. أنت تفهمين، يا سيدتي، إنني إن ذهبت إلى هناك فما كان ذلك لإهانتك. على أن عهدنا بالحادث قد أصبح قديماً. وأنا أعلم

أنك على عجلة من أمرك. ولو كان عندنا متسع من الوقت، ولو تكلّمنا، لتذكّرنا، ولكن هذا لن يفيد أبداً. لقد بدأت القصة في يوم مثلج. وبينما كنت أمُر في مرة من المرات، ظننت أنك تبتسمين. هكذا يفسر الحادث كله. أما فيما يتعلّق بالأمس، فلم يكن لدي متّسع من الوقت للعودة إلى منزلي، كنت أخرج من العمل، وكنت ممزّقاً، لقد أخطأت، ليست هذه هي الطريقة التي يزار بها الناس، أرجوك ألا تحقدي علي. هذا هو كل ما كنت أريد أن أقوله تقريباً. سترحلين. وسيكون الجو جميلاً. فالرياح شرقية. وداعاً، سيدتي. تجدين حقاً أنني أكلمك قليلاً، أليس كذلك؟ هذه هي الدقيقة الأخيرة».

فأجابت داروشات:

- «إنني أفكر في هذا الصندوق. فلماذا لا تحتفظ به من أجل زوجتك، حين ستتزوج؟».

قال جيليات:

- «سيدتي، من المحتمل أنني لن أتزوج».

- «ستكون تلك خسارة كبيرة، فأنت طيب. شكراً».

وابتسمت داروشات، فأعاد جيليات إليها هذه الابتسامة.

ثم ساعدها على الدخول إلى المركب.

وبعد أقل من ربع ساعة وصل المركب إلى السفينة كشمير.

5

القبر الكبير

تابع جيليات شاطئ الماء، وبلغ سان بيار بور، سريعاً، ثم انطلق سائراً باتجاه سان سامبسون على امتداد البحر، متجنّباً لقاء الناس، مبتعداً عن الطريق العامة، التي امتلأت بالمارة بسببه.

لقد كانت له طريقته منذ زمن طويل، كما نعلم، في اجتياز كل طريق من طرق البلاد، دون أن يراه أحد من الناس. كان يعرف طرقاً كثيرة، وكان يتخذ لنفسه منها السبل المنعزلة والمتعرجة، وكانت له العادة الوحشية للكائن الذي يحسّ بأنه غير محبوب، فكان يبقى بعيداً. واتخذ هذه الخطة، منذ طفولته، يوم كان يجد في وجوه الرجال بخلاً في الترحيب به، حتى أصبح بعده غريزة في نفسه.

وتجاوز الأسبلاناد، ثم الساليري. وكان بين وقت وآخر يلتفت إلى الوراء وينظر إلى السفينة كشمير التي مدّت أشرعتها. كان هناك القليل من الرياح، فهو يسبق كشمير في سيره. لقد كان يسير في الصخور القصوى لشاطئ الماء، ثم خفض رأسه. وبدأ البحر يرتفع.

وتوقف في برهة من الزمن، يستدبر البحر، وراح ينظر متأملاً خلال بضع دقائق، إلى ما وراء الصخور التي تخفي طريق الغال، حيث تقوم مجموعة من شجر السنديان. هناك: في مرة سابقة، وتحت تلك الأشجار، كانت إصبع داروشات قد كتبت اسمه، جيليات، على الثلج. لقد ذاب هذا الثلج منذ زمن بعيد.

وتابع طريقه.

كان النهار رائعاً أروع ما شهد الناس خلال تلك السنة. وكان في الصباح شيء لا يدرك من طابع يوم الزفاف. لقد كان يوماً من الأيام الربيعية التي يصطنع فيها شهر أيار تمام روعته، لكأن الإرادة الخالقة قد بدت وهي لا تستهدف غير هدف واحد هو تذوق السعادة والاحتفال بالعيد. وكان وراء كل الغمغمات، في الغابة كما في القرية، وفي الموج كما في الجو، فنون من الهديل. الفراشات الأولى تغط فوق الورود الأولى. كل شيء كان قشيباً في الطبيعة، الأعشاب، والطحالب، والأوراق، والروائح، والأشعة. لكأن الشمس لم تشرق من قبل أبداً. الحصى نظيفة مغسولة. وأنشودة الأشجار العميقة التي

تطلقها العصافير قد ولدت أمس. ومن المحتمل أن قشرة بيضها التي كسرتها نقرات منقارها الصغير كانت ما تزال موجودة في العش. والأجنحة اللطيفة تبعث أصداء خفقها في رعشة الغصون. لقد كانت تغني أولى أغنياتها، وتطير طيرانها الأول. والسماء الزرقاء تظهر عبر فجوات الأدغال. ويتسابق في الفضاء اللازوردي بعض من الضبابات الثائرة، وبتموجات كتموجات الحوريات. ويحس السائر أن أفواهاً خفية تتبادل قبلات رقيقة.

وعندما وصل جيليات إلى سان سامبسون لم يكن الماء بعد قد غمر قاع المرفأ، فاستطاع أن يجتازه على قدميه، خفياً لا يراه أحد، وراء هياكل السفن الجاثمة في أحواض الترميم. وقد ساعده على اجتياز المكان حبل من الحجارة المسطحة المتباعدة.

ومرّ جيليات دون أن يلاحظه أحد. لقد كانت الجماهير في الطرف الآخر من المرفأ، قرب مدخله، عند منزل لاتياري. وكان اسمه هناك على كل شفة. وكان الكلام عنه من الكثرة بحيث لم ينتبه أحد إليه. ومرّ جيليات، تخفيه نوعاً ما الضجة التي يحدثها حول نفسه. ورأى من بعيد قاربه ذا الكِرش المنتفخة حيث ربطه، ومدخنة الآلة بين سلاسلها الأربع، كما ظهرت حركة نجارين مكبين على عملهم وأشباح غامضة من الذاهبين والقادمين، وسمع الصوت الداوي والفرح للسيّد لاتياري يصدر أوامره.

وغاص في الأزقة.

لم يكن أحد وراء منزل لاتياري، ففضول الناس منصب كله على جانبه الأمامي. وقد اتخذ جيليات الطريق التي تحاذي جدار الحديقة المنخفض. وقد توقف عند الزاوية التي كانت فيها الجنازة الوحشية، فرأى الحجر الذي كان يجلس فوقه، كما رأى المقعد الذي كانت تجلس داروشات فوقه أيضاً. ثم نظر إلى أرض الممر الذي رأى

فيه الظلين يتعانقان. وعاد إلى سيره. فتسلّق هضبة قصر الغال، ثم هبط منها، واتجه نحو البو دو لارو.

كان الهومار بارادي وحيداً.

ومنزله على هيئته التي تركه عليها في الصباح بعد أن لبس ثيابه للذهاب إلى سان بيار بور.

هناك نافذة مفتوحة وقد بدت القربة الموسيقية خلالها معلّقة بمسمار في الجدار. وعلى المنضدة، التوراة الصغيرة التي أهداه إياها رجل مجهول هو إيبانازر، بمثابة شكر له.

المفتاح في الباب. وقد اقترب جيليات، فوضع يده عليه وأغلق الباب مرتين، ثم وضع المفتاح في جيبه، ثم ابتعد عن المنزل.

ولم يبتعد من جهة البر، بل من الجهة البحرية.

لقد اجتاز حديقته عبر زاويتيها المتقابلتين، في أقصر طريق دون أن يحتاط للمصاطب المزروعة، مع عنايته البالغة بألا يسحق الوردة التي زرعها لأن داروشات كانت تحبها.

واجتاز الحاجز ثم هبط إلى الصخور البحرية. وراح يتتبع، سائراً إلى الأمام، خط الصخور الطويل والضيق الذي كان يصل البو دو لارو بالصخرة الغرانيتية الضخمة والقائمة وسط البحر والتي كانت تسمى «قرن الحيوان». هناك كرسي «الجيلد- هولم- أوزْ».

كان يخطو من صخرة إلى أخرى كعملاق فوق القمم. والخطو على قمّة الصخور، شبيه بالسير فوق طرق السطح.

وقد نادته، صيّادة عارية القدمين في أحواض المياه على بعد قليل منه قائلة:

- « احذر، فالبحر واصل إليك».

ولكنه تابع تقدّمه.

ثم توقف حين بلغ صخرة الرأس الكبيرة، القرن. لأن اليابسة كانت تنتهي عندها.

ونظر.

كانت في عرض البحر قوارب راسية تصيد.

وكان يرى على هذه المراكب بين وقت وآخر انسياب فضي في نور الشمس هو في حقيقته موطن خروج الماء من الشباك. ولم تكن كشمير قد بلغت سان سامبسون، لقد رفعت قلعها الكبير. لقد كانت بين هارم وجاتو.

ودار جيليات حول الصخرة، فبلغ أسفل كرسي «جيلد- هولم- أوزْ» ثم تسلّقها. وكانت أكثر درجاتها تحت الماء، لا يرتفع منها عنه غير اثنتين أو ثلاث. فتسلّقها أيضاً.

وبعد أن تأمّل الكرسي قليلاً، جلس فيها، من ورائه وعورة الصخر، ومن أمامه البحر المحيط.

كانت السفينة كشمير تقترب ببطء شبح.

وجيليات ينتظر.

وفجأة لفت نظره اضطراب خفيف في البحر وإحساس بالبرد فنظر إلى أسفل. لقد كان الموج يلامس قدميه.

فخفض عينيه ثم رفعهما.

كانت كشمير شديدة القرب منه.

ثم وصلت. فانتصب واقفاً، وبدا كأنه ينمو فوق الماء. لكأنه نمو ظل من الظلال.

كادت كشمير تحاذي الصخرة تقريباً. وجيليات لا يرى منها غير زاوية تغمرها الشمس. في تلك الشمس كان إيبانازر وداروشات. كانا جالسين في ذلك الضياء. يجثمان جنباً إلى جنب، كعصفورين يتدفآن في شعاع الظهيرة.

الصمت سماوي.

ثم سمع جيليات صوت داروشات الرقيق اللطيف يقول:

- «انظر. يبدو أن في الصخرة رجلاً».

ومرّت هذه الرؤيا.

وأخذت كشمير تترك رأس البو دو لارو وراءها وتغوص في ثنيات الأمواج العميقة. وفي أقل من ربع ساعة لم تعد تبدو إلاّ كصخرة بيضاء تتضاءل على الأفق. أما جيليات فقد بلغ ماء البحر ركبتيه. كان ينظر إلى السفينة وهي تبتعد.

النسيم يرطب الجو في عرض البحر. وقد أصبحت كشمير خارج مياه غرناسي.

لكن جيليات لا يفارقها بنظراته.

وبلغ الموج حزامه.

المدّ يرتفع. والوقت يمرّ.

طيور الماء تحوِّم قلقة من حوله. حتى ليقال إنها تحاول تحذيره. ولعل بين هذه الطيور طيراً آتياً من دوفر قد تعرف عليه.

ومضت ساعة أخرى.

فتسارع تضاؤل كشمير. وبدت منطلقة بأقصى سرعتها.

لم يكن حول صخرة «جيلد- هولم - أوْزْ» أي زبد: ولم تكن تضرب الصخرة أية موجة. ولكن الماء يرتفع بهدوء. لقد بلغ كتفي جيليات تقريباً.

ثم مضت ساعة أيضاً.

والطيور ترسل صرخاتها الصغيرة نحو جيليات الذي لم يكن يبدو منه غير رأسه.

البحر يصعد برقة رهيبة.

وجيليات، جامد، ينظر إلى كشمير وهي تغيب.

كان المدّ قد بلغ أقصاه تقريباً، والمساء يقترب. ووراء جيليات بعض القوارب العائدة.

أما عين جيليات فبقيت ثابتة موصولة بالسفينة البعيدة. والعين الثابتة هذه لم تكن تشبه شيئاً مما يمكن أن نراه على اليابسة. لقد كان في تلك الحدقة المفجعة والهادئة شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. كانت هذه النظرة محتوية على كل كمية التهدئة التي يتركها الحلم غير المحقق، إنها الرضى الحزين الرهيب بخاتمة أخرى. إن هروب كوكب من الكواكب يجب أن تتبعه نظرات مماثلة. وكانت الظلمة السماوية، بين وقت وآخر تنشر تحت ذلك الحاجب الذي كانت نظرته مثبتة في نقطة من الفضاء. وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الماء اللانهائي محيطاً بصخرة «جيلد هولم أوْزْ» كان هدوء الظلام الهائل يصعد في عين جيليات العميقة.

السفينة كشمير -وقد أصبحت خفيّة تقريباً- تبدو بقعة ممتزجة بالضباب. وتمييزها يفرض على الناظر أن يعرف مكانها من البحر.

وهكذا شحب لون هذه البقعة، التي لم تعد شكلاً معيناً، شيئاً فشيئاً.

ثم تضاءلت.

ثم تبدّدت وزالت.

وفي الفترة التي أمحت فيها السفينة في الأفق، اختفى الرأس تحت الماء. ولم يبقَ بعد ذلك غير البحر.

انتهى.





فيكتور هيجو

عمّال البحر

فيكتور هيجو، صاحب الروائع من الروايات العالمية التي لا تموت، وكاتب "البؤساء" و"أحدب نوتردام" هو كاتب هذه الرواية عن الإنسان في مواجهته للطبيعة في سكونها وضجيجها، في روعتها ورعبها، بما يعيش فيها من كائنات لطيفة أو شياطين مخيفة، بما فيها من عناية إله عظيم، ومن ألسنة من نار وأشداق فاغرة لحيوانات اللعنة والغضب الإلهي.

إن رواية" عمال البحر" هي قصّة المعجزة الإلهية في وجه من وجوه الخلود الإلهي الساحر. وهي قصّة الحضارة التي وضعتها يد الله وتركت للإنسان أن يختار دوره فيها، وأشاعت فيها الحركة إرادة الله الفائقة.

هكذا تتحرك في هذه القصّة الحياة القوية النابضة الصادقة في كل ما تمسّه يد الإنسان أو تتصل به روحه أو يحيط به خياله..





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma www.ccaedition.com

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com

روايات عالمية ISBN 9953-63-479-3

